

تيسير العلي القدير

لاختصار
تفسير ابن كثير

اختصره وعلّمه عليه وأخذناه أصحّ رواياته
محمد نسيب الرفاعي

المجلد الثالث

مكتبة المعارف
الرياض

حقوق الطبع محفوظة

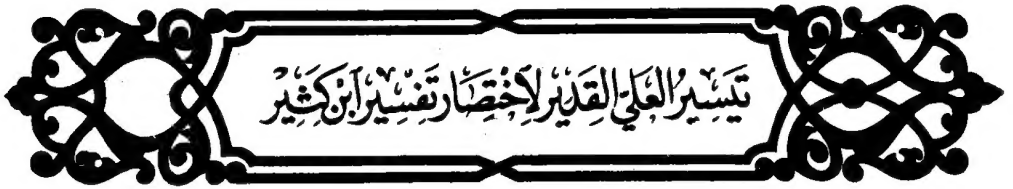
طبعة جديدة

١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

مكتبة المعارف - ص.ب: ٣٢٨١ - هاتف ٤٠١٣٧٠٨ - ٤٠٣٣٩٧٩

الرياض - المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



تَيْسِيرُ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ لِاخْتِصَارِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ

إِخْتَصَرَهُ وَعَلَّنَ عَلَيْهِ وَاخْتَارَ أَمَحُّرَ رِوَايَاتِهِ

مُحَمَّدُ نَسِيبُ الرَّفَاعِيِّ

(١٧) سُورَةُ الْإِسْرَاءِ مَكِّيَّةٌ وَأَيُّهَا الْخَلْدِيُّ عَشْرَةٌ وَمِائَةٌ

إِلَّا الْآيَات ٢٦ ، ٣٢ ، ٥٧ ، وَمِنْ آيَةِ ٧٣ - ٨٠ فَمَدَنِيَّةٌ نَزَلَتْ بَعْدَ الْقَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى
الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ * (١)

يَعْبُدُ تَعَالَىٰ نَفْسَهُ ، وَيَعْظُمُ شَأْنَهُ ، لِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاهُ ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ أَيَّ فِي اللَّيْلِ ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وَهُوَ مَسْجِدُ مَكَّةَ ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ وَهُوَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ الَّذِي بِالْقُدْسِ ، مَعْدَنُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ لَدُنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلِهَذَا جُمِعُوا لَهُ هُنَاكَ فَأَمَّهُمْ فِي مَحَلَّتِهِمْ وَدَارِهِمْ ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ وَالرَّئِيسُ الْمَقْدَمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أَيَّ فِي الزَّرْعِ وَالثَّمَارِ ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أَيَّ مُحَمَّدًا ﴿مِنَ آيَاتِنَا﴾ أَيُّ الْعِظَامِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ وَسَنَذْكُرُ مِنْ ذَلِكَ - مَا يَسِرُّهُ اللَّهُ - كَمَا وَرَدَتْ بِهِ السَّنَةُ مِنْ الْأَحَادِيثِ عَنْهُ ﷺ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أَيُّ السَّمِيعِ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ ، مُصَدِّقُهُمْ وَمُكَذِّبُهُمْ ، الْبَصِيرُ بِهِمْ فَيُعْطِي كُلَّ مَنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ذكر الأحاديث المتيسرة في الإسراء :

في صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : ١ [أتيتُ بالبراق وهو دابةٌ ^(١) ابيضُ طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه. قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس. قال فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء. قال ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل ﷺ اخترت الفطرة ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما فرحبا ودعوا لي بخير ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد ﷺ قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قال وقد بعث إليه قال قد بعث إليه فإذا أنا بإدريس فرحب ودعا لي بخير قال الله عز وجل : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون ﷺ فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام ، قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل قد بعث إليه قال قد بعث إليه فإذا أنا بموسى ﷺ فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد ﷺ قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال قال فلما غشيها من أمر الله ما غشي ، تغيرت فمسا

(١) قلت : ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى رواية البخاري وفيها شريك بن عبد الله بن أبي نمر وهو ليس بالقوي ووهاه ابن حزم فانه اضطرب في هذا الحديث وساء حفظه ولم يضبطه وقال مسلم : فزاد ونقص وقدم وأخر . ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ عن حماد بن سلمة بهذا السياق وهو أصح من سياق شريك ولذا ضربنا صفحاً عن الأخذ برواية شريك وأثبتنا بدلا عنها رواية مسلم كما هو أعلاه .

أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوحى الله إليّ ما أوحى ففرض عليّ خمسين صلاةً في كل يوم وليلة فنزلت إلى موسى ﷺ فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم قال فرجعت إلى ربي فقلت يا رب خفف على أمتي فحطّ عني خمسا فرجعت إلى موسى فقلت حطّ عني خمسا قال فإن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف قال فلم أزل ارجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال يا محمد أنهم خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرًا ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا فإن عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه .

وفي رواية الإمام أحمد عن قتادة يحدث عن انس بن مالك أن مالك بن صعصعة حدثه ... فذكر الحديث إلى أن قال ﷺ : ٢ ... [ثم رفعت إلى سدره المنتهى ، فإذا نبقتها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة فقال هذه سدره المنتهى ، قال وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات — قال — ثم رفع إلى البيت المعمور] وفي رواية قتادة عن أبي هريرة ٣ : [... قال — قلت قد سألت ربي حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلم فنفذت فنادى مناد قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي] وأخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة بنحوه .

وفي رواية البخاري في كتاب الصلاة : ٤ [... ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدره المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي ، ثم أدخلت الجنة ، فإذا فيها جبال الأولو وإذا ترابها المسك] . وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال ٥ [سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أتى أراه »] وعن محمد بن بشار بسنده إلى عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبي ذر ٦ [لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته ، فقال : عن أي شيء كنت تسأله ؟ قال : كنت أسأله : هل رأيت ربك ؟ قال أبو ذر : قد سألت فقال « رأيت نورا »] وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي في حديث شريك زيادة تفرد بها ، على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل يعني قوله : ثم دنا الجبار رب العزة فتدلتي فكان قاب قوسين أو أدنى . قال وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآية على رؤيته جبريل أصح . وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو

الحق . وقوله تعالى ﴿ثم دنا فتدلى﴾ إنما هو جبريل عليه السلام كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين ، وعن أبي مسعود وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة ، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية .

وفي صحيح مسلم : قال ابن شهاب وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان قال رسول الله ﷺ : ٧ [ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقدام] .

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول . ٨ [لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس ، قمّت في الحجر فجلّني الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه] أخرجاه في الصحيحين .

وقال ابن شهاب قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : ٩ [فتجهز ، - أو كلمة نحوها - ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا : هل لك في صاحبك يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة ؟ فقال أبو بكر : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم قال فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا : فتصدقه في أن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح ؟ قال نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء ، قال أبو سلمة : فيها سمي أبو بكر الصديق] .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ١٠ [« لما كان ليلة أسري بي ، فأصبحت بمكة فظعت وعرفت ان الناس مكذبي » فقعد معتزلاً حزينا ، فمرّ به عدو الله أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ : هل كان من شيء ؟ فقال له رسول الله ﷺ « نعم » قال : وما هو ؟ قال : « اني أسري في الليلة » قال إلى أين ؟ قال : « إلى بيت المقدس » قال : ثم أصبحت بين ظهرائنا ؟ قال : « نعم » قال فلم ير أن يكذبه مخافة أن يمحّد الحديث إن دعا قومه إليه فقال : أرأيت ان دعوت قومك أتحدّثهم بما حدثني ؟ فقال رسول الله ﷺ « نعم » فقال : يا معشر بني كعب بن لؤي ، قال فإنفضت اليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما قال : حدث قومك بما حدثني ، فقال رسول الله ﷺ « إني أسري في الليلة » فقالوا : إلى أين . قال : « إلى بيت المقدس » قالوا : ثم أصبحت بين ظهرائنا قال : « نعم » قال فمن بين مصفّق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب . قالوا : وتستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ وفيهم من سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد ، فقال رسول الله ﷺ : « فما زلت

أنعت حتى التبس علي بعض النعت - قال : « فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل - أو عقال - فنعته وأنا أنظر إليه قال وكان مع هذا نعت لم أحفظه فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب فيه » [وأخرجه النسائي من حديث عوف ابن أبي جميلة وهو الأعرابي أحد الأئمة الثقات ورواه البيهقي من حديث النضر بن شميل بن عوف .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
 ١١ [« لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله إلي أنظر إليه ، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء ، وإذا موسى قائم يصلي ، وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به صاحبكم - يعني نفسه - فحانت الصلاة فأمتهم ، فلما فرغت قال قائل : « يا محمد هذا مالك خازن جهنم فالتفت إليه فبدأني بالسلام »] .

﴿ فصل ﴾ : وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث ^(١) يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، وإن اختلفت عبارات الرواة ، ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة ، فأثبت اسرأت متعددة ، فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مهرب ، ولم يتحصل على مطلب . وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ، ومرة من مكة إلى السماء فقط ، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء ، وفرح بهذا المسلك ، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات ، وهذا بعيد جداً ولم ينقل هذا عن أحد من السلف ؛ ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته ، ولنقله الناس على التعدد والتكرار .

روى موسى بن عقبة عن الزهري : كان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، وكذا قال عروة وقال السدي : بسنة عشر شهراً . والحق أنه عليه الصلاة والسلام أسري به يقظة لا مناماً من

(١) قلت : لقد أورد الحافظ ابن كثير أحاديث مختلفة الدرجات صحة وضعفا ولكن انتقينا لك يا أخي القاريء المسلم ما صح منها كما هو مبين في محله ، بما يؤكد لك أن الاسراء والمعراج كان حقيقة لا خيالاً ويقظة لا مناماً وبجسمه وروحه معاً والله الحمد على توفيقه .

مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد، ربط الدابة عند الباب ودخله، فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فلتقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة ثم جاوز منزلتيهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام أي أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدره المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة، وغشيها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستائة جناح، ورأى رفقاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه، لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ثم خففها إلى خمس رحمةً منه، ولطفاً بعباده وفي هذا اعتناءً عظيم بشرف الصلاة وعظمتها.

ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ومن الناس من يزعم أنه أممهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناح العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع به هو وإخوانه من النبيين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة من جبريل عليه السلام له في ذلك.

ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم. ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء بيدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط؟ على قولين: فالأكثر من العلماء على أنه أسري بيدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكرون أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً ثم رآه بعده يقظة، لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح - ثم وقع الإسراء والمعراج يقظة وحقيقة بعد ذلك - والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾ فالتسبيح إنما يكون عند

الأمر العظام ، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ، ولم يكن مستعظماً ، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه ، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم ، وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد ، وقد قال تعالى : ﴿ أسرى بعبد ليلاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ قال ابن عباس : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به. رواه البخاري. وقال تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ والبصر من آلات الذات لا الروح ، وأيضاً ، فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براق لها لمعان ، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح ، لأن الروح لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه ، والله تعالى أعلم .

فائدة حسنة جليلة :

روى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب دلائل النبوة عن طريق محمد بن عمر الواقدي عن محمد بن كعب القرظي ما خلاصته : لما استدعى هرقل أبا سفيان وسأله عن رسول الله ﷺ وجهه أن يحقر أمره وقال : أيها الملك ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب ؟ قال وما هو ؟ قال قلت إنه يزعم انه خرج من أرضنا أرض الحرم ، في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد ايلياء ، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح قال وبطريق ايلياء عند رأس القيصر ، فقال بطريق ايلياء قد علمت تلك الليلة قال ، فنظر إليه القيصر وقال : وما علمك بهذا ؟ قال : إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبي فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرنى كلهم فعالجته ، فغلبن فلم نستطع أن نحركه كأنما نراول به جبلاً ، فدعوت اليه النجاجة فنظروا اليه فقالوا : إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنان ، ولا نستطيع ان نحركه حتى نصبح ، فننظر من أين أتى . قال فرجعت وتركت البابين مفتوحين . فلما أصبحت غدوت عليهما ، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب وإذا فيه أثر مريط الدابة ، قال فقلت لأصحابي ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي ، وقد صلى الليلة في مسجدنا ... وذكر تمام الحديث .

فائدة : قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية : وقد تواترت الروايات في حديث

الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد ، وابن عباس ، وشداد بن أوس ، وأبي بن كعب ، وعبد الرحمن بن قرط ، وأبي حبة وأبي ليلي الأنصاريين ، وعبد الله بن عمر وجابر وحذيفة وبريدة

وأبي أيوب وأبي أمامة ، وسمرة بن جندب وأبي الخمراء ، وصهيب الرومي وأم هانئ وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين . فحدث الإسراء أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿ يريدون ليطفثوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾ (٢) ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿ (٣) ﴾

كثيراً ما يقرن تعالى بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام وبين ذكر التوراة والقرآن ولهذا قال بعد ذكر الاسراء : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعني التوراة ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أي الكتاب ﴿ هُدًى ﴾ أي هادياً ﴿ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أن لا تتخذوا ﴿ أي لثلاث ﴾ تتخذوا ﴿ مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾ أي ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً من دوني ، لأنه تعالى أنزل على أنبيائه جميعاً أن يعبدوه وحده لا شريك له .

ثم قال تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ تقديره أي يا ذرية من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ ، إنما سمي عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله . قاله الطبراني عن سعد بن مسعود الثقفي الامام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٢ [ان الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها] وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي . وقد ذكر البخاري هنا حديث أبي زرعة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ١٣ [أنا سيد ولد آدم يوم القيامة - بطوله وفيه - : : فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح إنك أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً فأشفع لنا إلى ربك . وذكر الحديث بكماله .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ﴾ (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا

مَفْعُولًا • (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا • (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا • (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُثِرْتُمْ عُذْنًا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا • (٨) ﴿٨﴾

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب ، أي تقدم إليهم وأخبرهم في التوراة أنهم سيفسدون في الأرض مَرَّتَيْنِ ويعلون علوًّا كبيراً أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ أي أولى الإفسادتين ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي قوة وعدة ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ أي تملكوا بلادكم وسلخوا خلال بيوتكم أي بينها ووسطها ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ أي كان وعد هذا اليوم واقعاً لا محالة وكائنات لا محيد عنه . وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة أنه جالوت الجزري وجنوده ، سلط عليهم أولاً ، ثم أديلوا عليه بعد ذلك وقتل داود جالوت ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية وعن سعيد بن جبير أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده وعنه وعن غيره أنه يختصر ملك بابل وقد وردت في هذا آثار كثيرة اسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها . وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم ، واقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا ، سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أي فعلها كما قال سبحانه : ﴿ ... وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلِيَهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي الكرة الآخرة أي أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أي يهينوكم ويقهروكم ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ أي بيت المقدس

(١٧ - الإسراء - ج ١٥) : القرآن يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل وبشّر المؤمنين ١٣

﴿ كما دخلوه أول مرة ﴾ أي التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿ وليتبرّوا ﴾ أي يدمروا ويخربوا ﴿ ما علوا ﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿ تنبيراً ﴾ عسى ربكم أن يرحمكم ﴿ أي فيصرفهم عنكم ﴾ ، ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ أي متى عدتم إلى الإفساد ﴿ عدنا ﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ أي مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه وقال قتادة : قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي محمد ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يديهم وهم صاغرون ^(١) .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١٠)

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ، وهو القرآن بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل ، ويبشّر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه أن لهم أجراً كبيراً أي يوم القيامة وان الذين لا يؤمنون بالآخرة أي ويبشّر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذاباً أليماً ، أي يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ .

﴿ وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ (١١)

يخبر تعالى عن عجلة الانسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله

(١) قلت : ولقد عاد بنو إسرائيل في زماننا هذا إلى إفسادهم ، ولكن في هذه المرة لم يكن أمامهم أمة تتقي الله تعالى وتحكم فيها حكومة وأمة وأفراداً بما أنزل الله في جميع شؤونها بل رأى اليهود أمامهم غشاء كثفاء السيل فغلبوهم غلبة منكرة وما ذلك إلا لأن الله تعالى نظر إلى هذه الأمة التي تدعي أنها أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإذا بها أبعد ما تكون عن دين محمد وتعاليم محمد : فمقتها وسلط عليها من هم أقدر الأمم وأنجس الشعوب لتعتبر وتعود إلى منطلقها الأول يوم نادى رسولها محمد صلى الله عليه وسلم بلا إله إلا الله محمد رسول الله ، فان عادت إلى ذلك المنطلق ، أعاد الله لها مكانتها ومجدها وحررها ... لا من اليهود فحسب ، بل من كل سلطة وراء اليهود ... !!! وجعلها كما كانت خير أمة أخرجت للناس .

بالشر أي بالموت والهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه كما قال تعالى ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾ وكذا فسره ابن عباس وغيره وقد تقدم في الحديث : ١٤ [لا تدعوا على أنفسكم ، ولا على أموالكم ان توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها] وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصيلاً ﴾ (١٢)

يَمُنُّ تعالى على خلقه بآياته العظام فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل ، ويتشروا في النهار للمعاش والأعمال والأسفار ، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام ، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والاجارات وغير ذلك ، ولهذا قال : ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ أي في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك ، ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً لما عرف شيء من ذلك كما قال تعالى : ﴿ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ قال ظلمة الليل وسدف النهار قاله عبد الله بن كثير وقال مجاهد : الشمس آية النهار والقمر آية الليل .

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً ﴾ (١٣) ﴿ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ (١٤)

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ وطائره هو ما طار عنه من عمله ؛ كما قال ابن عباس ومجاهد

وغيرهما من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه وكما يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ ومكتوب في قوله تعالى : ﴿ وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ أي نجمع له عمله في كتاب يعطاه يوم القيامة إما بيمينه إن كان سعيداً ، أو بشماله إن كان شقيماً ، منشوراً أي مفتوحاً يقرأه هو وغيره فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أي إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت ، لأنك ذكرت جميع ما كان منك ، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه ، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأُمِّي . وقوله تعالى : ﴿ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ إنما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد ، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه . قال معمر ، وتلا الحسن البصري : ﴿ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشَّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك ، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثره حتى إذا مَتَّ طَوَيْتَ صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ، إقرأ كتابك ... الآية فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك . هذا من أحسن كلام الحسن ، رحمه الله .

﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١٥)

ينخر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق ، واقتفى أثر النبوة ، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ أي عن الحق ، وزاغ عن سبيل الرشاد فانما يجني على نفسه ، والوبال عليها ؛ ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد . كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلٍ لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ ولا ينافيه قوله تعالى : ﴿ وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم ، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك ، ولا يحمل عنهم شيئاً ، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده وكذا قوله تعالى :

﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ إخبار عن عدله تعالى ، وأنه « لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بارسال الرسول إليه ، كقوله تعالى : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴾ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلالٍ كبير ﴾ .

(١) قلت : الحمد لله الذي قال « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ولم يقل حتى نبعث نبياً رسولاً ؟ لأنه يمكن أن يكون رسول غير نبي ، وإليك البيان : لا شك مطلقاً في ختم النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الرسالة المبنية على نبوة ، والمعنى أنه لم يعد نبي أو رسول نبي ، بعد محمد صلى الله عليه وسلم . والمعلوم أن النبوة هي تبليغ رجل من البشر بواسطة جبريل عليه السلام بأن الله اختاره نبياً وكلفه بشرع خاص به أما الرسول فهو النبي المكلف بشرع لنفسه ولقومه أو للناس كافة . فإذا قلنا قد انقضى زمن النبوات والرسالات بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ هل يعني ذلك أنه انقضى أيضاً زمن التبليغ ؟ الجواب : لا فالتبليغ قائم لن ينقطع حتى يوم القيامة ، والمبلغون الحقيقيون هم الذين يوصلون شرع محمد صلى الله عليه وسلم كاملاً تاماً إلى الناس ، أو يحدّدون للأمة أمر دينها على ما كان في زمن محمد صلى الله عليه وسلم فخرج بذلك تبليغ غير شرع محمد صلى الله عليه وسلم أو العمل به إذ كل شرع وكل عمل وكل هدي لا يستند إلى شرع وعمل وهدي محمد صلى الله عليه وسلم فهو رد ... فإذا فهم هذا تبين أن كل من حمل هذه الشريعة المحمدية ، إلى أقوام لم تبليغهم من قبل ... وبلغوهم إياها فهم حجة عليهم يوم القيامة ... بل وعلى كل من يسمعون بالدعوة أو يبلغونها ... فإذا علم أن الداعين هم حجة على المدعوين ... تبين واضحاً معنى قوله تعالى : « حتى نبعث رسولا » إذا فالرسول المعنى في هذه الآية هو الرسول النبي ، والرسول غير النبي ، إذ كل من حمل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليبليغوها فهم رسل إليهم ، وسيحذّبون إن لم يتبعوهم . وكذلك شأن الذين يرسلهم الأنبياء والرسل إلى أقوام آخرين ... أو من يعلم شريعة النبي ويبليغها لمن تصلهم إن في حياة النبي أو بعدها داخلون تحت معنى الآية المتقدمة كحوار يبي عيسى عليه السلام وكالحفقاء الذين كانوا يبلغون دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وقسرين ساعدة الأيادي وغيرهم . ولنضرب لك مثلاً موضعاً وهو : لو أنك يا أخي القاريء المسلم ذهبت إلى أقوام لم يبلغوا الإسلام فقامت أنت بتبليغهم الرسالة فمنهم من اتبعك ، ومنهم من غصاك وبقي على كفره ووثنيته ، فإذا قام يوم الحساب وقضى الله تعالى على من لم يتبعك منهم بالعذاب فدافعوا عن أنفسهم وقالوا : يا ربنا لم ترسل إلينا رسولا يبلغنا الدعوة وأنت قلت يا رب في كتابك : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وأنت لم تبعث لنا رسولا فإذا قال لهم : كذبتم بل أرسلت إليكم فلا فلاً وسماك واستقدمك شاهدها عليهم بأنك بلغتهم فشهدت بما قمت من التبليغ ، ألا تكون أنت حجة عليهم ... ؟ ثم إذا عذبهم الله ، إلا يكون ذلك عدلاً ؟ أجل ... إنه العدل بعينه ... وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفُسهم يظلمون وانقطعت حججهم وقامت حجة الله عليهم ... بإلهام الله لك بالذهاب إليهم ودعوتهم إلى الإسلام وقد ذهبت وبلغت وقامت بك حجة الله ، إذا فأنت الرسول الذي بك أمن الطائعون منهم من العذاب والرسول الذي بك حق العذاب على العصاة فأنت شك رسول الدعوة إليهم . وكذلك إذا وصلهم كتاب يشرح لهم الإسلام فهو رسول لهم ، أو سمعوا بالمذيع عن الإسلام والمقيدة الإسلامية ، فكل ذلك تقوم به الحجة . إذن ... فأنت رسول ... والكتاب رسول ... وصوت المذيع رسول ... بمعنى مبلغ الرسالة والله تعالى أعلم .

وأما ما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ١٥ [« اختصمت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال : « وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحداً وأنه ينشئ للنار خلقاً فيلقون فيها فتقول هل من مزيد ؟ ثلاثاً] وذكر تمام الحديث فهذا إنما جاء في الجنة لأنها ، دار فضل ؛ وأما النار فإنها دار عدل لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه . وقد تكلم جماعة من الحفاظ في هذه اللفظة وقالوا : لعله انقلب على الراوي بدليل ما أخرجه في الصحيحين ، واللفظ للبخاري من حديث عبد الرزاق بن معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : تحاجت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال : ١٦ [... فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع فيها قدمه فتقول : قط قط ، فهناك تمتلئ ويتزوي بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً ...]

وهناك مسألة اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى قديماً وحديثاً فيها وهي: الولدان الذين ماتوا صغاراً وآباؤهم كفار : ماذا حكمهم ؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ومن مات في الفترة ولم تبلغه الدعوة فقد ورد في شأنهم أحاديث نذكرها بعون الله وتوفيقه ثم نذكر ملخصاً من كلام الأئمة في ذلك والله المستعان .

روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ قال : ١٧ [أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في فترة فأما الأصم فيقول : رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول : رب قد جاء الاسلام والصبيان يخذفوني بالعر ، وأما الهرم فيقول : رب لقد جاء الاسلام وما أعقل شيئاً ، وأما الذي مات في الفترة فيقول رب ما أتاني لك رسول . فيأخذ مواعيقهم ليطيعنهم فيرسل اليهم أن ادخلوا النار فوالذي نفس محمد بيده ، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً] . وبالاسناد عن قتادة إلى أبي هريرة مثله غير أنه قال في آخره ١٨ (« ... فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ومن لم يدخلها يسحب إليها ») روى الحافظ ابو يعلى الموصلي عن البراء بن عازب قال : ١٩ [سئل رسول الله ﷺ عن اطفال المسلمين قال : هم مع آبائهم وسئل عن أولاد المشركين فقال : « هم مع آبائهم » فقل يا رسول الله ما يعملون ؟ قال : « الله أعلم بهم »] .

روى هشام بن عمار بسنده إلى معاذ بن جبل عن نبي الله ﷺ : ٢٠ [« يؤتى يوم القيامة بالمسوخ عقلاً وبالهالك في الفترة . وبالهالك صغيراً ، فيقول المسوخ : يا رب لو أتيتني عقلاً ما كان من آتيتني عقلاً بأسعد مني » وذكر في الهالك في الفترة والصغير

نحو ذلك فيقول الرب عز وجل إني آمركم بأمر تطيعوني ؟ فيقولون نعم ، فيقول : اذهبوا فادخلوا النار قال : ولو دخلوها ما ضرهم ، فتخرج عليهم قوابص فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء ، فيرجعون سراعاً ، ثم يأمرهم الثانية ، فيرجعون كذلك ، فيقول الرب عز وجل قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون ، وعلى علمي خلقتكم ، وإلى علمي تصيرون ، ضميمهم ، فتأخذهم النار » [.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه أن رسول الله ﷺ قال : ٢١ [كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟] وفي رواية قالوا : ٢٢ [يا رسول الله ، أفرأيت من يموت صغيراً ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين »] .

روى الإمام أحمد عن موسى بن داود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما أعلم - شك موسى - قال ٢٣ [ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم ابراهيم عليه السلام] وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل انه قال : ٢٤ [اني خلقت عبادي حنفاء] وفي رواية : (مسلمين) .

روى الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه المستخرج على البخاري من حديث عوف الأعرابي بسنده إلى سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٢٥ [كل مولود يولد على الفطرة فناداه الناس : يا رسول الله ، وأولاد المشركين ؟ قال « وأولاد المشركين »] روى الطبراني عن سمرة قال : ٢٦ [سألتنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال « هم خدم أهل الجنة »] .

روى أحمد عن خنساء بنت معاوية عن بني صويم قالت : حدثني عمي قال قلت : ٢٧ [يا رسول الله من في الجنة ؟ قال : النبي في الجنة ، والشهيد في الجنة ، والمولود في الجنة ، والوثيد في الجنة] .

فمن العلماء من ذهب إلى الوقوف فيهم لهذا الحديث ، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري ٢٨ [انه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان فقال له جبريل : هذا ابراهيم عليه السلام وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين ، قالوا : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ قال : « نعم وأولاد المشركين »] ومنهم من جزم لهم بالنار لقوله عليه السلام « هم مع آبائهم ومنهم من ذهب أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات ،

(١٧- الاسراء - ج ١٥): كَذَّبَ الْمُشْرِكُونَ أَشْرَفَ الرُّسُلِ، فَصَارَ وَأَوَّلَى بِالْعُقُوبَةِ مِمَّنْ سَبَقَهُمْ ١٩

فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة ومن عصى دخل النار داخراً وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة . هذا القول يجمع بين الأدلة كلها ، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض ، وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة ، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الاعتقاد ، وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد . وليعلم أن الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء في أنهم من أهل الجنة ، وهذا هو المشهور وهو الذي تقطع به ان شاء الله عز وجل .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا ﴾ (١٦)

اختلف القراء في قراءة قوله تعالى : ﴿ أَمَرْنَا ﴾ فالمشهور قراءة التخفيف والمعنى : أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش ، فاستحقوا العقوبة رواه ابن جريج عن ابن عباس .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (١٧)

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسول من بعد نوح ودل هذا على ان القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام كما قاله ابن عباس ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى . وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أي هو عالم بجميع أعمالهم : خيرها وشرها لا يخفى عليه خافية سبحانه وتعالى .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ

الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ
مَشْكُورًا ﴿١٩﴾

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل عليه ، بل إنما يحصل لمن أراد الله و ما يشاء وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات ، فانه قال عز وجل ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ يصلها ﴾ أي يدخلها حتى تغمره ﴿ مذموماً ﴾ من سوء تصرفه وصنيعه ، إذ اختار الفاني على الباقي ﴿ مدحوراً ﴾ مقصياً حقيراً مهاناً .

روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :
٢٩ [الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له]
وقوله تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة ﴾ أي أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور
﴿ وسعى لها سعيها ﴾ أي طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿ وهو مؤمن ﴾
أي قلبه مؤمن أي مصدق بالشواب والجزاء ﴿ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ .

﴿ كَلَّا نُمَدِّدُ هُوْلَاءَ وَهَوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ
عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (٢٠) أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا
الآخرة نمدهم فيما فيه ﴿ من عطاء ربك ﴾ أي يعطي كلاً ما يستحقه من السعادة
والشقاوة ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ أي ممنوعاً ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على
بعض ﴾ في الغنى والفقر والحسن والقبح ، ومن يموت صغيراً ومن يعمر حتى يشيخ وما
بين ذلك ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ أي لتفاوتهم في الدار الآخرة ،
فمن يكون في دركات جهنم وأغلاها ومن يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها
ثم أهل الدرجات يتفاوتون كما أهل الدرجات يتفاوتون ، فإن الجنة مائة درجة ، وما بين
كل درجتين كما بين السماء والأرض وفي الصحيحين ٣٠ : [ان أهل الدرجات
العلی لیرون أهل علین كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء] ولهذا قال تعالى :

﴿ ولِلآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ (٢٢) ﴿

المراد المكلفون من الأمة فيقول تعالى : لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك شريكاً له ﴿ فتقعُد مذموماً ﴾ أي على إشراكك به ﴿ مخذولاً ﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرُك بل يكلِّك إلى الذي عبدت معه ، وهو لا يملك لك ضرراً ولا نفعاً ، لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له وقد روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٣١ [من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما أجلاً ، وإما غنى عاجلاً] .



﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (٢٣) ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (٢٤) ﴿

يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له ، فان القضاء هاهنا بمعنى الأمر ولهذا قرن بعبادته برَّ الوالدين ، فقال سبحانه : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أي وأمر بالوالدين إحساناً كقوله تعالى : ﴿ أنزله لي ولوالديك إلى المصير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما قولا سيئاً حتى التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء ﴾ ولا تنهرهما ﴿ أي لا تفعل قبيحاً معهما ، ولا تفض يدك عليهما ، ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح ، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال عز من قائل : ﴿ وقل لهما قولا كريماً ﴾ أي ليناً حسناً طيباً بتأدب وتوقير وتعظيم ، ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ أي تواضع لهما بفعلك ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ أي ارحمهما في كبرهما وعند وفاتهما قال ابن عباس : ثم أنزل الله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ .

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها الحديث المروي عن أنس وغيره من طرق : ٣٢ [ان النبي ﷺ صعد المنبر ثم قال « آمين آمين آمين » قيل يا رسول الله علام ما أمنت ؟ قال « أتاني جبريل فقال : يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك قل آمين فقلت آمين ثم قال رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له ، قل : آمين ، فقلت آمين ثم قال رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخله الجنة ، قل آمين ، فقلت آمين »] .

روى الإمام أحمد عن أبي أسيل وهو مالك بن ربيعة الساعدي قال : ٣٣ [بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول هل بقي علي من بر أبوي شيء بعد موتها أبرهما به ؟ قال : « نعم خصال أربع : الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقيهما ، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما ، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتها »] ورواه ابو داود وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن سليمان وهو ابن الغسيل به .

• روى الإمام أحمد عن معاوية بن جهمه : ٣٤ [جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أردت الغزو وجئتك استشيرك فقال : « هل لك من أم » قال نعم قال : « فالزمها فان الجنة عند رجلها » ثم الثانية ثم الثالثة في مقاعد شتى كمثل هذا القول .] ورواه عن المقدم بن معد يكرب عن النبي ﷺ قال ٣٥ [إن الله يوصيكم بآبائكم ان الله يوصيكم بأمهاتكم ان الله يوصيكم بأمهاتكم . ان الله يوصيكم بأمهاتكم ، ان الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب » .] واخرجه ابن ماجه .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ (٢٥)

قال سعيد بن جبیر : هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه لا يريد إلا الخير بذلك أي في نيته وقلبه لا يريد إلا الخير ، فقال تعالى ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ أي للذين يصيبون الذنب ثم يتوبون ، ويصيبون الذنب ثم يتوبون قاله سعيد بن المسيب . وقال عبد الرزاق عن عبيد بن عمير قال : كنا نعد الأبواب الحفيظ أن يقول اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا . قال ابن جرير : هو التائب من الذنب ، الرجاء من المعصية إلى الطاعة ، وهذا الذي قاله هو الصواب ، لأن الأبواب مشتق من الأب وهو الرجوع قال تعالى :

(١٧ - الإسراء - ج ١٥) : لا تَبْذُرْ وَصَلَ الْأَقْرَبِ فَأَلْأَقْرَبِ ، وَعِدْ خَيْرًا مِنْ لَمْ تَعْطِهِ ٢٣

﴿ إِنَّا إِنَّا إِيَّاهُمْ ﴾ وفي الحديث الصحيح [ان رسول الله ﷺ كان اذا رجع من سفر قال : ٣٦ [آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون] .

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا ﴾ (٢٦) إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿ (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿ (٢٨) ﴿

لما ذكر الله تعالى بر الوالدين عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام وفي الحديث : ٣٧ [أمك وأباك ثم أدناك أدناك] وفي رواية : (ثم الأقرب فالأقرب) وفي الحديث ٣٨ [من أحب أن ييسط له في رزقه وينسأله في أجله فليصل رحمه] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا ﴾ لما أمر بالأنفاق ، نهى عن الإسراف فيه بل يكون وسطاً كما قال عز من قائل : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ ثم قال منفرأ من التبذير والسرف : ﴿ ان المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ أي اشباههم في ذلك في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ أي جحوداً لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته بل أقبل على معصيته ومخالفته قال ابن مسعود : التبذير الأنفاق في غير حق وكذا قال ابن عباس . وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الآية أي إذا سألك أقاربك ومن أمرك باعطائهم وليس عندك شيء واعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾ أي عدهم وعداً بسهولة ولين ، إذا جاء رزق الله فسنصلكم ان شاء الله كما فسر ذلك مجاهد وعكرمة وغير واحد .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ

فَتَقْعَدَ مَلُومًا مَخْسُورًا ﴾ (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ

وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿ (٣٠) ﴿

يأمر تعالى بالاقتصاد في العيش ويذم البخل ، وينهي عن السرف : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ أي لا تكن بخيلاً لا تعطي أحداً شيئاً ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق ، فتعطي فوق طاقتك ؛ فتقع إن بخلت ملوماً يلومونك ويذمونك ومتى بسطت يدك فوق طاقتك ، قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير وهي الدابة التي عجزت عن المسير فوقفت ضعفاً وعجزاً ، فإنها تسمى الحسير ، وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ يقول : ٣٩ [مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع] هذا لفظ البخاري في الزكاة .

وفي الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قال رسول الله ﷺ ٤٠ [أنفقي هكذا وهكذا ولا توعي فيوعي الله عليك ولا توكي فيوكي الله عليك] وفي لفظ (ولا تحصي فيحصي الله عليك) . وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٤١ [ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً] وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً : ٤٢ [ما نقص مال من صدقه ، وما زاد الله عبداً أنفق إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه الله .

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ٤٣ : [ما عال من اقتصد] وقوله تعالى : ﴿ إن ربك يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء ، فيغني من يشاء ، ويفقر من يشاء بحسب حكمته . ولهذا قال جل وعلا : ﴿ إنه كان لعباده خبيراً بصيراً ﴾ أي بمن يستحق الغنى ، ويستحق الفقر . كما جاء في الحديث : ٤٤ [إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه] وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً ، والفقر عقوبة ، عياداً بالله من هذا وهذا .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ
إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ (٣١)

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده لأنه نهي عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث ، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته ، فنهى الله عن ذلك وقال جل وعلا : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ أي مخافة أن تفترقوا في ثاني الحال ، ولهذا قدّم الاهتمام برزقهم فقال جل جلاله : ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴾ أي ذنباً عظيماً . وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قلت : ٤٥ [يا رسول أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » قلت : ثم أي ؟ قال : « ان تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت : ثم أي قال : « أن تزاني بحليلة جارك »]

﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (٣٢)

يقول تعالى تاهياً عباده عن الزنى وعن مقاربتة ومخالطة أسبابه ودواعيه ... ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة ﴾ أي ذنباً عظيماً ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أي وبئس طريقاً ومسلكاً . وقد قال الإمام أحمد عن أبي أمامة : ٤٦ [ان فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي بالزنى فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا : مه مه ؛ فقال « أدنه » فدنا منه قريباً ، فقال : « اجلس » فجلس فقال « أتجبه لأمك » قال : لا والله جعلني الله فداك قال : « ولا الناس يحبونه لأمهاتهم » . قال أفتجبه لابنتك ؟ قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لبناتهم » . قال « أفتجبه لأختك ؟ » قال لا والله جعلني الله فداك قال « ولا الناس يحبونه لأخواتهم .. » قال « أفتجبه لعمتك » ؟ قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لعماتهم » ، قال « أفتجبه لخالتك » قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لخالاتهم » قال فوضع يده عليه وقال : « اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه ، وأحصن فرجه » قال فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .]

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ (٣٣)

نهى تعالى عن قتل النفس بغير حق شرعي كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٤٧ [لا يخل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة] . وفي السنن : ٤٨ [لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم .] وقوله تعالى : ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ أي سلطنة على القاتل ، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله فوراً ، وإن شاء عفا عنه على الدية ، وإن شاء عفا عنه مجاناً ، كما ثبت ذلك بالسنة وقوله تعالى : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ قالوا : معناه فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل . وقوله تعالى : ﴿ إنه كان منصوراً ﴾ أي أن الولي منصور على القاتل شرعاً وغالباً وقدرأ .

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوتُمْ بِالْقِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

يقول تعالى : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ أي لا تنصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : ٤٩ [يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرن على اثنين ، ولا تولين مال يتيم] وقوله تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ أي الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها فإن العهد والعقد كل منهما يُسأل صاحبه عنه ﴿ إن العهد كان مسؤولاً ﴾ أي عنه . وقوله تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كِلْتُمْ ﴾ أي من غير تطفيف ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴿ وزنوا بالقسط ﴾ قرئ بضم القاف وكسرها . كالقسطاس وهو الميزان وقوله تعالى : ﴿ المستقيم ﴾ أي الذي لا انحراف فيه ولا اضطراب ﴿ ذلك خير ﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم ، ولهذا قال : ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ أي مآلاً ومنقلباً في آخرتكم .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ
وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٣٦)

﴿ ولا تقف ﴾ أي لا تقل ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ أي لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ، فان الله تعالى سائلك عن ذلك كله وقوله تعالى : ﴿ كل أولئك ﴾ أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿ كان عنه مسؤولا ﴾ أي سيسأل العبد عنها يوم القيامة ، وتساءل عنه وعما عمل فيها .

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ
وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ (٣٧) ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ
مَكْرُوهًا ﴾ (٣٨)

ينهي الله تعالى عباده عن التجبر والتبخر في المشية ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ أي مشي الجبارين ﴿ إنك لن تخرق الأرض ﴾ أي لن تقطع الأرض بمشيك وقوله تعالى : ﴿ وان تبلغ الجبال طولا ﴾ أي بفخر وإعجابك بنفسك ، بل قد يجازي فاعل ذلك بنقيض قصده وفي الحديث : ٥٠ [من تواضع لله رفعه الله ، فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير ، ومن استكبر وضعه الله فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير حتى هو أبغض اليهم من الكلب والخنزير] .

نظر الحسن إلى رجل هو الأهم ويريد المنصور وعليه جباب خزي منضود بعضها فوق بعض وهو يمشي ويتبخر فقال له الحسن : أف أف شامخ بأنفه ، ثاني عطفه مصعّر حده ... أي أحيمق ينظر في عطفه في نعم غير مشكورة ، غير المأخوذ بأمر الله فيها ، ولا المؤدي حق الله منها .. فسمعه ابن الأهم فرجع يعتذر إليه فقال لا تعتذر إلي وتب إلى ربك أما سمعت قول الله تعالى : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض وان تبلغ الجبال طولا ﴾ .

ورأى ابن عمر رجلاً يخطر في مشيته فقال : إن للشياطين إخواناً ، وقوله تعالى : ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾ أي كل هذا الذي ذكرناه من قوله تعالى :

﴿ وقضى ربك ان لا تعبدوا إلاَّ إياه ﴾ إلى قوله ﴿ ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ فسَيِّئَه ...
أي فقيحه مكروهه عند الله ، هكذا وجه ذلك ابن جرير رحمه الله .

﴿ ذَلِكْ يَمَّا أُوحِيَ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ
اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (٣٩)

يقول تعالى : هذا الذي أمرناك به من الأخلاق العالية ، ونهيناك عن الصفات الرذيلة ،
مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس ، ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً
مدحوراً ﴾ المراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ فإنه صلوات الله وسلامه
عليه معصوم .

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ
لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ (٤٠)

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين أن الملائكة بنات الله ، ألا لعنهم الله
فقد جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، ثم ادعوا أنهم بناته . ثم عبدوهم
فأخطأوا في المقامات الثلاث خطأ عظيماً ، فقال تعالى منكرّاً عليهم : ﴿ أفأصفاكم ربكم
بالبنين ﴾ أي خصصكم بالذكر ﴿ واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾ أي واختار لنفسه على
زعمكم البنات ، ثم شدد الإنكار عليهم فقال سبحانه : ﴿ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾
أي في زعمكم ان لله ولداً ثم جعلكم ولده الاثاث التي تأنفون أن يكن لكم وربما قتلتموهن
بالوأد ، فذلك إذا قسمة ضيزي ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر
الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ... ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ
إِلَّا نُفُورًا ﴾ (٤١)

هذه الآية كما قال تعالى : ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي
صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيانات والمواعظ فينزعجوا

عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿وما يزيدهم﴾ أي الظالمين منهم ﴿إلا نفوراً﴾ أي عن الحق وبعداً منه .

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُتْغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ • (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا • (٤٣)

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الذين يقولون أن مع الله آلهة يعبدونها من دونه لتقربهم إليه وتشفع لديه .. ليس الأمر كما تقولون ... إنما المعبودون الذين تعبدونهم ، هم أنفسهم يعبدون الله ويتقربون إليه ، ويتغنون إليه الوسيلة فاعبدوه أنتم وحده كما يعبد من تدعونهم من دونه ، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه ، فإنه سبحانه لا يحب ذلك ولا يرضاه ، وقد نهى عنه على السنة جميع رسله وأنبيائه ، ثم نزه نفسه الكريمة فقال عز من قائل : ﴿سبحانه عما يقولون﴾ أي هؤلاء المشركون المعتدون ﴿علواً كبيراً﴾ أي تعالياً كبيراً بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ • (٤٤)

يقول تعالى : تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات وتنزهه وتعظمه وتكبره عما يقول المشركون ، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته :

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

روى الطبراني عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ قال لما رجع ليلة أسري به : ٥١ [سمعت تسبيحاً في السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا ، سبحانه العلى الأعلى سبحانه وتعالى] .

وقوله تعالى : ﴿وإن من شيء إلاَّ يسبح بحمده﴾ أي كل مخلوق يسبح بحمد الله ،

﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ لأنه بخلاف لغاتكم ، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات وهذا أشهر القولين ؛ كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود انه قال : ٥٢ [كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل .] وفي حديث أبي ذر : ٥٣ [أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسُمعَ لهن تسبيح كحنين النحل ...] وفي سنن النسائي عن عبدالله بن عمر قال : ٥٤ : [نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفادع ، وقال : «نقيقها تسبيح» وروى الامام أحمد عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ في الحديث الذي يذكر فيه وصية نوح لولديه ... إلى أن قال عليه السلام : ٥٥ ... [وأمر كما بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء] قال عكرمة : الاسطوانة تسبح ، والشجرة تسبح وقال بعض السلف صرير الباب تسبيحه ، خرير الماء تسبيحه وقال الثوري الطعام يسبح . وقال آخرون : إنما يسبح من كان فيه روح ، يعنون من حيوان ونبات (١) ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ أي انه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره ، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر كما جاء في الصحيحين : ٥٦ [« ان الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ﴾) ومن أقنع عما هو فيه من كفر وعصيان ، ورجع إلى الله وتاب إليه تاب عليه . كما قال تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ وقال ها هنا : ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ .

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (٤٥) ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ
يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ
وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (٤٦)

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : واذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن ، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً أي حائلاً ساتراً عن الأبصار فلا تراه ، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى . ومال إلى ترجيحه ابن جرير رحمه الله وقال قتادة وابن زيد هو الأكنة على قلوبهم وهي جمع كنان الذي يغشي القلب ولهذا قال تعالى ﴿ وجعلنا على

قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴿ أي لثلا يفهموا القرآن ﴾ ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به وذلك جزاء إعراضهم عنه وكفرهم به وقوله تعالى : ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ﴾ أي إذا قلت في تلاوتك : لا اله الا الله ﴿ ولتوا ﴾ أي أدبروا راجعين ﴿ على أذبارهم نفوراً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ وقد أبى الله الا أن يعلي هذه الكلمة الطيبة ، ويظهرها على من ناوأها . إنها كلمة من خاصم بها فلج ، ومن قاتل بها نصر .

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ
تَجَوَّىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ (٤٧)
أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ (٤٨) ﴿

يخبر تعالى بما يتناجى به رؤساء كفار قريش حين جاءوا يستمعون قراءته ﷺ سرّاً من قومهم بما قالوا من أنه رجل مسحور ، من السحر المشهور ، فمنهم من قال : شاعر ، ومنهم من قال : كاهن ، ومنهم من قال : مجنون ، ومنهم من قال : ساحر ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ أي فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصاً . قال محمد بن اسحق في السيرة ما خلاصته : أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة خرجوا ليستمعوا من رسول الله وهو يصلي بالليل في بيته فأخذ كل واحد مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق... تلاوموا وتكرَّر هذا منهم ثلاثاً ثم أتى الأخنس أبا سفيان في بيته ، فقال اخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . قال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها فقال الأخنس وأنا والذي حلفت به . ثم خرج الأخنس حتى أتى أبا جهل فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجأثنا على الركب وكنا كغرسيَّ رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه... ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدِّقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه .



﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا ؕ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا
جَدِيدًا﴾ (٤٩) ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا
مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ
يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ
إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

يخبر تعالى عن الكفار المستعدين وقوع المعاد والمستكرين حدوثه بقولهم : ﴿أئذا
كنا عظاماً ورفاتاً﴾ أي تراباً وغباراً ﴿أئذا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي يوم القيامة بعد
البلاء والعدم ؟ ﴿قل كونوا حجارة أو حديداً﴾ إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات
﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾ قال ابن عباس : هو الموت والمعنى انه لو استحلتم
بعد الموت لا إلى عظام ورفات فحسب بل لو استحلتم إلى حجارة أو حديد لأحياكم الله
حتى لو أنكم صرتم موتاً بذاته لجعلكم أحياء إذا شاء ومتى شاء فإنه لا يمتنع عليه شيء
إذا أَرَادَهُ . وقوله تعالى : ﴿فسيقولون من يعيدنا﴾ أي من يعيدنا إذا كنا حجارة
أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ﴿قل الذي فطركم أول مرة﴾ أي الذي خلقكم ولم
تكونوا شيئاً مذكوراً ثم صرتم بشرأ تتشرون ، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي
حال ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ وقوله تعالى : ﴿فسينغضون
إليك رؤوسهم﴾ أي يحركونها استهزاء وهذا الذي تعرفه العرب من لغاتها .

وقوله تعالى : ﴿ويقولون متى هو﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك ،
كما قال تعالى : ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وقوله تعالى : ﴿قل عسى
أن يكون قريباً﴾ أي احذروا ذلك فإنه قريب إليكم سيأتيكم لا محالة ، وقوله تعالى :
﴿يوم يدعوك﴾ أي الرب تبارك وتعالى إذا أمركم بالخروج من الأرض فإنه لا يخالف
ولا يمانع بل كما قال تعالى : ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ أي انما هو أمر واحد
فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها ﴿فتستجيبون بحمده﴾ أي تقومون
كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته ، وله الحمد في كل حال . وقد جاء في الحديث :

٥٧ [ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ، كأنى بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون لا إله الا الله] وفي رواية يقولون : ٥٨ [الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن] وقوله تعالى : ﴿ وتظنون ﴾ أي يوم القيامة من قبوركم ﴿ إن لبئس ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ إلا قليلاً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضحاها ﴾ .

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ (٥٣)

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباده المؤمنين ألا يتكلموا إلا الكلام الحسن والكلمة الطيبة وإلا نزع الشيطان بينهم وأخرج الكلام إلى الفعّال ، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، إذ أن عداوته ظاهرة من لدن آدم ولهذا نهى أن يشير المسلم إلى أخيه المسلم بالسلاح فإن الشيطان ينزغ ^(١) في يده أي فر بما أصابه بها . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٩ [لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار] أخرجاه من حديث عبد الرزاق .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ (٥٤) ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (٥٥)

يقول تعالى : ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ أيها الناس أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿ إن يشأ يرحمكم ﴾ بأن يوفقكم إلى طاعته والإنابة إليه ، ﴿ أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك ﴾ يا محمد ﴿ عليهم وكيلاً ﴾ أي إنما أرسلناك نذيراً ، فمن

(١) النزغ : وسوسة الشيطان . نزغه : طعنه بيد أو رمح . حركة أدنى حركة .

أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار . ﴿ وربك أعلم بمن في السموات والأرض ﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية . ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ كما قال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾ وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٦٠ [لا تفضلوا بين الأنبياء] فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشييع والعصية لا بمقتضى الدليل ، فإذا دلّ الدليل على شيء ، وجب اتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولي العزم منهم أفضلهم وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ وفي الشورى في قوله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم ، ثم بعده إبراهيم ثم موسى ، ثم عيسى عليهم السلام على المشهور . وقد بسطناه بدلائله في غير هذا الموضع ، والله الموفق وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه داود زبوراً ﴾ تنبيه على فضله وشرفه . والزبور الكتاب الذي نزل على داود ﷺ

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ (٥٦) ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (٥٧) ﴿

يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ ادعوا الذين زعتم من دونه ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿ ف ﴾ لهم ﴿ لا يملكون كشف الضر عنكم ﴾ أي بالكلية ، ﴿ ولا تحويلاً ﴾ أي ولا يحولونه إلى غيركم ، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر ، وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ قال قتادة عن ابن مسعود قال : نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفعراً من الجن ، فأسلم الجنيون ، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم ، فنزلت هذه الآية ... وقيل : الملائكة والعزيز والمسيح ، وقيل الشمس والقمر ، والصحيح الذي اختار ابن جرير قول ابن مسعود ، لقوله تعالى :

﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ وهذا لا يعبر به عن الماضي ، فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة ... وقال : الوسيلة هي القرية. قال قتادة : ولهذا قال تعالى : ﴿ أيهم أقرب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء ؛ فبالخوف ينكف عن المناهي ، وبالرجاء يكثر من الطاعات . وقوله تعالى : ﴿ إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ أي ينبغي أن يحذر منه ، ويخاف وقوعه وحصوله ، عباداً بالله منه .

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (٥٨) ﴿

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ : أنه ما من قرية كفرت إلا سيهلكها الله بأن يبيد أهلها جميعهم ، أو يعذبهم عذاباً شديداً ، أما بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، وذلك بسبب خطاياهم. كما قال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (٥٩) ﴿

روى الامام أحمد عن ابن عباس ، قال : ٦١ [قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ، ونؤمن بك . قال « وتفعلون » قالوا : نعم . قال : فدعا فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم ابواب التوبة والرحمة ، فقال : « بل باب التوبة والرحمة »] .

وروى الحافظ ابو يعلي عن ام عطاء مولاة الزبير بن العوام حديثاً أطول وبفس المال إنما قالت اخيراً بروايتها عن الزبير عنه ﷺ : ٦٢ [... » والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألتهم ولو شئت لكان ، ولكنه خيرني بين ان تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم

وبين أن يكللكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتصلتوا عن باب الرحمة ، فلا يؤمن منكم أحد ، فاخترت باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم ، وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين » ونزلت : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ [والمعنى إن الله تعالى لم يرسل الآيات التي طلبها المشركون من قريش إلا أنه قد كذب بها الأولون بعد ما سألوها ، وجرت سنته تعالى فيهم وفي أمثالهم . انهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها كما قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ قال الله اني منزله عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ وقال تعالى عن ثمود حين سألوا آية ناقة تخرج من صخرة عيتوها فدعا صالح عليه السلام ربه فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوا ... ، فلما ظلموا بها أي كفروا بمن خلقها وأخرجها ، وكذبوا رسوله وعقروها ؛ فقال : ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وآتيناهم ناقة مبطرة فظلموا بها ﴾ أي دالة على من خلقها وأنه الواحد الأحد ، وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿ فظلموا بها ﴾ أي كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوا فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وقوله تعالى : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ قال قتادة : إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون ، ذكر لنا ان الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه ، فقال : يا أيها الناس إن ربكم يستعجبكم فأعقبوه . وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات ، فقال عمر : أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا

الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا

يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿ ٦٠ ﴾

يخترع تعالى رسوله ﷺ على تبليغ رسالته ، ويخبره بأنه قد عصمه من الناس فالكل في قبضته وذلك بقوله ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ : أي عصمك منهم . وقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ الآية قال البخاري عن ابن عباس : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ﴿ والشجرة الملعونة

في القرآن ﴿ شجرة الزقوم ﴾ ، وكذا رواه احمد وعبد الرزاق ، وغيرهما عن سفيان بن عيينه به ، وكذا العوفي عن ابن عباس ، وقد رجح أناس من المسلمين عن دينهم بعدما كانوا على الحق لأنه لم تتحمل قلوبهم وعقولهم معجزة الاسراء فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وجعل الله ذلك ثباتاً وقيناً لآخرين ولهذا قال : ﴿ إلا فتنة ﴾ أي اختباراً وامتحاناً ، وكل من فسر ﴿ الرؤيا التي أريناك ﴾ ليلة الاسراء ﴿ والشجرة الملعونة ﴾ بشجرة الزقوم ولهذا اختار ابن جرير ان المراد بذلك ليلة الإسراء وان الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم قال : لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك أي في الرؤيا والشجرة وقوله تعالى ، ﴿ وتخوفهم ﴾ أي الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿ فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا ﴾ أي تمادياً في الكفر والضلال وذلك من خذلان الله لهم .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٦٢)

يذكر تعالى عداوة ابليس لعنه الله لآدم وذريته ، وأنها قديمة منذ خلق آدم وامتناع ابليس عن السجود له تكبراً واحتقاراً ﴿ أسجد لمن خلقت طيناً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ وقال أيضاً متجرئاً على الرب والرب يحلم وينظر : ﴿ قال أراءيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ أي لئن أنظرني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم .

﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً ﴾ (٦٣) وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ (٦٥)

لما سأل ابليس النظرة قال تعالى : ﴿ اذهب ﴾ فقد أنظرتك كما قال تعالى : ﴿ فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ ثم أوعده ومن تبعه من ذرية آدم جهنم ﴿ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم ﴾ أي على أعمالكم ﴿ جزاءٌ موفوراً ﴾ أي لا ينقص لكم منه شيء .

وقوله تعالى : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال ابن عباس : كل داع إلى معصية الله عز وجل واختاره ابن جرير ، وقيل هو الغناء واللهو .

وقوله تعالى : ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ أي كل راكب وماش في معصية الله ، واحمل عليهم يحنو ذلك خيالتهم ورجلتهم وتسلط عليهم بكل ما تقدر عليه ، كقوله تعالى : ﴿ ألم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ أي تسوقهم إلى المعاصي سوقاً .

وقوله تعالى : ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ أما مشاركة الأموال فهو ما حرموه من أنعامهم من البحائر والسوائب وما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى ، وكل مال جمع من خبيث وأنفق في حرام . أما الأولاد : فكل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بتسميته بما يكرهه الله أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله ، أو وأده أو غير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله فقد دخل في مشاركة إبليس . فكل ما عصى الله فيه أوبه أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة . فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ وعلى آله قال ٦٣ : [لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً] .

وقوله تعالى : ﴿ وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضي بالحق : ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ لإخبار بتأييده تعالى لعباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ولهذا قال تعالى : ﴿ وكفى بربك وكيلاً ﴾ أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً .

﴿ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ

فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً • (٦٦) ﴿

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخير له عباده الفلك في البحر ، وتسهيله لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم ؛ ولهذا قال جل وعلا ﴿ انه كان بكم رحيماً ﴾ أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ
فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ (٦٧)

يخبر تعالى وتبارك أن الناس إذا مسهم ضرٌّ دعوه منييين إليه مخلصين له الدين. ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ ﴾ أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى ، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة ، فذهب هارباً فركب في البحر ليدخل الحبشة ، فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغني عنكم إلا ان تدعوا الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه : والله إن كان لا ينفع في البحر غيره ، فانه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك عليّ عهد لئن اخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلا أجدنه رؤوفاً رحيماً ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه .

وقوله تعالى : ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ أي نسيت ما عرفتم من توحيده في البحر وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾ أي سجيته هذا ، ينسى النعم ويحدها إلا من عصم الله .

﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ (٦٨)

يقول تعالى : أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه أن يخصف بكم جانب البر أو يمطركم بحجارة . كما قال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم

بَسَحَرِ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴿ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أَي نَاصِرًا يَرُدُّ ذَلِكَ عَنْكُمْ وَيَنْقِذُكُمْ مِنْهُ .

﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ (٦٩)

يقول تبارك وتعالى : أم أمنتم أيها المعرضون عنا بعدما اعترفتم بتوحيدنا في البحر وخرجتم إلى البر أن يعيدكم في البحر مرة ثانية فيرسل عليكم قاصفاً من الريح يقصف الصواري ويغرق المراكب ﴿ فيغرقكم بما كفرتم ﴾ أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى . وقوله جل وعلا : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ أي نصيراً يأخذ بثأركم بعدكم ولا تخاف احداً يتبعنا بشيء من ذلك .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (٧٠)



يخبر تعالى عن تشریفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ أي يمشي منتصباً على رجله ويأكل بيديه وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفيه ، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله ويستمتع به ، ويفرق بين الأشياء ، ويعرف خواصها نفعاً وضرراً في الأمور الدينية والدنيوية وحملناهم في البر على الدواب من الخيل والبغال وفي البحر على السفن الكبار والصغار ، ورزقناهم من الطيبات من زروع وثمار ولحوم وألبان ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع مما يصنعون لأنفسهم ويحلبه إليهم غيرهم من الجهات الأخرى ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات . وقد استدلل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة .

روى الحافظ ابو القاسم الطبراني عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : ٦٤
[ان الملائكة قالت : يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن
نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو ، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة
قال : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان]

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ يَمِينِهِ
فَأُولَئِكَ يَفْرَحُونَ كِتَابُهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ قَتِيلًا ﴾ (٧١) وَمَنْ كَانَ
فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿ (٧٢) ﴾

يخبر تعالى وتبارك عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم قبل نبيهم ولكن المراد
هنا بالإمام هو كتاب الأعمال. ولهذا قال تعالى هنا : ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن
أُوِّيَ كتابه يمينه فأولئك يقرأون كتابهم ﴾ أي من فرحته وسروره بما فيه من العمل
الصالح يقرأه ويحب قراءته . كقوله تعالى : ﴿ فأما من أُوِّيَ كتابه يمينه فيقول هاؤم
اقرأوا كتابيه - إلى قوله تعالى - وأما من أُوِّيَ كتابه بشماله ... كما قال تعالى : ﴿ وترى
كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق
عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله
بين أمته ، فإنه لا بد أن يكون شاهداً على أمته بأعمالها . كقوله تعالى : ﴿ وأشرقت
الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فكيف
إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ولا يظلمون قتيلاً ﴾ القتل هو الخيط المستطيل في شق النواة
وقد روى الحافظ ابو بكر البزار حديثاً في هذا عن أبي هريرة رضي الله عنه ٦٥ [عن
النبي ﷺ في قول الله تعالى : ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ قال : [يدعى أحدهم
فيعطى كتابه يمينه ، ويمد له في جسمه ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة
يتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه فيروونه من بعيد فيقولون : اللهم أنتا بهذا ، وبارك لنا في
هذا فيأتيهم فيقول لهم : أبشروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا ، وأما الكافر فيسود وجهه
ويمد له في جسمه ويراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا ، اللهم

لا تأتئنا به ، فيأتيهم ، فيقولون : اللهم اخزه ، فيقول : أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا [ثم قال البزار لا يروي إلا من هذا الوجه . وقوله تعالى : ﴿ ومن كان في هذه أعمى ﴾ قال ابن عباس وغيره ﴿ ومن كان في هذه ﴾ أي في الحياة الدنيا ﴿ أعمى ﴾ أي عن حجة الله وآياته ﴿ فهو في الآخرة أعمى ﴾ أي كذلك يكون ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ أي أضل مما كان في الدنيا عياداً بالله من ذلك .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ إِلَيْكَ لَيَفْتَرِي
عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ (٧٣) وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَنَّاكَ لَقَدْ
كَدَتْ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا ﴾ (٧٤) إِذَا لَا ذَقْنَاكَ ضِعْفَ
الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾ (٧٥)

ينخبّر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه ، وتبتيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار ، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره ، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفّره ومظهر دينه على من عاداه ، وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا
وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٧٦) سَنَةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ
رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ (٧٧)

نزلت في كفار قريش لما همّوا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم ، فتوعّدهم الله بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً ، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف ، حتى جمعهم الله وإياه بيدٍ على غير ميعاد ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم ، فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ سَنَةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ الآية أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسولنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم بآتيهم العذاب ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة لجاؤهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ الآية

﴿ اَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾

إِنْ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * (٧٨) وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا * (٧٩) ﴿﴾

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ أمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها : ﴿ اقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ قال ابن عباس : دلوكها زوالها وقال ابن عمر وابن مسعود والحسن والضحاك وغيرهما واختاره ابن جرير ، ومما استشهد عليه ما رواه ابن حميد عن جابر بن عبد الله قال : ٦٦ [دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج النبي ﷺ فقال : « أخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس »] .

ثم رواه عن سهل بن بكار عن أبي عوانة عن الأسود بن قيس عن نبيح العنزي عن جابر عن رسول الله ﷺ نحوه ^(١) فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس ، فمن قوله تعالى : ﴿ لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴾ وهو ظلامه أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

وقوله تعالى : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ يعني صلاة الفجر ، وقد تواترت السنة بتفاصيل هذه الأوقات مما تلقاه أهل الاسلام خلفاً عن سلف وقرناً بعد قرن ، كما هو مقرر في مواضعه ، والله الحمد . ﴿ ان قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ٦٧ [« فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر »] يقول أبو هريرة : أقرأوا إن شئتم : ﴿ وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ [يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر ، فيخرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون] وقوله تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة ﴾

(١) قلت : الرواية الأولى فيها رجل لم يسم وفي الرواية الثانية الذي يرويه عن جابر هو نبيح العنزي فلمل الرجل الذي لم يسم في الرواية الأولى هو نبيح العنزي والله أعلم .

لك ﷻ أمر له بقيام الليل وبعد المكتوبة كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : ٦٩ [أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال « صلاة الليل »] ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل فإن التهجد ما كان بعد نوم . قاله علقمة والأسود والنخعي وغير واحد ، وهو المعروف في لغة العرب وقوله تعالى : ﷻ أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﷻ أي إفعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً ، يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى .

قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليرحمهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم .
(قلت) : لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، أو يساويه فيها أحد :

فهو أول من تنشق عنه الأرض ، ويبعث راکباً إلى المحشر ، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه ، وله الخوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق . وذلك بعدما تسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ، فكل يقول ، لست لها ، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول : « أنا لها أنا لها » ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها وهو أول الأنبياء يقضي بين أمته ، وأولهم إجازة على الصراط بأمره ، وهو أول شفيع في الجنة كما ثبت في صحيح مسلم .

وفي حديث الصور : إن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته ، وهو أول داخل إليها ، وأمره قبل الأمم كلهم ، ويشفع في درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم ، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة لا تليق إلا له ، وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى ، ولا يشفع أحد مثله ، ولا يساويه في ذلك ، ولنذكر الآن بعض الأحاديث الواردة في المقام المحمود والله المستعان .

روى البخاري عن ابن عمر يقول : ٧٠ [إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء كل أمة تتبع نبيها يقولون : يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً] ورواه حمزة بن عبد الله عن أبيه عن النبي ﷺ .

روى البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : ٧١ [من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة . وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته : حلت له شفاعتي يوم القيامة] إنفرد به دون مسلم .

روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال : ٧٢ : [إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر] أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح وأخرجه ابن ماجه قال الإمام أحمد رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ٧٣ [أتى رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ، ثم قال : « أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون ممّ ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ... يسمعون الداعي وينفذهم البصر . وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون . ولا يحملون . فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه مما قد بلغكم . ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : عليكم بآدم فيأتون آدم عليه السلام ... - فيعتذر ثم يأتون نوحاً إبراهيم فموسى فعيسى وكلهم يعتذر بسبب ذنب يعتقد أنه اقترفه فيستحيي ربه وكلهم يقول : نفسي نفسي نفسي ... ثم يأتون محمداً ﷺ - ^(١) ... فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأقوم فأقي تحت العرش . فأقع ساجداً لربي عز وجل ، ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحني على أحد قبلي ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك . وسل تعطه . واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول : أمّتي يا رب ، أمّتي يا رب ، أمّتي يا رب فيقال لي : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة . وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال : والذي نفس محمد بيده ان ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى [أخرجاه في الصحيحين .

وروى رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٤ [أنا سيد ولد آدم يوم القيامة . وأول من ينشق عنه القبر يوم القيامة ، وأول شافع ، وأول مشفع] .

(١) قلت : ما بين المعترضتين من كلامي اختصاراً لمعنى الحديث .

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ
وَأَجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾ (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ
وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوْقًا ﴿ (٨١) ﴾

قال قتادة ﴿ وقول رب ادخلي مدخل صدق ﴾ يعني المدينة ﴿ وأخرجني مخرج صدق ﴾ يعني مكة قال الإمام أحمد عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله تعالى ﴿ وقول رب ادخلي مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ قال الحسن في تفسيرها : وعده ربه ليتزعم ملك فارس وعز فارس وليجعل له وملك الروم وعز الروم وليجعل له . قال قتادة فيها : ان نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلاّ بسلطان فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله ، ولحدود الله ، ولقراض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم . واختار ابن جرير قول الحسن و قتادة ، وهو الأرجح لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه . ولهذا يقول تعالى : ﴿ ... وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ وفي الحديث : ٧٥ [إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن] أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع .

وقوله تعالى : ﴿ وقول جاء الحق وزهق الباطل ... ﴾ تهديد ووعيد لكفار قريش ، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ، وهو ما أنزل من القرآن والإيمان والعلم النافع . وزهق باطلهم أي اضمحل وهلك ، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ روى البخاري عن ابن مسعود قال : ٧٦ [دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يقطعها يعود في يده ويقول : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾] وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي وعبد الرزاق .

﴿ وَتُنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا

يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٨٢) ﴿

يخبر تعالى عن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ الذي لا يأتيه الباطل ، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيف وميل ، فالقرآن يشفي من ذلك كله ، وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقته واتبعه ، أما الكافر الظالم نفسه بكفره فلا يزيده سماعه للقرآن إلا بعداً وكفراً ، والآفة من الكافر لا من القرآن . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْ هَذِهِ إِيْمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ۚ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۚ ﴾ أَي لَا يَنْتَفِعُ بِهِ وَلَا يَحْفَظُهُ وَلَا يَبْعِيهِ فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ هَذَا الْقُرْآنَ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝ (٨٣) قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ۝ (٨٤) ﴾

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو ، إلا من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء ، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية ، ورزق ونصر أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه قال مجاهد : بَعُدَ عَنَّا وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُوا ۚ ﴾ وَأَنَّهُ ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ وَهُوَ الْمَصَائِبُ وَالنَّوَائِبُ ﴿ كَانَ يَئُوسًا ﴾ أَي قَنَطَ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ خَيْرٌ بَعْدَ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ أَي عَلَى دِينِهِ وَطَرِيقَتِهِ وَهَذِهِ الْآيَةُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - تَهْدِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَوَعِيدٌ لَهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ أَي مَنَّا وَمِنْكُمْ وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .

﴿ وَيَسْتَلْذِقَنَّ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُّوسِ أَمْرٌ رَبِّي وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝ (٨٥) ﴾

روى الإمام أحمد بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ٧٧ [كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرت في المدينة ، وهو متوكئ على عسيب فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح . وقال بعضهم : لا تسألوه . قال : فاسألوه عن الروح ، فقالوا : يا محمد ما الروح ؟ فما زال متوكئاً على العسيب . قال فظننت أنه يوحى إليه فقال : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قال : فقال بعضهم لبعض : قد قلنا لكم لا تسألوه [. وهكذا رواه البخاري ومسلم من حديث الأعمش به وهذا ... يقتضي فيما يظهر باديء الرأي أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سألته اليهود عن ذلك بالمدينة . مع أن السورة كلها مكية والدليل على ذلك ما روى الإمام أحمد بن عباس قال : ٧٨ [قالت قریش ليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل فقالوا سلوه عن الروح فسالوه . فنزلت : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قالوا : أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً ، قال : وأنزل الله : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ﴾ وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية ، أو أنزل عليه الوحي بأن يحيبهم عما سألوه بالآية المتقدمة .

روى محمد بن اسحق عن بعض أصحابه . عن عطاء بن يسار قال : ٧٩ [نزلت بمكة : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود وقالوا : يا محمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أفعنيتنا أم عنيت قومك ؟ فقال : « كلاً قد عنيت » فقالوا إنك تتلو أنا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء ؛ فقال رسول الله ﷺ « هي في علم الله قليل وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتن » وأنزل الله تعالى : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ .

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال . أحدها : أنها هي أرواح بني آدم التي في أجسادهم . وقيل المراد بالروح ههنا جبريل ، وقيل المراد به ههنا ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها ، وقيل المراد طائفة من الملائكة على صور بني آدم ، وقيل : طائفة يرون الملائكة ولا تراهم ، فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم ^(١) أما قوله

(١) فيما يبدو - والله أعلم - أن المراد بالروح ههنا ... الروح التي في الجسد أما الروح إطلاقاً فلها معان عدة، منها الروح التي في الجسد، والروح هو جبريل ، والروح هي كلمة « كن » ويتجل المراد منها بحسب موقعها ، وكل هذه المعاني وردت في القرآن . أما كونها ملك عظيم اسمه الروح أو هم قبيل من الملائكة فليس من دليل صحيح ثابت فيما أعلم والله تعالى أعلم .

تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أي إن الروح من شأنه ومما استأثر بعلمه دونكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل فانه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى .

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿ (٨٧) قُلْ لَّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿ (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (٨٩) ﴿

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ ، فيما أوحاه إليه من القرآن العظيم المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد قال ابن مسعود رضي الله عنه . يطرق الناس ريح حمراء - يعني في آخر الزمان - من قبل الشام فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية « ثم قرأ ابن مسعود : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمع الإنس والجن واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لما أطاقوا ذلك لأن هذا الأمر لا يستطاع . وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي ليس كمثله شيء . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي بيّنا لهم الحجج والبراهين القاطعة وبسطنا لهم الحق . ومع هذا فأبى أكثر الناس إلا جحوداً للحق ورّداً للصواب .

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فَجِيرًا ﴿ (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ

تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَكَةِ قَبِيلًا • (٩٢) أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَٰكِن نُّؤْمِنُ لِرُؤْيَاكَ حَتَّىٰ تُنْزَلَ عَلَيْنَا

كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا • (٩٣) ﴿٩٣﴾

روى ابن جرير عن ابن عباس ما ملخصه : ٨٠ [دعا أكابر قريش محمداً ﷺ فجاءهم سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ، ويعزّ عليه عنتهم حتى جلس إليهم فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفقت الأحلام وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، فما بقي من قبيح إلا وقد جثته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رثيلاً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي - فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ، فقال رسول الله ﷺ « ما بي ما تقولون ؛ ما جئتمكم بما جئتمكم به ، أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » [أو كما قال رسول الله ﷺ تسليماً .

ثم طلبوا منه وسألوه أن يسأل ربه - على سبيل العناد والكفر - فليسير عنا هذه الجبال ، وليسيطر لنا بلادنا وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ... فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل ؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول .

ثم سألوه أن يسأل ربه أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ، ويغنيك بها عما تراك تبغي ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن

كنت رسولاً كما تزعم . وكان يجيبهم ﷺ في كل مرة ما أجابهم في المرة الأولى ، قالوا فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك ، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل ، فقال لهم رسول الله ﷺ « ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك » فقالوا يا محمد : أما علم ربك إننا سنجلس معك ونسألك عما سألتك عنه ونطلب منك ما نطلب ، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن وإننا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا ، وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، فلما قالوا ذلك ، قام رسول الله ﷺ عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي ، وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب ، فقال : يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبل منهم ، ثم سألوكم أموراً يعرفوا بها منزلتكم من الله فلم تفعل ذلك ، ثم سألوكم أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب ، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه وأنا انظر حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أنني لا أصدقك ، ثم انصرف رسول الله ﷺ حزينا أسفاً لما فاتته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدهم إياه .

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له ، لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه ، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً .

وقوله تعالى : ﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ النبيون : العين الجارية ، فقد سألوهم أن يجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا ، وذلك سهل على الله تعالى يسير ، لو شاء لفعله ، ولأجابههم إلى جميع ما سألوا ، ولكن علم أنهم لا يهتدون بكفوله تعالى : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت ﴾ أي عجل لنا العذاب الذي تعدنا به يوم القيامة من انشقاق السماء وتبدل أطرافها فأسقطها الآن قطعاً كما قال قوم شعيب له : ﴿ أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم وأما نبي الرحمة فسأل أنظارهم وتأجيلهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد ولا يشرك به شيئاً ، وكذلك وقع فإن من هؤلاء الذين كفروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى عبد الله بن أبي أمية

الذي تقدم ذكره ... أسلم إسلاماً تاماً وأتاب إلى الله عز وجل . وقوله تعالى : ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ ، أي من ذهب في قراءة ابن مسعود وقال ابن عباس وغيره نحوه ﴿ أو ترقى في السماء ﴾ أي تصعد في السماء في سلم ونحن ننظر إليك ﴿ ولن نؤمن لرقبك حتى نُنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ أي مكتوب فيه إلى كل واحد منهم هذا كتاب من الله إلى فلان بن فلان تصبح موضوعة عند رأسه ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ أي سبحانه أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه ، بل هو الفعال لما يشاء وما أنا إلا رسول اليكم أبلغكم الرسالة وأنصح لكم وقد فعلت ذلك . وأمركم فيما سألتهموه إلى الله عز وجل .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُّونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿ (٩٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وما منع الناس ﴾ أي أكثرهم ﴿ أن يؤمنوا ﴾ ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً كما قال تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ والآيات في هذا كثيرة ، ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه ويخاطبوه ، ولو بعث رسولاً ملكاً لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ منه كما قال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ أي من جنسهم ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلاً منكم لطفاً ورحمةً .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (٩٦) ﴿

يقول تعالى : مرشداً لنبيه ﷺ إلى الحجة البالغة على قومه في صدق ما جاءهم به : انه أي الله شاهد عليّ وعليكم ، عالم بما جتكم به ، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني

أشد الانتقام كما قال تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنه كان عباده خبيراً بصيراً ﴾ أي عليمًا بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاعة ^(١) ؛ ولهذا قال سبحانه :

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَوْهُ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَبُكْمًا وَضُمًّا مَّا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ (٩٧) ﴿

يخبر تعالى عن تصرفه في خلقه ، ونفوذ حكمه ، وأنه لا معقب لحكمه ، فمن يهده فلا مضلّ له ، ومن يضلّل فلن تجد له أولياء من دونه أي يهدونهم. وقوله تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك يقول : ٨١ [قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال « الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم »] وأخرجاه في الصحيحين . وقوله تعالى : ﴿ عمياً ﴾ أي لا يبصرون ﴿ وبكماً ﴾ يعني لا ينطقون ، ﴿ وضماً ﴾ لا يسمعون جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وضماً عن الحق ، فجوزوا في محشرهم بذلك أخوج ما يحتاجون إليه ﴿ مأواهم ﴾ أي مصيرهم ﴿ جهنم كلما خبت ﴾ أي طفت ﴿ زدناهم ﴾ سعيراً ﴿ أي لهباً ووهجاً وجمراً ، كما قال سبحانه : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً .

﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (٩٨) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (٩٩) ﴿

(١) قلت : أي علم بسابق علمه من سيؤمن من خلقه فيستحق الإنعام والإحسان والهداية بثبوتهم على الإيمان جزاء ما آمن ، ومن سيكفر منهم فيستحق منه الشقاء والإضلال والإزاعة جزاء ما كفر كما قال تعالى : ﴿ فلما زاغوا آذان الله قلوبهم » والحمد لله على التوفيق بنعمة الإيمان .

يقول تعالى : هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم جزاؤهم الذي يستحقونه لأنهم كذبوا ﴿بآياتنا﴾ أي بأدلتنا وحججنا ، واستبعدوا وقوع البعث ﴿وقالوا﴾ إذا كنا عظاماً ورفاتاً ﴿أي بالية نخرة﴾ ﴿أنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي بعد البلى والهلاك تُعاد مرة ثانية ؟! فنبههم الله تعالى على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض ، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال تعالى : ﴿لَخُلِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وقال ههنا : ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم﴾ أي يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم . وقوله تعالى : ﴿وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾ أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً لا بد من انقضائه ، كما قال تعالى : ﴿وما تؤخره إلا لأجل معدود﴾ وقوله تعالى : ﴿فأبى الظالمون﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم ﴿إلا كفوراً﴾ أي تمادياً في كفرهم .

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَا مُسَكِّمُ خَشْيَةِ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ (١٠٠)

يقول تعالى لرسوله ﷺ قل لهم يا محمد لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكنكم خشية الإنفاق أي خشية أن تذهبوها فتفتقروا مع أنها لا تنفد أبداً ، لأن هذا من طباعكم ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿وكان الإنسان قتورا﴾ أي بخيلاً منوعاً ، كما قال تعالى : ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً﴾ أي لما أعطوا أحداً شيئاً لأن البخل والجزع والهلع صفة للإنسان ، وهذا عام فيه ، إلا من وفقه الله وهداه . كما قال تعالى : ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين﴾ .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَّ بَنِي إِسْرَٰئِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مُسْحُورًا﴾ (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَشْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ
أَنْ يَسْتَفْزِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا
مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ
جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته ،
وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون ، وهي : العصا ، واليد ، والسنين والبحر
والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات قاله ابن عباس ﴿ فاستكبروا
وكانوا قوماً مجرمين ﴾ أي ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها ، كفروا بها وجحدوا ،
واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ، وما نجحت فيهم ؛ فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا
منك ما سألوا ، وقالوا لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً إلى آخرها ...
لما استجابوا ولا آمنوا إلاّ أن يشاء الله ، كما قال فرعون لموسى وقد شاهد منه ما شاهد
من هذه الآيات : ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴾ قيل بمعنى ساحر والله تعالى أعلم .
وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخر كثيرة ، منها ضربه الحجر بالعصا ، وخروج
الماء منه ، ومنها تظليلهم بالغمام ، وانزال المن والسلوى ، وغير ذلك مما أوتوه بنو
اسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ولكن ذكرها هنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون
وقومه من أهل مصر فكانت حجة عليهم فخالقوها وعاندوها كفراً وجحوداً .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَزَلُ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾
أي ما أنزل هذه الآيات التسع إلا رب السموات والأرض حججاً وأدلة على صدق
ما جئتكم به ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَشْبُورًا ﴾ أي هالِكاً مغلوباً ملعوناً .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أي يخليهم منها ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ
جَمِيعًا وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا
لَيَسْتَفْزِزُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ فإن أهل مكة همّوا بإخراج الرسول منها ولهذا
أورث الله رسوله مكة فدخلها فاتحاً وقهر أهلها ثم أطلقهم حليماً وكرماً ، وكما أورث الله
القوم الذين كانوا يستضعفون من بني اسرائيل مشارق الأرض ومغاربها ، وأورثهم بلاد
فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ
لَفِيفًا ﴾ أي جميعكم أنتم وعدوكم .

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ * (١٠٥) ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ * (١٠٦) ﴿

يخبر تعالى عن كتابه العزيز أنه بالحق نزل أي متضمناً للحق كما قال تعالى : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ﴾ أي متضمناً علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه ، وقوله تعالى : ﴿ وبالحق نزل ﴾ أي ونزل إليك يا محمد محفوظاً محروساً لم يشب بغيره ولا زيد فيه ولا نقص منه بل وصل إليك بالحق وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ أي مبشراً لمن أطاع ونذيراً لمن عصى . وقوله تعالى : ﴿ وقرآنًا فرقناه ﴾ أما قراءة التخفيف أي فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا وبالتشديد أي نزلناه أي آية آية مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة مبيناً ومفسراً ولهذا قال سبحانه : ﴿ لتقرأه على الناس ﴾ أي لتبلغه لهم وتتلوه عليهم ﴿ على مكث ﴾ أي مهل ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ أي شيئاً بعد شيء .

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ * (١٠٧) ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ * (١٠٨) ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَنْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ * (١٠٩) ﴿



يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بما جنتهم من القرآن العظيم : ﴿ آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ أي سواء آمنتم به أم لم تؤمنوا ، فهو حق أنزله الله ، ونوه بذكره في كتبه المتقدمة ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله ﴾ أي من صالح أهل الكتاب العالمين العاملين به . كما نزل ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ هذا القرآن ﴿ يخرون للأذقان ﴾ جمع ذقن ﴿ سجداً ﴾ لله سبحانه شكراً على ما أنعم عليهم من إدراكهم هذا الرسول الكريم الذي أنزل عليه هذا الكتاب ، ولهذا يقولون : ﴿ سبحان

ربنا ﴿ أي تنزيهاً وتعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة وأنه لا يخلف وعده الذي وعده على ألسنة الأنبياء المتقدمين والمبشرين ببعثة محمد ﷺ ولهذا قال تعالى مخبراً عن قولهم : ﴿ سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ﴾ خضوعاً له عز وجل ، وإيماناً بكتابه ورسوله ﷺ ﴿ ويزيدهم خشوعاً ﴾ أي تصديقاً وتسليماً كما قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ .

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴾ (١١١) ﴿

روى مكحول : ٨٢ [ان رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده : يا رحمن يا رحيم فقال : إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية .] وكذا روي عن ابن عباس ، رواهما ابن جرير .

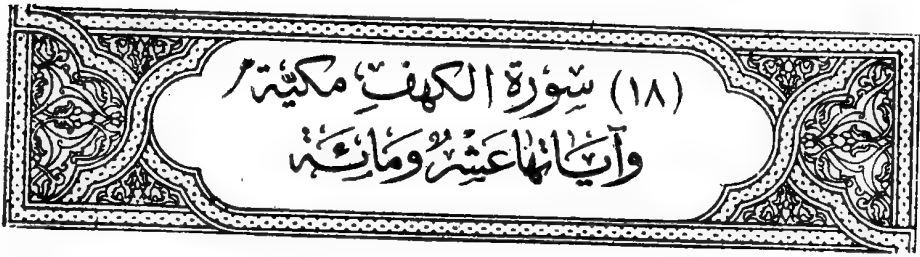
فقوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل المانعين من تسميته بالرحمن لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن فإنه ذو الأسماء الحسنى كما قال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم — إلى قوله تعالى — ﴿ له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ روى الامام أحمد عن ابن عباس قال : ٨٣ [نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة ، ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ قال : كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فلما سمع ذلك المشركون سبّوا القرآن وسبّوا من أنزله ومن جاء به قال فقال الله تعالى لنبية ﷺ : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿ ولا تخافت بها ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ أخرجاه في الصحيحين ، وكذا رواه الضحاك عن ابن عباس ، وزاد :

٨٤ [فلما هاجر إلى المدينة سقط ذلك ، يفعل أيّ ذلك شاء] .

وقوله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى نزّه نفسه عن النقائص فقال سبحانه : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ﴾ بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴿ ولم يكن له ولي من الدن ﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى ولي أو وزير أو مشير ، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له ، ومدبرها بمشيئته وحده ﴿ وكبرّه تكبيراً ﴾ أي عظّمه ، وأجلّه عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً . آخر اختصار سورة الإسراء والله الحمد والمنة .

١٣٨٩/٧/١٩

١٩٦٩/٩/٣٠



إِلَّا الْآيَةَ ٢٨/ ومن آية ٨٢ - ١٠١ فمدنية نزلت بعد سورة الغاشية

* * *

ذكر ما ورد في فضلها :

روى الإمام أحمد عن البراء يقول : ٨٥ [قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة ، فجعلت تنفر ، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيت ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « إقرأ فلان فإنها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزل للقرآن »] أخرجه في الصحيحين من حديث شعبة به وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن الحضير كما تقدم في سورة البقرة .

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : ٨٦ [من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال] رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث قتادة به ، ولفظ الترمذي : ٨٧ [من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف] وقال حسن صحيح .

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : ٨٨ [من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِمَ من فتنه الدجال] ورواه مسلم أيضاً والنسائي من حديث قتادة به ولفظ النسائي : ٨٩ [من قرأ عشر آيات من الكهف ...] فذكره .

وأخرج الحاكم في مستدركه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : ٩٠ [من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين] ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ
عِوَجًا * (١) قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * (٢) مَا كَثِيرٌ فِيهِ
أَبْدًا * (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ
عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا
كَذِبًا * (٥)

قد تقدم في أول التفسير انه تعالى يحمد نفسه المقدسة ، عند فواتح الأمور وخواتمها ،
فإنه المحمود على كل حال ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، ولهذا حمد نفسه على إنزاله
كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله عليه وسلامه . فإنه أعظم نعمة أنعمها
الله على أهل الأرض إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور ، حيث جعله كتاباً مستقيماً
لا اعوجاج فيه ولا زيغ بل يهدي إلى صراط مستقيم واضحاً بيّناً ، نذيراً للكافرين ،
بشيراً للمؤمنين . ولهذا قال تعالى : ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي ليس معوجاً ولا مائلاً
بل ﴿ قيماً ﴾ أي مستقيماً ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ أي لينذر به الذين لم يؤمنوا به
عقوبة في الدنيا والآخرة ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ أي الذين صدّقوا إيمانهم بالعمل الصالح
﴿ أن لهم أجراً حسناً ﴾ أي مثوبة من عند الله ﴿ ما كثر فيهم ﴾ في ثوابهم وهو الجنة
خالداً فيه ﴿ أبداً ﴾ دائماً لا زوال له .

وقوله تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ المعنيون بهذه الآية كل من قال
هذا من أي أمة من الأمم وان كان نزولها من أجل المشركين العرب لما قالوا نحن نعبد
الملائكة وهم بنات الله ﴿ ما لهم به من علم ﴾ بهذا الافتراء والإفك ﴿ ولا لآبائهم ﴾
أي لأسلافهم ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ،
ولا دليل عليها إلا كذبهم . ولهذا قال جل وعلا : ﴿ إن يقولون إلا كذباً ﴾ وقد ذكر

محمد بن اسحق سبب نزول هذه الآية الكريمة فقال - ما ملخصه - عن ابن عباس قال : ٩١ [بعث قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته فلأنهم أهل الكتاب ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجوا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله : فقالوا سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية : ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فلأنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، فعاد النضر وعقبة حتى قدما على قريش فأخبراهم بما قال أحبار اليهود فجاءت قريش وسألت النبي ﷺ عن ذلك فقال لهم ﷺ : « أخبركم غدا عما سألتهم عنه » ولم يستثن^(١) فأنصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يأتيه جبريل بالوحي حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا فيها ، لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معابته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل : ﴿ ويسألونك عن الروح ... ﴾ الآية] .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٦) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (٧) ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (٨) ﴿

يسلتي الله تعالى نبيّه ﷺ في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبُعدهم عنه ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ يقول لا تهلك نفسك أسفا وحزنا ، أي لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تذهب نفسك عليهم حسرات . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى

الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴿ أي أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار فقال تعالى : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ أي وإنا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار ، لا ينبت صعيدها ولا ينتفع به . والصَّعيد الجرز أي البلقع الذي ليس فيه شجر ولا نبات . ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أننا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (٩) ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (١٠) ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ (١١) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ (١٢) ﴿

هذا إخبار مجمل من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف ، فقال سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ يعني يا محمد ﴿ أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ أي ليس امرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرته تعالى أعجب من أخبار أصحاب الكهف . وأما الكهف فهو الغار في الجبل وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون وأما الرقيم فقال العوفي عن ابن عباس : هو وادٍ قريب من أيلة قال الضحاك : أما الكهف فهو الغار والرقيم اسم الوادي وقال سعيد بن جبير : الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف . وقال ابن جرير : الرقيم فعل بمعنى مرقوم كما يقال للمقتول قتيل واختاره والرقيم الكتاب وقوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنواهم عنه ، فهربوا منهم فلجأوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم ، فقالوا حين دخلوا : ﴿ ربنا آتينا من لدنك رحمة ﴾ أي هب لنا رحمة تسرنا عن قومنا ﴿ وهَيِّءْ لَنَا

من أمرنا رشدًا ﴿ أي اجعل عاقبتنا رشدًا . كما جاء في الحديث : ٩٢ [وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشدًا] . وقوله تعالى : ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ﴾ أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف سنين عديدة ﴿ ثم بعثناهم ﴾ أي من رقدتهم تلك ﴿ لنعلم أي الحزبين ﴾ أي المختلفين فيهم ﴿ احصى لما لبثوا أمدا ﴾ أي أحصى عدداً لما لبثوا في الكهف أي غاية ما لبثوا فيه .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿ (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ (١٥) وَإِذْ أَعْرَضْتُمْ عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْقًا ﴿ (١٦)

وهنا شرع في تفصيل قصة أصحاب الكهف وشرحها ، فذكر تعالى أنهم فتيه أي شباب ، وهم أقبل للحق من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً ، وأما المشايخ من قريش ، فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل . وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتيه شباباً ، فأمنوا بربههم أي اعترفوا له بالوحدانية ، وشهدوا أن لا إله إلا الله ﴿ وزدناهم هدى ﴾ وقد استدلل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله وأنه يزيد وينقص . ولهذا قال تعالى : ﴿ وزدناهم هدى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً ﴾ وكما قال سبحانه : ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك وقد قيل أنهم كانوا على دين النصرانية ، والظاهر أنهم سبقوا زمن المسيح عليه الصلاة والسلام لاعتناء اليهود بحفظ خبرهم وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم

أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ، فبعثوا اليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء ، وعن خبر ذي القرنين ، وعن الروح فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم على دين النصرانية والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ يقول تعالى : وصبرناهم على مخالفة قومهم ، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة ، فقد ذكر غير واحد من السلف والخلف أنهم كانوا من ابتاء ملوك الروم وسادتهم ، وقد فارقوا قومهم الذين كانوا يعبدون الاصنام والطواغيت ويذبحون لها ، وكان لهم ملك جبار يأمر الناس بذلك ، ولما خرج الناس يوماً في بعض أعيادهم خرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ونظروا إلى ما يصنع قومهم من السجود والذبح لغير الله تعالى عرفوا أن هذا لا ينبغي إلا لله خالق السموات والأرض فانحاز كل من الفتية عنهم ، فكان أول من جلس وحده أحدهم تحت ظل شجرة ، ثم أتى إليه الآخر فالآخر ولا يعرف واحد منهم الآخر وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان وقد جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ٩٣ [الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها أئتلف ، وما تناكر منها اختلف] واخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعاً . وقد جعل كل واحد منهم يكتُم ما هو عليه عن أصحابه خوفاً منهم ، ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم : تعلمون والله يا قوم ، أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء فليظهر كل واحد منكم بأمره ؛ فقال آخر : أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل ، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ، وقال كل واحد منهم ذلك حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة ، فصاروا بدءاً واحدة وإخواناً صدق فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه ، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم ، فاستحضرهم فسألهم فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله جل وعلا : ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً ﴾ أي باطلاً وكذباً وبهتاناً ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهاً لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾ أي هلاً أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً ﴿ فمن أضل ممن افترى على الله كذباً ﴾ أي لا أضل ممن يفترى على الله الكذب ، فغضب عليهم الملك ، وأمر بنزع لباس الزينة عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم ، وهددهم إن لم يعودوا إلى دين قومهم ، ثم أجلهم لينظروا في أمرهم

لعلهم يرجعون ، وكان هذا من لطف الله بهم لأنهم توصلوا بهذا التأجيل إلى الهرب والفرار بدينهم من الفتنة ، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن بين الناس ، كما جاء في الحديث : ٩٤ [يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن] ولا تشرع العزلة فيما عدا ذلك ، فلما وقع عزمهم على الهرب واختار الله لهم ذلك بقوله جل وعلا : ﴿ وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي فارقتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ففارقوهم أيضاً بأديانكم ﴿ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي يرحمكم ويستركم من قومكم ﴿ وَيَهَيِّءْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ ﴾ الذي أنتم فيه ﴿ مَرْفَقاً ﴾ أي أمراً ترتفقون به ، فعند ذلك هربوا إلى الكهف فأووا إليه ففقدهم قومهم من بين أظهرهم ، وتطلبهم الملك ولكن عمي الله عليه خيرهم كما فعل بنبيّه محمد ﷺ وصاحبه الصديق حين لجأ إلى الغار وعمي الله عنهما المشركين فلم يهتدوا إليهما لذلك قال رسول الله ﷺ للصديق : ٩٥ [يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما] ، ولا شك أن قصة غار حراء أجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف .



وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ
وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ
آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا
مُرْشِداً ﴿١٧﴾

فهذا فيه دليل على أن هذا الكهف كان من جهة الشمال ^(١) ، لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ أي يتقلص الفيء منه وذلك إنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل هذا المكان ولذلك قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ ﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية المشرق ، فدل على صحة ما قلناه ، وقد أخبر الله

(١) أي هو في الجهة الشمالية لكن بابه متجه نحو الجنوب ، وعلى هذا فيكون يمينه غرباً وشماله شرقاً فإذا أشرقت الشمس دخلت أشعتها إلى الكهف وملأت الجهة الغربية وإذا غربت دخلت أشعتها إلى الكهف وملأت الجهة الشرقية منه وذلك لأن باب الكهف متجه إلى الجنوب .

تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبيره ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض ، إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً فقيل في أيلة وقيل ببلاد الروم ، وقيل : ببلاد البلقاء^(١) والله أعلم بأي بلاد الله هو ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه فقد قال ﷺ : ٩٦ [ما تركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ، ويباعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به] .

وقوله تعالى : ﴿ وهم في فجوةٍ منه ﴾ أي في متسع منه داخلاً بحيث لا تصيبهم ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء ، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم ثم قال سبحانه : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ أي هو الذي أرشد هؤلاء إلى الهداية من بين قومهم فإنه من هداه الله اهتدى ، ومن أضله فلا هادي له .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِثْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ (١٨)

لما ضرب الله عليهم بالنوم ، شاء سبحانه أن تبقى أعينهم مفتحةً وهم رقود ولذا قال تعالى : ﴿ وتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ وقوله جلا وعلا : ﴿ ونُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ ﴾ قال ابن عباس : لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض ، وقوله تعالى : ﴿ وكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ الوصيد : الباب الموصد أي ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب وكان جلوسه بفناء الباب من الخارج ٩٧ [لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب] ، كما ورد في الصحيح ٩٨ [ولا صورة ولا جنب ولا كافر] كما ورد فيه الحديث الحسن ، وشملت بركتهم كلبهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال وهذا فائدة صحيحة الأخيار فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن وقوله تعالى : ﴿ لو اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِثْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم وذعر منهم ، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يدٌ لأمس ، حتى يبلغ الكتاب أجله وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم ، لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة .

(١) أيلة : العقبة . بلاد الروم : هي الأناضول اليوم . البلقاء : بلاد الأردن .

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى : كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم ، لم يفقدوا من أحوالهم وهياتهم شيئاً وذلك بعد ثلثمائة وتسع سنين ، ولهذا تساءلوا بينهم : ﴿كم لبثتم﴾ أي رقدتم ؟ ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار ، واستيقاظهم كان في آخر النهار ولهذا استدرکوا فقالوا : ﴿أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾ أي الله أعلم بأمركم ، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم ، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا : ﴿فابعثوا أحداكم بورقكم هذه﴾ أي فضتكم هذه ، وذلك أنهم لما أووا إلى الغار استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها ﴿إلى المدينة﴾ التي خرجوا منها ﴿فلي نظر أيها أزكى طعاماً﴾ أي أطيب طعاماً ﴿وليتلطّف﴾ أي في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه ﴿ولا يُشْعِرَنَّ﴾ أي ولا يعلمن ﴿بكم أحداً﴾ * إنهم إن يظهروا عليكم يرموكم ﴿أي إن علموا مكانكم﴾ أو يعيدوكم في ملتهم ﴿يعنون أصحاب دقيانوس ، فلا يزالون يعذبونهم إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا ، فإن وافقتموهم على العود في الدين الكافر فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة ولهذا قال : ﴿ولن تفلحوا إذا أبداً﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ

بُيِّنَا لَهُمْ رَبَّهُمْ فَأَعْلَمَ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمُ مَسْجِدًا ۖ (٢١) ﴿٢١﴾

يقول تعالى : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ أي أطلعنا عليهم الناس ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ ذكر غير واحد من السلف : انه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث و القيامة ، ومنهم من قال تبعث الأرواح دون الاجساد ، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك ، ولما ذهب أحدهم ليشري طعاماً دخل البلدة فأنكرها فرأى البلد غير البلد والأهل غير الأهل فظن به مساً وما به من شيء إنما تبدل الناس قرناً بعد قرن وأمة بعد أمة ، ثم رأى ان يتعجل بالخروج من البلدة ، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام فدفع إليه ما معه من النقفة ، فلما رأى نقوده أنكرها وأنكر ضربها فدفعها إلى جاره ، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون : لعل هذا وجد كنزاً فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النقود فقال أنا من أهل هذه البلدة وعهدي بها عشية أمس وفيها دقيانوس ، فنسبوه إلى الجنون ، فحملوه إلى ملكهم فسأله عن شأنه فأخبره بأمره وهو متحير في حاله وما هو فيه فقام ملك البلد وأهلها .. حتى انتهى بهم إلى الكهف فقال لهم : دعوني اتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل ، فيقال انهم لا يدرون كيف ذهب فيه ، واخفى الله عليهم خبرهم ، ويقال بل دخلوا عليهم ورأوهم ، وسلم عليهم الملك واعتنقهم وكان مسلماً فيما قيل ، ففرحوا به وآسوه بالكلام ثم ودعوه وسلموا عليه ، وعادوا إلى مضاجعهم وتوفاهم الله عز وجل والله أعلم ^(١) .

وكان اطلاع أهل ذلك الزمان على حقيقة أهل الكهف حجة للمسلمين منهم وحجة على منكري البعث وأهل الشرك منهم . وقوله تعالى : ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ أي في أمر القيامة فمن مثبت لها ومنكر ﴿ فقالوا ﴾ أي المسلمون ^(٢) منهم ﴿ ابنوا عليهم

(١) قالت : أرجح الرواية الثانية القائلة : بل دخلوا عليهم ورأوهم ... الخ وهذا مطابق لقوله تعالى : « وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها » . وإلا فكيف يقول الله : « وكذلك أعثرنا عليهم » ويتم مراد الله وحكمته من بعث أهل الكهف ، وتنجلي وتظهر الحجة والدلالة على قدرة الله على البعث فتقوم الحجة البالغة على الذين كانوا ينكرون البعث من أهل ذلك الزمان ويعلمون ان وعد الله حق وان الساعة آتية لا ريب فيها كما قال الله تعالى .. ؟

(٢) قلت : جملة : « أي المسلمون منهم » ليس من كلام المفسر رحمه الله ، بل من كلامي لأن هذا يوافق شريعة الاسلام التي لا تقول ببناء المساجد على القبور بل قولهم : « ابنوا عليهم بنياناً » هو الموافق لشريعة الإسلام لذلك استتجت ان أصحاب هذا القول مسلمون .

بنیاناً ربهم اعلم بهم ﴿ أي سدّوا عليهم باب كهفهم وذروهم على حالهم ﴾ قال الذين غلبوا على أمرهم ﴿ أي أصحاب الكلمة والنفوذ : ﴾ لتتخذن عليهم مسجداً ﴿ وليس هذا القول محموداً لأنه يخالف لقوله ﷺ : ٩٩ [لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد] يحذر ما فعلوا » وملة الإسلام ملة واحدة عقائدها هي هي من لدن آدم إلى نبينا عليهم الصلاة والسلام « (١)

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَنَفِثَ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿ (٢٢) ۞

حكى الله تعالى ثلاثة أقوال عن عدة أهل الكهف فدل على أنه لا قائل بقول رابع ولما ضعفت القولين الأولين بقوله عز وجل ﴿ رجماً بالغيب ﴾ أي قولاً بلا علم ، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله تعالى : ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ فدل على صحته وأنه هو الواقع في نفس الأمر ، وقوله تعالى : ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ ارشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى ، إذا لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم ، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا . وقوله تعالى : ﴿ ما يعلمهم إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي من الناس . قال قتادة : قال ابن عباس أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل كانوا سبعة . أما أسماؤهم فليس هناك من قول صحيح بذلك ، فإن غالب ما في الأمر اخبار متلقاة من أهل الكتاب ولا يترتب على معرفة أسمائهم كبير فائدة وقد قال تعالى : ﴿ فلا تمار فيهم إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أي سهلاً هيناً ﴿ ولا تستنفث فيهم منهم أحداً ﴾ أي فإنهم لا علم لهم بذلك والذي عندهم فهو لا يستند إلى كلام معصوم وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك ولا مرية فيه فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال .

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكِرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي إِلَىٰ أَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا وَرَشَدًا ﴿ (٢٤) ۞

هذا إرشاد منه تعالى لرسوله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى علام الغيوب . وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف (غداً أجيئكم) فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً وقد ذكرناه ملخصاً في أول السورة ... وقوله تعالى : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ أي إذا نسيت أن تقول إن شاء الله لشيء ستفعله في المستقبل ، فقل إن شاء الله عندما تذكره قاله أبو العالية والحسن البصري وعن ابن عباس قال : في الرجل يحلف له أن يستني ولو إلى سنة وقوله تعالى : ﴿ وقل عسى أن يهدين ربّي لأقرب من هذا رشداً ﴾ أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه ، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب وللرشد في ذلك والله أعلم .

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ (٢٥)
 قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ
 وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ
 أَحَدًا ﴾ (٢٦)

يخبر تعالى رسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان وأنه كان مقدار لبثهم ثلاثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية وهي ثلاثمائة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ، فلهذا قال تعالى ﴿ ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ أي إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء بل قل في مثل هذا ﴿ الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض ﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلعه عليه من خلقه ، وهذا الذي قلناه قاله غير واحد من علماء التفسير كجاهد وغير واحد من السلف والخلف .

وقوله تعالى : ﴿ أبصر به واسمع ﴾ أي ما أبصره وأسمعه يعني لا أحد أبصر من الله ولا أسمع وقوله تعالى : ﴿ ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ أي انه تعالى له الخلق والأمر لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير تعالى الله وتقدس .

﴿وَأَنْتَلُ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧) وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه للناس ﴿لا مبدل لكلماته﴾ لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل وقوله تعالى : ﴿ولن تجد من دونه ملتحدًا﴾ أي ملجأ قال ابن جرير : يقول الله إن انت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله ، كما قال تعالى : ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ .

وقوله تعالى : ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيا من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء . روى مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص قال : ١٠٠ [كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ : أطرده هؤلاء لا يجترئون علينا قال وكنت أنا وابن مسعود وبلال ورجل من هذيل ورجلان نسيت اسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ انفرد باخراجه دون البخاري .

روى الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا : ١٠١ [جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحج أو سورة الكهف ، فسكت ؛ فقال رسول الله ﷺ : « هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم . »]

روى الطبراني عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال ١٠٢ [نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض آياته ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ الآية فخرج يلتمسهم ، فوجد قوماً يذكرون الله تعالى ، منهم نائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب

الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال : « الحمد لله الذي جعل في أمي من أمرني أن أصبر نفسي معهم » [

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قال ابن عباس ولا تجاوزهم إلى غيرهم ، يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ﴿ وَلَا تَطْعَمَنْ مِنْهُ ﴾ ولا تغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴿ أَيُشْغَلُ عَنْ الدِّينِ وَعِبَادَةِ رَبِّهِ الدُّنْيَا ﴾ وكان أمره فرطاً ﴿ أَيُعْمَلُ أَعْمَالُهُ وَأَفْعَالُهُ سَفَهًا وَتَفْرِيطًا وَضَبَاعًا ﴾ ولا تكن مطيعاً له ولا محباً له ولا محباً لطريقته ، ولا تغبط بما هو فيه .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (٢٩)

يقول تعالى لرسوله ﷺ : وقل يا محمد للناس ، هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مزية فيه ولا شك ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ أي أُرصدنا ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أي سورها قال ابن جريج : قال ابن عباس أي حائط من نار . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ قال ابن عباس : المهل : الماء الغليظ مثل دردي الزيت - أي عكر الزيت - وهو أسود منتن غليظ حار ولهذا قال سبحانه : ﴿ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ من حره إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه . وقوله تعالى : ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ ﴾ أي بشس هذا الشراب كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ لَهَا سَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ

مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا • (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ
الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا
مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ
وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا • (٣١)

لما ذكر تعالى حال الاشقياء ، ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين
فيما جاءوا ، وعملوا بما أمرهم به من الأعمال الصالحة ، فلهم جنات عدن والعدن
الإقامة ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم ﴿ يحلون ﴾ أي من
الحلية ﴿ فيها من أساور من ذهب ﴾ وقال في المكان الآخر ﴿ ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير ﴾
وفصله ها هنا فقال سبحانه : ﴿ ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق ﴾ فالسندس
لباس رفيع رقيق كالقمصان وما جرى مجراها وأما الاستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق .
وقوله تعالى : ﴿ متكبين فيها على الأرائك ﴾ أي المتكآت والأرائك جمع أريكة
وهي السرير تحت الحجلة ^(١) وقوله تعالى : ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفعاً ﴾ أي نعمت
الجنة ثواباً على أعمالهم وحسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً .



وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ
أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا • (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ
آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهَا نَهْرًا • (٣٣) وَكَانَ
لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ
نَفَرًا • (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ

(١) قلت : ما يزين بالثياب والبتور للعروس وهو ما يسمى في زماننا (بالقرنة / وما يسمى أيضاً / بالقياس /)
إذا كان طويلاً وله متكآت ومساند .

هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُئِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين ، واقتزارهم عليهم بأموالهم وأحسابهم ، فضرب لهم مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما جنتين ، أي بستانين من أعناب مخوفتين بالنخيل ، المحدثه في جنباتهما وفي خلاهما الزروع ، وكل ذلك مثمر في غاية الجودة ولهذا قال تعالى : ﴿ كلتا الجنتين أنت أكلها ﴾ أي أخرجت ثمرها ﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ أي ولم تنقص منه شيئاً ﴿ وفجرنا خلاهما نهراً ﴾ أي والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا ﴿ وكان له ثمر ﴾ أي ثمار ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره ﴾ أي يخاصمه ويحاده مفتخراً عليه : ﴿ أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ﴾ أي أكثر خدماً وحشماً وولداً .

وقوله تعالى : ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ﴾ أي بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿ قال ما أظن أن تبعد هذه أبداً ﴾ وذلك اغترار منه لما رأى فيها مسن الزروع والثمار والأشجار والأنهار الجارية في أرجائها ظن أنها لا تنفد ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف ، وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله ، واعجابه بالحياة الدنيا وزينتها ، وكفره بالآخرة ، ولهذا قال ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي كائنة ﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكون لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا .

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ
تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ (٣٧) ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا
أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (٣٨) ﴿ وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ
اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِّيًا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ (٣٩)
فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوَفِّيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنْ

السَّمَاءُ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآوُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾

يخبر تعالى عما وعظه به صاحبه المؤمن زاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه كما قال تعالى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمَواتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ أي كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جليلة لا ينكرها أحد ويعلمها من نفسه فإن كل أحد من المخلوقات يعلم أنه كان عدماً ، ولا يستند وجوده إلى شيء من المخلوقات لأنها مثله فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه ، وهو الله لا إله الا هو خالق كل شيء ، ولهذا قال المؤمن ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقالتك بل اعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ بل هو المعبود وحده لا شريك له .

ثم قال : ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَأَى أَنْ أَصَلَكَ آلُكَ شُومًا﴾ أي هلا إذا اعجبتك حين دخلتها ، ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك وقلت ما شاء الله لا قوة الا بالله .

وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له : ١٠٣ [أَلَا أدُلُّكَ عَلَى كَثْرٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ]

وقوله تعالى : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبديد ولا تفتن ﴿حَسْبَانَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي مطراً عظيماً يقلع زرعها وأشجارها ولهذا قال : ﴿فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي بقلعاً تراباً أملس لا تثبت فيها قدم وقوله تعالى : ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآوُهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً في الأرض كما قال تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ أي جار وسائح . والغور مصدر بمعنى غائر وهو أبلغ منه .

وَإِحْيِطْ بِشِمْرِهِ فَأُصْبِحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاطِوَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾
هَٰذَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

يقول تعالى : ﴿ وأحيط بشمره ﴾ بأمواله وثماره ، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسابان على جنته التي اغتر بها وأهته عن الله عز وجل ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ أي يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها ﴿ ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ﴾ . ولم تكن له فئة ﴿ أي عشيرة أو ولد ﴾ ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً . هنالك الولاية لله الحق ﴿ أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب ، كقوله تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ ومنهم من كسر الواو من الولاية ، أي هنالك الحكم لله الحق ، ومنهم من خفض القاف من الحق على أنه صفة لله عز وجل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هو خير ثواباً ﴾ أي جزاء ﴿ وخير عقبا ﴾ أي الأعمال التي تكون لله عز وجل خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير .

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَزْلَنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴿٤٦﴾

يقول تعالى : ﴿ واضرب لهم ﴾ يا محمد ﴿ مثل الحياة الدنيا ﴾ في زوالها وفنائها ، وانقضائها ﴿ كما ﴾ أزْلَنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴿ أي ما فيها من الحب ، فشبَّ وحسُن ، ثم بعد ما علاه الزهر والنضرة ﴾ فأصبح هَشِيمًا ﴿ يابساً ﴾ تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ . أي تفرقه هنا وهناك ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ أي هو قادر في كل الأحوال . وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل ، كما قال تعالى في سورة يونس : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ﴾ الآية ... وفي الحديث : ١٠٤ [الدنيا خضرة حلوة] . وقوله تعالى : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾

أي الاقبال عليه تعالى والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم ، والجمع لهم ، والشفقة المفرطة عليهم ولهذا قال عز وجل : ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ .

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف : الباقيات الصالحات الصلوات الخمس . وروى الإمام أحمد الحارث مولى عثمان رضي الله عنه يقول : ١٠٥ [جلس عثمان يوماً فجاءه المؤذن فدعا بماء في إناء أظنه سيكون فيه مدّ ، فتوضأ ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا ثم قال : « من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينها وبين الصبح ، ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر ، ثم صلى المغرب غفر له ما بينها وبين العصر ثم صلى العشاء غفر له ما بينها وبين المغرب ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ، ثم إن قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن السيئات » قالوا هذه الحسنات ، فما الباقيات الصالحات يا عثمان ؟ قال هي لا إله إلا الله وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر بولاً حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، [تفرد به . وروى الطبراني عن سعد بن جنادة رضي الله عنه قال : ١٠٦ [كنت في أول من أتى النبي ﷺ من أهل الطائف ، فخرجت من أعلى الطائف من السراة غدوةً ، فأتيت منى عند العصر ، فتصاعدت في الجبل ، ثم هبطت فأتيت النبي ﷺ فأسلمت وعلمني ﴿ قل هو الله أحد الله ﴾ وإذا زلزلت ﴾ وعلمني هؤلاء الكلمات : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وقال : « هن الباقيات الصالحات »] وبهذا الإسناد : ١٠٧ [من قام من الليل فتوضأ ، ومضمض فاه ، ثم قال : سبحان الله مائة مرة ، والحمد لله مائة مرة والله أكبر مائة مرة ، ولا إله إلا الله مائة مرة غفرت ذنوبه إلا الدماء فإنها لا تبطل] . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قال : هي ذكر الله قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله ، والحمد لله وتبارك الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، واستغفر الله ، وصلى الله على رسول الله والصيام والصلاة ، والحج ، والصدقة ، والعتيق ، والجهاد ، والصلة ، وجميع أعمال الحسنات وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض . وقال العوفي عن ابن عباس : هي الكلام الطيب ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم : هي الأعمال الصالحة كلها ، واختاره ابن جرير .

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ
 نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧) ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا
 كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ (٤٨)
 وَوَضَعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا
 مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أُحْصَاهَا وَوَجَدُوا
 مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩) ﴿

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظام كما قال تعالى :
 ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا
 وَلَا أَمْتًا﴾ أي تذهب الجبال ، وتتساوى المهاد ، وتبقى الأرض قاعاً صفصفاً ، أي سطحاً
 مستوياً لا عوج فيه ولا أمتا أي لا وادي فيه ولا جبل ، ولهذا قال تعالى : ﴿وترى الأرض
 بارزة﴾ أي بادية ظاهرة ، لا مكان يوارى أحداً ، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا
 تخفى عليه منهم خافية . وقوله تعالى : ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾ فلم نترك
 أحداً من الأولين والآخرين كما قال تعالى : ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون
 إلى ميقات يومٍ معلوم﴾ وقوله تعالى : ﴿وعرضوا على ربك صفًّا﴾ يحتمل أنهم يقومون
 بين يدي الله تعالى صفًّا أو صفوفًا . وقوله تعالى : ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾
 هذا تقريع للمنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ولهذا قال سبحانه ﴿بل
 زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ، ولا أن هذا
 كائن . وقوله تعالى : ﴿ووضع الكتاب﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير
 والصغير والكبير ﴿فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ أي من أعمالهم السيئة وأفعالهم
 القبيحة ﴿ويقولون يا ويلتنا﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿ما لهذا
 الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ أي لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً إلا
 أحصاه وضبطه وحفظه . وروى الطبراني بإسناده المتقدم في الآية قبلها إلى سعد بن جنادة
 قال : ١٠٨] لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه
 شيء . فقال النبي ﷺ « إجمعوا من وجد عوداً فليأت به ، ومن وجد حطباً أو شيئاً
 فليأت به » قال فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً ، فقال النبي ﷺ « أترون هذا ؟

فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليقت الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة ، فإنها محصاة عليه » [

وقوله تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ أي من خير أو شر كما قال تعالى : ﴿ نبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً ولا يظلم أحداً من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله ، ويملا النار من الكفار وأصحاب المعاصي ، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين . وهو الحاكم الذي لا يجوز ولا يظلم . وعن شعبة عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ١٠٩ [ان الجماء لتقتص من القرآن يوم القيامة]

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ
دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

بنه تعالى بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم ، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه ، وهو الذي أنعم عليه النعم التي لا تعد ولا تحصى ، ثم بعد هذا وإلى إبليس وعادى الله فقال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ أي لجميعهم ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ أي سجود تشريف وتكريم وقوله تعالى : ﴿ فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ﴾ خانه أصله فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة من نور ، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : ١١٠ [خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه وخانه الطبع عند الحاجة وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك ، فلهذا دخل في خطايهم وعصى بالمخالفة] ونبه تعالى ههنا على أنه من من نار ، كما قال تعالى : ﴿ انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾

قال الحسن البصري : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل البشر . رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه .

وقوله تعالى : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ أي فخرج عن طاعة الله ، ثم قال تعالى مفرعاً لمن يتبعه وموبخاً لمن أطاعه : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ﴾ أي بدلاً عني ولهذا قال سبحانه : ﴿ بش للظالمين بدلاً ﴾ .

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ
وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَداً ﴾ (٥١)

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ
يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً ﴾ (٥٢) وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ
فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً ﴾ (٥٣)

يقول تعالى : إن الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد امثالكم لا يملكون شيئاً ، ولا أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا كانوا موجودين ، فأنا خالق الأشياء كلها وحدي ومدبرها ومقدرها ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ أي أعواناً قاله مالك وقوله تعالى : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم ﴾ أي في دار الدنيا ، ادعوه اليوم ينقذوكم مما أنتم فيه ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فدعوه فلم يستجيبوا لهم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوه فلم يستجيبوا لهم ﴾ وكما قال سبحانه ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له ﴾ . وقال أيضاً : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً ﴾ . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ قال ابن عباس وقتادة وغير واحد : مهلكاً . والمعنى إن الله تعالى بيّن أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى أهنتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا وأنه يفرّق بينهم وبينها في الآخرة فلا سبيل ولا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر ، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير .

وقوله تعالى : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾

أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين الف زمام مع كل زمام سبعون الف ملك ، تحقق المجرمون أنهم لا محالة واقعوها ليكون ذلك من باب التعجيل ، تعجيل الهم والحزن لهم ، فإن توقع العذاب ، والخوف منه قبل وقوعه ، عذاب ناجز . وقوله تعالى : ﴿ ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بدّ لهم منها . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ انه قال : ١١١ [ان الكافر ليرى جهنم فيظن أنها واقعته من مسيرة أربعين سنة]

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ وَجَدَلًا (٥٤)
وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ
الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا
أُنْذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾

يقول تعالى ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الحق والهدى ومع هذا البيان وهذا الفرقان فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله وبصره طريق النجاة . روى الإمام أحمد ١١٢ [عن علي بن أبي طالب ان رسول الله ﷺ طرقة وفاطمة بنت رسول الله ﷺ : ليلة ، فقال « ألا تصليان » فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً ، ثم سمعته وهو مولاً يضرب فخذه ويقول : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾] أخرجاه في الصحيحين وقوله تعالى : ﴿ وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيتهم سنة الأولين ﴾ أي ان الكفرة في قديم الزمان وخديثه يتمردون على الحق ويكذبون به وهو بين ظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات ، وانه ما منعهم من اتباع الحق إلا أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً كما حكى الله عن قريش حين قالت : ﴿ اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إلا أن تأتيتهم سنة الأولين ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم ﴿ أو يأتيتهم العذاب قبلاً ﴾ أي يرونه مواجهة ثم قال تعالى : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ أي قبل العذاب مبشرين من صدقهم

وآمن بهم ، ومنذرين من كذبهم ، ثم أخبر عن الكفار بقوله تعالى : ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ أي ليضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل على زعمهم ﴿ واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً ﴾ أي اتخذوا الحجج والبراهين وما أنذرهم به الرسل وخوفوهم به من العذاب ﴿ هزواً ﴾ أي سخروا منهم في ذلك وهو أشد التكذيب .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ آيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا ﴾ (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ (٥٩)

يقول تعالى : لا أَظْلَمُ من عباد الله أحدٌ ، مثل من ذكر آيات الله فأعرض عنها أي تناساها ولم يلتفت لها بالألّا ﴿ ونسي ما قدمت يدها ﴾ من الأعمال السيئة ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ أي غشاوات ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي لئلا يفهموا هذا القرآن ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ أي صمماً معنوياً عن الرشاد ﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾ أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة ، ﴿ لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر ، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد . ومن استمر منهم على ضلاله ، فليستظر يوماً تشيب فيه الولدان ولهذا قال تعالى : ﴿ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً ﴾ أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد وقوله تعالى : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾ أي الأمم السالفة أهلكناهم بسبب كفرهم ﴿ وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾ أي جعلناهم إلى مدة معلومة ، ووقت معين ، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا ان يصيبكم ما أصابهم ، فقد كذبتهم اشرف رسول وأعظم نبي ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذر .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (٦٠) ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ (٦١) ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ (٦٢) ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (٦٣) ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (٦٤) ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٦٥) ﴿

سبب قول موسى عليه السلام لفتاه وهو يوشع بن نون هذا الكلام أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحيط به موسى ، فأحب الرحيل اليه وقال لفتاه ذلك ﴿ لا أبرح ﴾ أي لا أزال سائراً ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ قال قتادة وغير واحد : هما بحر فارس مما يلي المشرق ، وبحر الروم مما يلي المغرب ، وقال محمد بن كعب القرظي بمجمع البحرين عند طنجة والله سبحانه وتعالى أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ أي ولو أني أسير دهوراً . وقوله تعالى : ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ﴾ وذلك أنه قد أمر بحمل حوت يجعله بمكمل ، فحيثما فقد الحوت فثم الرجل الذي يرحل اليه ، فأخذ حوتاً فجعله بمكمل ثم انطلق وفتاه يوشع بن نون عليه السلام حتى اذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسها فناما واضطرب الحوت في المكمل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً فجعل يسير في الماء مثل السرب في الأرض لا يلتزم الماء بعده فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا صار ماءً جامداً .

وقوله تعالى : ﴿ فلما جاوزا ﴾ أي المكان الذي نسيا الحوت فيه ، ونسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه كقوله تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وإنما يخرج من المالح ، فلما ذهبوا عن المكان الذي نسياه فيه بمرحلة ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ لفتاة آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا ﴾ أي الذي جاوزا فيه المكان ﴿ نصبا ﴾ أي تعباً ﴿ قال أرايت إذ أونا إلى الصخرة فإنني نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان أن

أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً * قال ذلك ما كنا نبغي ﴿ أي هذا الذي نطلب ﴾ فارتداً أي رجعا ﴿ على آثارهما ﴾ أي طريقهما ﴿ قصصاً ﴾ أي يقفوان أثرهما ﴿ فوجدوا عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾ وهذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

روى البخاري ، عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس : إن نوحاً البكالي ^(١) يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بني اسرائيل . قال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب رضي الله عنه انه سمع رسول الله ﷺ يقول : ١١٣ [إن موسى قام خطيباً في بني اسرائيل فسئل : أي الناس أعلم ؟ قال : أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يا رب وكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكثل فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ ، فأخذ حوتاً فجعله بمكثل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام ، حتى إذا أتيا الصحرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكثل ، فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً ، وأمسك الله عن الحوت جريئة الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ ، نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به فقال له فتاه : ﴿ أرأيت إذ أويناً إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ قال : فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً فقال : ﴿ ذلك ما كنا نبغي فارتداً على آثارهما قصصاً ﴾ قال : فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب ، فسلم عليه موسى فقال الخضر : واني بأرضك السلام . فقال أنا موسى فقال : موسى بني اسرائيل ؟ قال : نعم . قال أيتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه ، لا تعلمه انت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . فقال موسى : ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً ﴾ فقال له الخضر : ﴿ فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة ، فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى :

قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؛ لقد جئت شيئاً إمرأ ﴿ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ - فكانت الأولى من موسى نسياناً ، قال : وجاء عصفور فوق على حرف السفينة ، فنقر في البحر نقرةً أو نقرتين فقال له الخضر ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما أنقص هذا العصفور من هذا البحر .

ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له موسى ﴿ أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴿ قال : وهذه أشد من الأولى ﴾ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴿ أي مائلاً ﴾ فقال الخضر بيده ﴿ فأقامه ﴾ فقال موسى : قوم أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجرا ﴾ قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴿ فقال رسول الله ﷺ « وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما » [

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَ مِنِّي مَا عُلِّمْتَ
رُشْدًا ۖ ﴾ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ ﴿ (٦٧) وَكَيْفَ
تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۖ ﴾ (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا
وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۖ ﴿ (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن
شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۖ ﴿ (٧٠) ﴿

ينخبّر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك النبي الآخر - وهو الخضر - الذي خصّه الله بعلم لم يطلع عليه موسى كما أنه أعطى موسى علماً لم يعطه الخضر ﴿ قال له موسى هل أتبعك ﴾ سؤال تلطّف ، لا على وجه الإلزام وهذه آداب المتعلّم مع معلمه ، وقوله : ﴿ اتبعك ﴾ أي أصحبك ﴿ على أن تعلمني مما علّمت رشداً ﴾ أي استرشد بما علمك الله من علم نافع وعمل صالح ، فعندها ﴿ قال ﴾ الخضر لموسى ﴿ انك لن تستطيع معي صبرا ﴾ أي انك لن تقدر على مصاحبتني لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك

فكل منا على علم من الله لا يعلمه الآخر ﴿ وكيف نصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ وستنكر عليّ ما أنت معذور فيه ، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته التي اطلعت عليها أنا دونك ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ على ما أرى من أمورك ﴿ ولا أعصي لك أمراً ﴾ فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام ﴿ قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء ﴾ ابتداءً ﴿ حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ أي حتى أبدأك أنا به قبل ان تسألني .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقَتَهَا لِنُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرًا ﴾ (٧١) ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٧٢) ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ (٧٣) ﴿

يخبر تعالى عن موسى وصاحبه الخضر ، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا واشترط عليه ألاّ يبتدئه بالسؤال عن شيء ينكره قبل شرحه ويبانه ، فركبا السفينة ، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا السفينة ودخلت لجة البحر قام الخضر فخرقها فلم يتمالك موسى أن انكر عليه ذلك فقال : ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها ﴾ لقد جئت شيئاً إِمْرًا ﴿ أي شيئاً منكراً فذكره الخضر عليه السلام بما تقدم من الشرط : ﴿ قال أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ يعني فعلت ذلك قصداً وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليّ فيها ﴿ قال ﴾ أي موسى : ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عُسْرًا ﴾ أي لا تضيق علي ولا تشدد عليّ . ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ انه قال : « كانت الأولى من موسى نسياناً » .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرًا ﴾ (٧٤) ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٧٥) ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ (٧٦) ﴿



يقول تعالى : ﴿ فَاَنْطَلَقَا ﴾ أي بعد ذلك ﴿ حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ وكان يلعب مع الغلمان ، وكان أحسنهم وأجملهم روي أنه احتز رأسه . وقيل رضخه بحجر وقيل اقتلعه بيده والله أعلم فأنكر موسى عليه السلام فعل الخضر أشد من الأول وقال : ﴿ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ أي صغيرة لم تعمل الحنث ولا الإثم ، فقتلته ﴿ بَغِيرِ نَفْسٍ ﴾ أي بغير مستند لقتله ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكِرًا ﴾ أي ظاهر النكارة ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول ، فلهذا قال له موسى : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ أي قد أعذرت إلي مرة بعد مرة . روى ابن جرير عن أبي بن كعب قال : ١١٤ [كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه . فقال ذا يوم « رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب . ولكنه قال : « إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا »]

﴿ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٧٨)

يخبر تعالى عنهما أنهما ﴿ انطلقا ﴾ بعد المرتين الأوليين ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ روى ابن جريج أنها الايلة وفي الحديث : حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لَثَامًا أي بخلاء ﴿ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ ﴾ أي يريد أن يسقط ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ أي فردّه إلى حالة الاستقامة . فعند ذلك قال موسى له ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي لأجل أنهم لم يضيّفونا كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاناً ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ أي لآنك شرطت عند قتل الغلام أنك ان سألني عن شيء بعدها ، فلا تصاحبني ، فهذا فراق بيني وبينك . ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ﴾ أي بتفسير ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (٧٩)

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام . وما كان أنكر ظاهره . وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنة فقال : إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ أي صالحة ﴿ غَصَباً ﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعبها ، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها .

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿ (٨١)

عن ابن عباس عن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ قال : ١١٥ [الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً] رواه ابن جرير ولهذا قال : ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ أي يحملهما حبه على متابعتة على الكفر وصح في الحديث : الحديث : ١١٦ [لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له] وقال تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴾ أي ولداً أزكى من هذا وهما أرحم به منه .

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٨٢)

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة لأنه قال أولاً : ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ وقال ها هنا : ﴿ فكان لغلّامين يتيمين في المدينة ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فكأن من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك ﴾ ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلّامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما أي تحته مال مدفون لهما وهو ظاهر السياق من الآية وهو اختيار ابن جرير رحمه الله وقوله : ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ فيه

دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ، ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم كما جاء في القرآن ووردت به السنة وقوله : ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ﴾ ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى ، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله وقال في الغلام ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة ﴾ وقال في السفينة ﴿ فأردت أن أعيها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ رحمةً من ربك وما فعلته عن أمري ﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة ، إنما هو رحمة من الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة والذئ الغلام وولدي الرجل الصالح وما فعلته عن أمري نكني أمرت به ووقفت عليه ، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله تعالى : ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾

وقيل ان الخضر ما يزال باقياً أي حياً وذكروا في ذلك حكايات ولا يصح شيء من ذلك وأشهرها أحاديث التعزية وهي غير صحيحة وأساندها واهية .

ورجح آخرون خلاف ذلك أي أنه ليس حياً ومات كما مات غيره من الأنبياء على نبينا وعليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام واحتج هؤلاء على وفاة الخضر بقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ وبقول النبي ﷺ يوم بدر : [١١٧] ٢ اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض [٣] وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين : الجن والإنس وقد قال : [١١٨] لو كان موسى حياً لما وسعه الا اتباعي [٤] وأخبر عليه الصلاة والسلام قبل موته بقليل أنه [١١٩] لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته عين تطرف [٥] إلى غير ذلك من الدلائل .

وفي صحيح البخاري : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : [١٢٠] إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة . فإذا هي تهتز من خضراء [والمراد بالفروة ههنا : الحشيش اليابس وهو الهشيم من النبات ، قاله عبد الرزاق . وقوله : ﴿ ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً ، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداءً ، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال ﴿ تستطع ﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقیلاً . قال : ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ ، فقابل الأثقل بالأثقل والأخف

بالأخف ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ﴿ وما اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ وهو أشق من ذلك ، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى ، والله أعلم .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ (٨٣) ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ (٨٤)

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ ويسألونك ﴾ يا محمد ﴿ عن ذي القرنين ﴾ أي عن خبره وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألونهم ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا : سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية ما يدري ما صنعوا ، وعن الروح ، فترلت سورة الكهف وفيها : ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً ﴾ وقد ظن بعضهم أنه رومي وهذا غير صحيح ، والصحيح هو ما ذكره الأزرق وغيره أنه طاف بالبيت مع ابراهيم عليه السلام أول ما بناه واتبعه وقرب إلى الله قرباناً وقد ذكرنا طرفاً من اخباره في كتاب البداية والنهاية ، بما فيه كفاية والله الحمد .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً مكنناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود والآلات الحربية وآلات الحصار ولهذا ملك المشارق والمغرب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له الملوك وخدمته الأمم من العرب والعجم ؛ ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها . وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ كقوله تعالى في حق بلقيس : ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ أي مما يؤتى مثلها من الملوك وهكذا ذو القرنين ، يسر الله له الأسباب أي الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والأراضي ، وكسر الأعداء وكبت ملوك الأرض ، وإذلال أهل الشرك قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً والله تعالى أعلم

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا

تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ

تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ

نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ
أَمِنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا
يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴿٢٠٠﴾

قال مجاهد : ﴿فأتبع سبياً﴾ أي منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب . وقوله تعالى : ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾ أي فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وقوله تعالى : ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾ أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرب فيه ، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تغادره . وفيما يؤثر من قول تَبِعَ فيما ذكر به ذا القرنين في تخلقه بالعلم واتباعه إياه :

بلغ المشارق والمغارب يتغني أسباب أمرٍ من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذا خلب وناطٍ حرّمدٍ

وقد سمع ابن عباس هذين البيتين من ابن حاصر فسأله ابن عباس : ما الخلب ؟ قلت الطين بكلامهم . قال فما الناط ؟ قلت الحمأة ، قال : فما الحرمد ؟ قلت الأسود ، فدعا ابن عباس رجلاً أو غلاماً فقال : اكتب ما يقول هذا الرجل ^(١) وقوله تعالى : ﴿ووجد عندها قوماً﴾ أي أمة من الأمم ، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم . وقوله تعالى : ﴿قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً﴾ أي إن الله مكّنه منهم ، وحكمه فيهم ، وأظفره بهم وخيره إن شاء قتل وسبي ، وإن شاء منّ أو فدى ، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه في قوله : ﴿أما من ظلم﴾ أي استمر على كفره وشركه بربه ﴿فسوف نعذبه﴾ عذاباً أليماً يغشاهم من جميع جهاتهم والله أعلم . وقوله : ﴿ثم يردُّ إلى ربِّه فيعذبه عذاباً نكراً﴾ أي شديداً بليغاً وجيعاً أليماً . وفي هذا إثبات المعاد والجزاء . وقوله : ﴿وأما من آمن﴾ أي تابعا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له : ﴿فله جزاء الحسنى﴾ أي في الدار الآخرة عند الله عز وجل ﴿وسنقول له من أمرنا يسراً﴾ أي معروفاً في الدنيا .

(١) قلت لما كان البحر ذا لون أزرق مائل إلى السواد و « حمئة » فيها معنى السواد فيكون المعنى إن الشمس وجدها تغرب في البحر ذي اللون الأزرق الأسود .

﴿ ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبِيًّا ﴾ (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ
وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿ (٩٠)
كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ (٩١)

يقول تعالى : ثم سلك طريقاً فصار من مغرب الشمس إلى مطلعها ، وكان كلما مرّ
بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل ، فإن أطاعوه .. وإلاّ أذلّهم وأرغم
آثافهم واستباح أموالهم وأمتعتهم واستخدم منهم جنداً له ، على قتال الإقليم المتاخم لهم ،
﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ ﴾ أي أمة ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا
سِتْرًا ﴾ أي ليس لهم بناء يكتنهم ولا أشجار تظللهم وتسترهم من حر الشمس قال سعيد
بن جبير : كانوا حمراً قصاراً مساكنهم الغيران وأكثر معيشتهم من السمك ، وعن
قتادة قال : هم الزنج وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ أي نحن
مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه ، لا يخفى علينا منها شيء وإن تفرقت أهمهم
وتقطعت بهم الأرض فإنه تعالى : ﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبِيًّا ﴾ (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ
مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿ (٩٣) قَالُوا يَاذَا
الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ
خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ (٩٤) قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ
رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿ (٩٥) أَتُونِي
زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا
جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ (٩٦)

يخبر تعالى عن ذي القرنين : ﴿ ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبِيًّا ﴾ أي سلك طريقاً من مشارق الأرض
﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان متناوحيان ، بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج
ومأجوج على بلاد الترك ، فيعيشون فيها فساداً ويهلكون الحرث والنسل ، ويأجوج

ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين : ١٢١ [ان الله تعالى يقول يا آدم فيقول لبيك وسعديك فيقول : ابعث بعث النار ، فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها فقال إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرناه : يأجوج ومأجوج] وقوله تعالى : ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أي لاستعجاب كلامهم وبعدهم عن الناس ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ أي أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سدا فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير : ﴿ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أي ان الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ أي بعملكم وآلات البناء ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ أتوني زبر الحديد ﴿ وَالزَّبْرُ جَمْعُ زَبْرَةٍ أَيْ الْقِطْعَةُ وَهِيَ كَاللَّبْنَةِ وَيُقَالُ إِنْ كُلُّ لَبْنَةٍ زَنَةٌ قِطَارٌ بِالْدمشقي أو تزيد عليه . ﴾ حتى إذا ساوى بين الصدفين ﴿ أَيْ وَضَعَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْأَسَاسِ حَتَّى إِذَا حَازَى بِهِ رُؤُوسَ الْجِبَلَيْنِ طَوْلًا وَعَرْضًا ، وَاخْتَلَفُوا فِي مَسَاحَةِ عَرْضِهِ وَطَوْلِهِ ﴾ قال انفخوا ﴿ أَيْ أَجْعَلُوا عَلَيْهِ النَّارَ حَتَّى صَارَ كُلُّ نَارٍ ﴾ قال أتوني أفرغ عليه قطرا ﴿ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ هُوَ النَّحَاسُ الْمَذَابُ وَيُسْتَشْهَدُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَسْلَمْنَا لَهُ بَعْدَ الْقَمَطِ ﴾ ولهذا يشبه بالبرْدِ المحبَّرِ أي طريقة سوداء وطريقة حمراء . ثم قال تعالى :

﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ (٩٧)

قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿ (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿ (٩٩)



ينخبر تعالى عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله ، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدرُوا على نقبه ولا على شيء منه .

وقوله تعالى : ﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾ أي لما بناه ذو القرنين ﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾ أي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث في الأرض والفساد ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ أي إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جعله دكاء ﴾ أي ساواه بالأرض ، ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ أي كائناً لا محالة . وقوله تعالى : ﴿ وتركنا بعضهم ﴾ أي الناس يومئذ ، أي يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أمواهم ، ويتلفون أشياءهم ، وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال كما سيأتي بيانه عند قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾ واقترب الوعد الحق ﴿ وهكذا قال ههنا : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ قال السدي : هذا أول يوم القيامة ﴿ ونفخ في الصور ﴾ على أثر ذلك ، والصور كما جاء في الحديث : قرن ينفخ فيه ، والذي ينفخ فيه إسرائيل عليه السلام ، وفي الحديث عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري مرفوعاً : ١٢٢] « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ، واستمع متى يؤمر ؟ » قالوا : كيف نقول ؟ قال : « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » [وقوله تعالى : ﴿ فجمعناهم جمعاً ﴾ أي أحضرنا الجميع للحساب . كقوله تعالى : ﴿ وحشرناهم فلم تغادر منهم أحداً ﴾ .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً ﴾ (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴿ (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿ (١٠٢)

يخبر تعالى عما يفعله بالكفار يوم القيامة أنه يعرض عليهم جهنم ، أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ ، يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك ثم قال مخبراً عنهم : ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ﴾ أي تغافلوا وتعاموا ، وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ وقال ههنا ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ أي لا يعقلون عن الله

(١٨ - الكهف - ج ١٦) : الضالون هم الأخسرون أعمالاً، ويحسبون أنهم على حق ٩٥

أمره ونهيه ؛ ثم قال تعالى : ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴾ أي اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك ويتفعون به ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا ﴾ (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ (١٠٦)

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ أي هل نخبركم بالأخسرين أعمالاً ، ثم فسرهم فقال عز من قائل : ﴿ الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا ﴾ أي عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة ، مرضية مقبولة ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ أي يعتقدون أنهم على شيء وأنهم مقبولون محبوبون ، وهم في الواقع مخطئون واعمالهم مردودة على أن هذه الآية لم تنزل في جماعة مخصوصة بل هي أعم من هذا ... فهي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها ، وأن عمله مقبول بينما هو مخطيء مردود العمل كما قال سبحانه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ وقواه تعالى : ﴿ أولئك الذين كفروا بآياتِ ربهم ولقائه ﴾ أي جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقامها على وحدانيته وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة ، ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ أي لا ننقل موازينهم لأنها خالية عن الخير . روى البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : ١٢٣ ﴿ لَيَأْتِي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال : ﴿ اقرأوا إن شئتم : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ . وقوله تعالى ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ﴾ أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزوا ، أي استهزأوا بهم وكذبوهم أشد الكذب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿١٠٨﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به ، أن لهم جنات الفردوس . وفي الصحيحين : ١٢٤ [إذا سألكم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة] وقوله تعالى : ﴿نزلاً﴾ أي ضيافة ﴿خالدين فيها﴾ أي مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبداً ﴿لا يبغيون عنها حولاً﴾ أي لا يختارون عنها غيرها ولا يحبون سواها ، كما قال الشاعر :

فحلت سويدا القلب لا أنا باغياً سواها ولا عن حبها أنحول

على أن المقيم في مكان عادي ، قد يتسرب إلى نفسه السأم أو الملل ، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يبغيون متحولاً ، ولا انتقالاً ولا ظعناً ولا رحلة ولا بدلاً .

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه ، لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك ﴿ولو جئنا بمثله مدداً﴾ أي بمثل البحر آخر ثم آخر وهلم جرا لما نفدت كلمات الله ، كما قال تعالى : ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١١٠﴾

روى الطبراني عن عمرو بن قيس الكوفي أنه سمع معاوية بن أبي سفيان أنه قال : هذه آخر آية أنزلت ^(١) ، يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله عليه وسلامه : ﴿ قل ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم : ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ فمن زعم أنني كاذب ، فليأت بمثل ما جئت به فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي عما سألتكم من قصة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين مما هو مطابق في نفس الأمر ، لولا ما أطلعني الله عليه ، وإنما أخبركم ﴿ إنما إلهكم إله واحد ﴾ لا شريك له ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ﴾ ما كان موافقاً لشرع الله ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له ، وهذان ركنا العمل المتقبل ، لا بد أن يكون خالصاً لله ، صواباً على شريعة رسوله ﷺ .

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : ١٢٥ | كنا نتناوب رسول الله ﷺ فنبيت عنده تكون له الحاجة أو يطرقه أمر من الليل فيبعثنا ، فكثير المحبوسون وأهل النوب ، فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال « ما هذه النجوى ؟ » قال : فقلنا تبنا إلى الله أي نبي الله ، إنما كنا في ذكر المسيح وفرقنا منه فقال : ﴿ ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي » قال : قلنا بلى قال : ﴿ الشرك الخفي ان يقوم الرجل يصلي لمكان الرجل » [.

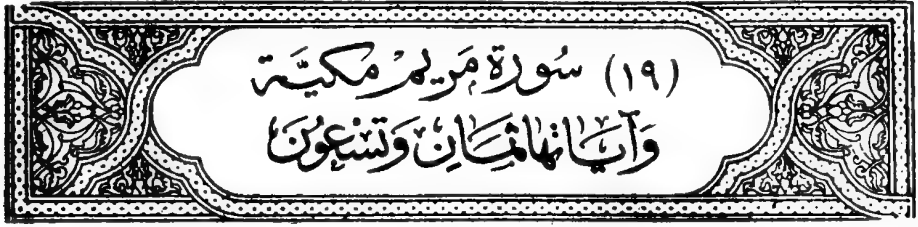
روى الامام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال ١٢٦ [أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري ، فأنا بريء منه وهو للذي أشرك] تفرد به من هذا الوجه .

روى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : ١٢٧ [إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ﴾ قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال « الرياء . يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم : إذهبوا إلى الذين كنتم ترءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء . » [

روى أبو يعلى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٢٨ [من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو ، فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل] آخر تفسير سورة الكهف والله الحمد والمنة .

١٣٨٩/٨/٦

١٩٦٩/١٠/١٧



سوى الآيتين (٥٨) و (٧١) فمدنيتان نزلت بعد فاطر

روى محمد بن اسحق في السيرة من حديث أم سلمة وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ كَبَّعَصَ ﴾ * (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * (٢)
إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي
وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * (٤) وَإِنِّي
خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
وَلِيًّا * (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * (٦) ﴿ يَرْثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقدم تقدم في أول سورة البقرة . وقوله تعالى :
﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني اسرائيل وفي صحيح البخاري أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده في النجارة وقوله تعالى : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ إنما أخفى دعاءه لأنه أحب إلى الله تعالى الذي يعلم القلب التقي ، ويسمع الصوت الخفي ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أي ضعفت وخارت قواي ﴿ وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أي اضطرم المشيب في السواد ، والمراد الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة وقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أي ولم أعهد

منك إلاّ الإجابة في الدعاء ، ولم تردني قط فيما سألتك ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾ أي أخشى أن يتصرف عصبي من بعدي في الناس تصرفاً سيئاً ﴿ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ أي ولداً نبياً من بعدي يسوس الناس بما يوحى إليه من النبوة ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ أي يكون نبياً كما كانت آبائوه أنبياء ، وكل ما قيل من أنه طلب أن يرث ماله فهذا غير صحيح لأن النبي أجل شأنه وأعظم منزلةً ، وأعلى قدراً ، من أن يشفق على ماله ، في الوقت الذي كان فيه زكريا نجاراً يأكل من كسب يديه ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا . وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : ١٢٩ (لا نورث ما تركناه صدقة) وعلى هذا تعين حمل قوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ يرثني ويرث آل يعقوب ﴿ على ميراث النبوة لا على ميراث المال . وكل ما جاء من الأحاديث بميراث المال فهي أحاديث ضعيفة مرسله لا تعارض الصحاح والله تعالى أعلم . وقوله : ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ﴾ أي مرضياً عندك وعند خلقك ، تحبه وتحبه إلى خلقك في دينه وخلقه .

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (٧)

ان الله تعالى أجاب عبده زكريا ما سأله فقال تعالى : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ . فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسوراً نبياً من الصالحين ﴿ وقوله تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ قال قتادة وغيره : أي لم يسم أحداً قبله بهذا الاسم وقال مجاهد : سميّاً أي شبيهاً ، أخذه من معنى قوله تعالى : ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميّاً ﴾ أي شبيهاً وقال ابن عباس ، أي لم تلد العواقر قبله مثله .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ (٩)

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد ففرح فرحاً شديداً ، وسأل عن كيفية ما يولد له ، والوجه الذي يأتيه منه الولد ، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها ، ومع أنه قد كبر وعتا أي عسا عظمه ونخل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع قال مجاهد : عتياً يعني نحول العظم .

﴿ قال ﴾ أي الملك محبباً لزكريا عما استعجب منه ﴿ كذلك قال ربك هو عليّ هين ﴾ أي إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ، ﴿ هين ﴾ أي يسير سهل على الله تعالى ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل ، فقال جل وعلا : ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (١١)

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه : ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني ، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني ، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ وها هنا ... ﴿ قال آيتك ﴾ أي علامتك ﴿ أن لا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويًّا ﴾ أي تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال ، وأنت صحيح سوي ، من غير مرض ولا علة قال ابن عباس وغيره : اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة وقال ابن زيد بن أسلم : كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة .

والمراد من قوله تعالى : ﴿ ثلاث ليالٍ سويًّا ﴾ أي ثلاثة أيام بلياليها متتابعات ، وقال مالك ابن زيد بن أسلم : من غير خرس ، وكما قال تعالى في آل عمران : « إلا رمزاً ﴾ أي إشارة وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ ^(١)

(١) قلت : « من المحراب » أي من المسجد وليس المحراب هو تلك الفجوة التي يقف فيها الإمام للصلاة فهذه ليس اسمها محراباً ولم تكن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا من السلف الصالح إنما أحدثت بعده

أي الذي بشر فيه بالولد ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أي أشار إشارة خفية سريعة ﴿ ان سبحوا بكرة وعشيّاً ﴾ أي موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه .

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ (١٢)
وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً ﴾ (١٣) وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً ﴾ (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُنْعَثُ حَيّاً ﴾ (١٥)

ان الله تعالى علم يحيى التوراة التي كان الدين في ذلك العصر يتدارسونها بينهم ، ويحكم بها النبيون فقوله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَى خذ الكتاب بقوة ﴾ أي تعلم الكتاب وهو التوراة بجهد وحرص واجتهاد وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ أي الفهم والعلم والجد والعزم والاقبال على الخير والاجتهاد فيه وهو صغير حدث . قال الصبيان يوما ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب فقال ما للعب خلقنا قال فلهذا أنزل الله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا ﴾ أي وآتيناه الحكم وحناناً وزكاة أي وجعلناه ذا حنان وزكاة ، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل .

وقوله : ﴿ وَزَكَاةً ﴾ معطوف على وحناناً ، فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب ﴿ وَكَانَ تَقِيّاً ﴾ طُهر أي فلم يعمل بذنوب . وقوله تعالى : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً ﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه ثنّي بربه لوالديه قولاً وفعللاً فجزاه بقوله تعالى : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُنْعَثُ حَيّاً ﴾ أي له الأمان في هذه المواطن الثلاثة . قال سفيان بن عيينة : أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن : يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوماً لم يعاينهم ، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم قال فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلم عليه فقال

عز من قائل : ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿(١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿(١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿(٢١)﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وانه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً مباركا ، عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب ، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة ، ولهذا ذكرهما في آل عمران وههنا ، وفي سورة الأنبياء يقرن بين القصتين ليقارب ما بينهما في المعنى ، ليدل عباده على قدرته وعظمته سلطانه ، وانه على كل شيء قدير . فقال جل ثناؤه : ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ وهي مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام وان أمها نذرته محررة أي تخدم بيت المقدس تقرباً إلى الله تعالى ﴿فتقبلها ربهما بقبول حسن وأنبأها نبأاً حسناً﴾ فنشأت نشأة عظيمة في بني إسرائيل ، وكانت أشهر العابدات تنسكاً وتبتلاً ودأباً . ورأى لها زكريا عليه السلام زوج أختها وكفيلها من الكرامات الهائلة ما بهره : ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام أحد الرسل أولى العزم الخمسة العظام ﴿انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ أي اعتزلتهم وتنحّت عنهم وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس .

وقوله تعالى : ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً﴾ أي استترت منهم وتوارت ، ﴿فأرسلنا

إليها روحنا ﴿ يعني جبرائيل عليه السلام ﴾ ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ أي على صورة إنسان تام كامل ﴿ قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً ﴾ أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر في مكان منفرد ، خافته وظنت أنه يريد لها على نفسها ، فقالت : ﴿ اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً ﴾ أي ان كنت تخاف الله ، تذكر له بالله تعالى ، وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل ، فخوفه أولاً بالله عز وجل . ﴿ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ أي لست كما تظنين ، ولكني رسول ربك ﴿ لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسن بشراً ولم أك بغياً ﴿ أي كيف يكون لي غلام ، ولست بذات زوج ، ولا يتصور مني الفجور ﴾ قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ﴿ أجابها جبريل عليه السلام : إن الله تعالى قد قال انه سيوجد منك غلاماً بلا بعل ، ولا فاحشة فإنه على كل شيء قدير ولهذا قال سبحانه : ﴿ ولنجعل له آية للناس ﴾ أي دلالة وعلامة لهم على قدرته تعالى ، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر فجلت قدرته ، وعظم سلطانه ولا إله غيره ولا رب سواه .

وقوله تعالى : ﴿ ورحمة منا ﴾ نبياً يدعو إلى عبادة الله وتوحيده ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ أي لا بد منه .



﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِياً مَنْسِياً ﴿ (٢٣) ﴾

يخبر تعالى عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال ، استسلمت لقضاء الله تعالى عند ذلك نفخ جبريل في جيب درعها ، فترلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى . فلما حملت به ضاقت ذرعاً ، ولم تدر ماذا تقول للناس فلأنهم لا يصدقونها فيما يخبرهم به ، غير أنها أفشت سرها ، وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا التي حملت ببيحي ، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها وقالت : أشعرت يا مريم أني حبل ؟ فقالت لها مريم : وهل علمت أيضاً أني حبل ، وذكرت لها شأنها وما كان من خبرها ، وكانوا بيت إيمان وتصديق . وقد اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام ، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء

بأولادهن ، وقال محمد بن اسحق : فلما حملت به وملأت قلبها ورجعت استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم وتغير اللون ، حتى فطر لسانها ، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا ، وشاع الحديث في بني اسرائيل فقالوا : إنما صاحبها يوسف النجار فلم يكن معها في الكنيسة غيره ، وتواترت من الناس واتخذت من دونهم حجاباً ، فلا يراها أحد ولا تراه وقوله تعالى : ﴿ فَأَجَّاهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أي فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي تنحّت إليه . وقد اختلفوا فيه ، إنما المشهور أنه بيت لحم وهي قرية تبعد عن بيت المقدس ثمانية أميال إلى الشرق وهذا هو المشهور الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض ، ولا يشك فيه النصارى أنه بيت لحم .

وقوله تعالى إخباراً عنها : ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِياً مَنْسِياً ﴾ فيه دليل على جواز تمّي الموت عند الفتنة ، فإنها عرفت أنها ستبلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يصدقها الناس من أمرها فيه ، بعد مكانها منهم من العبادة والتقوى والصلاح ، ويظنون أنها عاهرة زانية ، فتمنت أن تموت قبل هذا الحال من الولادة من غير بعل وان تكون شيئاً لا يعرف ولا يذكر ككل شيء نسي وترك فكان نسياً منسياً . وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمّي الموت الا عند الفتنة عند قوله تعالى : ﴿ تُوَفِّي مُسْلِمًا وَالْحَقَنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ^(١) .

﴿ فَناداها مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ (٢٤) وَهْزِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿ (٢٥) فَكُلِي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ لِنِسَاءٍ ﴾ (٢٦) ﴿

اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى : ﴿ فَناداها مِنْ تَحْتِهَا ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وعمر بن ميمون والسدى وقتادة : أنه الملكُ جبريل عليه الصلاة والسلام ، أي ناداها من أسفل الوادي ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها وقال مجاهد والحسن : هو ابنها وهو إحدى الروايتين عن سعيد بن جبير واختاره ابن

جرير في تفسيره - والله أعلم - .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ لَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا ﴾ أي ناداها قائلاً : لا تحزني فقد جعل ربك تحتك نهراً تشربين منه والسري : هو النهر الصغير ثم قال : ﴿ وَهَزَّتْ إِلَيْكَ النَّخْلَةَ ﴾ قيل كان الجذع يابساً فهزته مريم فتساقط عليها الرطب ولهذا امتنَّ الله عليها بذلك ، بأن جعل عندها طعامها وشرابها فقال : ﴿ تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ فكلي واشربي وقرِّي عيناً ﴿ أي طيبي نفساً ، ولهذا قال عمرو بن ميمون : ما من شيء خير للنساء من الثمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية ...

وقوله : ﴿ فإِذَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ أي مهما رأيت من أحد ﴿ فقولني إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ المراد بهذا القول هو الإشارة إليه بذلك لا أن المراد به القول اللفظي لثلاثين : ﴿ فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ قال أنس بن مالك في قوله : ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ أي صمتاً وفي رواية عنه : صوماً وصمتاً . وكان في شريعتهم إذا صاموا يحرم عليهم الطعام والكلام .

﴿ فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿ (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْتِ صَبِيًّا ﴾ (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿ (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿ (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿ (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿ (٣٣)

يخبر تعالى عن مريم حين أمرها ألا تكلم أحداً من البشر ، فاستسلمت ، فكفاها أمرها وأقام حجتها ، فآتت قومها تحمل ولدها ، فلما رأوها أعظموا أمرها جداً واستنكروه

﴿ قالوا يا مريم لقد جننت شيئاً فرياً ﴾ امرأة عظيمة ﴿ ياأخت هارون ﴾ ياشبيهة هارون في العبادة . ﴿ ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً ﴾ أي أنت من بيت طاهر طيب معروف بالصلاح والعبادة والتقوى . فكيف صدر هذا منك ؟ ﴿ فأشارت إليه ﴾ أي أسألوا هذا المولود يخبركم ﴿ قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً ﴾ أي فوق ما جاءت به من الداهية ، تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبياً أي : من هو موجود في مهده طفلاً كيف يتكلم ... ؟ ﴿ قال ﴾ أي المولود عيسى : ﴿ إني عبد الله ﴾ أول ما تكلم به نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لربه ثم قال : ﴿ آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ أي يؤتيني الكتاب والنبوة . وقوله : ﴿ وجعلني مباركاً أينما كنت ﴾ أي جعلني معلماً للخير ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر أينما كنت ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴾ إشارة إلى عظم هذين الركنين الركيزتين .

وقوله : ﴿ وبرأ بوالدتي ﴾ أي لا أعصى لها أمراً . ذكر البر بالوالدة بعد طاعة ربه لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين كما قال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ وقوله ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ استكبر عن عبادته وطاعته ، وبر والدتي فأشقى بذلك وقوله ﴿ والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ﴾ أي أثبت لنفسه العبودية لله عز وجل بأنه مخلوق كسائر المخلوقات يحيا ويموت ويبعث حياً كبقية الخلائق عليه من الله أطيب الصلوات وأزكى التحيات .

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (٣٤)
 مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ (٣٧)

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه : ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿ قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ أي يختلف فيه المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به ، ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً ، نزه نفسه المقدسة فقال سبحانه : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ﴾ عما يقول هؤلاء الجاهلون والظالمون المعتدون

(١٩-مریم-ج١٦): ليس عيسى الله ولا ابنة ، ولا ثالث ثلاثة ، بل عبده ورسوله ١٠٧

علوّاً كبيراً ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أي إذا أراد شيئاً ، فإنما يأمر فيصير كما يشاء وذلك كقوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ أي ومما أمر به عيسى عليه السلام قومه وهو في المهد أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم وأمرهم بعبادته فقال : ﴿ فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ أي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم . من اتبعه رشد ، وهدى ، ومن خالفه ضل وغوى . وقوله تعالى : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى عليه السلام بعد بيان أمره بأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فصمّت طائفة منهم ، وهم جمهور اليهود - عليهم لعائنُ الله - على أنه ولد زنية ، وقالوا : كلامه هذا سحر . وقالت طائفة أخرى : إنما تكلم الله ، وقال آخرون ، بل هو ابن الله وقال آخرون ثالث ثلاثة . وقال آخرون بل هو عبد الله ورسوله ، وهذا هو قول الحق الذي أرشد إليه المؤمنون ، وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون وابن جريج وقاتدة وغير واحد من السلف والخلف .

وقوله تعالى : ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافتري وزعم أن له ولداً . ولكن أنظر هم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم علماً وثقة بقدرته عليهم ، فانه الذي لا يعجل على من عصاه كما جاء في الصحيحين : ١٣٠ [إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ رسول الله ﷺ] وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد] فقال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ أي يوم القيامة . وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته ، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [١٣١] من شهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وأن الجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل] .

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٢٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ

فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا
وَالْإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن الكفار يوم القيامة أنهم يكونون أسمع شيء وأبصره كما قال تعالى : ﴿ ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾ أي يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئاً ، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لكان نافعاً لهم ، ومنقذاً من عذاب الله ، ولهذا قال : ﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ أي ما أسمعهم وما أبصرهم ﴿ يوم يأتوننا ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لكن الظالمون اليوم ﴾ أي في الدنيا ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون ، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك ثم قال تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ أي أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿ إذ قضي الأمر ﴾ أي فصل بين أهل الجنة وأهل النار وصار كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه ﴿ وهم ﴾ أي اليوم ﴿ في غفلة ﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ أي لا يصدقون به . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : ١٣٢ [« إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ - قال - فيشربون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت - قال - فيقال : يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ قال : فيشربون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت - قال - فيؤمر به فيذبح قال : ويقال يا أهل الجنة خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ وأشار بيده ثم قال : « أهل الدنيا في غفلة الدنيا » [هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن الأعمش به ولفظهما قريب من ذلك وفيهما عن ابن عمر وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ : يخبر تعالى أنه هو الخالق المتصرف المالك ، وإن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس ولا أحد يدعى ملكاً ولا تصرفاً ، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم الحاكم فيها ، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة .

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١)
 إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي
 عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ
 يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ
 الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ
 أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿واذكر في الكتاب ابراهيم﴾ أي اذكر لقومك الذين
 يعبدون الأصنام مع انهم يدعون انهم من ذريته وعلى ملته ﴿إنه كان صديقاً نبياً﴾ واتل
 خبره واذكر لهم ما جرى له مع أبيه وكيف نهاه عن عبادة الأصنام : ﴿إذ قال لأبيه
 يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ أي لا ينفعك ولا يدفع عنك
 ضرراً ، ﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾ يقول وإن كنت من صلبك
 وتراني أصغر منك لأني ابنك فاعلم أنني قد اطلعت من العلم من الله تعالى على ما لم تعلمه
 أنت ، ولا اطلعت عليه ولا جاءك ﴿فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾ أي طريقاً مستقيماً
 موثقاً إلى نيل المطلوب والنجاة من المارهبوب ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾ أي لا تطعه
 في عبادتك هذه الأصنام فإن الشيطان هو الداعي إلى ذلك والراضي به ، كما قال تعالى :
 ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ان لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ .

وقوله تعالى : ﴿إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾ أي مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه
 فطرده وأبعده ، فلا تتبعه تصير مثله ﴿يا أبت إني أخاف ان يمسك عذاب من الرحمن﴾
 أي على شركك وعصيانك لما أمرك به ﴿فتكون للشيطان ولياً﴾ يعني فلا يكون لك
 مولى ولا ناصر ولا مغيثاً إلا إبليس ، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمور شيء بل
 اتباعك له موجب لإحاطة العذاب لك ، كما قال تعالى : ﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من
 قبلك فزین لهم الشيطان أعمالهم ، فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم﴾ .

﴿ قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ
لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ
رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿ (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ (٤٨) ﴿

يخبر تعالى عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه انه قال : ﴿ أَرَأَيْبُ أَنْتَ
عَنْ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ يعني ان كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها فلا تشتمها وإلا
اقتصصت منك وشتمتك وهو قوله : ﴿ لأرجمَنَّكَ ﴾ قاله ابن عباس وغيره وقوله :
﴿ واهجرني مليًّا ﴾ أي اهجرني أبداً قبل أن تصيبك مني عقوبة واختاره ابن جرير .
فعندها قال إبراهيم لأبيه ﴿ سلام عليك ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين : ﴿ وإذا
خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ ومعنى قول إبراهيم لأبيه : ﴿ سلام عليك ﴾ يعني أما
أنا فلا ينالك مني مكروه لحرمة الأبوة ﴿ سأستغفر لك ربّي ﴾ أي سأسأله أن يهديك
ويغفر ذنبك ﴿ إنه كان بي حفيًّا ﴾ الحفيّ الذي يهتم بأمره . وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه
مدة طويلة حتى وبعد أن بنى المسجد الحرام هو واسماعيل عليه السلام في قوله : ﴿ ربنا
اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهلهم
من المشركين في ابتداء الإسلام وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك حتى أنزل الله تعالى :
﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم
وما تعبدون من دون الله - إلى قوله - إلا قول إبراهيم لأبيه لا استغفرن لك وما أملك
لك من الله من شيء ﴾ الآية ... يعني إلا في هذا القول فلا تتأسوا به ثم بين تعالى أن
إبراهيم أفلح عن ذلك ورجع عنه فقال تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا
للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ وما كان
استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن مواعده وعدّها إياه فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه إن
إبراهيم لأواه حليم ﴿ وقوله : ﴿ وأعزّلُكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربّي ﴾ أي
اجتنبكم واتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله ﴿ وأدعو ربّي ﴾ أي واعبد
ربّي وحده لا شريك له ﴿ عسى ألاّ أكون بدعاء ربّي شقيًّا ﴾ وعسى هذه موجبة لا
محالة فإنه عليه الصلاة والسلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ

﴿ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ (٤٩) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ (٥٠) ﴿

يقول تعالى : فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله ، أبدله الله من هو خير منهم ، ووهب له اسحاق ابنه ، ويعقوب ابن ابنه أي جعلنا له نسلًا وعقبًا أنبياء أقر الله بهم عينه في حياته أي اسماعيل واسحق وابنه يعقوب ولهذا قال تعالى : ﴿ وكلاً جعلنا نبياً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾ قال ابن عباس الثناء الحسن ، وقال ابن جرير : انما قال : ﴿ علياً ﴾ لأن جميع الملل والأديان يشنون عليهم ويمدحونهم ، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم أجمعين .

﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ (٥١) ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ (٥٢) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ (٥٣) ﴿

لما ذكر تعالى ابراهيم الخليل ، وأثنى عليه ، عطف بذكر الكليم فقال تعالى : ﴿ وأذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً ﴾ بفتح اللام بمعنى أنه كان مصطفى كما قال تعالى : ﴿ إني اصطفيتك على الناس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ جمع الله له بين الوصفين ، فإنه كان نبياً ورسولاً من أولى العزم . وقوله تعالى ﴿ وناديناه من جانب الطور ﴾ أي الجانب ﴿ الأيمن ﴾ من موسى حين ذهب يستغي من تلك النار جذوة ، فكلمه الله تعالى وناداه ﴿ وقربناه نجياً ﴾ أي أدنيناه وكلمناه ، وناديناه بطور سيئه . وقوله تعالى : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً ولهذا قال بعض السلف : ما شفع أحدٌ في أحدٍ شفاعته في الدنيا أعظم من شفاعته موسى في هارون أن يكون نبياً ، فكان نبياً .

﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ

رَسُولًا نَبِيًّا * (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ
عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا * (٥٥)

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وهو والد
عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد . قال ابن جريج : لم يعد ربّه عدة إلاّ
أنجزها ، يعني ما التزم عبادة قط بنذر إلاّ قام بها ووفّاها حقها . وقال ابن جرير عن
سهل بن عقيل حدثه أن إسماعيل النبيّ عليه السلام وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه فيه ،
فجاء ونسي الرجل ، فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد ، فقال : ما
برحت من هاهنا قال : لا قال : إني نسيت . قال : لم أكن لأبرح حتى تأتيني ، فلذلك :
﴿ كان صادق الوعد ﴾ وقال بعضهم : إنما قيل له : صادق الوعد لأنه قال لأبيه :
﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ فصدق في ذلك وقوله تعالى : ﴿ وكان رسولاً
نبيّاً ﴾ في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه اسحق لأنه إنما وصف بالنبوة فقط ،
وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة . وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال :
١٣٣ [أن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل] وذكر تمام الحديث . فدل على صحة
ما قلناه وقوله تعالى : ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً ﴾ هذا
أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة ، والخلة السديدة حيث كان صابراً على طاعة
ربه عز وجل آمراً بها لأهله . كما قال تعالى لرسوله : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر
عليها ﴾ الآية ... وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾
الآية ... أي مروهم بالمعروف وأنهم عن المنكر ولا تدعوهم هملاً فتأكلهم النار
يوم القيامة ، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٣٤
[رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فإن أبت نضح في وجهها الماء .
رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها ، فإن أبي نضحت في وجهه
الماء] أخرجه أبو داود وابن ماجه . وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن
النبي ﷺ قال : ١٣٥ [إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين ،
كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات] رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه واللفظ له .

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * (٥٦)
وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا * (٥٧)

١١٤ (١٩-مریم-ج١٦) من أضاع الصلاة فهو لسواها أضيع—ومن إضاعتها إضاعة مواقيتها

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه وذلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانةً وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة ، والبكي جمع باك ، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداءً بهم واتباعاً لهم . قال سفيان الثوري عن أبي معمر قال : قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مریم فسجد وقال : هذا السجود فأين البكي ؟ يريد البكاء .

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء ، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره ، المؤذنين فرائض الله التاركين لزواجه ، ذكر أنه : ﴿ خلف من بعدهم خلف ﴾ أي قرون آخر ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع ، لأنها عماد الدين وقوامه ، وخير أعمال العباد ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ أي أقبلوا على الشهوات ، ورضوا بالحياة الدنيا وملأوها واطمأنوا بها ، فهؤلاء سيلقون غيًّا أي خساراً يوم القيامة ، وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة هاهنا فقال قائلون : المراد بإضاعتها تركها بالكلية . قاله محمد بن كعب القرظي وابن زيد بن اسلم والسري واختاره ابن جرير .

وقال الأوزاعي عن موسى بن سليمان عن القاسم بن خيمرة في قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ﴾ قال : إنما أضاعوا المواقيت ولو كان تركاً كان كفرًا وقال وكيع عن ابن مسعود أنه قيل له : إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ و ﴿ على صلاتهم دائمون ﴾ و ﴿ وعلى صلاتهم يحافظون ﴾ فقال ابن مسعود : على مواقيتها . قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على الترك ؛ قال : ذلك الكفر ، وقال بذلك مسروق وعمر بن عبد العزيز قال : لم تكن إضاعتها تركها ولكن أضاعوا الوقت . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ قال :

عند قيام الساعة وذهاب صالحى أمة محمد ﷺ ينزرو بعضهم على بعض في الأزقة .
 روى ذلك عن مجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح أنهم من هذه الأمة يعنون في آخر
 الزمان وقال مجاهد : يتراكون تراكب الأنعام والحمر في الطرق لا يخافون الله في
 السماء ، ولا يستحيون من الناس في الأرض .

قال أبو الأشهب العطاردي : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود حذر وأنذر
 أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة ،
 وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا أثر شهوة من شهواته أن أحرمه طاعتي .
 وقوله تعالى : ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ أي خسراً وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن
 مسعود قال : واد في جهنم بعيد القعر ، خبيث الطعم . وقوله تعالى : ﴿ إلا من تاب
 وآمن وعمل صالحاً ﴾ أي إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات ، فإن الله
 يقبل توبته ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ فأولئك
 يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴾ وذلك لأن : ١٣٦ [التوبة تجب ما قبلها] ، وفي
 الحديث الآخر ١٣٧ [التائب من الذنب كمن لا ذنب له] ولهذا لا يُنقص هؤلاء التائبون
 من أعمالهم التي عملوها شيئاً ، ولا قبولوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها ،
 لأن ذلك ذهب هدرأ ، وعفي عنه تفضلاً ، وذهب مجاناً من كرم الكريم وحلم الحليم .
 وهذا الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ إلا من تاب ... ﴾ الآية كقوله تعالى في سورة الفرقان :
 ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق - إلى قوله
 تعالى - وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ
 وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾ (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ
 رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيَا ﴾ (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ
 عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ (٦٣)

يقول تعالى : الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات عدن أي إقامة
 التي وعد الرحمن عباده بظهر الغيب ، أي هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه
 وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم ، وقوله تعالى : ﴿ إنه كان وعده مأتياً ﴾ تأكيد لثبوت

الحصول عليه وأنهم حتماً صاثرون اليه وسيأتونه كقوله تعالى : ﴿ كان وعده مفعولاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ أي في هذه الجنة ليس فيها كلام تافه لا معنى له وقوله تعالى : ﴿ إلاّ سلاماً ﴾ كقوله سبحانه : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ وقوله عز من قائل : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً ﴾ أي صباحاً ومساءً وليس في الجنة ليل أو نهار ، ولكن أهلها في أوقات تتعاقب يعرفون مضيتها بأضواء وأنوار مقدار الليل والنهار ، يعرفون ذلك بإرخاء الحجب ، وإغلاق الأبواب ، وبرفعها وفتحها .

وقال الحسن وقتادة وغيرهما : كانت العرب ، الأنعم فيهم من يتغذى ويتعشى ، فتزل القرآن على ما في أنفسهم من النعيم فقال تعالى : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ أي هذه الجنة التي وصفناها بهذه الصفات العظيمة ، هي التي نورثها عبادنا المتقين ، وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس . كما قال تعالى : في أول سورة « المؤمنون » ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ .

﴿ وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ (٦٥)

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : ١٣٨ (قال رسول الله ﷺ لجبرائيل : « ما يمنعك ان تزورنا أكثر مما تزورنا » قال : فتزلت : ﴿ وما ننزل إلاّ بأمر ربك ﴾ إلى آخر الآية إنفرد باخراجه البخاري عن أبي نعيم عن عمر بن ذر به ..

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير . فكان ذلك الجواب لمحمد ﷺ . قال مجاهد : وهذه الآية كالتي في الضحى : ﴿ ما ودّعك ربك وما قلى ﴾ وكذلك قال الضحاك وقتادة والسري وغير واحد أنها نزلت في احتباس جبريل وقوله : ﴿ له ما بين ايدينا وما خلفنا ﴾ أي ما يستقبل من أمر الآخرة وما مضى من امر الدنيا ﴿ وما بين ذلك ﴾ أي ما بين الدنيا والآخرة ويروى نحوه عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم

واختاره ابن جرير والله أعلم .

وقوله : ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ قال مجاهد والسدي : معناه ما نسيتك ربك وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ والضحى والليل اذا سجي ما ودعك ربك وما قلى ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء يرفعه ، قال : ١٣٩ [ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسى ثم تلا هذه الآية : ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي خالق ذلك ومدبره والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه ﴿ فاعبدوه واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس : هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً . وقال عكرمة عنه : ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه .

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتْ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ (٦٦)
 أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئاً ﴾ (٦٧)
 فَوَرَبَّكَ لَنَخْشَرَنَّهَمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُخْضِرَنَّهَمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ (٦٨)
 ثُمَّ لَنَنْزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبَ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴾ (٦٩) ثُمَّ
 لَنَخْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ (٧٠) ﴿

يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ﴾ وقال ها هنا : ﴿ ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً ﴾ . أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴿

يستدل تعالى بالبداة على الإعادة ، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً أفلا يعيده وقد صار شيئاً كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ عليه ﴿ وفي الصحيح : ١٤٠ (يقول تعالى : كذبي ابن آدم ولم يكن له أن يكذبي ، وأذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذني ، أما تكذبي إياي فقله لن يعيدني كما بداني وليس أول الخلق بأهون علي من آخره ، وأما أذاه إياي فقله إن لي ولداً وأنا الأحد

الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد] .

وقوله تعالى : ﴿ فو ربك لنحشرنهم والشیاطین ﴾ أقسم الرب تبارک وتعالی بنفسه
الکریمۃ انه لا مناص من حشرهم وشیاطینهم الذین عبدوهم من دون الله تعالی ﴿ ثم
لنحشرنهم حول جهنم جثیاً ﴾ أي جلوساً علی ركبتههم وقوله تعالی : ﴿ ثم لنترعنَّ من
کل شیعة ﴾ یعنی من کل أمة ﴿ أبئهم أشد علی الرحمن عتياً ﴾ أي لنترعنَّ من أهل کل
دین قادتهم ورؤساءهم فی الشر حتی إذا تکاملت العدة ، بدأنا بالأکابر فالأکابر جرماً ،
وهذا کقوله تعالی : ﴿ حتی إذا ادّارکوا فیها جمیعاً قالت أحرأهم لأولاهم ربنا هؤلاء
أضلونا فآبئهم عذاباً ضِعفاً من النار - إلى قوله - بما کنتم تکسبون ﴾ وقوله تعالی :
﴿ ثم لنحن أعلم بالذین هم أولى بها صلیاً ﴾ أي أنه تعالی أعلم بمن یتحق من العباد :
أن یصلی بنار جهنم ویخلد فیها ، وبمن یتحق تضعیف العذاب کما قال فی الآیة المتقدمة
﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا
مَقْضِيًّا ۖ ﴾ (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا
جِثِيًّا ۖ ﴾ (٧٢)

روی الامام أحمد عن أبي سمية قال : ١٤١] اختلفنا فی الورد فقال بعضنا : لا
یدخلها مؤمن ، وقال بعضهم : یدخلونها جمیعاً ، ثم ینجی الله الذین اتقوا . فلقیت جابر
ابن عبد الله فقلت له : إنا اختلفنا فی الورد فقال یردونها جمیعاً . وقال سلیمان بن
مرة : یدخلونها جمیعاً وأهوی بأصبعیه إلى أذنیه ، وقال صمتا ان لم أکن سمعت رسول
الله ﷺ یقول : [لا یبقی بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون علی المؤمن برداً وسلاماً کما
كانت علی إبراهیم حتی إن للنار ضجیجاً من بردهم ، ثم ینجی الله الذین اتقوا ویذر
الظالمین فیها جثیاً .]

روی الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود : ١٤٢] ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾
قال رسول الله ﷺ « یرد الناس کلهم ثم یصدرون عنها بأعمالهم » [ورواه الترمذی
وفی الصحیحین عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٤٣
[لا یموت لأحد من المسلمین ثلاثة من الولد فقمسه النار إلا نحلة القسم] وقال السدی عن

مرة عن ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ قال : قسماً واجباً . وقال مجاهد : حتماً ، قال قضاء ؛ وكذا قال ابن جريج . وقوله تعالى : ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم ، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم ، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا ، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين ، فيشفع الملائكة والنبيون ، والمؤمنون فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار إلا داث وجوههم وهي مواضع السجود وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان ، فيخرجون أولاً من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان ، ثم الذي يليه ثم الذي يليه حتى أنهم يخرجون من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر ، لا إله الا الله ولم يعمل خيراً قط ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ .

﴿ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعُونَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِثِيًّا ﴾ (٧٤)

يخبر تعالى عن الكفار حين تلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة ، أنهم يصدون ، ويعرضون عن ذلك ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الباطل بأنهم ﴿ خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ أي أحسن منازل وناديبهم أعمر وأكثر وارداً وطارقاً ، فكيف يكونون - بزعمهم - على باطل وأولئك الذين هم مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق ، كما قال تعالى نخبراً عنهم : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ أي وكم من أمة من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم ﴿ هم أحسن أثاناً ورثياً ﴾ أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً .

قال الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس : ﴿ خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ قال :
المقام المنزل ، والندي المجلس ، والأثاث المتاع ، والرئي المنظر .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا
حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ
هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ (٧٥)

يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد هؤلاء المشركين بربههم المدعين أنهم على الحق وانكم
على الباطل ﴿ من كان في الضلالة ﴾ أي منا ومنكم ﴿ فليمدد له الرحمن مدًّا ﴾ أي
فأمهله الله فيما هو فيه ، وليدعه في طغيانه إلى أن يلقي ربه ﴿ إما العذاب ﴾ يصيبه
﴿ وإما الساعة ﴾ بغتة تأتيه ﴿ فسيعلمون ﴾ حينئذ ﴿ من هو شر مكاناً وأضعف جنداً ﴾
في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي . وهذه مباهلة للمشركين الذين
يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في سورة البقرة عندما
ادعوا أنهم أولياء الله من دون الناس وكما ذكر تعالى في مباهلة النصارى في سورة آل
عمران عندما ادعوا أن عيسى عليه السلام ابن الله ، سبحانه الله وتعالى عما يصفون ،
فنكلوا جميعاً عن المباهلة لعلمهم أنهم على الباطل وأن محمداً ﷺ على الحق . وإلا
لباهلوه .

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ
خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ (٧٦)

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه ، وزيادته على ما هو عليه ،
أخبر بزيادة المهتدي هدى ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول
أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قد تقدم تفسيرها
والأحاديث المتعلقة بها في سورة الكهف ^(١) ﴿ خير عند ربك ثواباً ﴾ أي جزاء ﴿ وخير
مرداً ﴾ أي عاقبة ومرداً على صاحبها .

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا
وَوَلَدًا﴾ (٧٧) ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٧٨)
﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ (٧٩) ﴿وَنَزِثُ
مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (٨٠) ﴿

روى الإمام أحمد عن الحَبَّابِ بن الأَرْت ، قال : ١٤٤ (كنت رجلاً قيناً .
وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر
بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث . قال : فإني إذا
متُّ ثم بعثت جثتي ولي ثم مال وولد فأعطيتك : فأنزل الله تعالى . ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي
كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ — إلى قوله تعالى — وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿ أخرجه صاحبنا
الصحيح وغيرهما . وقوله تعالى : ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ إنكار على هذا القائل :
﴿لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ يعني يوم القيامة أي أعلم ماله في الآخرة حتى تألى وحلف
على ذلك ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أم له عند الله عهد وموثق بأنه سيؤتيه ذلك ؟
وقال ابن عباس قال : لا إله الا الله فيرجو بها ؟ وقوله تعالى : ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع
لما قبلها ، وتأكيده لما بعدها ؛ ﴿سنكتب ما يقول﴾ أي من طلبه ذلك وحكمه لنفسه
بما يتمناه وكفره بالله العظيم ﴿ونمدُّ له من العذاب مدًّا﴾ أي في الدار الآخرة على قوله
ذلك وكفره بالله في الدنيا ﴿ونرثه ما يقول﴾ من مال وولد أي نسلبه ماله وولده وكل
ما كان في الدنيا ، ﴿ويأتينا فرداً﴾ أي لا يتبعه مما قال كثير ولا قليل .

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١)
﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢) ﴿أَلَمْ تَرَ
أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوزُّهُمْ أَزًّا﴾ (٨٣) ﴿فَلَا تَعْجَلْ
عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ (٨٤) ﴿

يخبر تعالى عن المشركين أنهم اتخذوا من دونه آلهة يعتزون بها ويستنصرونها ثم نفى الله

تعالى ما زعموه فقال عزّ من قائل : ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ويكنون عليهم ضداً ﴾ أي بخلاف ما ظنوا فيهم وزعموه فإذا بهم أصبحوا ضداً لهم وخصماء أشداء وأعداء ألداء ، وأعداء عليهم تخاصمهم وتكذبهم كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزاً ﴾ أي تطغيهم طغياناً جزاء ما تنكبوا عن طرق الحق . وذلك كما قال تعالى : ﴿ ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيضُ له شيطاناً فهو له قرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فلا تعجل عليهم إنّما نعدُّ لهم عدّاً ﴾ أي لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿ إنّما نعدُّ لهم عدّاً ﴾ أي إنّما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله كقوله تعالى : ﴿ إنّما نلي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ نمتّعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ .

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِذًا ﴿ (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ (٨٧)

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا ، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم ، وأطاعوهم فيما أمرهم به ، وانتهوا عما عنه زجروهم ، أنه يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه ، والوفد هم القادمون ركبناً ، والوفود إلى الله تعالى وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون إلى خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم ، فإنهم يساقون عتفاً إلى النار ﴿ ورداً ﴾ عطاشاً قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم وههنا يقال : ﴿ أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ وقال ابن أبي حاتم عن ابن مرزوق : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحاً فيقول : من أنت ؟ فيقول أما تعرفني ؟ فيقول : لا ، إلا أن الله قد طيب ريحك ، وحسن وجهك فيقول أنا عمك الصالح وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل

طيه في الدنيا ، فطالما ركبتك في الدنيا فهلّمّ اركبني فيركبه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل في مسند أبيه عن النعمان ابن سعيد قال : كنا جلوساً عند علي رضي الله عنه ، فقرأ هذه الآية : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال : لا والله ما على أرجلهم يحشرون ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها ، عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها حتى يضرّبوا أبواب الجنة . وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عبد الرحمن بن اسحق المدني به ، وزاد عليها : رحائل من ذهب وأزمتها الزبرجد والباقي مثله .

وقوله تعالى : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ أي عطاشاً ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض كما أخبر تعالى عنهم : ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ، ولا يرجو إلا الله عز وجل . وقال ابن أبي حاتم عن الأسود بن يزيد قال : قرأ عبد الله يعني ابن مسعود هذه الآية : ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ ثم قال : اتخذوا عند الله عهداً فإن الله يقول يوم القيامة من كان له عند الله عهد فليقيم قالوا : يا أبا عبد الرحمن فعلّمنا : قال : قولوا : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلمتني إلى عملي يقرّيني من الشر ويباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلاّ برحمتك ، فاجعل لي عندك عهداً تؤدّيه إليّ يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد » وكان يلحق ابن مسعود بهن ، خائفاً مستجيراً مستغفراً راهباً راغباً إليك .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا

إِذَا ﴿ (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ

الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿ (٩١) وَمَا يَنْبَغِي

لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿ (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿ (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿ (٩٤)

وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿ (٩٥)

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه الصلاة والسلام وذكر خلقه من مريم بلا أب ، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولدأ ، تعالى وتقدس وتترأه عن ذلك ، فقال سبحانه وتعالى علواً كبيراً : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدأ لقد جثم ﴾ أي في قولكم هذا ﴿ شيئاً إدأ ﴾ أي عظيماً ، وقوله تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدأ أن دعوا للرحمن ولأدا ﴾ أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظماً للرب وإجلالاً ، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده ، وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا شريك له ولا نظير له ، ولا ولد له ، ولا صاحبة له ، ولا كفء له بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . قال ابن جرير عن ابن عباس : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت أن تزول منه لعظمة الله ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين ، وقال رسول الله ﷺ : ١٤٥ [لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله ، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة ، فقالوا يا رسول الله فمن قالها في صحته ؟ قال تلك أوجب وأوجب ثم قال : « والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن ، فوضعه في كفة الميزان ، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن] هكذا رواه جرير ، ويشهد له حديث البطاقة ، والله أعلم .

قال الضحاك : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ أي يتشققن فرقاً من عظمة الله تعالى . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وتنشق الأرض ﴾ أي غضباً له عز وجل ﴿ وتخر الجبال هدأ ﴾ قال ابن عباس : هدأ وقال سعيد بن جبيرة : هدأ ينكسر بعضها على بعض متتابعات . روى الإمام أحمد عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٤٦ [لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يُشرك به ويُجعل له ولد ، وهو يعافيه ويدفع عنهم ويرزقهم] أخرجه في الصحيحين .

وقوله تعالى : ﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ أي لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته ، لأنه لا كفء له من خلقه ، وكلهم عبيد له ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا ﴾ لقد أحصاهم وعدهم عدأ ﴿ أي قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة ﴾ وكلهم آتية يوم القيامة فردأ ﴿ أي لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له ، فيحكم في خلقه بما يشاء وهو العادل الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿ (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِصُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ (٩٨)

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وهي الأعمال التي ترضي الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه ، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ١٤٧ [ان الله إذا أحب عبداً دعا جبريل ، فقال : يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه - قال - فيحبه جبريل ، قال : ثم ينادي في أهل السماء : ان الله يحب فلاناً فأحبه ، قال : فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض ، وان الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه قال فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : ان الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال : فيبغضه أهل السماء ثم يوضع له البغضاء في الأرض] . ورواه مسلم من حديث سهل ، ورواه أحمد والبخاري من حديث ابن جريج عن موسى بن عتبة عن نافع مولى ابن عمر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ نحوه .

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ١٤٨ . [إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إني قد أحببت فلاناً فأحبه ، فينادي في السماء ، ثم يتزل له المحبة في أهل الأرض] فذلك قول الله عز وجل : ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ ورواه مسلم والترمذي وقال : حسن صحيح .

وقال ابن أبي حاتم عن الحسن البصري رحمه الله قال : قال رجل : والله لأعبدن الله عبادة أذكرُ بها ، فكان لا يُرى في حين الصلاة إلا قائماً يصلي ، وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج ، فكان لا يعظم فمكث بذلك سبعة أشهر ، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا : انظروا إلى هذا المرأئي ، فأقبل على نفسه فقال : لا أراني أذكر إلا بشر ،

لأجعلن عملي كله لله عز وجل ، فلم يزد على ان قلب نيته ، ولم يزد على العمل الذي كان يعمل ، فكان يمر بعد بالقوم فيقولون : رحم الله فلانا الآن وتلا الحسن : ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأنما يسرناه ﴾ يعني القرآن ﴿ بلسانك ﴾ أي يا محمد . وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل — ﴿ لتبشر به المتقين ﴾ أي المستجيبين لله المصدقين لرسوله ﴿ وتنذر به قوماً لدا ﴾ أي عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل لا يستقيمون صماً فجاراً . وقوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله : ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ أي هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم من صوت . والركز في أصل اللغة : الصوت الخفي . آخر اختصار تفسير سورة مريم والله الحمد والمنة

١٣٨٩/٨/٢٧

١٩٦٩/١١/٧

(٢٠) سُورَةُ طه مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ وَمِائَةٌ

سوى آيتي ١٢٠ و ١٢١ فمدنيتان

نزلت بعد مريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً ﴿٣﴾ لِمَن يَخْشَى ﴿٤﴾
لِلرَّحْمَنِ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالنُّقُولِ فَإِنَّهُ
يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته . وقوله تعالى : ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ قال قتادة : أي لا والله ما جعله شقاءً ولكن جعله رحمةً ونوراً ودليلاً إلى الجنة ﴿ إلا تذكراً لمن يخشى ﴾ أي إن الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمةً رحم بها عباده ليتذكر ذاكر ، ويتنفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه . وقوله تعالى : ﴿ تنزيلاً ﴾ من خلق الأرض والسموات العلى ﴿ أي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك ، رب كل شيء ومليكه القادر على كل شيء والذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها ، وخلق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها . وقوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضاً^(١) ، وإن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف ، إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة ، من غير تكليف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل . وقوله تعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ أي الجميع ملكه ، وفي قبضته ، وتحت تصرفه ومشيعته وإرادته وحكمه وهو خالق ذلك ومالكة وإلهه لا اله سواه ولا رب غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ أي أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسموات العلّٰى الذي يعلم السر وأخفى . كما قال تعالى : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ السر ﴾ ما أسرّه ابن آدم في نفسه ، ﴿ وأخفى ﴾ ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه ، فالله يعلم ذلك كله . وقوله تعالى : ﴿ الله لا اله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ أي الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلّٰى ؛ وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة الأعراف والله الحمد والمنة .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ (٩) إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ (١٠)

من هنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى عليه السلام ، وكيف كان الوحي إليه وتكليمه إياه ، وذلك بعدما وفيّ صهره ما كان عليه من رعاية الغنم ، وسار بأهله قاصداً بلاد مصر ومعه زوجته فأصلّ الطريق وكانت ليلة شاتية باردة ، ذات ظلام وضباب فجعل يقدح بزند معه ليوري ناراً كما جرت به العادة ، فجعل لا يقدح شيئاً ولا يخرج منه شرر ولا شيء ، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطّور ناراً فبشّر أهله : ﴿ إني آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بقبس ﴾ أي شهاب من نار ليستضيء ويصطلي هو وأهله ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ أي أجد من يهديني الطريق فدل على أنه لم يهتد إلى الطريق فلما رأى النار قال : ان لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق آتيتكم بنارٍ توقدون بها

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴾ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ (١٢) وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ

نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا
وَأَتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى * (١٦)

يقول تعالى : ﴿ فلما أتاها ﴾ أي النار واقترب منها ﴿ نودي ﴾ من قبل الله ،
﴿ يا موسى ﴾ وفي الآية الأخرى : ﴿ نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة
المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله ﴾ وقال ههنا : ﴿ إني أنا ربك ﴾ الذي
يكلمك ﴿ فاخلع نعليك ﴾ تعظيماً للبقعة المقدسة ف ﴿ إنك بالوادي المقدس طوى ﴾ وهو
اسم الوادي ، وقوله تعالى : ﴿ وأنا اخترتك ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ إني اصطفيتك
على الناس ﴾ أي على ناس زمانه ﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ أي لما أوحى إليك : ﴿ إني
أنا الله لا إله إلا أنا ﴾ وهذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده
لا شريك له. وقوله تعالى : ﴿ فاعبدي ﴾ أي قم بعبادتي وحدي من غير شريك . ﴿ وأقم
الصلاة لذكري ﴾ أي صلّ عند ذكرك لي : ويشهد لهذا القول ما جاء في الصحيحين عن
أنس قال قال رسول الله ﷺ ١٤٩ [من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصليها إذا
ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك] وقوله تعالى : ﴿ إن الساعة آتية ﴾ أي قائمة لا محالة
وكائنة لا بد منها . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أكاد أخفيها ﴾ أي أخفيها عن كل مخلوق
ولم أعلم بموعدها أحداً ، وأكاد أخفيها حتى من نفسي ^(١) والحكمة من ذلك :
﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ أي من أجل أن أجزي كل عامل بعمله . وقوله تعالى :
﴿ فلا يصدّك عنها من لا يؤمن بها ﴾ الآية ... المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين أي لا
تتبعوا سبيل من كذب بالساعة وأقبل على دنياه وعصى مولاه ، وأتبع هواه فتهلكوا .

وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى * (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ
أَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا وَأُشْرُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ
أُخْرَى * (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَبَّةُ
تَسْعَى * (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا
الْأُولَى * (٢١)

١٣٠ (٢٠ - طه - ج ١٦) : عصا موسى لما ألقاها انقلبت إلى ثعبانٍ كبير هائل عظيم .

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام ، ومعجزة عظيمة ، وخرق للعادة ، باهرٌ دالٌّ على انه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل ، وأنه لا يأتي به إلا نبيُّ مرسل .

وقوله تعالى : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ هذا سؤال على سبيل الإناس له كما هو أيضاً استفهام تقرير ﴿ قال هي عصاي أتوكأ عليها ﴾ أي أعتمد عليها في المشي ﴿ وأهش بها على غنمي ﴾ أي أهز بها الشجرة برفق ليتساقط ورقها لترعاه غنمي وقوله : ﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾ أي مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك ، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهت ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية التي كانت تقول أن له فيها بعض الخوارق ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعباناً فما كان يفرُّ منها هارباً . وقوله تعالى : ﴿ قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى ﴾ أي صارت حالاً ثعباناً عظيماً يتحرك حركة سريعة ، كأنها جان . وهو أكثر الحيات حركةً ولكنه صغير ، أما هذا الثعبان فهو في غاية الكبر وغاية السرعة فخاف منها خوفاً شديداً وفرَّ منها هرباً فقال تعالى : ﴿ خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ فحاول موسى أن يأخذها بطرف مدرعته ولفّها على يده فقال له ملك : أرأيت يا موسى لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً ؟ قال لا ولكني ضعيف ومن ضعف خلقت ، فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حس الأضراس والأنياب ، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهد لها وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشعبين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ أي حالها التي تعرف قبل ذلك . .

﴿ وَأَضْمَمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى ﴾ (٢٢) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿ (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ (٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿ (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي ﴿ (٢٩) هَارُونَ أَخِي ﴾ (٣٠) أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ﴿ (٣١) وَأَشْرِكُهُ

فِي أَمْرِي * (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * (٣٤)
إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * (٣٥) ﴿٣٥﴾

وهذا برهان ثان لموسى عليه الصلاة والسلام وذلك قوله تعالى : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ أي كفك تحت عضدك ، وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجه ، تخرج متألثة كأنها فلق قمر . وقوله تعالى : ﴿ تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ أي من غير برص ولا أذى ، ولا شين فعلم موسى انه قد لقي ربه عز وجل . ولهذا قال تعالى : ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي إذهب إلى فرعون الذي خرجت منه هارباً ، فاذعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ومرة فليحسن إلى بني اسرائيل ولا يعذبهم فانه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الرب الأعلى . ﴿ قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعث به فانه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم ، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك ، وأجبرهم وأشدهم كفراً ، واكثرهم جنوداً ، وأعمرهم ملكاً ، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً ، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله ، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره ؛ هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليدأ عندهم في حجر فرعون على فراشه ، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه فهرب منهم هذه المدة بكماها ، ثم بعد هذا بعث ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له . ولذا قال موسى : ﴿ رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ أي إن لم تكن أنت عوني ونصيري وعضدي وظهيري وإلاً فلا طاقة لي بذلك ﴿ وأحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾ وذلك لما أصابه من اللغ حين عرض عليه التمرة والجمرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، كما سيأتي بيانه ، وما سأل أن يزول بالكلية بل بحيث يزول العي ، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ، ولو سأل الجميع لزال ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة فاتاه الله سؤاله فحل عقدة لسانه وقوله : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ﴾ وهذا سؤال من موسى عليه السلام بمساعدة أخيه هارون له قال الثوري عن ابن عباس أنه قال : نُبئ هارون ساعته حين نبئ موسى عليهما السلام . وقوله : ﴿ اشدد به أذري ﴾ قال مجاهد : أي ظهري ﴿ وأشركه في أمري ﴾ أي في مشاورتي ﴿ كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ﴾ قال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً

١٣٢ (٢٠- طه -ج١٦) : أجيب موسى سُؤْلَه بِحَلِّ عَقْدَةِ لِسَانِهِ ، وَإِرْسَالِ هَارُونَ نَبِيًّا مَعَهُ

وَمُضْطَجِعًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ أَي فِي اصْطِفَائِكَ لَنَا وَإِعْطَائِكَ إِيَّانَا النُّبُوَّةَ وَبَعَثْتَكَ لَنَا إِلَى عَدُوِّكَ فِرْعَوْنَ فَكَلِّمْنَاكَ الْحَمْدَ عَلَى ذَلِكَ .

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَّا
عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴿ (٣٨)
أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ
عَدُوُّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿ (٣٩)
إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى
أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ
وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴿

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام فيما سأله ربه من حل عقدة اللسان ، وجعل هارون أخيه وزيراً يشد به أزره ونبيّاً مرسلًا معه ، ثم شرع سبحانه يذكره بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أمه حين كانت ترضعه ، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه ، لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان ، فاتخذت له تابوتاً ، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه وترسله في النيل ، وتمسكه إلى منزلها بحبل ، فذهبت مرة لتربط الحبل فانفلت منها ، وذهب به النيل فحصل لها من الهم والغم ما ذكره الله عنها في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ فذهب به النيل إلى دار فرعون ﴿ فَالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ أي قدراً مقدوراً من الله حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل حذراً من وجود موسى ، فحكم الله وله السلطان العظيم والقدرة التامة أن لا يربى إلا على فراش فرعون ، ويغذى بطعامه وشرا به مع محبته وزوجته له ولهذا قال تعالى : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوُّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾ وألقيت عليك محبة مني ﴿ أي عند عدوك جعلته يحبك ﴾ ولتصنع على عيني ﴿ أي بحيث أرى ... فجعلتك في بيت الملك تنعم وترى ، وغداؤك عندهم غذاء الملك ، فتلك الصنعة .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ وذلك انه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأبأها . كما قال الله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلِ ﴾ فجاءت أخته وقالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ تعني هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة ، فذهبت به وهم معها إلى أمه فعرضت عليه ثديها ، فقبله ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، واستأجروها على إرضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا ، وفي الآخرة أعظم وأجزل ، ولهذا جاء في الحديث ١٥٠ [مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترصع ولدها وتأخذ أجرها .] .

وقال تعالى ها هنا : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أي عليك ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ يعني القبطي ﴿ فَنجيناك من الغم ﴾ وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله ، ففرّ منهم هارباً حتى ورد ماء مدين وقال له ذلك الرجل الصالح : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ روى النسائي رحمه الله في كتاب التفسير من سننه قوله ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ بسنده إلى سعيد بن جبير قال سأل عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل : ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ فسأله عن الفتون ما هو ؟ . فقال : استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً . فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنجز منه ما وعدني من حديث الفتون فقال : « بئس . » وهنا قال ابن عباس حديثاً طويلاً موقوفاً عليه ، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنه مما أبيع نقله من الاسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره والله أعلم .

ونحن نقتطف منه خلاصةً نحرص بقدر الإمكان ان تكون موافقة للواقع الذي حصل إذاك . وذلك مما يوافق ما جاء في القرآن الذي نزل على نبينا محمد ﷺ .

يتلخص حديث الفتون الذي رواه ابن عباس موقوفاً عليه بمن الله تعالى على موسى عليه السلام منذ أن كان جنيناً في بطن أمه إلى أيام التيه ونزول المن والسلوى على بني اسرائيل فيها وضرب موسى الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً وأعلم كل سبط عيנם التي يشربون منها . ١

• وهنا نذكر أولاً : قرر فرعون أن يذبح كل مولود من بني اسرائيل ذكراً ويترك الأنثى لكيلا يأتي من ذرية اسرائيل ملك يقضي على فرعون وملكه ، فلما رأوا أن الكبار

من بني اسرائيل يموتون بأجلهم ، والصغار يذبحون قالوا : ليوشكن أن تُفَنوا بني اسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر واركوا بناتهم ، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً فقدّر الله أن يلد هارون في العام الذي يعفى فيه الذبح، وولد موسى في العام المقرر فيه ذبح الذكور، فوقع في قلب أمه من الهم والحزن ما دخل عليه وهو في بطن أمه مما يراده . وذلك من الفتون يا ابن جبير .

* ولما ولد موسى وألم الله أمه أن تصنع تابوتاً وتجعله فيه وتلقيه في اليم إلى أن يصل إلى قصر فرعون ويلتقطه جوارى امرأة فرعون ويعطينها إياه ففتحه واذ بسلام ويلقي عليها الله محبةً منه في قلبها وتفرح به ، وتعرضه على المراضع فيأبى المولود أن يرضع من أحد إلى أن أتت أخت موسى التي كانت تتحسس خبر أخيها الوليد إلى أن رآته في بيت فرعون يفتشون له عن مرضع فلا يجدون. فقالت اخته أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فأخذوها فقالوا : ما يدريك ما نصحهم له هل تعرفينه ؟ حتى شكوا في ذلك - وذلك من الفتون يا ابن جبير - فقالت : نصحهم له هو رغبتهم في رجاء منفعة الملك فتركوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر فجاءت أمه فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصّه حتى امتلأ جنباه رياً وانطلق البشير إلى امرأة فرعون فأنت بها وبه وراودتها على البقاء في بيت فرعون فاعتذرت لعدم استطاعتها ترك بيتها وولدها وذكرت أم موسى ما كان وعدها الله فيه فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجز وعده فرجعت به إلى بيتها من يومها وأنبته الله نباتاً حسناً وحفظه لما قد قضى فيه .

* طلبت امرأة فرعون من أم موسى أن تأتي بموسى لشدة شوقها إليه في زيارة لها فلما زارتها نحتل أمه الهدايا واخذته إلى فرعون ليهديه ويكرمه فلما جعله في حجره تناول موسى حية فرعون فمدها إلى الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون ألا ترى إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير فتدخلت امرأة فرعون في الأمر وقالت هذا وليد لا يعقل إئت بجمرتين ولؤلؤتين فقدمهن اليه فإن أخذ اللؤلؤتين عرفت أنه يعقل وإن تناول الجمرتين علمت أن أحداً يعقل لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين فتناول الجمرتين فقالت المرأة : ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد همّ به .

* ولما بلغ أشده ورأى القبطي يريد قتل الإسرائيلي واستغاثة الإسرائيلي فوكر القبطي قتلته وما أحد يعلم ذلك إلا الله ثم الإسرائيلي فقال موسى حين قتل الرجل : هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين. ثم قال : ﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو

الغفور الرحيم ﴿ ثم في الغد رأى موسى ذلك الإسرائيلي يقاتل قبطياً آخر فاستغاثه الاسرائيلي على الفرعوني القبطي فقال موسى للاسرائيلي إنك لغويّ مبین فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال فإذا موسى غضبان كغضبه بالأمس ، فخاف ان يكون موسى أراد قتله - ولم يكن يريد موسى قتله بل كان يريد أن يقتل الفرعوني - فخاف الإسرائيلي وقال : يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس فتتاركا وانطلق الفرعوني ليخبر فرعون بما سمع من الاسرائيلي فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى فجاء رجل من شيعته فاخبره . وذلك من الفتون يا ابن جبير .

ثم ذكر وصوله إلى مدين ونجاة من فرعون وزواجه بإحدى ابنتي ذلك الرجل الصالح^(١) في مدين . ثم إتمام عدة الثماني سنوات التي رعى فيها موسى لذلك الصالح غنمه ثم آتمها بعشر . ثم لما انتهى العشر وسار موسى بأهله وقال لهم : إني آنست ناراً فذهب ليأتي منها بقبس واذ نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة إني انا الله ... ثم اطلعه الله على معجزة العصا كيف تنقلب إلى حية ثم معجزة اليد ثم كلفه بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الله ثم طلب موسى أن يشرك أخاه هارون في أمره ثم الذهاب إلى فرعون والقاء العصا ولألاء اليد ، ثم حشر السحرة والقاء عصيهم وحبالهم ثم القاء موسى عصاه فإذا هي ثعبان عظيم ما أبقي عصاً ولا حبلاً الا ابتلعه ، ثم إيمان السحرة بالله تعالى وغضب فرعون عليهم وقتلهم لأنهم آمنوا ، وموقف امرأة فرعون المؤمنة التي كانت تدعو الله ان ينصر موسى على فرعون واشياعه ثم ارسال الطوفان على قوم فرعون والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات لعلهم يؤمنون . فما زادهم ذلك إلا عتوا وكفروا وكان فرعون كلما آتته آية من الله يستغيث بموسى أن يكفها عنه ويؤاqqه على أن يرسل معه بني اسرائيل ، فإذا كف عنهم ذلك أخلف فرعون مواعده ونكث عهده . حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً فقبعه فرعون صباحاً بجنوده فضرب موسى البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى فانفرك البحر كما أمره ربه ، فلما أن جاز موسى واصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه النقي عليهم البحر كما أمره ربه ، فغرق فرعون وجنوده وخشي قوم موسى أن لا يكون فرعون قد غرق فعلاً ، فأخرجه الله من البحر ليطمئنوا ويفرحوا بغرقه ، ويروا آية الله فيه ظاهرة جليلة . ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم : ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه ﴾ الآية ... ثم

استخلف موسى أخاه هارون على قومه لذهابه إلى ربه ثلاثين يوماً وقد صامهن ليلهن ونهارهن ثم أتمهن بعشر بأمر الله ثم لما استبطأ قوم موسى نبيهم عليه الصلاة والسلام ..

أضلتهم السامري فعبدوا العجل ولم يصغوا إلى ردع هارون لهم عن ذلك ففرقة منهم عبدوا العجل وأخرى قالت هذا من عمل الشيطان وليس العجل ربنا ولا تؤمن به ، ثم رجع موسى إلى قومه ورأهم على ذلك فغضب وأسف أسفاً شديداً وأخذ برأس أخيه يجره وألقى الألواح من الغضب ثم عذر أخاه بعذره واستغفر له ، ثم حرق العجل ونسفه في اليم فاستيقن بنو اسرائيل أنه ليس آلهاً ثم سأل موسى عليه السلام التوبة لقومه مما فعلوا فقال الله : إن توبتهم ان يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل حتى بلغ القتل سبعين ألفاً ثم رفع الله عنهم القتل وغفر للقاتل والمقتول .

ثم سار موسى متوجهاً بهم إلى الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعدما سكنت عنه الغضب وأمرهم بأن يتخذوا الأرض المقدسة ممن فيها ، قالوا ان فيها قوماً جبارين لا طاقة لنا بهم ، ولن ندخلها ما داموا فيها قال رجلان منهم : نعم من الجبارين ولكن لا قلوب لهم ولا متعة لهم فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فانكم الغالبون . قالوا لموسى عليه السلام : اذهب انت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون فغضب موسى ودعا عليهم فحرم الله الأرض المقدسة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ليس لهم فيها قرار ثم ظلل الله عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل لهم حجراً يتنقل معهم إذا ضربه موسى بعصاه انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً . وعلم كل أناس مشربهم ، أي كل سبط من أسباطهم علموا مشربهم . هذا تفسير قوله تعالى : ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ أي أنقذناك وتولينك في كل ما مر عليك من هذه الفتون وخرجت منها مرعياً بعناية الله محفوفاً بتأييده ونصره والله الحمد والمنة .

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ (٤٠) وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * (٤١) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * (٤٤) ﴿

يخاطب تعالى موسى عليه السلام إنه لبث مقيماً في أهل مدين فاراً من فرعون وملئه ،
يرعى على صهره قوله ﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ أي على موعد ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾
أي اخترتك رسولاً لنفسي كما أريد وأشاء . وقوله تعالى : ﴿ إذهب انت واخوك بآياتي ﴾
أي بمعجزاتي ، ﴿ ولا تنيا في ذكري ﴾ أي لا تضعفا ولا تفترأ في ذكر الله تعالى ليكون
ذكر الله عوناً لهما على فرعون وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له ، كما جاء في الحديث ١٥١
[إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قبره] وقوله تعالى : ﴿ إذهبوا إلى
فرعون إنه طغى ﴾ أي تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه ﴿ فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر
أو يخشى ﴾ وهذه الآية فيها عبرة عظيمة في أسلوب الدعوة في اللين والملاطفة كما قال
يزيد الرقاشي : يا من يتحجب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاّه ويناديه ؟ .

أي ذكرناه بأن له رباً وله معاداً وهناك جنة ونار . كل ذلك يكون بكلام رقيق سهل
لين ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأجمع . كما قال تعالى : ﴿ أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة
والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾
أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة أو يخشى ربه . فالتذكر الرجوع عن
المحذور والخشية تحصيل الطاعة كل ذلك لإقامة الحجة عليه وإنذاره قبل عقابه .

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ (٤٥) ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (٤٦)
﴿ فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ
قَدْ جِئْنَاكَ بَآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَى ﴾ (٤٧)
﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ (٤٨) ﴿

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام ، أنهما قالاً مُستَجِرَّين بالله تعالى
﴿ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ يعنيان أنهما يخافان أن يبطش بهما ويعتدي
عليهما : ﴿ قال لا تخافا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ أي لا يخفى عليَّ من أمركما شيء
واعلم أن ناصيته بيدي ، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني ، وبعد أمري ، وأنا
مَعَكُمَا بحفظي ونصري وتأيدي .

وقوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ عن ابن عباس انه قال مكثا على بابه حيناً لا يؤذن لهما حتى أذن لهما بعد حجاب شديد . وذكر السدي أنه لما قدم موسى بلاد مصر ضاف أمّه وأخاه وهما لا يعرفانه ، ثم عرفاه وسلموا عليه فقال له موسى : يا هارون ان ربي قد أمرني أن آتي هذا الرجل فرعون فأدعوه إلى الله وأمرك ان تعاونني . قال : افعل ما أمرك ربك ، فذهبا وكان ذلك ليلاً ، ففرض موسى باب القصر بعصاه فسمع فرعون فغضب وقال : من يجترئ على هذا الصنيع الشديد ، فأخبره السدنة والبوبون بأن ها هنا رجلاً مجنوناً يقول انه رسول الله فقال : عليّ به قالوا : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِibهمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ أي قد جئناك بمعجزة من ربك والسلام عليك ان اتبعت الهدى ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴾ أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه الينامن الوحي المعصوم ان العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ .

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ (٥١) قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ (٥٢)

يخبر تعالى عن فرعون أنه أنكر على موسى وجود الصانع الخالق إله الكون وربّه ومليكه ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ أي من الذي أرسلك فأني لا أعرفه وما علمت لكم من إله غيري ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ قال سعيد بن جبير : أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه ، ولم يجعل للانسان من خلق الدابة ولا للدابة من خلق الكلب ، ولا للكلب من خلق الشاة وأعطى كل شيء ما ينبغي له ، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ أي أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرن الأولى ، أي الذين لم يعبدوا الله ، أي فما بالهم فقال موسى : هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم وسيجزىهم بعملهم في كتاب الله ، وهو اللوح المحفوظ ، وكتاب

(٢٠- طه -ج١٦): ذكّر موسى فرعون، بنعم ربّه، ولكنه آثر الكفر على الشكر!!! ١٣٩

الأعمار ﴿ لا يضلُّ ربّي ولا ينسى ﴾ أي لا يشذ عنه شيء ولا يفوته صغير ولا كبير ،
ولا ينسى شيئاً وهو بكل شيء محيط بعلمه تبارك وتعالى وتقدس وتنزه . فإن علم المخلوق
يعتريه نقصانان : أحدهما عدم الإحاطة بالشيء ، والآخر نسيانه بعد علمه ، فتره الله
نفسه عن ذلك .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا
وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ (٥٣)
كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النَّهْيِ ﴾ (٥٤)
مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (٥٥)
وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ (٥٦) ﴿

هذا من تمام كلام موسى عليه السلام فيما وصف به ربّه عز وجل حين سأله فرعون
عنه فقال : ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ ثم اعترض الكلام بين ذلك ثم
قال : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهدياً ﴾ أي قراراً تستقرون عليها ، وتقومون وتنامون
عليها ، وتسافرون على ظهرها ﴿ وسلك لكم فيها سبلاً ﴾ أي جعل لكم طرقاً تمشون
في مناكبها . كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلّهم يهتدون ﴾ وقوله تعالى :
﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾ أي من أنواع النباتات من
زروع وثمار ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ أي
شيء لطعامكم وفاكهتكم ، و شيء لأنعامكم لأقواتها خضراً وبيساً ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾
أي لدلالات وحججاً وبراهين ﴿ لأولي النهي ﴾ أي لذوي العقول السليمة المستقيمة ،
على انه لا إله إلا الله ولا رب سواه . ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم
تارة أخرى ﴾ أي من الأرض مبدأكم ، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض
وفيها نعيدكم أي وإليها تصيرون إذا متم وبلغتم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى كقوله
تعالى : ﴿ يوم يدعوكم فتستجيون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ وفي الحديث
الذي في السنن ١٥٢] ان رسول الله ﷺ حضر جنازة فلما دفن الميت أخذ قبضة من
التراب فألقاها في القبر وقال : « منها خلقناكم » ثم أخذ أخرى وقال : « وفيها نعيدكم »

ثم أخرى وقال : « ومنها نخرجكم تارة أخرى » [

وقوله تعالى : ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ﴾ يعني فرعون أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات ، وعان ذلك وأبصره فكذب بها وأباها كفرأ وعناداً وبغياً كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ الآية ...

﴿ قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ (٥٧)
 فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ
 وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ
 يُخَشِّرَ النَّاسُ ضَحَّى ﴾ (٥٩)

يخبر تعالى عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً ، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء ، فقال : هذا سحر جئت به لتسحرنا ، وتستولي به على الناس فيتبعونك ، وتكاثرتنا بهم فلن نمكنك ، فإن سحرنا مثل سحرك الذي أنت مغتر به ﴿ فاجعل بيننا وبينك موعداً ﴾ أي يوماً نجتمع فيه في مكان معين لا نخلفه نحن ولا أنت ، عندها ﴿ قال ﴾ لهم موسى ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ وهو يوم عيدهم وتفرغهم واجتماعهم ، ليشاهد الناس قدرة الله على كل شيء ، ويثبت لديهم ان معجزات الأنبياء تبطل معارضة السحر لها. ولهذا قال ﴿ وأن يخشع الناس صحن ﴾ ليكون الأمر أظهر وأجل ، وهكذا شأن الأنبياء ، فإن كل أمرهم واضح ليس فيه خفاء ولا ترويح قال ابن عباس : وكان يوم الزينة هو يوم عاشوراء ، وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده كما ثبت في الصحيح .

﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ (٦٠) قَالَ لَهُمْ
 مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ
 خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا
 النَّجْوَى ﴾ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ

مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى • (٦٣) فَأَجْمِعُوا
كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى • (٦٤) ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى عن فرعون أنه لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين تولى أي شرع في جمع سحرة مملكته ، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً ، ثم اجتمع الناس في يوم الزينة الموعود فحضر فرعون واكابر دولته ورعاياه ، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئاً على عصاه ومعه أخوه هارون ، ووقف السحرة صفوفاً وفرعون يحرضهم ويرغبهم في العطايا إن هم تغلبوا على موسى ﴿ قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً ﴾ أي لا تخيلوا للناس بأعمالكم . . . إيجاد أشياء لا حقائق لها وأنها مخلوقة ، وليست مخلوقة فتكونون قد كذبتُم على الله ﴿ فيسحتكم بعذاب ﴾ أي يهلككم بعذاب هلاكاً لا بقية له ﴿ وقد خاب من افترى فتنزعوا أمرهم بينهم ﴾ أي اختلفوا بينهم فمن يقول ليس هذا بكلام ساحر إنما هذا كلام نبي وآخر يقول بل هو ساحر ﴿ وأسروا النجوى ﴾ أي تناجوا بينهم : ﴿ قالوا إن هذان لساحران ﴾ وهذه لغة لبعض العرب ومنهم من قرأ : ﴿ إن هذان لساحران ﴾ وهذه اللغة المشهورة ، والغرض أن السحرة قالوا عن موسى وهارون ساحران عالمان خيران بصنعة السحر يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس ، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده ويخرجاكم من أرضكم ﴿ ويذهبا بطريقتكُم المثلَى ﴾ أي ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر وتنتهي اليهما الرئاسة ويذهبا بملكنا ومعاشنا ويصرفا الناس عنا . ويتصرفا هما وبنو اسرائيل بأموالنا وما نحن فيه من الملك والعيش الرغيد ﴿ فاجمعوا كيدكم ثم آتوا صفّاً ﴾ أي اجتمعوا كلكم صفّاً واحداً والقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الابصار ، وتغلبوا هذا وأخاه ﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى أي منا ومنه فإن علونا نحن نحظ بعطاء الملك الجزيل ، وإن علا موسى وأخوه فينالوا الرئاسة العظيمة .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ • (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى • (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى • (٦٧) قُلْنَا لَا

تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا
صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * (٦٩)
فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * (٧٠) ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام أنهم قالوا لموسى :
﴿ إما أن تلقى ﴾ أي أنت أولاً ﴿ وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ قال بل ألقوا ﴾ أي
أنتم أولاً لئرى سحركم ، وليظهر للناس حقيقة دجلهم ﴿ فإذا جابههم وعصيتهم يخيل
إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ وذلك أودعوها من الرزبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب
وتميد ، بحيث يخيل للناس أنها تسعى باختيارها ، وإنما كانت حيلة ، وكانوا جماعاً غفيراً .
حتى صار الوادي مليئاً بحياتٍ يركب بعضها بعضاً ﴿ فأوجس في نفسه خيفةً موسى ﴾
أي خاف على الناس ان يفتنوا بسحرهم ﴿ قلنا لا تخفِ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ وألق ما في
يمينك تلقف ما صنعوا ﴿ أي من الدجل والتمويه ، وذلك أنها صارت تنيناً عظيماً هائلاً
ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبقى منها شيئاً
إلا ابتلغته ، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهرةً نهاراً ضحوةً ، فقامت
المعجزة واتضح البرهان ، ووقع الحق وبطل السحر ولهذا قال تعالى ﴿ إنما صنعوا كيد
ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ روى ابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله البجلي
قال : قال رسول الله ﷺ ١٥٣ [« إذا أخذتم » - يعني الساحر - « فاقتلوه » ثم قرأ :
﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ قال « لا يؤمن حيث وجد »] وقد روى أصله الترمذي
موقوفاً ومرفوعاً .

فلما شاهد السحرة ذلك علموا علم اليقين أن ما فعله موسى ليس من قبيل السحر
والحيل وأنه حق لا مرية فيه ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون ، عندها
خرُّوا سجداً لله تعالى وقالوا : ﴿ آمنا برب هارون وموسى ﴾ ولهذا قال ابن
عباس وعبيد بن عمير : كانوا أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة قال ابن
عباس كان عددهم سبعين رجلاً ، وعن سعيد بن جبير قال : رأوا منازلهم تبين لهم وهم
في سجودهم وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزة .

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تَقْطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تَصْلَبْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمْنَ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿ (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٧٣) ﴿

يخبر تعالى عن كفر فرعون ، وعناده وبغيه ومكابرتة الحق بالباطل حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة ، والآية العظيمة ، ورأى من استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم ، وغلب كل الغلب شرع في المكابرة والبهت ، وعدل إلى استعماله جاهه وسلطانه في السحرة فتهدهم وتوعدهم وقال : ﴿ آمنتم له ﴾ أي صدقتموه ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾ أي دون أن آمركم بذلك ، ثم بهت وكذب عليهم بقوله : ﴿ انه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ أي إنما أخذتم السحر عن موسى وهو الذي علمكموه ، وانفقتم معه على نصرته وخذلاني ثم أخذ يتهددهم فقال : ﴿ فلا تقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولا تصلبنكم في جذوع النخل ﴾ أي لأجعلنكم مثله ، ولأقتلنكم ولأشهرنكم قال ابن عباس فكان أول من فعل ذلك . وقوله : ﴿ ولتعلمن أيننا أشد عذاباً وأبقى ﴾ أي تدعون أنني على ضلالة وإنكم عليّ مع موسى وقومه ، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه ، فهانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل و ﴿ قالوا لن نؤثرَكَ على ما جاءنا من البينات ﴾ أي لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿ والذي فطرنا ﴾ أي لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم ، فهو المستحق للخضوع والعبادة لا أنت ﴿ فأقض ما أنت قاض ﴾ أي فأفعل ما شئت ﴿ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ إنما تسلطك في هذه الدنيا وهي دار زوال ، ونحن قد رغبنا في دار القرار : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ أي آثامنا ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه . ﴾ والله خير وأبقى ﴿ أي خير لنا منك وأدوم ثواباً مما وعدتنا به ، وهكذا

كان فعل فرعون بهم رحمة لهم من الله ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء .

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ (٧٦)

وهذا من تمام وعظ السحرة لفرعون يحذرونه نقمة الله وعذابه السرمدى ، ويرغبونه في ثوابه المخلد فقالوا : ﴿ إنه من يأت ربه مجرمًا ﴾ أي يلقاه يوم القيامة مشركًا ﴿ فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ [١٥٤] « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم فتميتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة جيء بهم ضباطر ضباطر ، فبشوا على أنهار الجنة فيقال : يا أهل الجنة افيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل ﴾ فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية [وهكذا أخرجه مسلم . وقوله تعالى : ﴿ ومن يأت مؤمناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ ﴾ أي ومن لقي ربه مؤمناً قولاً وعملاً ﴾ فأولئك لهم الدرجات العلى ﴾ أي الجنة ذات الدرجات العاليات ، والغرف الآمات ، والمساكن الطيبات ، روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال [١٥٥] « الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تخرج الأنهار الأربعة ، والعرش فوقها ، فإذا سألت الله فأسأله الفردوس) ورواه الترمذي .

وفي الصحيحين [١٥٦] إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء لتفاضل ما بينهم - قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء قال : بلئى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين [وفي السنن : وإن ابا بكر وعمر لمتهم وأنعمنا . وقوله تعالى : ﴿ جنات عدن ﴾ أي إقامة وهي بدل من الدرجات العلى ﴾ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أي ما كثرين أبداً . ﴿ وذلك جزاء من تزكى ﴾ أي طهر

نفسه من الدنس والخبث والشرك واتباع المرسلين .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِيَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ (٧٧) ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (٧٨) ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ (٧٩) ﴿

ينخبّر تعالى أنه أمر موسى عليه السلام أن يسري بقومه ليلاً حين امتنع فرعون أن يرسلهم معه فخرج موسى بقومه أجمعين ، فغضب فرعون غضباً شديداً وأرسل يجمع الجند من جميع بلدانه فتهياً له جيش عظيم ساقه في طلب بني اسرائيل عند شروق الشمس فلما تراءى الجمعان ظن أصحاب موسى أنهم ملدركون ، فوقف موسى بقومه والبحر أمامهم وفرعون وراءهم ، فعند ذلك أوحى الله إليه : ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ ف ضرب البحر بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم فلم يعد بنو اسرائيل يخافون أن يدرتهم فرعون ولا يخشون الغرق في البحر ثم قال تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي ما هو معروف ومشهور من الغرق الذي حاق بفرعون وقومه كما انه تقدمهم فسلط بهم في البحر فأضلهم واغرقهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد كذلك يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار فبئس السورد المورود . (١)

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴾ (٨٠) ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ (٨١) ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (٨٢) ﴿

يذكر تعالى نعمه على بني اسرائيل العظام ومنته الجسام لانجائهم من عدوهم فرعون وأقر أعينهم بهلاكه وهم ينظرون إليه وإلى جنده فقد غرقوا صبيحة واحدة ، لم ينج منهم أحد . كما قال تعالى : ﴿ وأغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون ﴾ روى البخاري عن ابن عباس قال ١٥٧ [لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء ، فسألهم فقالوا : هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون فقال : « نحن أولى بموسى فصوموه »] رواه مسلم في صحيحه أيضاً .

ثم انه تعالى واعد موسى وبني اسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن وهو الذي كلمه الله تعالى عليه ، وسأل فيه الرؤية ، واعطاه التوراة هنالك . وفي خلال ذلك عبد بنو اسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريباً ، أما المن فخلوى كانت تنزل عليهم من السماء والسلوى طائر يسقط عليهم فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد لطفاً من الله ورحمة بهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضيبي ﴾ أي لا تخالفوا أمري فتأخذوه من غير حاجة فأغضب عليكم ﴿ ومن يحلل عليه غضيبي فقد هوى ﴾ أي فقد شقي . وقوله تعالى : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ أي كل من تاب إليّ تبّت عليه من أي ذنب كان ، وقوله تعالى : ﴿ تاب ﴾ أي رجع عما كان فيه من كفر وشرك أو معصية أو نفاق . وقوله تعالى : ﴿ وآمن ﴾ أي بقلبه . ﴿ وعمل صالحاً ﴾ أي بجوارحه ، وقوله تعالى : ﴿ ثم اهتدى ﴾ أي استقام على السنة والجماعة ولزم الاسلام حتى يموت وعلم أن لهذا ثواباً من الله تعالى .



﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَاجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿ (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿ (٨٧)

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى
فَلْيَسِي • (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ
ضَرًّا وَلَا نَفْعًا • (٨٩) ❁

لما سار موسى عليه السلام ببني اسرائيل بعد هلاك فرعون ❁ وأنوا على قوم يعكفون
على أصنام لهم فقالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون إن هؤلاء
متبرّ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ❁ وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها عشراً ، فتمت
اربعين ليلة أي يصومها ليلاً نهاراً ، فسارع موسى مبادراً إلى الطور واستخلف على بني
اسرائيل أخاه هارون ولهذا قال تعالى : ❁ وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء
على أثري ❁ أي قادمون يتزلون قريباً من الطور ❁ وعجلت اليك رب لترضى ❁ أي
لتزداد عني رضا ❁ قال فإننا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري ❁ أخبر تعالى نبيه
موسى بما كان بعده من الحدث في بني اسرائيل وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك
السامري . وقوله تعالى : ❁ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ❁ أي بعدما أخبره تعالى
بذلك فأصبح في غاية الغضب والحنق عليهم ، فبينما هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم ،
وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم وفيها شرف لهم اذا بهم قد عبدوا غير الله ، ولهذا رجع
اسفاً حزناً غاضباً على ما صنع قومه من بعده من سخافة عقل ، وشرك بالله الذي أنعم عليهم
وأنقذهم ❁ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ❁ على لساني ، كما شاهدتم من
نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من نعم الله ❁ أفضال عليكم العهد ❁
أي أنسيتم ما سلف من نعمه تعالى وما بالعهد من قدم ❁ أم اردتم أن يحل عليكم غضب
من ربكم ❁ ؟ بل اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم ❁ فأخلفتم موعدي قالوا ❁ أي
بنو اسرائيل ❁ ما أخلفنا موعدك بملكنا ❁ أي باختيارنا وقدرتنا ❁ ولكنّا حملنا أوزاراً
من زينة القوم ❁ وهو تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه
منهم حين خرجوا من مصر ❁ فقدفناها فكذلك ألقى السامري • فأخرج لهم عجلاً جَسَداً
له خوار ❁ وعن ابن عباس قال : إنما أراد هارون حين أمرهم بالقاء الحلي في حفرة فيها
نار ، وإن يجتمع الحلي كله في تلك الحفيرة ، ويُجعل حجراً واحداً حتى اذا رجع موسى
عليه السلام ، رأى فيه ما يشاء ثم جاء ذلك السامري فألقى عليها القبضة التي أخذها من
أثر الرسول الذي جاوز ببني اسرائيل البحر ، فمرّ بهارون فقال له هارون عليه السلام :

يا سامري ألا تلقي ما في يدك ، والسامري قابض عليه لا يراه أحد طول ذلك فقال السامري : لا ألقبها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يجعلها ما أريد فألقاها ودعا له هارون فقال السامري : أريد أن يكون عجلاً فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح ولا خوار قال ابن عباس : لا والله ما كان له صوت قط إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه ، وكان ذلك الصوت من ذلك ﴿ فقالوا ﴾ أي الضلال من بني اسرائيل الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه : ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ... ﴾ فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً مثله قط وقوله تعالى : ﴿ فنبى ﴾ أي ترك السامري ما كان عليه من الإسلام ، قال الله تعالى ردأ عليهم وتقريعاً لهم وبياناً لفضيحتهم ، وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه : ﴿ أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ﴾ أي أفلا يرون أن العجل لا يجيبهم إذا سألوه ولا إذا خاطبوه ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً أي في دنياهم ولا في آخرهم .

وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم ، وعبدوا العجل ، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير .

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿ (٩١) ﴾

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل ، واخباره إياهم أنما هذا فتنة لكم وإن ربكم هو الرحمن الذي خلق كل شيء ﴿ فاتبعوني وأطيعوا ﴾ أي فيما أمركم به ، واتركوا ما أنهاكم عنه ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ أي لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه وخالفوا في ذلك هارون وحاربه وكادوا أن يقتلوه .

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿ (٩٣) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَيَّتِي وَلَا

بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾

نخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه ، فرأى ما حدث فيهم من الشرك ، فامتلاً غضباً وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه وشرع يلوم أخاه هارون فقال له : ﴿ ما منعك إذ رأيتم ضلواً ألا تتبعن ﴾ أي فتخبرني بما وقع فوراً ﴿ أفعصيت أمري ﴾ فيما كنت قدمت اليك وهو قوله : ﴿ أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ ﴿ قال يا ابن أم ﴾ ترقق له بذكر الأم مع انه شقيقه لأبويه لأن ذكر الأم ها هنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف ولهذا قال : ﴿ يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴾ الآية وقوله : ﴿ إني خشيت ﴾ هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان أي خشيت أن اتبعك فأخبرك بهذا ﴿ أن تقول ﴾ لم تركهم وحدهم و ﴿ فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي ﴾ أي وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم قال ابن عباس : وكان هارون هائباً مطيعاً له .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام للسامري ﴿ فما خطبك يا سامري ﴾ أي ما حملك على ما صنعت قال محمد بن اسحق عن ابن عباس : كان السامري من قوم يعبدون البقر وكان قد أظهر الإسلام مع بني اسرائيل وكان اسمه : موسى بن ظفر ﴿ قال ﴾ السامري

﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أي رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ أي من أثر فرسه ، وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم ﴿ فنبذتها ﴾ أي ألقيتها . وقال ابن أبي حاتم عن عكرمة : أن السامري رأى الرسول فألقى في روعه أنك ان أخذت من أثر هذا الفرس قبضةً فألقيتها في شيء فقلت له كن فكان فقذف القبضة وقال كن فكان عجلاً جسداً له خوار ﴿ وكذلك سولت لي نفسي ﴾ أي حسسته وأعجبها ، عندها ﴿ قال فاذهب فإن لك في الحياة ان تقول لا مساس ﴾ أي فكما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول ففعلت بك في الدنيا ان تقول لا مساس اي لا تمس الناس ولا يمسونك ﴿ وان لك موعداً ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لن تخلفه ﴾ أي لا يحيد لك عنه ﴿ وانظر إلى إلهك ﴾ أي معبودك ﴿ الذي ظلت عليه عاكفاً ﴾ أي أقمت على عبادته يعني العجل ، ﴿ لنحرقنّه ﴾ قال ابن عباس : سحله بالبرد وألقاه على النار ﴿ ثم لننسفنه في اليم نسفاً ﴾ في شاطئ النهر . وقوله ﴿ إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ﴾ وسع كل شيء عاماً ﴿ يقول لهم موسى عليه السلام : ليس هذا إلهكم إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ، أي لا يستحق ذلك على العباد إلا هو ، ولا تبغي العبادة إلا له ، فإن كل شيء فقير إليه عبد له وقوله : ﴿ وسع كل شيء علماً ﴾ نصب على التمييز أي هو عالم بكل شيء أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً فلا يعزب عنه مثقال ذرة ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها .

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ (٩٩) ﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴾ (١٠٠) ﴿ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴾ (١٠١) ﴿

كما يقص تعالى على نبيه محمد ﷺ خبر موسى عليه السلام تماماً بلا نقص ، فانه يقول سبحانه : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ أي كذلك نقص عليك الأخبار الماضية ، هذا ﴿ وقد آتيناك من لدنا ﴾ أي من عندنا ﴿ ذكراً ﴾ وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل والذي لم يعط نبياً كتاباً مثله ولا أكمل منه ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن ، وحكم الفصل بين الناس .

وقوله تعالى : ﴿ من أعرض عنه ﴾ أي كذب به ولم يتبعه ، وابتغى الهدى في غيره ﴿ فانه يحمل يوم القيامة وزراً ﴾ أي إثمًا ، وهذا عام في كل من بلغه القرآن فهو نذير له

(٢٠ - طه - ج ١٦) : من أعرض عن القرآن شقي في الدنيا ، وخالد في النار ١٥١

وداع فمن اتبعه هدي ، ومن أعرض عنه ضلّ وشقي في الدنيا والنار موعده في الآخرة .
وقوله تعالى : ﴿ خالدٍ فيه ﴾ أي لا يحيد لهم عنه أي عن ذلك الحمل ﴿ وساء لهم يوم
القيامة حملاً ﴾ أي بشس الحمل حملهم .

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ (١٠٢)
يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ (١٠٤)

ثبت في الحديث عنه ﷺ ١٥٨ [انه سئل عن الصور فقال : « قرن ينفخ فيه »] وقد
جاء في حديث الصور من رواية أبي هريرة ١٥٩ [انه قرن عظيم ، الدائرة منه بقدر السموات
والأرض ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام] وقوله تعالى : ﴿ ونحشر المجرمين يومئذٍ
زُرْقًا ﴾ معناه زرق العيون من شدة الهول ﴿ يتخافتون بينهم ﴾ اي يتسارون بينهم :
﴿ إن لبثتم إلاّ عشرا ﴾ أي في الدار الدنيا أي عشرة أيام فقال تعالى : ﴿ نحن أعلم بما
يقولون ﴾ في حال تناجيههم بينهم ﴿ إذ يقول أمثلهم طريقة ﴾ أي العاقل الكامل فيهم :
﴿ إن لبثتم إلاّ يوماً ﴾ لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد ، لأن الدنيا وان تكررت
أوقاتها وتعاقت أزمانها كأنها يوم واحد كقوله تعالى : ﴿ كم لبثتم في الأرض عدد
سنين ﴾ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم
كنتم تعلمون .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ (١٠٥)
فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ (١٠٦) لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ (١٠٧)
يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ
فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ (١٠٨)

يقول تعالى : ﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ أي هل تبقى يوم القيامة أو تزول ؟ ﴿ فقل
ينسفها ربي نسفا ﴾ أي يذهبها عن أماكنها ويمحقها ﴿ فيذرها ﴾ أي الأرض ﴿ قاعاً
صفصفا ﴾ أي بساطاً واحداً والقاع هو المستوى من الأرض والصفصف تأكيد لمعنى

ذلك وقوله تعالى : ﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ أي لا ترى في الأرض وادياً ولا رابية قاله ابن عباس وغير واحد من السلف ﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾ أي يوم يرون أهوال يوم القيامة يستجيون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادروا إليه ، ولو كانوا يستمعون إليه في الدنيا لكان أنفع لهم ولكن كانت الاستجابة حيث لا ينفعهم كما قال تعالى : ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ أي مسرعين إليه ﴿ لا عوج له ﴾ أي لا يميلون عنه وقوله تعالى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ قال ابن عباس : سكنت ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ بصوت خفي ، ومشى الأقدام في سكون وخضوع .

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ (١٠٩) ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ﴾
﴿ عَلِمًا ﴾ (١١٠) ﴿ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ (١١١) ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ (١١٢)



يقول تعالى : ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لا تنفع الشفاعة ﴾ أي عنده ﴿ إلا ﴾ من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴿ كقوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال ١٦٠ [أتى تحت العرش وأخبر الله ساجداً ، ويفتح عليّ بمحمد لا أحصيها الآن ، فيدعني ما شاء أن يدعني ثم يقول : يا محمد إرفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع - قال - فيحذ لي جداً ، فأدخلهم الجنة ثم أعود فذكر أربع مرات ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء] . وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي يحيط علماً بالخلائق كلهم ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ أي ذلت وخضعت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت القيوم الذي لا ينام وهو قديم على كل شيء ولا قوام لشيء إلا به . وقوله تعالى : ﴿ وقد خاب من

(٢٠ - طه - ج ١٦) : الخيبة والخسران لمن يلقى الله وهو مشرك والشرك أضلم الظلم ١٥٣

حمل ظلماً ﴿ أي يوم القيامة ، فإن الله تعالى سيؤدي كل حق إلى صاحبه حتى يقتصر للشاة الجماء من الشاة القراء وفي الصحيح : ١٦١ ﴾ [إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، والخيبة كل الخيبة من لقي الله وهو به مشرك فإن الله تعالى يقول إن الشرك لظلم عظيم] . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ لما ذكر تعالى الظالمين ووعيدهم ، ثني بالمتقين وحكمهم ، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون ، أي لا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (١١٤)

يقول تعالى : ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة ، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عي . ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي يتركون المآثم والمحارم والفواحش ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ وهو إيجاد الطاعات وفعل القربات ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ أي تتره وتقدس الملك الحق في وعده ، ووعيده ، ورسله ، والجنة ، والنار وكل شيء منه حق . وعدله تعالى أن لا يعذب أحداً قبل الإنذار ، وبعثة الرسل ، والإعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ كقوله تعالى ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ﴿ وهنا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ أي بل انصت فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراه بعده ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ أي زدني منك علماً وفي الحديث ١٦٢ [إن الله تابع الوحي على رسوله حتى كان الوحي أكثر ما كان يوم توفي رسول الله ﷺ] وروى ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : ١٦٣ [اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني وزدني علماً ، والحمد لله على كل حال] . وفي رواية البزار ... وزاد في آخره ١٦٤ [وأعوذ بالله من حال أهل النار]

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ (١١٥) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ (١١٦) ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ (١١٧) ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ (١١٨) ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ (١١٩) ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى ﴾ (١٢٠) ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (١٢١) ﴿ ثُمَّ أَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (١٢٢) ﴿

قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فَنَسِيَ ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ يذكر تعالى تشریف آدم وتكريمه وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا أَبْلِيسَ أَبَى ﴾ أي امتنع واستكبر ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ يعني حواء عليهما السلام ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ أي إياك أن يسعى في إخراجك منها فتتعب في طلب الرزق فعيشك هاهنا رغيد هنيء بلا كلفة ولا مشقة ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ إنما قرن بين الجوع والعري لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر ، ﴿ وَإِنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ وهذان أيضاً متقابلان فالظمأ حر الباطن والضحى حر الظاهر . وقوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى ﴾ قد تقدم أنه دلاهما بغرور ﴿ وَقَاسَمَاهُمَا إِنِّي لَكُمَا مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ وقد تقدم أن الله تعالى منعهما من أن يقربا شجرة معينة في الجنة فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها . وقوله تعالى : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾ أي عوراتهما جزاء ما خالفا أمر الله وأطاعا وسوسة الشيطان وقوله تعالى : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ أي يترعان من ورق الجنة

فيجعلانه على سواهما ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدي ﴿ - أي اصطفاه ربه فعلمه كيف يتوب إليه هو وزوجه : ﴿ قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ وهذا ما تلقاه آدم من ربه كما قال تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ (١) -

روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال ١٦٥ [حاج موسى آدم فقال له : أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم ؟ قال آدم يسا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني و قدره الله عليّ قبل أن يخلقني ؟ قال رسول الله ﷺ فحج آدم موسى] وهذا الحديث له طرق في الصحيحين وغيرهما من المسانيد .

﴿ قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ * (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى * (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ * (١٢٦) ﴿

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس : اهبطوا منها جميعاً ، أي من الجنة كلكم وقد بسطنا ذلك في سورة البقرة (٢) ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ قال آدم وذريته، وإبليس وذريته وقوله تعالى : ﴿ فإمّا يأتينكم مني هدى ﴾ قال أبو العالية : الأنبياء والرسل والبيان ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ قال ابن عباس : لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿ ومن اعرض عن ذكري ﴾ أي خالف الأمر الذي أنزلته على رسولي وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ أي ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة ولا انشراح . بل صدره ضيق لضلاله فمهما تنعم من نعم الدنيا فإن قلبه ... لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو دائماً في قلق وحيرة وشك وفي الآخرة ينتظره عذاب القبر . روى البزار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ قال : ١٦٦ [المعيشة

(١) ما بين المعترضين من كلامي لا من كلام المفسر رحمه الله . (٢) عند الآية رقم ٢٦ /

الضنك الذي قال الله انه يسلط عليه تسعة وتسعين حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة [.
وقوله تعالى : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال عكرمة : عمى عليه كل شيء إلا
جهنم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر الى النار أعمى البصر ، والبصيرة أيضاً ،
كما قال تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ماواههم جهنم ﴾
الآية ... ولهذا يقول : ﴿ رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾ أي في الدنيا ﴿ قال
كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ أي لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها
معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها اليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها ، كذلك اليوم ،
نعاملك معاملة من ينساك ﴿ فالיום ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ فإن الجزاء من جنس
العمل ، فأما نسيان لفظ القرآن ، مع فهم معناه والقيام بمقتضاه ، فليس داخلياً في هذا
الوعيد الخاص ، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى ، روى الإمام أحمد عن سعد
ابن عباد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال ١٦٧ : [ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا
لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم] .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ * (١٢٧)

يقول تعالى : وهكذا نجازي المفسرين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة : ﴿ لهم
عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق ﴾ ولهذا قال تعالى :
﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ أي أشد ألماً من عذاب الدنيا وأدوم عليهم فهم مخلدون
فيه ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين ١٦٨ [إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة]

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي
مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ * (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ * (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا
يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا
وَمِنْ أَنَاثِنِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ * (١٣٠)

يقول تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ الْآيَاتُ الْمُبِينَاتِ بِمَا جَاءَتْهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَمَا كُنَّا بِمُعَذِّبِهِمْ أَهْلَكِنَا مِنْ الْآيَاتِ الْمُبِينَاتِ ﴾ ، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها يمشون فيها ﴿ ان في ذلك لآيات لأولي النهي ﴾ أي العقول الصحيحة والألباب المستقيمة ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه لكان العذاب لازماً لهم في الدنيا ولجاءهم بغتة ولكن قدر ان يكون عذابهم لأجل مسمى أي في الآخرة ولهذا قال لنبيه مسلماً له : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ أي من تكذيبهم لك ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ يعني صلاة العصر ، كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال ١٦٩ : [كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر الى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا »] ثم قرأ هذه الآية ...

وقوله تعالى : ﴿ ومن آتاء الليل فسبح ﴾ أي من ساعاته فتهجد به وحمله بعضهم على المغرب والعشاء : ﴿ واطراف النهار ﴾ في مقابلة آتاء الليل ﴿ لعلك ترضى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وفي الصحيح ١٧٠ [يقول الله تعالى : يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطينا ما لم تط أحدنا من خلقك ؟ فيقول : إني أعطيتكم أفضل من ذلك ، فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً] وفي الحديث الآخر ١٧١ [يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون : وما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ويزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة ، فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه وهي الزيادة]

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (١٣١) وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿ (١٣٢) ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وما هم فيه من النعيم فإنما هو زهرة زائلة ، لنختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور ، فقد آتاك خيراً مما آتاهم . كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم لا تمتدّ عينيك ﴾ الآية وكذلك ما أدّخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الآخرة أمر عظيم لا يحد ولا يوصف ولهذا قال تعالى : ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ وفي الصحيح ١٧٢ [أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن ، فرآه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير وليس في البيت إلا صبرة من قرظ واهية معلقة ، فابتدرت عيننا عمر بالبكاء فقال له رسول الله ﷺ « ما يبكيك يا عمر » فقال : يا رسول الله إن كسرى وقبصر فيما هما فيه ، وانت صفوة الله من خلقه ؟ فقال « أو في شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا » [فكان ﷺ أزهّد الناس في الدنيا مع القدرة عليها إذا حصلت له يُنفقها هكذا وهكذا في عباد الله ولم يدّخر لنفسه شيئاً لغد .

وقوله تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة واصبر أنت على فعلها ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لا نسألك رزقاً نحن نرزقك ﴾ يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب .

روى ابن أبي حاتم عن ثابت قال : ١٧٣ [كان النبي ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله : « يا أهلاه صلّوا صلّوا » . قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة] وقد روى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٧٤ [يقول الله تعالى : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي مملأاً صدرك غنى وأسد فقرك وإن لم تفعل ، ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك] . وقوله تعالى : ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة ، وهي الجنة لمن اتقى الله . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ١٧٥ « [رأيت الليلة كأنما في دار عقبة بن رافع وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب ، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة وأن ديننا قد طاب]

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى * (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ

لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أُرْسِلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذَلَّ وَنَخْزَىٰ * (١٣٤) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ * (١٣٥) ﴿١٣٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم ﴿لولا﴾ أي هلاّ يأتينا محمد بآية من ربّه أي بعلامة دالّة على صدقه في أنه رسول الله فقال الله تعالى : ﴿أولم تأتكم بينة مني في الصحف الأولى﴾ يعني ألم يروا في القرآن العظيم أخبار الأولين وبما كان منهم في سالف الدهر مع أنه أمي لا يكتب ولا يقرأ ولم يدارس أهل الكتاب ، فإنّ القرآن مهيمن على تلك الكتب ، يصدق الصحيح منها ويبين الخطأ المكذوب الذي فيها .

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ انه قال : ١٧٦] ما من نبي الا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة] وانما ذكر هنا أعظم الآيات التي أعطيها وهو القرآن ، وإلاّ فله من المعجزات ما لا يحصى ولا يحصر كما هو مقرر في مواضعه . ثم قال تعالى : ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلنا إلينا رسولا﴾ أي لو أهلكناهم قبل ان نرسل اليهم هذا الرسول الكريم وأنزلنا هذا القرآن العظيم لقالوا : ﴿ربنا لولا أرسلنا إلينا رسولا﴾ قبل ان تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه . كما قال ﴿فتتبع آياتك من قبل ان نذلّ ونخزي﴾ يبين تعالى أنهم متعنتون معاندون . كما قال تعالى : ﴿ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ ثم قال تعالى ﴿قل﴾ يا محمد لمن كذّبك واستمر كافراً ﴿كلّ متربص﴾ أي منّا ومنكم ﴿فتربصوا﴾ أي فانتظروا ﴿فستعلمون من أصحاب الصراط السوي﴾ أي الطريق المستقيم ﴿ومن اهتدى﴾ الى الحق وسبيل الرشاد وهذا كقوله تعالى : ﴿سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾ آخر اختصار تفسير سورة طه والله الحمد والمنه ونسأله التوفيق والسداد .

(٢١) سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ مَكِّيَّةٌ وَأَنبَأَهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ وَمِائَةً مِائَةً

نزلت بعد سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿٢﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٣﴾ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٦﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ، والناس في غفلة عنها فلا يعملون لها ولا يستعدون إليها، روى النسائي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ [١٧٧] ﴿ في غفلة معرضون ﴾ قال « في الدنيا » [وقال تعالى : ﴿ اتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ وقال ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار ، فقال تعالى : ﴿ ما يأتيتهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ أي جديد إنزاله ﴿ إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ كما قال ابن عباس : ما لكم تسألون أهل الكتب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه ، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يشب ، رواه البخاري بنحوه .

وقوله تعالى : ﴿ واسرؤا النجوى الذين ظلموا ﴾ أي قائلين فيما بينهم خفية

﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ يعنون رسول الله ﷺ ، يستبعدون ان يكون نبياً لأنه بشر مثلهم فكيف اختص بالوحي دونهم. ولهذا قال : ﴿ أفأتأتون السحر وانتم تبصرون ﴾ أي أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر ويعلم أنه سحر ، فردّ عليهم الله عما افتروه من الكذب ﴿ قال ربي يعلم القول في السماء والأرض ﴾ أي الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية ، ويعلم السر في السموات والأرض . وقوله تعالى : ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوالكم ، العليم بأحوالكم ، وفي هذا تهديد لهم ووعد . وقوله تعالى : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افترأه ﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار والحادهم ، وحيرتهم فيما يصفون به القرآن ، وضلالهم عنه فتارةً يجعلونه سحراً ، وتارةً شعراً ، وتارةً أضغاث أحلام ، وتارةً مفترى. كما قال تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ يعنون : كنانة صالح وآيات موسى وعيسى وقد قال الله تعالى : ﴿ وما منعنا ان نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ الآية ولهذا قال تعالى : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ أي ما آتينا قرية من القرى الذي بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا فأهلكناهم بذلك أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك كلاً . — لأنهم شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما هو شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧) ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ (٨) ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٩)

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم ﴾ أي جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة كقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى ﴾

ولهذا قال تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ﴾ أي اسألوا أهل العلم من اليهود والنصارى وسائر الطوائف : هل كان الرسل الذين أتوهم بشرأ أو ملائكة ؟ وهذا من تمام النعمة على الخلق ليتمكنوا من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴾ بل كانوا أجساداً يأكلون الطعام، وبشرأ من البشر يأكلون ويشربون ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، ولا يضيرهم هذا ولا ينتقص منهم شيء . كما توهمه المشركون في قولهم : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كثر أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ الآية ...

وقوله تعالى : ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ أي في الدنيا بل كانوا يعيشون ثم يموتون ، ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ أي الذي وعدهم ربهم ليُهْلِكَنَّ الظالمين / فصدقهم الله وعده وفعل ذلك ولهذا قال عز وجل : ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء ﴾ أي أتباعهم من المؤمنين . ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ أي المكذبين بما جاءت به الرسل .

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٠)

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿ (١١)

فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأُسْرَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿ (١٢) لَا تَرْكُضُوا

وَأَرْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينُكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْتَلُونَ ﴿ (١٣)

قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ

حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدينَ ﴿ (١٥) ﴾

ينبه تعالى على شرف القرآن ويخصهم على معرفته ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ قال ابن عباس : شرفكم ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي هذه النعمة وتلقونها بالقبول كما قال تعالى : ﴿ وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ أي وانه الشرف لك ولقومك ^(١) لأنه نزل بلغتهم .

وقوله تعالى : ﴿ وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها ﴾ الآية ...

وقوله تعالى : ﴿ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ أي أمة أخرى بعدهم ﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ أي تيقنوا وقوع العذاب كما وعدهم نبيهم ﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ أي يفرّون ﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم ﴾ هذا تهكم بهم واستهزاء أي لا تفروا وارجعوا إلى مساكنكم - وكيف يرجعون إليها وقد دمرها العذاب ﴿ لعلمكم تسألون ﴾ عما كنتم فيه من أداء الشكر للمنع ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعم ذلك ﴿ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ أي ما زالت تلك المقالة وهي الاعتراف بالظلم حتى حصدناهم حصداً ، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ (١٦)
 لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَنَتَّخِذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿ (١٧)
 بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ قَيْدَمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ
 مِمَّا تَصِفُونَ ﴿ (١٨) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ
 لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿ (١٩) يُسَبِّحُونَ
 أَلَيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿ (٢٠) ﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق ، أي بالعدل والقسط ، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحنى ، وانه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً كما قال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾

وقوله تعالى ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ﴾ أي من عندنا والله المراء بلسان أهل اليمن وقال عكرمة والسدي : والمراد باللهو ههنا الولد وهذا والذي قبله متلازمان . قال ابراهيم النخعي ﴿ لاتخذناه ﴾ من الحور العين والله تعالى منزّه عن اتخاذ

الولد والزوجة مطلقاً ﴿ سبحان الله عما يقولون علواً كبيراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ قال قتادة والسدي وابراهيم النخعي ومغيرة بن مقسم : أي ما كنا فاعلين وقال مجاهد : كل شيء في القرآن (إن) فهو إنكار وقوله تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل أي نبين الحق فيدحض الباطل ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ أي ذاهب مضمحل ﴿ ولكم الويل ﴾ أي ايها القائلون لله ولد ﴿ مما تصفون ﴾ أي مما تقولون وتفترون . ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً فقال جل وعلا : ﴿ وله من في السموات والأرض ومن عنده ﴾ يعني الملائكة ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ أي لا يستكفون عنها ، كما قال تعالى : ﴿ لن يستكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا يستحسرون ﴾ أي لا يتعبون ولا يملئون ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً مطيعون قصداً وعملاً كما قال تعالى : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ (٢١) لَوْ
كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿ (٢٢) لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (٢٣)

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ ينشرون ﴾ أي أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض ، أي لا يقدرّون على شيء من هذا ، فكيف جعلوها لله ندّاً وعبودها معه ؟ ثم أخبر تعالى فقال عز وجل : ﴿ لو كان فيهما آلهة ﴾ أي في السموات والأرض ﴿ لفسدتا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذّهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون ﴾ وقال تعالى ها هنا : ﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ أي تنزه وتعالى وتقدس عن الذي يفترون ويأفكون علواً كبيراً . وقوله تعالى : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، والحكيم الخبير الذي لا يماثله أحد في حكمته وعلمه وعدله ولطفه - فمن كانت هذه صفاته العلى فلا يسأل عما يفعل إذ لا يفعل إلا خيراً ، والشر ليس إليه ولا يقعله ، فلا يسأل عن شيء لم يفعله . أما الخلق فالله تعالى سألهم عما يعملون من خير أو شر وهنا يتضح معنى قوله تعالى : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ (١)

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿ (٢٥) ﴿

يقول تعالى : ﴿ ام اتخذوا من دونه آلهة قل ﴾ يا محمد ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿ وهذا ذكر من معي ﴾ يعني القرآن ﴿ وذكر من قبلي ﴾ يعني الكتب المتقدمة فهي على خلاف ما تقولونه وتزعمون . فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأن لا إله الا الله ، ويدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والفطرة شاهدة بذلك والمشركون لا برهان لهم ، وحجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿ (٢٩) ﴿

قال بعض من العرب : إن الملائكة بنات الله فقال : ﴿ سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ أي هم عنده في منازل عالية وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ لا يتقدمون بين يديه بأمر بل يبادرون إلى فعل أوامره وعلمه محيط بهم فلا تخفى عليه منهم خافية ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وقوله تعالى ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ من خوفه ورهبته ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴾ أي من ادعى منهم أنه إله مع الله ﴿ فذلك نجزيه جهنم ﴾ كذلك نجزي الظالمين ﴿ أي كل من قال ذلك وهذا شرط والشرط لا يلزم وقوعه ، كقوله



تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿ (٣٣)

يقول تعالى : ﴿ أو لم ير الذين كفروا ﴾ أي الجاحدون لإلهيته ، العابدون معه غيره ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المنفرد بالتدبير. ﴿ ان السموات والأرض كانتا رتقاً ﴾ أي كان من الجميع قطعة واحدة فتفتق هذه من هذه ، فجعل السموات سبعاً والأرض سبعاً ، وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ أي أصل لكل حي ، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : ١٧٨ [قلت : يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ، فأنبئني عن كل شيء قال : « كل شيء خلق من ماء » قال : قلت أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة ، قال : « أفش السلام ، وأطعم الطعام ، وصل الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ثم ادخل الجنة بسلام »] إسناده على شرط الصحيحين إلا أن أبا ميمونه من رجال السنن واسمه سليم ، والترمذي يصحح له . ﴿ أفلا يؤمنون ﴾ أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المطلق المختار الذي هو على كل شيء قدير .

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قال سفيان الثوري عن أبيه عن عكرمة قال : سئل ابن عباس : الليل كان قبل أو النهار ؟ فقال : رأيتم السموات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي ﴾ أي جبالات أرسى الأرض بها وقررها

وثقلها لثلاثاً تميد بالناس أي تضطرب وتتحرك ، فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلا بمقدار الربع فإنه بادٍ للهواء والشمس ، ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات . وقوله تعالى : ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً﴾ أي ثغراً في الجبال يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم ولذلك قال تعالى : ﴿لعلهم يهتدون﴾ . وقوله تعالى : ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ أي جعلها سقفاً كالقبة عليها كما قال تعالى : ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾ ﴿محفوظاً﴾ أي محروساً أن ينال . وقوله تعالى : ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ أي لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر ، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها ، ثم قال منبهاً على بعض آياته عز وجل ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار﴾ أي هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضياءه وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر ﴿والشمس والقمر﴾ هذه لها نور ينخصها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص ، وهذا بنور آخر وسير آخر وتقدير آخر ﴿كل في فلك يسبحون﴾ أي يدورون قال ابن عباس : يدورون كما يدور المنزل في الفلكة .

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (٣٤) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٥)

يقول تعالى : ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك﴾ يا محمد ﴿الخلد﴾ في الدنيا ، وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى ان الخضر عليه السلام مات وليس بحي إلى الآن لأنه بشر سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً وقد قال تعالى : ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ وقوله تعالى : ﴿أفإن مت﴾ يا محمد ﴿فهم الخالدون﴾ أي يؤملون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كل إلى القضاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وقوله تعالى : ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعيم أخرى فننظر من يشكر ومن يكفر ، ومن يصبر ومن يقنط ^(١) ومن يطيع ومن يعصى

(١) قلت : ليس معنى هذا أن الله لا يعلم حتى ينظر ويختبر بل يعلم ما سيكون من العبد قبل أن يخلقه انما يكون هذا الاختبار لتقوم الحجة على العبد الفاعل لهذا الشر أو لذلك الخير ويقتنع بأنه فعل فعلاً تستحق نتائجه ثواباً أو عقاباً .

وقوله تعالى : ﴿ والينا ترجعون ﴾ أي فنجازيكم بأعمالكم .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذِكرُ الرَّحْمَنُ لَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ ﴿ (٣٧)

يقول تعالى لنبية صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا ﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل واشباهه ﴿ إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ أي يستهزئون بك ويتقصونك بقولهم : ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ يعنون : أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم قال تعالى : ﴿ وهم يذكرون الرحمن هم كافرون ﴾ أي فعوضاً عن أن يؤمنوا بالله وبما جاء به رسول الله عن الله إذا بهم يستهزئون برسول الله ... !! ويكفرون بمن أرسله والعباد بالله ، ويعتبرونه مضلاً لهم عن آلهتهم لولا صبرهم عليها فرد الله عليهم بقوله جل وعلا : ﴿ ... وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ كما قال تعالى الله : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ والحكمة من ذكر عجلة الإنسان ههنا : أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك فقال الله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ لأنه تعالى يحلي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يؤجل ثم يعجل ، وينظر ثم لا يؤخر ولهذا قال عز من قائل : ﴿ سأريكم آياتي ﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿ فلا تستعجلون ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿ (٤٠)

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم تكديباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً ، فقال جل وعز : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾

قال الله تعالى : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾ أي لو يتقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوه ، ولكن العذاب محيط بهم من جميع جهاتهم كما قال تعالى : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي لا ناصر لهم وقوله تعالى : ﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾ أي تأتيهم النار فجأة ﴿ فنبهتهم ﴾ أي تذرهم ، فيستسلمون لها حائرين لا يدرون ما يصنعون ﴿ فلا يستطيعون ردها ﴾ أي ليس لهم حيلة في ذلك ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة .

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٤١) ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُو كُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٤٢) ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْهَا يُصْحَبُونَ ﴾ (٤٣)

يقول تعالى مسلماً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ يعني من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه ، كما قال تعالى : ﴿ لقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ ثم ذكر نعمته سبحانه على عبده في حفظه لهم بالليل والنهار بعينه التي لا تنام فقال عز من قائل : ﴿ قل من يكلوكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ أي بدل الرحمن يعني غيره ، وقوله تعالى : ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم ، بل يعرضون عن آياته ، ثم قال سبحانه : ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ استفهام إنكار وتقرع وتوبيخ ، أي ألهم آلهة تحفظهم وتحرسهم غيرنا ؟ ليس الأمر كما زعموا وتوهموا ولهذا قال تعالى : ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴾ أي هذه الآلهة لا يستطيعون نصر أنفسهم . وقوله تعالى : ﴿ ولا هم منا يُصحبون ﴾ أي ولا هم منا يجارون ويمنعون .

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٤٤)
 قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿ (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿ (٤٧)﴾

يخبر تعالى عن المشركين : إنما غرهم وحملهم على ما هم عليه من الضلال ، أنهم طال عليهم العمر بالنعم ، فاعتقدوا أنهم على شيء ... ثم وعظهم : ﴿ أفلا يرون أننا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ أي كما قال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ قال الحسن البصري : يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر .

والمعنى : أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى وإنجائه لعباده المؤمنين ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ أفهم الغالبون ﴾ يعني بل هم المغلوبون والأسفلون الآخرون الأردلون .

وقوله تعالى : ﴿ قل إنما أُنذركم بالوحي ﴾ أي ما أُنذرتكم به إنما هو الوحي من الله تعالى ولكن لا يجدي الإنذار بالعذاب من أعمى الله بصيرته جزاء صدوده عن آيات الله ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولئن مسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي يعترفون بذنوبهم عندما يقع بهم أدنى شيء من العذاب ، وبما ظلموا أنفسهم في الدنيا .
 وقوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ أي نضع الموازين العدل ليوم القيامة ، والميزان واحد إنما جمع لتعدد الأعمال الموزونة فيه .

وقوله تعالى : ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ وقال سبحانه : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٧٩ [كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم] . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : قال رسول الله ﷺ : ١٨٠ [إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول : أنتكر من هذا شيئاً ؟ أظلمتكَ كتبي الحافظون قال : لا يا رب قال : أفلك عذر أو حسنة قال : فبهت الرجل فيقول : لا يا رب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فيقول أحضره ، فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لا تظلم ، قال فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، قال : ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم] ^(١) ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث الليث بن سعد وقال الترمذي حسن غريب .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ
مُشْفِقُونَ ﴿ (٤٩) وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكُ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ
مُنْكَرُونَ ﴾ (٥٠)

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وبين كتابيهما ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ يعني التوراة حلالها وحرامها وما فرق الله بين الحق والباطل ، كما أن كل

(١) هكذا في الأصل . ورواية الترمذي : فلا يثقل مع اسم الله شيء . اهـ

الكتب السماوية مشتملة على هذا ، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب ، وهداية وخوفاً وإنباء وخشية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ الفرقان وضياءٌ وذكرٌ للمتقين ﴾ أي تذكيراً لهم وعظة ثم وصفهم فقال : ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴾ كقوله : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ يعني القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾ أي افتنكرونه وهو في غاية الجلاء؟



وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾
قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾
قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى
ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه أتاه رشده من قبل، أي من صغره ، وألممه بالحق والحجة على قومه ، كما قال تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ وهناك بعض أخبار إسرائيلية قصها كثير من المفسرين ، عامتها مما حدث به بنو إسرائيل فما وافق ما في شريعتنا قبلناه لذلك ، وما خالف ردناه وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدق ولا نكذبه بل نجعله وفقاً ... وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه وإلا لبيئت هذه الشريعة الكاملة الشاملة . والذي نسلكه في هذا التفسير ، الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية لما فيها من تضيق الزمان ولما قد يكون فيها من الكذب المروج عليهم فبنو إسرائيل لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة ، والمقصود ههنا ان الله تعالى أخبر أنه قد أتى إبراهيم رشده من قبل ، أي من قبل ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وكنا به عالين ﴾ بأنه أهل لذلك ثم قال جل وعلا : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ ^(١) هذا هو الرشد الذي

(١) قلت : وهذا دليل على أن الأصنام التي يعبدونها إنما هي تماثيل لرجال صالحين مضوا، فضعوا لهم هذه =

أوتيه من صغره وهو الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله عز وجل ، والمعنى ما هذه التماثيل التي معتكفون على عبادتها . قال ابن أبي حاتم ، عن الأصبع بن نباتة قال : مرّ علي رضي الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟!! لأن يمسّ أحدكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسّها . وقوله تعالى : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال ، ولهذا قال لهم تعالى : ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ أي على غير الطريق المستقيم ، فلما سفه أحلامهم ، وضلل آبائهم ، واحتقر آلهتهم ﴿ قالوا أجتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ أي هذا الكلام الذي نقوله ، أهو عبث ولعب أم أنك جاد فيه ؟... قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ﴿ أي ربكم الذي لا معبود غيره هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ﴾ وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴿ وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَازًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿ (٦٠) قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿ (٦١) قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿ (٦٣)

- التماثيل للذكرى في أول الأمر كما يفعل دعاة تقليد الكفار في زمننا الحاضر، إذ بدأنا نصنع تماثيل لأبطالنا بنية الذكرى بعد الموت ثم انتقل إلى التقدير والاحترام ليقنّدي الأحياء بما يفعل الأموات من عمل عظيم، ثم يتطور هذا التقدير إلى أبعد من ذلك ، فيزين الشيطان للأحياء تعظيمهم ومخاطبتهم ثم دعاءهم ، كما صار تماماً بالتماثيل التي كانت لرجال صالحين مثل ود ، ويغوث، وسواع، ويعوق ونسراء الذين عبدوا بعد قرون على أن الفتنة بالقبر أسرع وأوقع لأن الذي ينادى على بعد أشبار من المنادي. وهكذا تتضح حكمة الشارع الحكيم من تحريم صنع الصور والتماثيل ورفع القبور التي صارت أفق من التماثيل .

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدنَّ أصنامهم أي ليكسرها بعد إدارهم إلى عيدهم وقد سمعه بعض قومه يقول ذلك ، فلما خرجوا إلى عيدهم مروا عليه فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال : إني سقيم ، وقد كان بالأمس قال : ﴿ تالله لأكيدنَّ أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين ﴾ فلما جاز عاتمتهم إلى عيدهم هرع إلى أصنامهم ﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ أي حطاماً ... إلّا كبير أصنامهم . ﴿ لعلمهم إليه يرجعون ﴾ أي يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه وأنف أن يعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها ، فلما رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة الدالة على عدم أهليتها لأن تعبد ، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿ قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ أي في صنيعة هذا ... ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ أي قال الذين سمعوه بالأمس يهدد أصنامهم بالتكسير : سمعنا شاباً يذكرهم بسوء يقال له إبراهيم . قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، قال : ما بعث الله نبياً إلّا شاباً ولا أوتي القلم عالم إلّا وهو شاب وتلا هذه الآية : ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس ﴾ أي على ملأ منهم وكان هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقولهم في اتخاذ هذه الأصنام آلهة لم تستطع أن تدفع عن نفسها ضرراً ، ولا تملك لها نصراً فكيف يطلب منها شيء من ذلك ... ؟!!!! ﴿ قالوا أننت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا ﴾ يعني الذي تركه ولم يكسره ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ وانما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون وان هذه الأصنام عاجزة عن حماية نفسها فكيف تستطيع حماية غيرها ... ؟!!!!

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال ١٨١ [وان إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث ! اثنتين في ذات الله ، قوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله : ﴿ إني سقيم ﴾ - قال - وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلاً فأتى الجبار رجلاً فقال : إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس فأرسل إليه فجاء ، فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال أخي قال فاذهب فأرسل بها إليّ فأرسلني إلى سارة فقال : إن هذا الجبار قد سأني عنك ، فأخبرته أنك أخي فلا تكذبيني عنده فإنك أخي في كتاب الله ، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي ، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأخذ أخذاً شديداً فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت له ، فأرسل فأهوى إليها فتناولها ، فأخذ بمثلها

أشد ، ففعل ذلك الثالثة ، فأخذ فذكر مثل المرتين الأولتين ، فقال : ادعي الله فلا أضرك ، فدعت له فأرسل ، ثم دعا أدنى حجابيه فقال : إنك لم تأتني بإنسان ، ولكنك أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطيها هاجر فأخرجت وأعطيت هاجر . فأقبلت ، فلما أحدث إبراهيم بمجيئها ، انقتل من صلاته وقال : مهيم^(١) . قالت : كفى الله كيد الفاجر وأخدمني هاجر [. قال محمد بن سيرين فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : تلك أمكم يا بني ماء السماء^(٢) .

﴿ فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٦٤)
 ﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ (٦٥)
 ﴿ قَالَ أَتَقْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ (٦٦)
 ﴿ أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٧) ﴿﴾

يخبر تعالى أن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ بالملامة لعدم حراستهم آلتهم فقالوا : ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾ في إهمال حفظها ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ أي أطرقوا حيرةً وعجزاً عن الإجابة لما قال لهم إبراهيم : ﴿ فسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ وكيف يسألونهم ويعلمون أنما هم جماد . ولهذا قالوا : ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك : ﴿ أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ﴾ ثم وبخهم على ذلك وقال لهم : ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ أي أفلا تدركون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ ؟ فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها ولهذا قال تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ الآية ...

(١) مهيم : كلمة استفهام . أي ما حالك ، أو ما وراك ، أو : أحدث لك شيء ؟

(٢) قلت : من هذا الحديث المتفق عليه دليل قاطع من جملة الأدلة القاطعة على عصمة أزواج الأنبياء من الزنا إطلاقاً تبعاً لعصمة أزواجهن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا يمكن لزوجة بئى قط أن تزني لا باختيارها ولا رغماً عنها فإن الله يربط على قلبها فلا يدعها أن تزني صوناً لعصمة الأنبياء من أن يلحق ببيوتهم الطاهرة عار أو دنس يعيق الدعوة إلى الله تعالى ، حتى إذا حاول جبار على أن يفجر بها تولى الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات حمايتها وحفظها من المعتدي ؛ وأخذة أخذاً شديداً إلى أن يدعها دون أن يمسه بسوء كما حصل مع سارة التي حماها الله من ذلك الجبار بفضلته ومنه وقوته التي لا تغلبها قوة في الأرض ولا في السماء وهو الغالب على أمره والقاهر فوق عباده .

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (٦٨)
 قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ
 كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

وهكذا ... فكل من يعدم قرع الحجة بالحجة يلجأ إلى استعمال القوة ، وهؤلاء قوم إبراهيم لما لم يحبروا جواباً ، ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ فجمعوا خطباً كثيراً جداً ، وأضرموه ناراً فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع ، لم توقد نار قط مثلها ، وجعلوا إبراهيم في كفة المنجنيق بإشارة رجل ، فخسف الله به الأرض ، فلما ألقوا إبراهيم في النار قال : حسبي الله ونعم الوكيل ؛ كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال ١٨٢ [حسبي الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم حين ألقى في النار ، وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل] وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٨٣ [لما ألقى إبراهيم عليه السلام في النار ، قال : اللهم إنك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك] .

وقال سعيد بن جبير - ويروى عن ابن عباس أيضاً - قال : لما ألقى إبراهيم ، جعل خازن المطر يقول متى أومر بالمطر فأرسله ؟ قال فكان أمر الله أسرع من أمره قال الله : ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ قال ابن عباس : لولا ان الله عز وجل قال : ﴿ وسلاماً ﴾ لآذى إبراهيم بردها .

روى ابن أبي حاتم عن مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت ، [دخلت على عائشة ، فرأيت في بيتها رجلاً فقلت : يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح ؟ فقالت فقتل به هذه الأوزاغ ، ان رسول الله ﷺ قال : ١٨٤ [ان إبراهيم حين ألقى في النار لم يكن في الأرض دابة إلا لا تطفىء النار غير الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم] فأمرنا ﷺ بقتله] .

وقوله تعالى : ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الآخسرين ﴾ أي المغلوبين الأسفلين لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً فكادهم الله ونجاه من النار فغلبوا هنالك .

﴿ وَنَجِّنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٧١)
 وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿ (٧٢)
 وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ
 الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿ (٧٣) وَلُوطًا إِنِّي
 حَكَمٌ وَعَلَمٌ وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ
 كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنْ
 الصَّالِحِينَ ﴿ (٧٥) ﴾

يخبر تعالى عن ابراهيم أنه سلمه الله من نار قومه ، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً الى بلاد الشام إلى الأرض المقدسة منها وكان بأرض العراق فأنجاه الله وابن أخيه لوطاً الى الشام التي كان يقال لها أعقار دار الهجرة ومنها فلسطين وكان يقال : هي ارض المحشر والمنشر وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام وبها يهلك المسيح الدجال . ثم تزوج ابراهيم ابنة عمه سارة وخرج بها مهاجراً من بلاده ﴿ الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ قال ابن عباس وغيره : النافلة ولد الولد ، يعني ان يعقوب ولدُ اسحاق كما قال تعالى : ﴿ فبشرناه بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ أي الجميع أهل خير وصلاح ﴿ وجعلناهم أُمَّةً ﴾ أي يقتدى بهم ﴿ يهدون بأمرنا ﴾ أي يدعون الى الله بإذنه ولهذا قال عز وجل ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ أي فاعلين لما يأمرهم الناس به ، ثم عطف بذكر لوط وهو بن هاران بن آذر كان قد آمن بابراهيم عليهما السلام واتبعه وهاجر معه ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّنْ لَهُ لُوطُ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ فاتاه الله حكماً وعلماً وأوحى إليه وجعله نبياً ، وبعثه إلى سدوم وأعمالها فخالقوه وكذبوه ، فأهلكهم الله ، ودمّر عليهم ولهذا قال عز من قائل : ﴿ وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ (٧٧) ﴿

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله ﴾ أي الذين آمنوا به ، وقوله تعالى : ﴿ من الكرب العظيم ﴾ أي من الشدة والتكذيب والأذى ، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل ، فلم يؤمن به إلا القليل ، وكانوا يتصدّون لأذاه ، ويتواصون قرناً بعد قرن على خلافه . وقوله تعالى : ﴿ ونصرناه من القوم ﴾ أي ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿ الذين كذبوا بآياتنا أنهم كانوا قوم سوءٍ فأغرقناهم أجمعين ﴾ ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد كما دعا عليهم نبيهم .

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَمٌّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿ (٨٢) ﴿

النفش : الرعي ولا يكون إلا بالليل ، وقد كان ذلك الحرث كرمًا قد تدلت

عناقيده . قال ابن جرير عن ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غم القوم ﴾ قال : كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته قال : فقضى داود بالغم لصاحب الكرم فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله . قال : وما ذاك قال ، تدفع الكرم الى صاحب الغم فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغم الى صاحب ذلك . الكرم فيصيب منها حتى اذا كان الكرم كما كان ، دفعت الكرم الى صاحبه ودفعت الغم الى صاحبها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ وهكذا فقد أننى الله على سليمان ولم يذم داود ، قاله الحسن البصري . ثم قال رحمه الله مجيباً لأبياس بن معاوية لما استقصي وأتاه باكياً .. فقال الحسن وما يبكيك ؟ قال يا أبا سعيد : بلغني ان القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ، ورجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة . فقال الحسن : إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم . قال الله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود ثم قال - يعني الحسن - : ان الله اتخذ على الحكام ثلاثاً : لا يشترؤا به ثمناً قليلاً ، ولا يتبعوا فيه الهوى ، ولا يخشوا فيه أحداً ثم تلا : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشوني ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ قلت : أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف ، وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص انه قال : قال رسول الله ﷺ : [١٨٥] إذا اجتهد الحاكم فأصاب ، فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر [فهذا الحديث يرد ما توهمه إياس من ان القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار والله أعلم . وفي السنن ١٨٦] القضاة ثلاثة : قاض في الجنة وقاضيان في النار ، رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار] .

وقوله تعالى : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ الآية ... وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء ، فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويباً ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان صوته طيباً جداً فوقف واستمع لقراءته وقال : [١٨٧] «لقد أوتي هذا مزماراً من

مزَامِير آل دَاوُدَ . قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ لِحَبْرَتِهِ لَكَ تَحْيِيرًا [وقوله تعالى :

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لَتَحْصُنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعني صَنْعَةَ الدَّرُوعِ كما قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ﴾ أي لَا تُوسِعُ الْحَلَقَةُ فَتَقْلُقُ الْمَسَامِيرَ وَلَا تَغْلُظُ الْمَسَامِيرَ فَتَقْدُ الْحَلَقَةُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَتَحْصُنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعني فِي الْقِتَالِ ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ أي نَعَمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِمَا أَلْهِمَ بِهِ عَبْدَهُ دَاوُدَ فَعَلَّمَهُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِكُمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أي وَسَخَرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ الْعَاصِفَةَ ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ يعني أَرْضَ الشَّامِ ، ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ بَسَاطٌ مِنْ خَشَبٍ يُوضَعُ عَلَيْهِ كُلُّ مَا يَحْتَاجُ مِنْ أُمُورِ الْمَمْلَكَةِ ثُمَّ تَحْمِلُهُ الرِّيحُ وَتُظِلُّهُ الطَّيْرُ تَقِيهِ الْحَرَّ حَيْثُ يَشَاءُ مِنَ الْأَرْضِ ، فَيَنْزِلُ وَتُوضَعُ آلَاتُهُ وَحَشَمُهُ ﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ غَدَوْهَا شَهْرًا وَرَوَّاحَهَا شَهْرًا ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أي فِي الْمَاءِ يَسْتَخْرِجُونَ اللَّالِيَّ وَالْجَوَاهِرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ مِنَ الْبِنَاءِ وَالْقَوَصِ ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أي يَحْرُسُهُ اللَّهُ مِنْ أَنْ يَنَالَهُ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ بِسُوءٍ ، بَلِ الْكُلُّ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَلَا يَتَجَسَّرُ أَحَدٌ أَنْ يَدْنُو مِنْهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ فِيهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ أَطْلَقَ وَإِنْ شَاءَ حَبَسَ مِنْهُمْ مِنْ يَشَاءُ .



وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنْ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، مَا كَانَ أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ فِي مَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَسَدِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ شَيْءٌ كَثِيرٌ ، وَأَوْلَادٌ كَثِيرَةٌ ، وَمَنْزِلٌ مَرْضِيَّةٌ ، فَابْتَلَى فِي ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَذَهَبَ عَنْ آخِرِهِ ، ثُمَّ ابْتَلَى فِي جَسَدِهِ بِالْجَدَامِ سِوَى قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ ، يَذْكُرُ بِهِمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ١٨٨ [أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ] وَقَدْ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ غَايَةَ فِي الصَّبْرِ ، وَبِهِ

يضرب المثل في ذلك . وقال يزيد بن مسيرة : لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد ، ولم يبق شيء له ، أحسن الذكر . ثم قال عليه السلام : أحمدك رب الأرباب الذي أحسنت إلي ، اعطيتني المال والولد فلم يبق من قلبي شعبة إلا وقد دخله ذلك ، فأخذت ذلك كله مني ، وفرغت قلبي ، فليس يحول بيني وبينك شيء ، لو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت حسدني .

روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن عبيد بن عمير : كان لأيوب عليه السلام أخوان فجاء يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه ، فقاما من بعيد ، فقال أحدهما للآخر : لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط ، فقال : اللهم ان كنت تعلم أنني لم أبت ليلة قط شعبان وأنا أعلم مكان جائع فصدقني ، فصدق من السماء وهما يسمعان . ثم قال : اللهم ان كنت تعلم أنني لم يكن لي قميصان قط ، وأنا أعلم مكان عار ، فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان . ثم قال : اللهم بعزتك ، ثم خر ساجداً فقال : اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني ، فما رفع رأسه حتى كشف عنه ^(١) .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : وألبسه الله حلةً من الجنة فتنحتي أيوب فجلس في ناحية ، وجاءت امرأته فلم تعرفه ، فقالت : يا عبدالله أين ذهب هذا المبتلى الذي كان هنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئباب ، فجعلت تكلمه ساعة فقال ويحك أنا أيوب ... ! قالت : أتسخر مني يا عبدالله ، فقال : ويحك أنا أيوب قد رد الله علي جسدي .

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ١٨٩ [لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه ، قال : فقيل له يا أيوب أما تشبع ؟ قال : يا رب ومن يشبع من رحمتك] أصله في الصحيحين وسيأتي في موضع آخر . وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قال مجاهد : ثم قيل له : يا أيوب إن أهلك لك في الجنة ، فإن شئت أتيناك بهم ، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم ؟ قال : لا بل اتركهم في الجنة ، فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿ رحمة من عندنا ﴾ أي فعلنا به ذلك رحمة من الله به ﴿ وذكرى

(١) قلت : فذاك قوله تعالى : « فكشفنا ما به من ضر »

للعابدين ﴿ أي وجعلناه في ذلك قدوةً لثلاثٍ يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك لهُوانهم وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله ، وابتلائه لعباده بما يشاء له الحكمة البالغة في ذلك .

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٨٥)
وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ (٨٦) ﴾

وأما اسماعيل فهو ابن ابراهيم الخليل عليهما السلام ، وقد تقدم ذكره في سورة مريم وكذا إدريس عليه السلام وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قُرِنَ مع الأنبياء إلا وهو نبيٌّ وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحاً ، وكان ملكاً عادلاً ، وحكماً مُقْسِطاً وتوقف ابن جرير في ذلك والله أعلم .

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿ (٨٨) ﴾

هذه القصة مذكورة ههنا ، وفي سورة الصافات ، وفي سورة (ن) وذلك أن يونس ابن متى عليه السلام ، بعثه الله إلى أهل قريته نينوى ، وهي قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله تعالى ، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا منه ذلك ، وعلموا أن النبي لا يكذب ، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه ، ورغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، ونغت الغنم وسخالها ، فرفع الله عنهم العذاب ، قال الله تعالى : ﴿ فلو لا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ، إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم ، وخافوا

أن يغرقوا فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه ، ف وقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها ف وقعت عليه أيضاً فأبوا ثم أعادوها ف وقعت عليه أيضاً .

قال الله تعالى ﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ أي وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ، ثم ألقى نفسه في البحر ، .

قال ابن مسعود : (وقد ارسل الله حوتاً من البحر الأخضر يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة ، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً ، فإن يونس ليس لك رزقاً ، وإتما بطنك تكون له سجنًا .

وقوله تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ﴾ أي إن ذا النون أي صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام لما ذهب مغاضباً لقومه وتركهم لما لم يؤمنوا به ، وركب السفينة ، و وقعت عليه القرعة ورمى بنفسه في البحر والتقمه الحوت ، ظن أن الله تعالى لن يضيق عليه في بطن الحوت - وهذا ظن بالله حسن - فلن يقضي عليه أي لن يقدر عليه الموت وسينجي من بطن الحوت ، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير فإن العرب تقول : قدَّر ، وقدَّر بمعنى واحد ، وقال الشاعر :

فلا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدِّر يكن ذلك الأمر

ومنه قوله تعالى : ﴿ فالتقى الماء على أمر قد قدَّر ﴾ أي قد قدَّر .

وقوله تعالى : ﴿ فنادى في الظلمات ﴾ قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل وكذا روى ابن عباس وغيره . وذهب به الحوت في البحار يشقها حتى انتهى الى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه : ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسييح دواب البحر . وهناك قال : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فسمعت الملائكة تسيحه فقالوا : يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة ، قال : ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال : نعم . فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقتله في الساحل كما قال الله تعالى : ﴿ وهو سقيم ﴾ (١) .

(١) قلت : رويناه مشتقاً من حديث فيه مجهول رواه محمد بن اسحق عن أبي هريرة مرفوعاً والجهالة : قول محمد بن اسحق : عن حدثه ولم ينسب ... ؟ عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة مرفوعاً .

وقوله : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾ أي أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ أي إذا كانوا في الشدائد ودعونا منييين إلينا ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء ، فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء

روى الإمام أحمد عن سعد بن وقاص بعد أن ذكر قصة بينه وبين عثمان بن عفان ... إلى أن قال عنه عليه السلام أنه قال : ١٩٠... دعوة ذي النون اذ هو في بطن الحوت : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فانه لم يدعُ بها مسلم ربّه في شيء قط إلا استجاب له [ورواه الترمذي والنسائي .

وهذا الدعاء وان كان ليونس خاصة عليه الصلاة والسلام إلا أنه للجماعة المؤمنين عامة فهو شرط من الله لمن دعا به كما يستفاد ذلك من حديث رواه ابن جرير عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً وفيه ١٩١ [اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى ...]

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٨٩) ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (٩٠)

ينبغي تعالى عن عبده ورسوله زكريّا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً ، وقد تقدمت القصة مبسوطاً في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضاً وههنا أخصر منها ﴿ إذ نادى ربّه ﴾ أي خفية عن قومه : ﴿ رب لا تذرني فرداً ﴾ أي لا ولدي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسئلة. وقوله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ﴾ أي امرأته كانت عاقراً فولدت . وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾ أي في عمل القربات والطاعات ﴿ ويدعوننا رغباً ورهَباً ﴾ أي رغباً بما عند الله من الثواب ورهَباً ممّا عنده من العذاب ^(١) ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً

(١) قلت : ولذا فلان دعاء (اللهم ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً بحبكتك) ضلال .

وقيل : ﴿ خاشعين ﴾ أي متواضعين ومتذللين مؤمنين ومصدقين بما أنزل الله وكل هذه الأحوال صحيحة قريبة المعنى .

﴿ وَآلِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا
وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٩١)

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، فيذكر قصة زكريا ، وكيف يلد لشيخين طاعين في السن ولد ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب ، فلما لم يجد ولد من أنثى بلا ذكر فقال تعالى : ﴿ والتي أحصنت فرجها ﴾ أي من الدنس كما قال تعالى : في سورة التحريم : ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ أي دلالة على ان الله تعالى على كل شيء قدير وانه يخلق ما يشاء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون . وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ .
وقوله : ﴿ للعالمين ﴾ أي الجن والإنس .

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٩٢)
وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا رَاجِعُونَ ﴿ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْرَ
الْصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿ (٩٤)

وقوله تعالى : ﴿ ان هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ إن هذه إن واسمها ، وأمتكم خبر إن . أي هذه شريعتكم التي بينت لكم شريعة واحدة . وقوله تعالى ﴿ أمة واحدة ﴾ نصب على الحال ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ وقال رسول الله ﷺ [نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد] يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله .

وقوله تعالى : ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ أي اختلف الأمم على رسلهم ، فمن

مصدق ومكذب ولهذا قال تعالى : ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ أي يوم القيامة فكل بحسب عمله خيراً كان أو شراً . ولهذا قال سبحانه : ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مصدق وعمل صالحاً ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ أي فلا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال جل وعلا ﴿ وإنا له كاتبون ﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه شيء منه .

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٩٥)
 حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿ (٩٦)
 وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿ (٩٧)

يقول تعالى : ﴿ وحرام على قرية ﴾ قال ابن عباس : وجب ، يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون الى الدنيا قبل يوم القيامة ، هكذا صرح ابن عباس وابو جعفر الباقر وقنادة وغيرهم وقوله تعالى : ﴿ حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ انهم من سلالة نوح من أولاد يافث أبي الترك ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ أي يسرعون في المشي الى الفساد ، والحدب هو المرتفع من الأرض ، وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ وهذا إخبار عالم ما كان وما يكون الذي يعلم غيب السموات والأرض لا إله إلا هو .

روى الامام أحمد عن النواس بن سميان الكلابي قال : [١٩٣] ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في ناحية النخل ، فقال : « غير الدجال أخوفني عليكم . فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيجه نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، وانه شاب جعد قطط عينه طافية ، وانه يخرج خلة بين الشام والعراق فعاث يمينا وشمالاً . يا عباد الله أثبتوا - قلنا يا رسول الله ما لبثه في الأرض ؟ قال : « أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهري ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم » قلنا : يا رسول الله فذاك اليوم الذي هو كسنة ، أكفينا فيه صلاة يوم وليلة قال : « لا . اقدروا له قدره » قلنا : يا رسول الله فما اسرعه في الأرض ؟ قال : « كالغيث استدبرته الريح . قال : فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيون

له . فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبث . وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذرى . وأمدّه خواصر ، واسبغه ضروعاً . ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فتتبعه أموالهم فيصبحون محلين ليس لهم من أموالهم شيء ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها ، كيغاسيب النحل قال : ويأمر برجل فيقتل ، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل إليه ، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل المسيح عيسى ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودين واضعاً يديه على أجنحة ملكين ، فيتبعه فيدركه فيقتله عند باب لد الشرقي - قال - فبينما هم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم عليه السلام أنني قد أخرجت عباداً من عبادي لا يدان لك بقتالهم ، فحرر عبادي إلى الطور ، فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج كما قال : ﴿ وهم من كل حذب يسلون ﴾ فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل ، فيرسل عليهم نغفاً في رقابهم ، فيصبحون فرسي كموت نفس واحدة ، فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا وقد ملأه زهمهم^(١) وتنتهم . فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت فتحملهم فطرحهم حيث شاء الله]

روى ابن جرير عن كعب وغيره قال : ١٩٤] فتطرحهم بالمهيل ؛ قال ابن جابر فقلت يا أبا يزيد وأين المهيل ؟ قال : مطلع الشمس . قال « ويرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلاقة ، ويقال للأرض أنبت ثمرك ودري بركتك قال : فيومئذ يأكل النفر من الرمانة فيستظلون بقحفها ويبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي القثام من الناس ، واللقحة من البقر تكفي الفخذ ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت ، قال : فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم - أو قال مؤمن - ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة » [انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري ورواه مع بقية أهل السنن من طرق عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر به وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقد ثبت في الحديث ١٩٥] أن عيسى بن مريم يحج البيت العتيق [وقال الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : ١٩٦] ليحجبن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج

يأجوج ومأجوج] إنفرد به البخاري وقوله تعالى : ﴿ واقرب الوعد الحق ﴾ يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأحوال والزلازل ، أزفت الساعة واقتربت فإذا كانت ووقعت ، قال الكافرون : هذا يوم عسر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام : ﴿ يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا ﴾ أي في الدنيا ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك ..

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ (٩٨) ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٩٩) ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (١٠٠) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (١٠١) ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ (١٠٢) ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (١٠٣)

يقول تعالى ، مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ، ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ أي وقودها . وقوله تعالى : ﴿ أنتم لها واردون ﴾ أي داخلون ﴿ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ﴾ أي لو كانت الأصنام آلهة حقاً ما دخلوا النار مع عابديها ﴿ وكل فيها خالدون ﴾ أي جميعاً مخلدون في النار ﴿ لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ والزفير خروج النفس والشهيق دخوله .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنَى ﴾ أي الرحمة والسعادة ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾ أي عن النار وذلك بسبب إيمانهم بالله ورسوله وما أسلفوا من الأعمال الصالحة في الدنيا كما قال تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ أي فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله لهم الثواب في الآخرة ونجاهم من العذاب فقال عز وجل :

﴿ لا يسمعون حسيها ﴾ أي حريقها في الأجساد . وقوله تعالى : ﴿ وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ فسلمهم من المحذور والمرهوب ، وحصل لهم المطلوب والمحبوب فأولئك أولياء الله يعمرون على الصراط مرأً هو أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثياً . وخرج بذلك من عبد بغير رضاه كالملائكة والعزير وعيسى ومريم ، وغيرهم ممن عبدوا وهم غير راضين ويبرأون إلى الله تعالى من ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ قبل وقبل ... وقيل : حين تطبق النار على أهلها . وقوله تعالى : ﴿ وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ أي تبشرهم الملائكة يوم معادهم : ﴿ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ أي فأملوا ما يسركم .

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١٠٤)

يقول تعالى : هذا كائن يوم القيامة : ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطوياتٍ بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾

وقد روى البخاري رحمه الله عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : ١٩٧ إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات بيمينه [انفرد به من هذا الوجه البخاري رحمه الله . وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : يطوي الله السماوات السبع بما فيها من الخليفة والأرضين السبع بما فيها من الخليفة ، يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمنزلة الخردلة .

وقوله تعالى : ﴿ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ قال ابن عباس : ان السجل هي الصحيفة قاله علي بن طلحة والعوفي عنه . ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة ؛ فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب أي على الكتاب بمعنى المكتوب ، كقوله تعالى : ﴿ فلما أسلما وتلّاه للجبين ﴾ أي على الجبين وله نظائر في اللغة والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ يعني هذا

كأن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق جميعاً خلقاً جديداً كما بدأهم هو القادر على إعادتهم ، وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله تعالى الذي لا يخلف ولا يبدل ، وهو القادر على ذلك ، ولهذا قال عز من قائل : ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : [١٩٨] قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة ، فقال : « إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاةً عراةً غرلاً » ، كما بدأنا أول خاق نعيده وعداً علينا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ... [أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة .

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾

يخبر تعالى عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدارين ، ووراثة الأرض فيهما كقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية ، وهو كأن لا محالة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ الزبور : الكتب التي أنزلت على الأنبياء وهو أيضاً اسم الكتاب الذي أنزل على داود عليه السلام . والمراد من الذكر هاهنا : أم الكتاب الذي كتب الله فيه ما هو كأن إلى يوم القيامة . والمعنى : ان الله تعالى كتب في التوراة والانجيل والقرآن وفي الصحف التي نزلت على الأنبياء جميعاً من بعد أم الكتاب ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ من كل الأمم المؤمنة بالله تعالى ، فإنه تعالى يكفل لهم السعادة والمجد والحكم والفتح ويوليهم على أُمم الأرض بالحق والعدل وذلك في الدنيا . أما في الآخرة فيورثهم أرض الجنة وما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ أي في هذا القرآن لبلاغاً لمنفعة ، وكفايةً لقوم عابدين الله بما شرع لهم ، وآثروا طاعته على طاعة الشيطان وشهواتهم وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ يخبر تعالى أنه جعل محمداً ﷺ رحمةً للعالمين ، أي أرسله رحمةً لهم جميعاً فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في

الدارين ، ومن جحدھا خسر الدارين كما قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : [١٩٩] قيل يا رسول الله أدعُ على المشركين . قال : « إني لم أبعث لعائناً وإنما بعثت رحمة » [روى الإمام أحمد عن سلمان قال : ان رسول الله خطب فقال : [٢٠٠] . أيما رجل سببته في غضبي ، أو لعنته لعنة فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون وإنما بعثني الله رحمة للعالمين فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة] فأبي رحمة حصلت لمن كفر به ؟ فالجواب ما رواه ابو جعفر بن جرير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ قال : من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف .

﴿ قل إنما يوحى إليّ أنما المرءكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴾ (١٠٨) فإن تولّوا فقلّ آذنتكم على سواء وإن أذري أقرب أم بعيد ما توعّدون ﴾ (١٠٩) إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ (١١٠) وإن أذري لعله فتنة لكم ومّناع إلى حين ﴾ (١١١) قال ربّ أحكم بالحق وربّنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ (١١٢)

يأمر تعالى رسوله صلواته وسلامه عليه أن يبلغ المشركين : ﴿ إنما يوحى إليّ أنما المرءكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴾ أي متبعون على ذلك مستسلمون متقادون له ﴿ فإن تولّوا ﴾ أي تركوا ما دعوهم إليه ﴿ فقلّ آذنتكم على سواء ﴾ أي أعلمتكم أنني جرب لكم كما أنكم حرب لي بريء منكم كما أنتم برآء مني ، كقوله تعالى : ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ أي ليكن عاملكم وعلمهم بنبد العهود على السواء وهكذا ها هنا : ﴿ فإن تولّوا فقلّ آذنتكم على سواء ﴾ أي أعلمتكم

ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون ﴾ أي هو واقع لا محالة ، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ أي انه يعلم الغيب جميعه ويعلم ما يظهره عباده وما يسرون وسيجزئهم على ذلك القليل والجليل وقوله تعالى : ﴿ وإن ادري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ قال ابن جرير : لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى ﴿ قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ أي افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق والله المستعان عليكم على ما تقولون وتفترون من الكذب يجعل الأنداد لله تعالى وعبادتها من دونه والعياذ بالله لا إله غيره ولا رب سواه . آخر تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام والله الحمد والمنة .

سُورَةُ الْحَجِّ مَدَنِيَّةٌ وَأَيُّهَا الْمَبَانِ وَشَجَعُونَ

إلا الآيات ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ . فنزلت بين مكة والمدينة ونزلت الحج بعد التور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ * (٢)

يأمر تعالى عباده بتقواه ، ويخبرهم بما سيستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازها وأحوالها وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة ، هل هي بعد قيام الناس من أجدائهم ؟ يوم نشورهم إلى عرصات القيامة أو ذلك قبل قيام الناس من قبورهم ... ؟ فقال قائلون هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة وهذا ما روي عن علقمة ، وعبيد بن عمير ، وعامر الشعبي ، وقد أورد ابن جرير في ذلك حديث ^(١) عن أبي هريرة مرفوعاً ومفاده إن ذلك يكون قبل يوم القيامة وفيه .. ٢٠١] والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك [والغرض منه انه دل على ان هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة أضيفت إلى الساعة لقربها منه كما يقال : أشرط الساعة ونحو ذلك والله أعلم . وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال ولبال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور واختار ذلك ابن جرير واحتجوا بأحاديث رواها الإمام أحمد والترمذي وصححه وابن أبي حاتم عن عمران بن الحصين ومن هذه الأحاديث ما رواه البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي سعيد قال : قال النبي ﷺ : ٢٠٢ » [يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم فيقول : لبيك ربنا

وسعديك فينادى بصوت : ان الله يأمرك ان تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار قال : يا رب وما بعث النار ؟ قال : من كل الف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الولد ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم . قال النبي ﷺ : من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ، أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة - فكبرنا ثم قال « ثلث أهل الجنة » فكبرنا ثم قال : « شطر أهل الجنة » فكبرنا [وقد رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع ، ومسلم ، والنسائي .

روى الإمام أحمد عن عائشة عن النبي ﷺ قال : ٢٠٣ [إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً] قالت عائشة : يا رسول الله الرجال والنساء ينظرون بعضهم إلى بعض ... ؟ قال : « يا عائشة إن الأمر أشد من أن يههم ذاك » [أخرجاه والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جداً لها موضع آخر ولهذا قال تعالى ﴿ ان زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ أي أمر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق مفزع وحادث هائل وكائن عجيب ، والزلازل هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفرع كما قال تعالى : ﴿ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يوم ترونها ﴾ هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسراً له ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ أي فتشتغل لهول ما ترى ، عن أحب الناس إليها ، والتي هي أشفق الناس عليه ، تدشش عنه في حال إرضاعها له . ولهذا قال : ﴿ كل مرضعة ﴾ ولم يقل كل مرضع وقال ﴿ عما أرضعت ﴾ أي عن رضيعها فطامه وقوله تعالى : ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أي قبل تمامه لشدة الهول ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ أي من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم ، فمن رآهم حسب أنهم سكارى ﴿ وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿ (٤) ﴾

يذم تعالى من كذب بالبعث وبما أنزل على الأنبياء متبعاً في ذلك كل شيطان مرید

(٢٢ - الحج - ج ١٧) : من يتولى الشيطان يضلّه في الدنيا ، ويرديه جهنم في الآخرة ١٩٥

من الأنس والجنّ وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل يتركون ما أنزل الله على رسوله من الحق المبين ، ويتبعون البدع والأهواء والآراء ولهذا قال في شأنهم : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ أي علم صحيح ﴿ ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه ﴾ أي كتابة قدرية ﴿ أنه من تولاه ﴾ أي اتبعه وقلده ﴿ فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ أي يضلّه في الدنيا ، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير الحار المولم . قال السدي عن أبي مالك : نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث ، وكذلك قال ابن جريج وقال ابن أبي حاتم عن أبي كعب المكي قال : قال خبيث من خبيثاء قريش اخبرنا عن ربكم من ذهب هو ، أو من فضة هو أو من نحاس هو ؟ فتعقعت السماء قعقةً — والقعقة في كلام العرب الرعد — فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه . وقال مجاهد : جاء يهودي فقال : يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو من در أم من باقوت ؟ قال فجاءت صاعقة فأخذته .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَّبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقرِّئُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث ، المنكر للمعاد ، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدنه الخلق فقال : ﴿ يا أيها الناس ان كنتم في ريب ﴾ أي في شك ﴿ من البعث ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد ﴿ فإننا خلقناكم من تراب ﴾ أي أصل خلقه لكم من تراب وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام ﴿ ثم من نطفة ﴾ أي ثم

جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثم من علقه ثم من مضغة ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوماً يضاف إليه ما يجتمع إليها ، ثم تنقلب علقه حمراء بإذن الله فتمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن ، وفخذان ورجلان وسائر الاعضاء ، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقىها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ أي كما تشاهدونها : ﴿ لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ أي وتارة تستقر في الرحم لا تلقىها المرأة ولا تسقطها ، قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ مخلقة وغير مخلقة ﴾ قال : هو السقط مخلوق وغير مخلوق ، فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهي مضغة ، أرسل الله تعالى ملكاً إليها فنفخ فيها الروح وسواها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح وذكر وأنثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقي أو سعيد .

كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق [٢٠٤] إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح]

وقوله تعالى : ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ أي ضعيفاً في بدنه وعقله وكل خلقه ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً ، ويلطف به ويحن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار ، ولهذا قال : ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ أي يتكامل الشباب عنفواناً ومنظراً ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أي في حال شبابه وقواه ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ وهو الشيخوخة والهزم والخرف ولهذا قال تعالى : ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة ، أي القاحلة ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أي فإذا أنزل الله عليها المطر تحركت بالنبات وارتفع الثرى ثم انبتت ما فيها من الألوان والفنون والثمار وشتى الزروع والنباتات ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿ وأنه يحيي الموتى ﴾ أي كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿ وأنه على كل شيء قدير ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن

الساعة آتية لا ريب فيها ﴿ أي كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴾ ﴿ وإن الله يبعث من في القبور ﴾ أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم ربما ويوجدتهم بعد العدم . كما قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحْيِيها الذي انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ والآيات في هذه كثيرة .

روى الامام أحمد عن لقيط بن عامر انه قال ٢٠٥ : يا رسول الله أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أليس كلكم ينظر إلى القمر مخلياً به ؟ » قلنا : بلى ، قال « فالله أعظم » قال قلت يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : « أما مررت بواد أهلك ممحلاً » قال : بلى قال : « ثم مررت به بهتز خضراً » قال : بلى قال : « فكذلك يحيي الله الموتى وذلك آيته في خلقه » [ورواه أبو داود وابن ماجه قال ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل قال : من علم ان الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، دخل الجنة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (٨) ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (١٠)

لما ذكر تعالى حال الضَّالَّاتِ الجهال المقلدين في قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ ذكر في هذه الحال الدعاة إلى الضلال مسن رؤوس الكفر والبدع فقال تعالى ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ أي بلا عقل صحيح ، ولا نقل صريح ، بل بمجرد الرأي والهوى . وقوله تعالى : ﴿ ثاني عطفه ﴾ أي لاوي عطفه أي رقبته معرضاً عما يدعى إليه من الحق ومستكبراً كقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوؤا رؤوسهم ورأيهم يصدّون وهم مستكبرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ أي ليصدّهم عن سبيل الله . ثم قال تعالى : ﴿ له في الدنيا خزي ﴾ لاستكباره عن آيات الله لقاء المذلة في الدنيا ﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ أي يقال له هنا

تقريباً وتوبيخاً ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ أي وذلك يعني إذاقته عذاب الحريق يوم القيامة ، ليس ظلاماً بل هو العدل من الله تعالى جزاء ما قدمت يداه من الكفر والعناد والاستكبار ، وحاشا الله من الظلم فقد حرمه على نفسه .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ (١٢) يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَشَرٍ مِّمَّنْ لَبِئْسَ الْأَلْوَى وَلِبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ (١٣)

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ فإن أصابه خير اطمأن به ﴿ قال كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ، ونتجت خيله قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله ، قال هذا دين سوء . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ انقلب على وجهه ﴾ أي ارتد كافراً . وقوله تعالى : ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ أي فلا هو حصل من الدنيا على شيء ، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم ، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾ أي هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة . وقوله تعالى : ﴿ يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ أي ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن . وقوله تعالى : ﴿ لبس المولى ولبس العشير ﴾ قال مجاهد : يعني الوثن ، يعني بش الذي دعاه من دون الله مولى ، يعني ولياً وناصرأ ﴿ ولبس العشير ﴾ وهو المخالط والمعاشر .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (١٤)

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء ، عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا بإيمانهم بأفعالهم ، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات . وتركوا المنكرات فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات • ولما ذكر تعالى أنه أضل

أولئك وهَدَى هؤلاء قال : ﴿ ان الله يفعل ما يريد ﴾ .

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿ (١٦) ﴾

قال ابن عباس وأصحابه : من كان يظن أن لن ينصر الله محمدًا ﷺ في الدنيا والآخرة ﴿ فليمدد بسبب ﴾ أي بجبل ﴿ إلى السماء ﴾ أي إلى سماء بيته ﴿ ثم ليقطع ﴾ أي ثم ليختنق به ، وهذا القول أبلغ في التهكم فإن المعنى : من كان يظن ان الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه ، فليذهب فليقتل نفسه ، إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة قال الله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ الآية ولهذا قال تعالى : ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ قال عطاء الخراساني : فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ ، من شأن محمد ﷺ . وقوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ أي القرآن ﴿ آياتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات وهن حجة من الله على الناس ، ﴿ وأن الله يهدي من يريد ﴾ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وله الحكمة التامة والحجة القاطعة لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنُّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١٧) ﴿

يخبر تعالى عن أهل الأديان المختلفة مؤمنهم وكافرهم أنه تعالى يحكم بينهم بالعدل يوم القيامة فيدخل من آمن به الجنة ويدخل من كفر به النار فإنه تعالى شهيد على أفعالهم وأقوالهم وسرائرهم وما هو أخفى من ذلك .



﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١٨)

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً وسجود كل شيء مما يختص به. فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السموات ومن في الأرض ﴾ أي من الملائكة في أقطار السموات ، والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطيور . وقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص لأنها قد عبدت من دون الله فبين أنها تسجد لحالقتها ، وأنها مربوبة مسخرة ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ الآية ، وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال قال لي رسول الله ﷺ : ٢٠٦ [أتدري أين تذهب هذه الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فانها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت »] وقوله تعالى : ﴿ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ ﴾ فسجودهما بفيء ظللتهما عن اليمين والشمال ، وقوله تعالى : ﴿ وَالدَّوَابُّ ﴾ أي الحيوانات كلها ، قد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ : نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر ، فرب مركوبة خير أو أكثر ذكر الله تعالى من ركبها . ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ أي يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ أي ممن امتنع وأبى واستكبر ، ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ وقال ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي قال : قيل لعلي : إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة ، فقال له علي : يا عبدالله خلقك الله كما يشاء أو كما شئت ؟ قال : بل كما شاء . قال فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء قال فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء . قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء ؟ قال بل حيث شاء . قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف .

وعن أبي هريرة قال ٢٠٧ قال رسول الله ﷺ [إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان

يكي ، يقول : يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار [رواه مسلم وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال ٢٠٨] قلت يا رسول الله ﷺ أفصلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدين؟ قال : نعم فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما [إنه وإن كان فيه ابن هبة إنما صرح فيه بالسماع كما أن له شواهد يشد بعضها بعضاً



﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٢٢)

ثبت في الصحيحين عن أبي ذر أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه ، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر لفظ البخاري عند تفسيرها . ثم قال البخاري عن علي بن أبي طالب قال : أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة ، قال قيس بن عباد : وفيهم نزلت ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ قال : هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة . انفرد به البخاري .

ولا يمنع أن يكون هذا عاماً . وهذا ما قاله مجاهد وعطاء : هم المؤمنون والكافرون . وقول مجاهد وعطاء يشمل الأقوال كلها وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل ، وهذا اختيار ابن جرير ، وهو حسن ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ أي فصلت لهم مقطعات من النار ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿ رَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ٢٠٩] ان الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان [ورواه الترمذي وحسنه وصححه وهكذا رواه ابن أبي حاتم وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴾

قال ابن عباس : يضربون بها ، فيقع كل عضوٍ حياله فيدعون بالشبور .

وقوله تعالى : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍ أعيدوا فيها ﴾ يرفعهم لها وتردُّهم مقامعها وقوله تعالى : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلًا .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿ (٢٤) ﴾

لما أخبر تعالى بما تقدم من حال أهل النار عياداً بالله من حالهم ذكر أهل الجنة فقال عز من قائل : ﴿ ان الله يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ، الْأَنْهَارُ ﴾ أي تترقق في أكنافها وأرجائها وجوانبها وتحت أشجارها وقصورها يصفونها حيث شاءوا ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ من الحلية ﴿ من أساورٍ من ذهبٍ ولؤلؤاً ﴾ أي في أيديهم . كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه ٢١٠ [تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء] وقوله تعالى : ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت تفصيلاً لهم ، لباس هؤلاء من الحرير استبرقه وسندسه كما قال تعالى : ﴿ عليهم ثياب سندس خضر واستبرق ﴾ وفي الصحيح : ٢١١ [لا تلبسوا الجريز ولا الديباج في الدنيا فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة] وقوله تعالى : ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ كقوله تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ فهدوا إلى المكان الطيب الذي لا يسمعون فيه إلا الكلام الطيب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِذْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدَقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (٢٥) ﴾

ينكر تعالى على الكفار صدّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام وقضاء مناسكهم فيه ودعواهم أنهم أولياؤه ﴿ وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ﴾

وفي هذا دليل على أن هذه الآية مدنية فقوله تعالى : ﴿ ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴾ أي مع كفرهم يصدّون عن سبيل الله والمسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر . وقوله تعالى : ﴿ الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ﴾ أي يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام وقد جعله الله شرعاً سواء لا فرق فيه بين المقيم فيه والناهي عنه ومن ذلك استواء الناس في رباة مكة وسكنائها وقد اختلف في جواز التملك بمكة وتوريثها وتأجيرها فذهب الشافعي إلى جواز ذلك كله واحتج بحديث الزهري عن اسامة بن زيد قال : ٢١٢ [قلت يا رسول الله أتترل غداً في دارك بمكة ؟ فقال وهل ترك لنا عقيل من رباة ؟ ثم قال لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ، وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة ، فجعلها سجناً بأربعة آلاف درهم . وذهب إسحق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تؤجر ، وهو مذهب طائفة من السلف واحتج بما رواه ابن ماجه عن علقمة بن فضلة قال : توفي رسول الله ﷺ وابو بكر وعمر وما تدعى رباة مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى اسكن . وتوسط الإمام أحمد فقال : تملك وتورث ولا تؤجر ، جمعاً بين الأدلة والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلم نذقه من عذابٍ أليم ﴾ أي نذقه عذاباً أليماً والمعنى : أي من يهمل فيه بأميرٍ فظيع من المعاصي الكبار عامداً قاصداً وقال مجاهد من يعمل فيه عملاً سيئاً وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه الشر إذا كان عازماً عليه وإن لم يوقعه وحاصله إن فعل الإنسان سيئة فيه بشكل عام يجازى على قدرها زيادة على ما لو فعله بغير الحرم لحرمته عند الله ، وذلك من أصغر ذنب إلى أعظمه كل ذلك داخل بقوله تعالى ﴿ بظلم ﴾ فلو شتم خادماً فما فوقه كاحتكار الطعام - إلى القتل والشرك والارتداد ، فهو ظلم . فعمل سيء في الحرم ، ليس كعمله في أي مكانٍ دونه ، والله تعالى يعاقب عليه بما يناسب حرمة الحرم - (١) .

(١) ما بين المعترضين من قوله : وحاصله - إلى قوله - حرمة الحرم - من كلامي .

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (٢٦) وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿ (٢٧) ﴾

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله واشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ أي أرشدناه إليه وسلمناه له وأذنّا له في بنائه وقد استدل به كثير ممن قال ان ابراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق وإنه لم يُبنَ قبله ، كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر [قلت ١١٣ يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » قلت : ثم أي ؟ قال : « بيت المقدس » قلت كم بينهما ؟ قال « أربعون سنة »] وقد قدّمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح بما أغنى عن إعادته ههنا . وقال تعالى ههنا : ﴿ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾ أي أبنته على اسمي وحدي ﴿ وَطَهَّرْ بَيْتِيَ ﴾ قال قتادة ومجاهد : من الشرك ﴿ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ أي اجعله خالصاً لمؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، فالطائف به معروف وهو أخص العبادات عند البيت ، فإنه لا يفعل بقعة من الأرض سواها ﴿ وَالْقَائِمِينَ ﴾ أي في الصلاة ولهذا قال جل وعلا : ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت فالطواف عنده والصلاة إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ أي ناد في الناس داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه فذكر أنه قال : يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم ؟ فقال : نادِ وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه ، وقيل على الحجر وقيل على الصفا وقيل على أبي قبيس وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجّوه . فيقال إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع من في الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك . هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾

الآية وقد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً لأنه قدّمهم في الذكر والذي عليه الأكثر أن الحج راكباً أفضل . إقتداء برسول الله ﷺ فإنه حج راكباً مع كمال قوته عليه السلام . وقوله تعالى : ﴿ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ بعيد وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم حين قال في دعائه : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْتَدَى مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ فليس أحد من أهل الإسلام إلاّ وهو يحجّ إلى رؤية الكعبة والطواف ، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار .

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَةٍ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ ﴾ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿ (٢٩)

قال ابن عباس : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ قال : منافع الدنيا والآخرة ، أما منافع الآخرة فريضان الله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائسح والتجارات ، وكذا قال مجاهد وغير واحد أنها منافع الدنيا والآخرة كقوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بيمة الأنعام ﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الأيام المعلومات أيام العشر وعلقه البخاري بصيغة الجزم به وروى مثله عن أبي موسى الأشعري ومجاهد وعطاء وغيرهم . وروى البخاري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : ٢١٤ [« ما العمل في أيام أفضل منها في هذه »] قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج بخاطر نفسه وماله فلم يرجع بشيء » [رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه بنحوه .

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ : ٢١٥ [ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد .] قال البخاري : وكان ابن عمر وأبي هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر ، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما .

وقد روى أحمد عن جابر مرفوعاً [٢١٦] أن هذا هو العشر الذي أقسم الله به في قوله : ﴿ والفجر وليالٍ عشر ﴾ [وفي صحيح مسلم عن أبي قتادة قال : سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة : فقال ٢١٧] احتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآنية [ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر . وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله . وبالحملة فهذا العشر قد قيل أنه أفضل أيام السنة كما نطق به الحديث وفضله كثير على عشر رمضان الأخير ، وقيل بل عشر رمضان لاشتماله على ليلة القدر وتوسط آخرون فقالوا : أيام هذا أفضل وليالي ذاك أفضل وبهذا يجتمع شمل الأدلة والله أعلم .

والراجح : ان الأيام المعلومات كما صح ان ابن عباس وابن عمر والقول له : الأيام المعلومات والمعدودات هي جميعهن أربعة أيام فالأيام المعلومات : يوم النحر ويومان بعده والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر هذا إسناد صحيح إلى ابن عمر ويعضد هذا القول قوله تعالى : ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ يعني به ذكر الله عند ذبحها ومن أدخل في الأيام المعلومات يوم عرفة ثم يوم النحر ويوماً آخر بعده وهذا قول مرجوح والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم كما فصلها تعالى في سورة الأنعام ﴿ ثمانية أزواج ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ والأكل من الأضاحي من باب الرخصة أو الاستحباب ، كما ثبت ، أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها وحسا من مرقها . وعن مالك أنه قال أحب أن يأكل من أضحيته لقوله تعالى : ﴿ فكلوا منها ﴾ قال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم ﴿ فكلوا منها ﴾ قال كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل وروي عن مجاهد وعطاء نحو ذلك . وذلك على الاختيار . والأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء : ثلث له ، وثلث يهديه ، وثلث يتصدق به لقوله تعالى : ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ﴾ وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله وبه الثقة . وقوله تعالى : ﴿ البائس الفقير ﴾ هو المضطر البادي عليه البؤس وهو الفقير المتعفف فلا ييسط يده وقوله عز وجل : ﴿ ثم ليقتضوا تفئهم ﴾ التفث : وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر والشعر ونحو ذلك ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ قال مجاهد أي نذر الحج والهدي وما نذر الإنسان من نذر يكون في الحج ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ يعني الطواف الواجب - وهو طواف الإفاضة - وهكذا صنع رسول الله ﷺ فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمي الجمرة فرماها بسبع حصيات ، ثم نحر هديه وحلق رأسه ، ثم أفاض فطاف بالبيت . ويجب أن

يكون الطواف من وراء الحجر ، لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم وإن كانت قريش قد أخرجه من البيت حين قصرت بهم النفقة . ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر وأخبر أن الحجر من البيت ولم يستلم الركنين الشاميين لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة ، ووصف بالعتيق لأنه أول بيت وضع للناس .

﴿ ذَلِكُمْ وَأَمَّا الَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَنِيبَةٌ غُلَبَاتُ يَتَزَلُّونَ فِي هِيَئِهِمْ مَقَامًا وَهُمْ يُنَادُونَ لِلْإِلهِ أَنِ اقْضِ إِلَيْنَا حَقَّ الْإِلهِ فَيُوقِئَهُمْ فِي يَوْمِ ذَرْبِهِمْ مَقَامًا وَهُمْ فِي الْمَقَامِ الْغَلِيظِ ﴾ (٣٠) ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ فِي الْمَاءِ مَكَانًا لَّيْسَ فِيهِ مَنَاسِكٌ لِّقَوْمٍ يُسَيِّئُونَ ﴾ (٣١) ﴿

يقول تعالى : هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما يلقي عليها من الثواب الجزيل ﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ أي ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه ﴿ فهو خير له عند ربه ﴾ أي فله على ذلك خير كثير وثواب جليل . فكما على فعل الطاعات ثواب كثير ، كذلك على ترك المحرمات ثواب كثير . وقوله تعالى : ﴿ وَأَحْلَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أي أحللنا لكم جميع الأنعام وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أي من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به الآية ... ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ إن ﴿ من ﴾ هنا لبيان الجنس ، أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان ، وقرن الشرك بالله بقول الزور كقوله تعالى : ﴿ قل إنمَّا حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ومنه شهادة الزور . وفي الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال : ٢١٨ ﴿ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ﴾ قلنا : بلى يا رسول الله قال : « الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس فقال - : ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت [روى الإمام أحمد عن خريم بن فاتك الأسدي قال : صلى ﷺ الصبح . فلما انصرف قام قائماً فقال : عدلت شهادة

الزور بالإشراك بالله عز وجل ثم تلا هذه الآية ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ حنفاء لله ﴾ أي مخلصين له الدين ، منحرفين عن الباطل إلى الحق ثم قال تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء ﴾ فقد ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى كأنما سقط هاوياً من السماء ﴿ فتخطفه الطير ﴾ أي تقطعه الطيور في الهواء ﴿ أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ أي بعيد مهلك لمن هوى فيه . ولهذا جاء في حديث البراء : ٢١٩ [إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه إلى السماء فلا تفتح له أبواب السماء بل تطرح روحه طرْحاً من هناك ثم قرأ هذه الآية] وقد تقدم هذا الحديث في سورة إبراهيم بحروفه ، وألفاظه وطرقه .

﴿ ذَلِكْ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (٣٢)
لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿ (٣٣) ﴿

يقول تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ أي أوامره ﴿ فإنها من تقوى القلوب ﴾ ومن شعائر الله البدن أي الهدى والأضاحي . وقال محمد بن أبي موسى : الوقوف ، ومزدلفة ، والحمار ، والرمي ، والحلق ، والبدن من شعائر الله وقال ابن عمر ، أعظم الشعائر البيت . ولما كان سوق الهدى والأضاحي وذبحها في محلها من شعائر الله لزم أن نستعظمها ، واستعظامها : استسمانها واستحسانها . قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ قال : الاستسمان والاستحسان والاستعظام . روى أبو أمامة عن سهل : كنا نسمن الأضحية بالمدينة وكان المسلمون يسمنون رواه البخاري . وعن علي رضي الله عنه قال : ٢٢٠ [أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن وأن لا نضحى بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء .] رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي . وأما المقابلة فهي التي قطع مقدم أذن ، والمدابرة من مؤخر أذن ، والشرقاء هي التي قطعت أذن طولاً ؛ قاله الشافعي والأصمعي . وأما الخرقاء فهي التي خرقت السمّة أذن خرقاً مدوراً ، والله أعلم .

ولأحمد وأهل السنن والترمذي عنه أي عن علي رضي الله عنه قال : ٢٢١ [نهى رسول الله ﷺ أن نضحى بأعضب القرن والأذن ،] قال سعيد بن المسيب : العضب النصف

فأكثر أي كسر نصف القرن فأكثر . وعن البراء قال : ٢٢٢] قال رسول الله ﷺ أربع لا تجوز في الأصاحي : العوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعرجاء البين ضلعها ، والكسيرة التي لا تنقى [رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي . وهذه العيوب تنقص اللحم ولضعفها وعجزها عن استكمال الرعي لأن الشاء يسبقنها إلى المرعى . وروى أبو داود عن عتبة بن عيد السلمي : أن رسول الله ﷺ نهى عن المصفرة ، والمستأصلة والبخقاء والمشعبة والكسيرة . فالمصفرة قيل الهزيلة أو المستأصلة الأذن ، والمستأصلة مكسورة القرن والبخقاء : هي العوراء والمشعبة : هي التي لا تزال تشيع خلف الغنم ولا تتبع لضعفها ، والكسيرة : العرجاء فهذه العيوب كلها مانعة الإجزاء . فإن طرأ العيب بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر . فقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : ٧٥] اشتريت كبشاً أضحني به . فعدا الذئب فأخذ الإلية فسألت النبي ﷺ فقال « ضح به » [ولهذا جاء في الحديث : ٢٢٣] أمرنا النبي ﷺ أن نستشرف العين والأذن ، أي أن تكون الهدية أو الأضحية سمينة حسنة ثمينة » [

وقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِع ﴾ أي لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها إلى أجل مسمى كما ثبت في الصحيحين عن أنس ٢٢٤ أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال اركبها قال إنها بدنة قال « اركبها ويحك » في الثانية أو الثالثة [. وفي رواية لمسلم عن جابر عن رسول الله ﷺ انه قال ٢٢٥] اركبها بالمعروف إذا أبلحت إليها . [

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ أي محل الهدى وانتهاءه إلى البيت العتيق وهو الكعبة . كما قال الله تعالى : ﴿ هَدِيًّا بِالْغِ كَعْبَةِ ﴾ .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ إِلَى اللَّهِ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿ (٣٥)

ينخير تعالى : أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل .

﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً لذكر اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال : ٢٢٦ [أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ، فسقى وكبر ووضع رجله على صفاحهما .] روى أحمد عن زيد بن أرقم قال : ٢٢٧ [قلت يا رسول الله ما هذه الأضاحي ؟ قال « سنة أبيكم إبراهيم » قالوا ما لنا منها ؟ قال : « بكل شعرة حسنة » . قال فالصوف قال « بكل شعرة من الصوف حسنة »] وأخرجه ابن ماجه .

وقوله تعالى : ﴿ فإلهكم آله واحد فله أسلموا ﴾ أي معبودكم واحد وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضاً فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له . ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ولهذا قال : ﴿ فله أسلموا ﴾ أي استسلموا لحكمه وطاعته . ﴿ وبشر المختبين ﴾ وأحسن ما يفسره ما بعده وهو قوله تعالى : ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ أي خافت منه قلوبهم ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ أي من المصائب ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ أي المؤدئين حقها في أوقاتها وأركانها ﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ أي ينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهلهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاوليهم ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله .. وهذا كله تفسير المختبين وهذه صفاتهم اللهم فاجعلنا منهم .

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣٦)

يقول تعالى ممتناً على عبده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائر الله ، تهدي إلى بيته الحرام ، بل هي أفضل ما يهدي إليه ، كما قال تعالى : ﴿ لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام ﴾ الآية ... أما البدن فقد قال عطاء (البقرة والبعير) وإن كان فيه قولان إنما اصحهما البقرة والبعير كما صح الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبد الله قال : ٢٢٨ [أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضاحي البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة .]

وقوله تعالى : ﴿ لكم فيها خير ﴾ أي ثواب في الدار الآخرة وعن سليمان بن يزيد

الكعبي عن هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : ٢٢٩ [ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق دم ، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض فطيبوا بها نفساً] . رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه . وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : [٢٣٠ ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نخيرة في يوم عيد] رواه الدار قطني في سننه .

وقوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ وعن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن جابر بن عبد الله قال : صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى ، فلما انصرف أتني بكبش فذبحه فقال : ٢٣١ [بسم الله والله أكبر ، اللهم هذا غني وعمن لم يضح من أمي] ومعنى (صواف) أي قياماً على ثلاث قوائم ، معقولة يدها اليسرى ، يقول : بسم الله والله أكبر ولا إله إلا الله اللهم منك ولك [قاله ابن عباس وكذلك مجاهد وابن أبي طلحة والعوفي عنه ، وفي الصحيحين ٢٣٢] عن ابن عمر أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها فقال : ابعثها قياماً مقيدة ، سنة أبي القاسم محمد ﷺ] .

وقوله تعالى : ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ يعني سقطت إلى الأرض وماتت فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحر ، حتى تموت وتبرد حركتها وقد جاء في حديث مرفوع : ٢٣٣ [لا تعجلوا النفوس أن تزهد] ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال ذلك ويؤيده حديث شداد بن أوس في صحيح مسلم : ٢٣٤ [إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته] . وعن أبي واقد الليثي قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٣٥ [ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة] رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه .

وقوله تعالى : ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ﴾ قال بعض السلف : قوله تعالى : ﴿ فكلوا منها ﴾ أمر بإباحة ، وقال مالك : يستحب ذلك . واختلفوا بالمراد بالقانع والمعتر قال ابن عباس : القانع المستغني بما أعطيته وهو في بيته ، والمعتر : الذي يتعرض لك ويلزم بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل . وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء : ثلث لصاحبها يأكله ، وثلث يهديه ، وثلث يتصدق به على الفقراء .

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال للناس : ٢٣٦ [إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث ، فكلوا وادخروا ما بدا لكم] وفي الحديث الآخر

٢١٢ (٢٢- الحج -ج ١٧): تقسم الأضحية ثلاثاً: ثلث لصاحبها وثلث يدنحره وثلث يتصدق به

٢٣٧ [فكلوا وادخروا وتصدقوا] أما الجلود ففي مسند أحمد عن النعمان في حديث الأضاحي ٢٣٨ [فكلوا وتصدقوا واستمتعوا بجلودها ولا تبيعوها] .

وإن أول وقت ذبح الأضاحي إذا طلعت الشمس يوم النحر ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين . وعن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٣٩ [إن أول ما نبأ به في يومنا هذا أن نصلي ، ثم نرجع فننحر ، فمن فعل فقد أصاب سنتنا ، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء] أخرجاه . وفي صحيح مسلم : ٢٤٠ [لا تذبحوا قبل أن يذبح الإمام] .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ يقول تعالى : من أجل هذا ﴿ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ﴾ أي ذللناها لكم ، وجعلناها منقاداً لكم خاضعة إن شئتم ركبتم وإن شئتم حلبتم وإن شئتم ذبحتم . كما قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مَا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ - إِلَى قَوْلِهِ - أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٧)

يقول تعالى : إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها ، فإنه الخالق الرازق لا يناله شيء من لحومها ولا دماؤها فإنه تعالى هو الغني عما سواه وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لأهنتهم وضعوا عليها من لحوم قرايبهم ، ونضحوا عليها من دماؤها . فقال تعالى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ﴾ أي يتقبل ذلك ويجزي عليه ، كما جاء في الصحيح : ٢٤١ [إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم] ولا يتقبل الله إلا ممن أخلص في عمله لوجهه الكريم . وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ أي من أجل ذلك سخر لكم البدن ﴿ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ أي لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحببه ويرضاه ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه . وقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي وبشر يا محمد المحسنين في عملهم ، القائمين بحدود الله المتبعين ما شرع لهم ، المصدقين الرسول

فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل . .

مسألة : لقد اختلف في وجوب الأضحية فمنهم من أوجبها كأبي حنيفة ومالك والثوري على من ملك نصاباً واشترط أبو حنيفة الإقامة واحتجَّ لهم بحديث رواه أحمد واستنكره ^(١) ... وان فيه غرابة وقال الشافعي وأحمد بالاستحباب لما جاء في الحديث : ٢٤٢ [ليس في المال حق سوى الزكاة] وقد تقدم انه عليه السلام ضحَّى عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم وقال ابو سريجة كنت جاراً لأبي بكر وعمر فكانا لا يصحيان خشية أن يقتدي الناس بهما . ونجزي الأضحية عن صاحبها وأهل بيته .

وعند الجمهور يجزي الشيء من الإبل والبقر والمعز أو الجذع من الضأن . فأما التي من الإبل فهو الذي له خمس سنين ودخل في السادسة . ومن البقر ماله ستان ودخل في الثالثة ، ومن المعز ماله ستان ، وأما الجذع من الضأن فقبل ماله سنة وقيل عشرة أشهر وقيل ثمانية وقيل ستة أشهر وهو أقل ما قيل في سنه ، وما دونه فهو حَمَلُ الفرق بينهما أن الحمل شعر ظهره قائم ، والجذع شعر ظهره نائم قد انفرق صدعين والله أعلم .



﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾

كُفُورٍ ﴿٣٨﴾

يخبر تعالى أنه يدافع عن عباده الذين توكلوا عليه وأتابوا إليه ويحفظهم من شر الأشرار وكيد الفجار بتأييده ونصره . كما قال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ أي لا يحب من اتصف بخيانة اليهود والمواثيق والوعود . والكفر هو جحدُ النعم فلا يعترف بها .

﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ

لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ

(١) قلت : الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً : (من وجد سعة فلم يضح فلا يقرن مصلانا قال ابن كثير :) (عل أن فيه غرابة) قلت ولعلها من مفهوم الحديث أن النحر قبل الصلاة ، بينما الصلاة قبل النحر فصل لربك وانحر » واستنكره أحمد .

صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا
وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

قال ابن جرير عن ابن عباس قال : لما أخرج النبي ﷺ من مكة ، قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ، إننا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن . قال ابن عباس : فأنزل الله عز وجل : ﴿ أَذْنٌ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنْ اللَّهُ عَلَىٰ نصرهم لقدير ﴾ قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : فعرفت أنه سيكون قتال . ورواه أحمد وزاد : قال ابن عباس وهي أول آية نزلت في القتال . ورواه الترمذي وحسنه . وهذا يدل على أن السورة مدنية . وقوله تعالى : ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ أي قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكنه يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته . كما قال تعالى : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثبتتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها . ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولنبولنكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبول أخباركم ﴾ والآيات في هذا كثيرة . ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ وقد فعل وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً فلو أمير المسلمون وهم أقل من العُشُرُ بقتال الباقيين لشق عليهم ، ولهذا ٢٤٣ [لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ ، وكانوا نيفاً وثمانين ، قالوا : يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي ، يعنون أهل منى ليألي منى فنقتلهم ؟ فقال رسول الله ﷺ « إني لم أؤمر بعد » فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم وهموا بقتله وشردوا أصحابه شذر مذر ، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة ، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه ، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومعقلاً يلجأون إليه ، شرع الله جهاد الأعداء فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك فقال تعالى : ﴿ أَذْنٌ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنْ اللَّهُ عَلَىٰ نصرهم لقدير ﴾ [

وقوله تعالى : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ يعني محمداً وأصحابه أخرجوا من مكة بغير حق ﴿ إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة ،

ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له . وأما عند المشركين فإنه أكبر الذنوب . كما قال تعالى في قصة أصحاب الأخدود : ﴿ وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ، ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب ، لفستت الأرض ولأهلك القوي الضعيف ﴿ لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ أي لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصراني وصلوات اليهود وهي كنائسهم ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً ، وقال بعض العلماء : هذا ترقى من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد وهي أكثر عمّاراً وأكثر عبادة وهم ذوو القصد الصحيح .

وقوله تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعسوا لهم وأضل أعمالهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة ، فبقوته خلق كل شيء فقدّره تقديراً وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب ، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور . قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ .

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (٤١)

هم أصحاب محمد ﷺ قاله أبو العالية : وقال ابن أبي حاتم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : فينا نزلت ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ... ﴾ الآية فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا : ربنا الله ثم مكنا في الأرض ، فأقمنا الصلاة وآتيناهم الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور فهي لي ولأصحابي .

وقال الصباح بن سودة الكندي : سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ﴾ الآية ... ثم قال : ألا إنها ليست على الوالي وحده ، ولكنها على الوالي والمولى عليه ، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم وبما للوالي عليكم منه ؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤخذكم بحقوق الله عليكم وأن يأخذ

لبعضكم من بعض وان يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع ، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكره بها، ولا المخالف سرها علانياتها . وقال زيد بن أسلم ﴿ والله عاقبة الأمور ﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا .

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴾ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِثْرٍ مَعْطَلَةٍ وَاقْصِرْ مَشِيدِ ﴿ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَأِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٤٦)

يقول تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلكم قوم نوح - إلى أن قال - وكذب موسى ﴾ أي مع ما جاءوا به من الآيات البينات والدلائل الواضحات ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ أي أخرتهم ﴿ ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبي لهم .

وذكر بعضُ السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه : أنا ربكم الأعلى ، وبين إهلاك الله له أربعون سنة . وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال ٢٤٤ [إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته] ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ [ثم قال تعالى : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها ﴾ أي كم من قرية أهلكتها ﴾ وهي ظالمة ﴾ أي مكذبة لرسلها ﴿ فهي خاوية على عروشها ﴾ أي خربت منازلها وتعطلت حواضرها ﴾ وبثر معطلة ﴾ أي لا يستقي منها بعد ازدحام الواردين ﴿ وقصر مشيد ﴾ أي مرتفع منيع لم يمنع أهله من بأس الله تعالى . كما قال تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ أي بأبدانهم وفكرهم ، لينظروا آثار من مضوا ما فعل بهم وما حلّ بديارهم من النقم والنعكال : ﴿ فتكون لهم قلوب يعقلون بها

أو آذان يسمعون بها ﴿ أي فيعتبرون بها ﴾ فلأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴿ أي ليس العمى عمى البصر وإنما العمى عمى البصيرة ، وما أحسن ما ما قاله في ذلك أبي محمد عبد الله بن محمد بن حيان الأندلسي الشنتريني ، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة :

يا من يصيح إلى داعي الشقاء وقد	نادى به الناعيان : الشيب والكبر
إن كنت لا تسمع الذكرى فقيم ترى	في رأسك الواعيان : السمع والبصر
ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل	لم يهده الهاديان : العين والأثر
لا الدهر يبقى ، ولا الدنيا ولا الفلك	الأعلى ، ولا النيران : الشمس والقمر
ليرحلن عن الدنيا وإن كرها	فراقها الثاويان : البدو والحضر

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا ﴾
عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿ ٤٧ ﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ
أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿ ٤٨ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ أي هؤلاء الكفار المكذبون كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أي الذي قد وعد من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه والإكرام لأوليائه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي هو تعالى لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه ، لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شيء وإن أجَّل ، ولهذا قال بعد هذا : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٢٤٥ [يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام] وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿ ٤٩ ﴾ فَالَّذِينَ

أَمِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ • (٥٠) وَالَّذِينَ
سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ • (٥١)

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب الكفار منه وقوع العذاب واستعجلوه به : ﴿ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ أي إنما أنا رسول لكم أنذركم بين يدي عذاب شديد ، وليس إلي من أمره شيء فهو إلى الله تعالى إن شاء عجل عذابكم وإن شاء أخره ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي آمنتم قلوبهم وصدقتم أعمالهم ﴿ لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ أي مغفرة لما سلف من سيئاتهم ، ومجازاة حسنة عن القليل من حسناتهم والرزق الكريم هو الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ والذين سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ أي مشبطين الناس عن متابعة النبي ﷺ ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ وهي النار الحارة الموجعة الشديدة عذابها ونكالتها أجازنا الله منها . قال الله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يُفْسِدُونَ ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ • (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ • (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ • (٥٤) ﴾

قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرائق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ولكنها من طرق كلها رسالة ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله اعلم . (*) (راجع التعليق في الصفحة التالية)

القصة المكذوبة^(١) : نزلت سورة النجم فتلاها رسول الله ﷺ على المشركين وعند وصوله إلى قوله تعالى : ﴿ أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ . ألكم الذكر وله الأنثى ﴿ ألقى الشيطان على لسانه كلمات : (وإنهن لهن الغرائق العلى وإن شفاعتن لهن التي ترتجى) فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وزلت بها ألسنتهم وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه . فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر سورة النجم سجد ... وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك . فعجب الفريقان كلاهما ولم يكن سمع المسلمون الذي ألقى الشيطان ، ففشت تلك الكلمة في الناس ، وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين وحدّثوا أن المسلمين قد آمنوا بمكة فأقبلوا سراعاً إلى مكة ، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان واحكمهم الله آياته ، وحفظ من القرية نبيّه فقال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا

(١) قلت : قصة الغرائق هذه... من أخطر ما وضع الزنادقة... ليضربوا التوحيد والرسالة العظمى، وليردوا المسلمين عن دينهم الحق - زعموا - والله حافظ دينه وناصره ولو كره الكافرون على أن هذه القصة عدا عن أنها مكذوبة موضوعة فهي متهافة ساقطة من وجوه :

١ - : منافية للعصمة التي هي للأنبياء جميعاً لأن فيها استطاعة تسلط الشيطان على النبي صلى الله عليه وسلم في أعظم ما تجب فيه العصمة وهو الوحي ، ومنافية لقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقوله تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » .

٢ - : سياق سورة النجم وعدم احتماله لمسألة الغرائق ، لأن الله يذم فيها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى بقوله تعالى : « ... إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان ... » فكيف يقول عنها : تلك الغرائق العلى وإن شفاعتن لترتجى ... ؟!!!! مادحاً إياها على زعمهم ثم يذمها ويقول : « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكرو له الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان » فهل يعقل أن يمتدح الله الآلهة التي أشركه بها الكفار ثم في آن واحد يذمها فحاشا لله أن ينزل ذلك أو أن يتقول رسوله عليه ما لم يقل ... هذا ما لا يسلم به عقل ولا يقول به إنسان .

٣ - : كلمة الغرائق ... لم ترد في نظم شعراء العرب ولا في خطبهم من أنها وصف لأهنتهم ، ولا جرى ذلك على ألسنتهم وإنما ورد الفرنوق والفرنيق على أنه اسم لطائر مائي أسود وأبيض والشباب الأبيض الجميل ، ولا شيء من ذلك يلزم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب - قاله الشيخ محمد عبده - .

٤ - الرسول الذي بعث لتحطيم هذه الآلهة الخبيثة الكاذبة والدعوة لتوحيد الله وحده لا شريك له ، والذي لم يكذب (ويعرف ذلك منه قومه) ولا في الجاهلية فالذي لم يكذب على الناس كيف يقول على الله ما لم يقله . فلا أصل إذا لمسألة الغرائق إلا الوضع والاختراع ، قامت به طائفة الذين أخذوا بالكيد للأسلام . (بتصرف عن محمد حسين هيكل من كتابه « حياة محمد » صلى الله عليه وسلم . ومن شاء التوسع العلمي فليراجع كتاب « نصب المجانيق لنسف قصة الغرائق » لأخينا الكبير الشيخ محمد ناصر الدين الألباني مد الله في عمره . وأجزل مثوبته

نبيّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴿ فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلاتهم وعداوتهم للمسلمين واشتدوا عليهم قلت (ابن كثير) وقد ذكرها محمد بن اسحق في السيرة بنحو من هذا ، وكل الطرق ومرسلات ومتقطعات والله أعلم . وقد ساقها البغوي ثم سأل ها هنا سؤالاً : كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ثم حكى أجوبة عن الناس من أظفها : أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ وليس كذلك في نفس الأمر ، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن ﷺ والله أعلم .

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين ، هذا على فرض صحة القصة ... !!! ولكنها لم تصح ... وقوله تعالى : ﴿ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ هذا فيه تسلية من الله لرسوله صلاة الله وسلامه عليه أي لا يزعجك ولا يربيك هذا ... فقد أصاب الأنبياء والمرسلين قبلك مثله ^(١) ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ قال ابن عباس : أي فيبطل الله سبحانه وتعالى ما ألقى الشيطان ﴿ ثم يحكم الله آياته والله عليم ﴾ أي بما يكون من الأمور والحوادث ، لا تخفى عليه خافية ﴿ حكيم ﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره ، له الحكمة التامة والحجة البالغة . ولهذا قال سبحانه : ﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك وشرك كالمشركين ﴿ والقاسية قلوبهم ﴾ قال مقاتل بن حيان : هم اليهود ﴿ وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ أي في ضلال ومخالفة وعناد بعيد عن الحق

(١) قلت : - والمعنى - : ان كل نبي قبلك تمنى ما تمنيت من إيمان قومك واستجابتهم ، فكانوا يتحدثون إليهم كما تتحدث أنت إليهم ، وتنوع لهم أسباب الهداية فيلقي الشيطان ما ألقى ... مع حديثك إليهم حديثاً منه غير حديثك فيوهمهم أنه حديثك وهم لا يعلمون إلا أنه حديثك ، فيوافقوك لا على ما تقول أنت في الحقيقة إنما على ما سمعوه من الشيطان وهم يتوهمون أنه حديثك ، فهذه الموافقة منهم تظنها أنت أيضاً مطابقة لما قلت لهم ، فتحصل أمنيته التي تمنيت ، من ظاهر هدايتهم كسجودهم الذي سجده في آخر سورة النجم ، لأنك لا تعلم ما ألقى الشيطان في أسماعهم ، أما الله تعالى المطلع على الحقيقة التي جرت يبطل ما يلقي الشيطان وينسخه ويحكم آياته التي أنزلها عليك وبلغتها كما زلت تماماً ، والله عليم بما سيكون لا تخفى عليه خافية ، وحكيم في تقديره وخلقه وأمره ، له الحكمة التامة والحجة البالغة . وقد علل سبحانه لماذا قدر ذلك فقال جلّت حكمته : « ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم » أي المشركون الذين نوع لهم رسولهم أسباب الهداية فلم يتدوا فمكر الله بهم ليزيدهم ضلالاً على ضلالهم جزاء كفرهم وعنادهم وذلك كما قال تعالى : وأما من يجحد واستغنى وكذب بالحق فيسيره للعسرى « أما المؤمنون الذين استجابوا للحق يسرهم الله ليسرى فزادهم إيماناً فأرشدهم للحق وجعلهم من السعداء في الدارين .

والصواب ، ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم انه الحق من ربك فيؤمنوا به ﴾ أي وليعلم المؤمنون بالله ورسوله الذي يفرقون به بين الحق والباطل أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه ، وحرسه أن يختلط به غيره ﴿ فيؤمنوا به ﴾ أي يصدقوه وينقادوا له ﴿ فتخبت له قلوبهم ﴾ أي تخضع وتذل ﴿ وأن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ فيرشدكم في الدنيا إلى الحق ويوقظهم لمخالفة الباطل ، وفي الآخرة يوصلهم إلى النعيم ، ويزحزحهم عن الجحيم .

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ (٥٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٥٧)

يخبر تعالى عن الكفار أنهم لا يزالون في شك وريب من هذا القرآن ﴿ حتى تأتيتهم الساعة بغتة ﴾ أي فجأة عند غرتهم بنعمتهم . وقوله تعالى : ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ أي يوم القيامة ، لا ليل له ولهذا قال تعالى : ﴿ الملك يومئذٍ الله يحكم بينهم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي آمنت قلوبهم وعملوا بمقتضى ما علموا ﴿ في جنات النعيم ﴾ أي لهم النعيم الذي لا يبسد ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أي كفرت قلوبهم بالحق وهجرته وكذبوا به وخالفوا الرسل واستكبروا عن اتباعهم ﴿ فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي مقابلة استكبارهم عن الحق كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٥٨)



لِيَدْخُلْنَهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ
وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ
اللَّهَ لَغَفُورٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عن مخرج مهاجراً في سبيل الله ابتغاء مرضاته وطلباً لما عنده ، وفارق
بلاده في الله ورسوله ، ونصرةً لدين الله ثم قتلوا أي في الجهاد ، أو حتف أنفسهم فقد
حصلوا على الأجر الجزيل كما قال تعالى : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله
ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ﴾
ليتنفصل عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿ وان الله لهو خير الرازقين ﴾
ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ﴿ أي الجنة كما قال تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح
وريحان وجنة نعم ﴾ فأخبر أنه يحصل على الراحة والرزق وجنة النعيم كما قال ها هنا :
﴿ ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ﴾ ثم قال سبحانه : ﴿ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وان الله
لعليم ﴾ بمن يهاجر ويجاهد في سبيله وبمن يستحق ذلك ﴿ حلیم ﴾ أي يحلم ويصفح ويغفر
لهم الذنوب ، ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه .

قال ابن أبي حاتم عن أبي قبيل وربيع بن سيف المعافري يقولان : كنا برودوس
ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ . فمر بجنازتين : إحداهما
قتيل ، والأخرى متوفى ، فمال الناس على القَتِيلِ في سبيل الله فقال : مالي أرى الناس
مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا : هذا القَتِيلُ في سبيل الله . فقال : والله ما أبالي
من أي حفرتيهما بُعِثْتُ ؟ إسمعوا كتاب الله : ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا
أو ماتوا ﴾ حتى بلغ آخر الآية . وقوله تعالى : ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾
الآية إنها نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم . فنأشدهم
المسلمون لثلاث يقاتلوهم في الشهر الحرام ، فأبى المشركون إلا قتالهم ، وبغوا عليهم
فقاتلهم المسلمون ، فنصرهم الله عليهم ﴿ إن الله لغفور غفور ﴾ .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي
الَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ
مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

يُنَبِّه تعالى على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء ومعنى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل إدخاله من هذا في هذا ومن هذا في هذا ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء ، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف . وقوله تعالى : ﴿ وان الله سميع بصير ﴾ أي سميع بأقوال عباده ، بصير بهم ، لا يخفى عليه منهم خافية في جميع أحوالهم ، ولما تبين أنه المتصرف في الوجود : الحاكم الذي لا معقب لحكمه . قال تعالى : ﴿ ذلك بان الله هو الحق ﴾ أي الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، ﴿ وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾ أي كل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل ، لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً . وقوله تعالى : ﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾ كما قال سبحانه ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ وقال جل وعلا : ﴿ وهو الكبير المتعال ﴾ فكل شيء تحت قهره وسلطانه ، فهو العظيم الذي لا أعظم منه ، العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي لا أكبر منه ، تعالى وتقدس وتنزه عز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً..

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُنْزِلُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بَازِنَةً إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿ (٦٦) ﴾

وهذا أيضاً دليل على قدرته تعالى ، وإنه يطر الأرض المحلاة ماءً من السماء — ﴿ فتصبح الأرض مخضرة ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ أي تصبح خضراء بعد يباسها ﴿ ان الله لطيف خبير ﴾ أي عليم بما في الأرض من الحب وان صغر لا يخفى عليه خافية فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فيسبته به كما قال لقمان :

﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي كل شيء فيهما ملكه وحده لا شريك له ﴿ وإن الله هو الغني الحميد ﴾ الحميد أي المستغني عما سواه المستوجب الحمد من عباده في كل حال . وقوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ﴾ أي من حيوان وجماد وزروع ﴿ والفلك تجري في البحر بأمره ﴾ أي بتسييره ولطفه في عرض البحار لتبادل التجارة والأرزاق بين البلدان . ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ أي لو شاء لأذن للسماء أن تقع على الأرض فتهلك بمن فيها ولكنه تعالى من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تسقط على الأرض ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ أي مع ظلمهم ، كما قال جل وعلا : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم . إن ربك لشديد العقاب ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لَكفور ﴾ أي كيف يجعلون لله أنداداً تعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف ﴿ وهو الذي أحياكم ﴾ أي خلقكم من العدم ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ أي معتمكم يوم يوم القيامة ولكن الإنسان كفور لنعم الله جحود لها .

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعَنَّ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٦٧) وَإِنْ جَادُلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿ (٦٨) اللَّهُ يَخْتَلِفُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿ (٦٩)

أصل المنسك هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه إما لخير أو شر ، ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لترداد الناس إليها فقله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ﴾ أي طريقاً سالكوه فالضمير عائد على هؤلاء المشركين الذين لهم مناسك وطرائق ، أي أن هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته ﴿ فلا ينازعك في الأمر ﴾ أي فلا تتأثر بمنازعتهم لك ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق ولهذا قال : ﴿ وادع إلى ربك إنك لعلیٰ هدى مستقيم ﴾ أي طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود وهذا

كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَصْدَقُكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بِعَدَاةٍ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَأَدَعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۚ ﴾ .
 وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وقوله تعالى :
 ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ وهذه كقوله تعالى : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ۚ الْآيَةُ ۚ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٧٠)

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه ، وإن علمه محيط بما في السموات والأرض فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٤٦ [إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ] وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : ٢٤٧ [أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ اكْتُبْ ، قَالَ : وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ اكْتُبْ مَا هُوَ كَاتِنٌ . فَجَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَاتِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ] فذلك قوله تعالى للنبي ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ وهذا من تمام علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه . فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره ، وهذا يعصى باختياره . وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شيء علماً ، وهو سهل عليه يسير لديه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۚ ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ

يَسْطُونِ بِالَّذِينَ يَنْتُلُونَ عَلَيْهِمْ 'آيَاتِنَا' قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ ذَلِكُمُ
النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَرٌ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

يخبر تعالى عن المشركين الذين عبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً أي حجة وبرهاناً فقال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وما ليس لهم به علم ﴾ إنما تلقوه عن آبائهم بلا دليل ولا حجة ، وأصله من تزوين الشيطان لهم ، ولهذا توعدهم تعالى بقوله عز وجل : ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ أي ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب ، ثم قال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ أي ذكرت لهم آيات القرآن الدالة على أنه لا إله الا الله ، وأن رسله حقٌ وصدق ﴿ يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ أي يكادون يبطشون بمن يذكرهم بالحق ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿ أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا ﴾ أي النار وعذابها ونكالها أشد وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا من بسط أيديكم وألستكم إليهم ، فعذاب الآخرة على كفركم وأذيتكم أولياء الله أعظم مما تتلون منهم . وقوله تعالى : ﴿ وبشر المصير ﴾ أي وبشر النار مقيلاً ومتزلاً ومرجعاً ومقاماً .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ
شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (٧٣) مَا قَدَرُوا
اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

ينبه تعالى على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل ﴾ أي لما يعبدونه الجاهلون بالله المشركون به ﴿ فاستمعوا له ﴾ أي أنصتوا وتفهموا ﴿ ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ أي لو اجتمعوا على أن يخلقوا ذباباً ما قدروا على ذلك كما أخرج الشيخان من طريق عمارة عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : ٢٤٨ [قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب

يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرةً ، فليخلقوا شعيرةً [ثم قال تعالى : ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴾ أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد ، بل أبلغ من ذلك ، عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب ، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك ، هذا. والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ^(١) ولهذا قال تعالى : ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ أي ضعف هذا المعبود الزائف أن يستنقذ الذباب ما أخذه منه وسلبه من شيء كان في حوزته أجل فقد ضعف الطالب والمطلوب ﴿ ما قدروا الله حقَّ قدره ﴾ أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا غيره الذي لم يستطع أن يقاوم الذباب أو يستنقذ ما سلبه منه ﴿ إنَّ الله لقوي عزيز ﴾ الذي يقول للشيء كن فيكون فهو قوي على كل شيء ، وعزيز عز كل شيء فقهره وغلبه فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه وهو الواحد القهار .

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿ (٧٦) ﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره ، ويختار من الناس رسلاً لإبلاغ رسالته ﴿ ان الله سميع بصير ﴾ أي سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، عليم بمن يستحق منهم ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ، كما قال سبحانه : ﴿ عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول - إلى قوله - وأحصى كل شيء عددا ﴾ فهو سبحانه رقيب عليهم شهيد على ما يقال لهم ، حافظ لهم ،

(١) قلت : وقد علم الله أن عبده سيكتشفون مخاليق صغيرة / ميكروبات / وقد يكون / الذباب / اسم جنس لها وإنها لا ترى إلا بالمجاهر التي تكبر آلاف المرات فتفتك في جسم من يُعبد من دون الله ولا يستطيع هذا المتأله أن ينقذ نفسه منها إلا إذا أراد الله تعالى. وقد فتكت به وهو لا يستطيع لها دفعا. والذين يؤثرون يعلمون جزءاً من إلههم المزيّف في هذا الدرك الأسفل من الضعف... كما يعلمون أنه مريبوب لله تعالى . ولكن مع كل هذا وذلك ... يبقى هؤلاء مؤهلين أولئك، بطاعتهم في معصية الله تعالى، بأن يعطوهم من الصفات التي لا تليق إلا لله تعالى وحده فيدعونهم في السراء والضراء، ويستغيثون بهم ، ويستمينون ويتوجهون إليهم بأنواع العبادة أحياء كانوا أو أمواتاً . ربنا لا نزع قلوبنا بعد إذ هديتنا .

ناصر لجنابهم . ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ .



﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ
وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ
هُوَ أَجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ
إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ
شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ
النَّصِيرُ ﴾ (٧٨)

اختلف الأئمة رحمهم الله في مشروعية هذه السجدة الثانية من سورة الحج والأصح أنها مشروعة لحديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ : ٢٤٩ [فضلت سورة الحج بسجدين فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما] وقوله تعالى : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ أي بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم . وقوله تعالى : ﴿ هو اجتباكم ﴾ أي والله اختاركم على سائر الأمم ، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأشرف رسول وأكمل شرع ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ أي ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً ، فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تصلى تماماً وقصراً وجمعاً ورجلاً وركباً مستقبلي القبلة وغير مستقبلها قياماً وجلساً وعلى جنب إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ٢٥٠ [بعثت بالحنيفية السمحة] وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن : ٢٥١ [بشرّا ولا تنفرا ، وبسرّا ولا تعسرا] .

ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ يعني من ضيق . وقوله تعالى : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ وهذا المعنى في هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قل إنني هداي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ وقوله

تعالى : ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ أي والله عز وجل سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة ﴿ وفي هذا ﴾ أي في القرآن . وروى النسائي عن الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال : ٢٥٢ [« من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثي جهنم » قال رجل : يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال : « وإن صام وصلى فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله »] وقوله تعالى : ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ أي إنما جعلكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً ، مشهوراً بعدالتكم عند جميع الأمم ، لتكونوا يوم القيامة ﴿ شهداء على الناس ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ الآية بما أغنى عن إعادته . وقوله تعالى : ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أي قابلوها هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض عليكم ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وقوله تعالى : ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي استعينوا به والتجئوا إليه وتأيدوا به ﴿ هو مولاكم ﴾ أي حافظكم وناصركم على أعدائكم ﴿ فنعم المولى ونعم النصير ﴾ أي نعم الولي والناصر من الأعداء آخر اختصار تفسير سورة الحج والله الحمد والمنة .

(٢٣) سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ مَكِّيَّةٌ وَأَيُّهَا ثَمَانِي عَشْرٌ وَمِائَتَانِ

نزلت بعد : الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٨ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * (٦) فَمَنْ أَبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * (١١) ۞ ﴾

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب يقول : ٢٥٣] كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، واكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا » - ثم قال - « لقد أنزل الله عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى ختم العشر » ^(١) .

(١) فيه يونس بن سليم قال الترمذي لا نعرفه .

روى النسائي في تفسيره عن يزيد بن بابتوس قال : ٢٥٤ (قلنا لعائشة أم المؤمنين : كيف كان خلق رسول الله ﷺ قالت : كان خلقه القرآن فقرأت : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ - حتى انتهت إلى - والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ قالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ [.

وقوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ أي فازوا بالجنة ، وهم المتصفون بهذه الأوصاف : ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ أي خاشعو القلوب ، فغضوا أبصارهم وخفضوا الجناح ولا تجاوزت أعينهم مصلاًهم . والخشوع في الصلاة يحصل لمن فرغ قلبه لها ، واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها ، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن أنس عن رسول الله ﷺ انه قال : ٢٥٥ [حبيب إليّ الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة] .

روى الإمام أحمد عن محمد بن حنفية قال : ٢٥٦ [دخلت مع أبي على صهر لنا من الأنصار فحضرت الصلاة ، فقال : يا جارية أتينى بوضوء لعلّي أصلي فاستريح فرآنا أنكرونا عليه ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قم يا بلال فأرحنا بالصلاة »]

وقوله تعالى : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ أي عن الباطل ، وهو يشمل الشرك والمعاصي وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال وقوله تعالى : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ أي زكاة الأموال قبل أن يفرض النصاب لأن الآية مكية وأصل الزكاة كان واجباً بمكة قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ انما فرضت بالمدينة الزكاة ذات النصب والمقادير الخاصة ، وقيل : زكاة النفس من الشرك والدنس ، كقوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاه » وقد خاب من دسأها ﴾ والمؤمن الكامل هو الذي يزكى نفسه مالاً ونفساً . وقوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ أي الذين حفظوا فروجهم من الحرام من زنا أو لواط لا يقربون إلا أزواجهم وسرايرهم ، فمن تعاطى ما أحلّه الله له ، فلا لوم عليه ولا حرج ومن ابتغى غير الأزواج والإماء فهم المعتدون .

وقد استدل الشافعي رحمه الله تعالى على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة . وقوله تعالى : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ أي إذا أئتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك ، لا كالمناقبين الموصوفين بقوله

ﷺ : ٢٥٧ [آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف وإذا أتمن خان]
 وقوله تعالى : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ أي يواظبون عليها في مواقيتها ، كما قال ابن مسعود : ٢٥٨ [سألت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أي ؟ « الجهاد في سبيل الله » [أخرجاه في الصحيحين . وقد افتتح الله تعالى ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها ، ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة قال سبحانه : ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال ٢٥٩ [إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن] .

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٦٠ [ما منكم من أحد إلا وله منزلان : منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله] فذلك قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ فالْمُؤْمِنُونَ يرثون منازل الكفار لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة ، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له ، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل . وأبلغ من ذلك ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي بردة عن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ قال : ٢٦١ [يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال ، فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى] وفي لفظ له : قال رسول الله ﷺ : ٢٦٢ [إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً ، فيقال هذا فكأكك من النار] فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات ، أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ بذلك ، قال فحلف له] .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا أَلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ

ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

يخبر تعالى عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين ، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون. روى الإمام أحمد عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : [٢٦٣] إَنَّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والحديث والطيب وبين ذلك [وقد رواه أبو داود والترمذي من طرق عن عوف الأعرابي به نحوه وقال حسن صحيح .

﴿ ثم جعلناه نطفة ﴾ هذا الضمير عائد على جنس الإنسان. كما قال تعالى : ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ أي ضعيف من قوله تعالى : ﴿ ثم خلقنا النطفةعلقة ﴾ أي ثم صيرنا النطفة ، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره ، وترائب المرأة وهي عظام صدرها ما بين الرقوة إلى السرة ، فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة وهي دم ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ وهي قطعة كالْبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿ فخلقنا المضغة عظاماً ﴾ يعني شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها ﴿ فكسونا العظام لحماً ﴾ أي جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : [٢٦٤] حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : رزقه وأجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد . فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها » [أخرجه في الصحيحين .

وقوله تعالى : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق . قال تعالى : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾ يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت

﴿ ثُمَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعُونَ ﴾ يعني يوم المعاد وقيام الأرواح إلى الأجساد فيحاسب الخلائق ، ويوفى كل عامل عمله إن خيراً فخيراً أو شراً فشر .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ (١٧)

لما ذكر تعالى خلق الإنسان ، عطف بذكر خلق السموات السبع ، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الانسان • كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ يعني السموات السبع • وهذا كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ أي ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ، وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ولا أرض أرضاً ، ولا جبل إلا يعلم ما في وعده ، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره ، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار • وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين •

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (١٨) ﴿ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (١٩) ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلَّكَلِينِ ﴾ (٢٠) ﴿ وَإِن لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِزَّةٌ نُنْفِقُكُمْ بِمَا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٢١) ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (٢٢)

يذكر تعالى نعمه على عبده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر ،

أي بحسب الحاجة ، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلاً فلا يكفي الزرع بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع .

وقوله تعالى : ﴿ فأسكنناه في الأرض ﴾ أي جعلنا المطر يخلد في الأرض ، وجعلنا فيها قابلية له وتشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى . وقوله تعالى : ﴿ وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ أي لو شئنا ان لا تمطر لفعلنا ، ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري لفعلنا ، لو شئنا لجعلناه أجاجاً لا يتنفع به لشرب أو سقي لفعلنا ، ولو شئنا أن لا ينزل في الأرض ، أو يغور إلى مدى لا تصلون اليه ولا تنتفعون به لفعلنا ، ولكن بلطفه تعالى أنزله عذباً فرائاً وأسكنه وأسلكه في الأرض منه تسقون وتشربون وتغتسلون وتطهرون فله الحمد والمنة .

وقوله تعالى : ﴿ فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب ﴾ وهذا ما كان يألفه أهمل الحجاز ﴿ لكم فيها فواكه كثيرة ﴾ أي من جميع الثمار ﴿ ومنها تأكلون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء ﴾ أي من جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام والشجرة هي شجرة الزيتون ﴿ تنبت بالدهن ﴾ أي تنبت الدهن أي الزيت ﴿ وصبغ للآكلين ﴾ أي آدم للآكلين أي فيها ما ينتفعون به من الدهن كما روى الإمام أحمد عن أبي أسيد واسمه مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٦٥ [كلوا الزيت وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة] .

وقوله تعالى : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ . يذكر تعالى ما جعل لخلق في الأنعام من المنافع من شرب ألبانها وأكل حملانها. ولبس صوفها وأوبارها وأشعارها. وركوب ظهورها ، وتحميلها الأحمال الثقيل إلى البلاد النائية ، كما قال تعالى : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ - وكما أنه امتنّ على عباده بما خلق لهم من الأنعام التي تحملهم إلى بلاد نائية في البر فكذلك ذكر رأفته ورحمته بهم أنه يسر لهم السفن البحرية كذلك تنقلهم في عرض البحار إلى بلاد نائية ^(١) . - .

* - : ما بين الخطين المعترضين من كلامي لا كلام المفسر رحمه الله فقد أهمل تفسير « وعلى الفلك تحملون »

(١) قلت : وكذلك فقد هيأ لعباده ويسر ركوب الهواء في الفلك الهوائية (الطيارات التي تقطع مسافات الأشهر العديدة بساعات قليلة، وذلك من منه وكرمه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٢٣) ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ ﴾ (٢٤) ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٢٥) ﴿

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد وانتقامه ممن أشرك به وكذب رسله ﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ ألا تخافون من الله في إشراكم به فقال سادة قومه : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾ أي يرفع عليكم بدعوى النبوة وهو بشر مثلكم فكيف أوحى إليه من دونكم ﴿ ولو شاء الله لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ أي لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ أي ببعثة البشر ﴿ في آبائنا الأولين ﴾ إن هو إلا رجل به جنة ﴿ أي مجنون يزعم أن الله اختصه بالنبوة ﴾ فتربصوا به حتى حين ﴿ أصبروا عليه حتى يموت ، فتستريحوا منه .

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ (٢٦) ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَاَوْحَيْنَا إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنْوِيرُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ (٢٧) ﴿ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٨) ﴿ وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ (٢٩) ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ (٣٠) ﴿

استنصر نوح ربه تعالى كما قال تعالى : ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ وقال

ها هنا : ﴿ ربّ انصرنى بما كذبون ﴾ عندها أمره تعالى بصنع السفينة واتقانها وان يحمل فيها من كل زوجين اثنين أي ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك وأن يحمل فيها أهله ﴿ إلاّ من سبق عليه القول منهم ﴾ أي وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته ، أما الذين آمنوا به فهم أهله .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ أي لا تأخذنك رافة . بقومك الذين لم يؤمنوا بعدما بلغوا فقد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان وقد تقدمت القصة مبسوطه في سورة هود بما أغنى عن إعادة ذلك هنا . وقوله تعالى : ﴿ فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ... وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴿ وقوله تعالى : ﴿ وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴾ - أي فكما أنه تعالى منّ عليه وقومه بالنجاة من الغرق وحمد الله أن نجاهم من قومه وأغرقهم كذلك علمه الله تعالى ان يدعو ﴿ وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴾ - وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي إن في هذا الصنيع من إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين آيات أي لحججاً ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن الله تعالى ، وأنه تعالى فاعل لما يشاء ، قادر على كل شيء عليم بكل شيء ، وقوله تعالى : ﴿ وإن كنا لمبتلين ﴾ أي لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ

رُسُلًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ آلِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴿ (٣٤) أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا



أَنكُمْ تُخْرِجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين قيل هم عاد فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم وقيل : ثمود لقوله تعالى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ ﴾ وانه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم دعاهم إلى توحيده فكذبوه لأنه بشر مثلهم ، وأنكروا الآخرة والبعث الجثماني وقالوا : ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ﴾ هيهات هيهات لما توعدون ﴿ أي بعيداً جداً وقوع ذلك ﴾ ان هو إلا رجل افترى على الله كذباً ﴿ أي فيما جاءكم به من الرسالة والندارة والإخبار بالمعاد ﴾ وما نحن له بمؤمنين . قال رب انصُرني بما كذبون ﴿ أي استنصر الرسول ربه عليهم ﴾ قال عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿ بتكذيبهم لك ﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ ﴿ أي استحقوا ذلك من الله بما كفروا وطفوا ، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة وريح صرصر عاصفة باردة ﴾ فجعلناهم غثاء ﴿ أي صرعى هلكى كغثاء السيل ﴾ فبعداً للقوم الظالمين ﴿ أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم رسولهم ، فليحذر الذين نزل عليهم هذا القرآن وسمعوه أن يكذبوا رسولهم كيلا يحل بهم ما حل بأولئك ويتذكروا فتنفعهم الذكرى .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْقُ مِنْ

أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَرَا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ أي أممًا وخلائق ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ بل يؤخذون حسب تقديره تعالى وعلمه خلفاً بعد سلف ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ﴾ أي تتتابع ﴿ كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ يعني جمهورهم كقوله تعالى : ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ﴾ أي أهلكناهم ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ أي أخباراً وعبرة للناس . كقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْقَمًا كُلِّ مَمْزُقٍ ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿ (٤٦) فَقَالُوا أَنْتُمْ مِنْ لِبَشَرِينَ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٤٩)

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون وقومه ، بالآيات الباهرات والحجج الدامغات فاستكبروا عن اتباعهما لأنهما بشران كما قال الأمم قبلهم فتشابهت قلوبهم ، فأهلك الله فرعون وملأه ، وأغرقهم أجمعين في يوم واحد وأنزل على موسى التوراة ، فيها أحكامه وأوامره ونواهي ، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك الله أمةً بعامه بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ وَهَدَى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (٥٠)

يخبر تعالى عن عبده ورسوله عيسى بن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء

٢٤٠ (٢٣- المؤمنون -ج ١٨): الأنبياء في صغرهم يرعون الغنم ، وفي كبرهم يرعون الأمم

من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من انثى بلا ذكر وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى ، وقوله تعالى : ﴿ وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ الربوة : المكان المرتفع من الأرض وهو أحسن ما يكون فيه النبات ، والمعين الماء الجاري وقيل أقوال شتى في تعيين هذا المكان ولكن بيت المقدس هو الأظهر والله أعلم .

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿ (٥٣) فَذَرُّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿ (٥٤) أَيْخُسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ (٥٦)

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل على ان الحلال عون على العمل الصالح فقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذا أتم قيام، فجزاهم الله عن العباد خيراً. قال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ قال : أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ، ولا حلوكم ولا حامضكم ، ولكن قال : انتهوا إلى الحلال منه. وفي الصحيح : ٢٦٦ [إن داود كان يأكل من كسب يده] وفي الصحيح : ٢٦٧ [« ما من نبي إلا رعى الغنم » قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال « نعم وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة »] .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٢٦٨ [يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، يمدُّ يديه إلى السماء : يا رب يا رب فاني يستجاب لذلك] ورواه الإمام أحمد واللفظ له .

وقوله تعالى : ﴿ وان هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولهذا قال : ﴿ وأنا ربكم فاتقون ﴾ يعني أن المقصود عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله . وان قوله تعالى : ﴿ أمة واحدة ﴾ منصوب على الحال وقوله تعالى : ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زُبْراً ﴾ أي الأمم التي بعثت اليهم الأنبياء ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون ، ولهذا قال مهتدداً ومتوعداً : ﴿ فذرهم في غمرتهم ﴾ أي في غيهم وضلالهم ﴿ حتى حين ﴾ أي حين هلاكهم كما قال تعالى : ﴿ فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أيجسبون أنما نمثدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ يعني أياظن هؤلاء المغرورون أن عطاءنا لهم لكرامتهم علينا ؟ كلا ... فقد خاب رجاؤهم ، بل هو استدراج وإملاء . ولهذا قال عز من قائل : ﴿ بل لا يشعرون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ... سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملّهم ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلّا من آمن وعمل صالحاً ... ﴾ الآية .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿ (٦١)

يقول تعالى : ﴿ ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ أي خائفون من الله مع ما أحسنوا وآمنوا وعملوا من الصالحات ، ووجلون من مكره بهم . قال الحسن البصري : ان المؤمن جمع إحساناً وشفقة ، وان المنافق جمع إساءة وأمناء ﴿ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾ أي يصدقون فأيقنوا أن ما كان فعن قدره وقضائه وما شرعه من أوامر فمما يحبها ويرضاها ، وما كان من نواه فمما يأبأها ويكرها ، وإن كان خيراً فهو حق . وقال سبحانه : ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾ أي لا يعبدون معه غيره في جميع أنواع العبادة ويعلمون أن لا معبود إلّا هو .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ أي يعطون وهم خائفون أن لا يتقبل منهم خوفاً من قيامهم بالعطاء على غير الشروط المطلوبة وهذا من باب الإشفاق والاحتياط . كما روى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت : ٢٦٩ [يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة : هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : « لا يا بنت أبي بكر ، لا يا بنت الصديق ، ولكنه للذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل »] .

﴿ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ فجعلهم من السابقين — نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم وسائر المسلمين —

﴿ وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدِينَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٦٢) ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ (٦٣) ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴾ (٦٤) ﴿ لَا تَجْتَرُوا أَيُّومَ إِنَّا نَكُنْ مِنْكُمْ مِّنَّا لَا تَنْصُرُونَ ﴾ (٦٥) ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴾ (٦٦) ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ (٦٧) ﴿

يُخْبِرُ تعالى عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا بما تطيق ويوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَدِينَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ يعني كتاب الأعمال ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يبخسون من الخير شيئاً ، أما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير من عباده المؤمنين ثم أنكر على المشركين من قريش ﴿ بل قلوبهم في غمرة ﴾ أي في غفلة ﴿ من هذا ﴾ أي القرآن وقوله تعالى : ﴿ ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ﴾ أي لهم أعمال سيئة من دون شركهم لتحقق عليهم كلمة العذاب .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ ﴾ يعني إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون في الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم إذا هم يصرخون ويستغيثون

﴿ لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ﴾ أي لا يجبركم أحد منا سواء استغثتم أو سكتتم فلقد وجب العذاب ؛ ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال عز من قائل : ﴿ قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ أي إذا دعيتم أبيتم ، وإذا طلبتم امتنعتم ، كما قال تعالى : ﴿ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به ثُمُونَا فالحكم لله العلي الكبير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مستكبرين به سامراً تهجرون ﴾ أي مستكبرين بعمارة البيت وبكونه هم أهله ، يسمرون فيه بذكر القرآن بالهجر من الكلام : إنه سحر ، انه شعر ، إنه كهانة وبذكر النبي محمد ﷺ بالهجر من الكلام أيضاً : بأنه شاعر ، أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون فكل ذلك باطل . بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم ، وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء ، فلا يعمر المشركون الحرم إلا بمثل هذا الكلام الخبيث وهذا ولا شك ليس إعماراً بل هدماً وهجراً له والعياذ بالله تعالى .

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَآكَثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿ (٧٠) وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خُرْجاً فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ ﴿ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿ (٧٥)

ينكر تعالى على المشركين عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له ، وإعراضهم عنه ، رغم أنهم قد خُصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسله أكمل منه ولا أشرف ، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم ، بالقيام بشكرها وتفهمها



والعمل بمقتضاها دائماً ، كما فعله النجباء منهم ، ممن أسلم وأتبع رسول الله ﷺ ورضي عنهم ﴿ أفلم يدبروا القول ﴾ إذا والله لوجدوا في القرآن زاجراً عن المعصية لو تدبروه ولكنهم تركوه فهلكوا . ثم أنكر الله على كفار قريش : ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ أفهم لا يعرفون محمداً وصدقته وأمانته وشهدوا له بذلك في الجاهلية والإسلام .

وقوله تعالى : ﴿ أم يقولون به رجثة ﴾ يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقول القرآن وافتراه ، أو أن به جنوناً وهم يعلمون بطلان ما يقولونه وقد تحداهم الله وأهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولن يستطيعوا أبد الآبدين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ﴾ قال قتادة :

ذكر لنا ٢٧٠ [إن النبي ﷺ لقي رجلاً فقال له : « أسلم » فقال الرجل : إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كاره فقال نبي الله ﷺ « وان كنت كارهاً »] مرسل .

وقوله ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ أي لو أجابهم الله تعالى إلى ما في أنفسهم من الهوى ، وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن لفساد أهوائهم واختلافها كما أخبر عنهم في قولهم : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ وإنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وشرعه وقدره تعالى وتقدس ولهذا قال تعالى : ﴿ بل أتيناهم بذكرهم ﴾ أي القرآن ﴿ فهم عن ذكرهم معرضون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أم تسألهم خرجاً ﴾ أي أجراً وجعلاً ﴿ فخراج ربك خير ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وانك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾ أي المنحرفون زائغون . وقوله تعالى : ﴿ ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون ﴾ يخبر تعالى عن غلظتهم في كفرهم وعنادهم وطغيانهم كما قال تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ

إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي
الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّي وَيُمَيِّتُ وَلَهُ
اِخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ
الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِذَا نَا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا
إِلَّا أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد :
﴿ فما استكانوا لربهم ﴾ وما يتضرعون ﴾ أي فما ردّهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر
والمخالفة بل استمروا على غيبتهم وضلالهم وما خشعوا وما دعوا متضرعين اليه تعالى
كما قال سبحانه : ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم ﴾ الآية . قال
ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال ٢٧١ [جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال :
يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز - يعني الوبر والدم - فأنزل الله : ﴿ ولقد
أخذناهم بالعذاب فما استكانوا ﴾ وأصله في الصحيحين : ٢٧٢ [ان رسول الله ﷺ
دعا على قريش حين استعصوا فقال : « اللهم أعني عليهم بسبع كسيع يوسف »] .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ﴾ أي
حتى إذا جاءهم أمر الله بقيام القيامة بغتة ، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون
فعند ذلك أبلسوا من كل خير ويشوا من كل راحة ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن
جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ، وهي العقول والفهوم التي يذكرون بها الأشياء
ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى وأنه الفاعل المختار لما يشاء .

وقوله تعالى : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ « أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به
عليكم كقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس لو حرصت بمؤمنين ﴾ ثم أخبر تعالى عن قدرته
العظيمة وسلطانه القاهر في خلقه هذه الكائنات بما فيها من المخلوقات البشرية الذين
أنشأهم الله في كافة أقطار الأرض ، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم ، ثم يوم القيامة

يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم يعيدهم كما بدأهم . ولهذا قال : ﴿ وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾ أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي خضع له كل شيء : ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين : ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون ﴾ قالوا : إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمبعوثون ﴾ يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ يعنون المعاد محال ، إنما يخبرها من تلقاها عن كتب الأولين ، واختلافهم . وهذا إنكار وتكذيب منهم للبعث ، وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴿

﴿ قُلْ لِّعَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٨٧) قُلْ مَنْ يَدِيرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٩٠)

يقرر الله تعالى وحدانيته، وانفرادة بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو ، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له • ولهذا قال لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لا شريك له فيها ، إنما أشركوا معه في الإلهية فعبدوا معه غيره مع اعترافهم أن الذين عبدوهم عبادة لا يملكون معه شيئاً ، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إلى الله زلفى كما أخبر تعالى . وقوله تعالى : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ﴾ أي من خلقها ومن عليها وسائر المخلوقات ﴿ سيقولون لله ﴾ أي يعترفون بأن الخلق كله لله ﴿ قل أفلا تذكرون ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا غيره ﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾

أي من خالق العالم العلوي ومن هو رب العرش العظيم . والعرش هو سقف المخلوقات ، كما جاء في الحديث الذي رواه ابو داود عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٢٧٣ [... شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سمواته هكذا » وأشار بيده مثل القبة] وفي الحديث الآخر ٢٧٤ [ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهما وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كذلك الحلقة في تلك الفلاة] . و ﴿ العظيم ﴾ أي الكبير . وقوله تعالى : ﴿ سيقولون لله قل أفلا تتقون ﴾ وإذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في إشراككم معه غيره ؟ وقوله تعالى : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ﴾ أي بيده الملك ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر جواره وليس لمن دونه أن يجير عليه لثلاث يفتات عليه ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه ﴾ أي هو السيد العظيم الذي لا أعظم منه الذي له الخلق والأمر لا معقب لحكمه ، الذي لا يمانع ولا يخالف وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وقال الله تعالى : ﴿ سيقولون لله ﴾ أي سيعترفون أنه تعالى هو السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه لا شريك له . ﴿ قل فأني تسحرون ﴾ أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم بكل ما له من صفات على .

ثم قال تعالى : ﴿ بل أتيناهم بالحق ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله ، وأقمنا الأدلة القاطعة على ذلك ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك كما قال في آخر السورة ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ فالشركون لا يشركون عن حجة ودليل إنما تقليداً لأبائهم الجاهل . كما قال الله عنهم ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ونحن على آثارهم مقتدون ﴾ .

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٩١) وَالشَّهَادَةُ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ (٩٢) ﴾

ينزه الله تعالى نفسه عن الولد والشريك في الربوبية والعبادة فقال عز من قائل : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعل بعضهم على بعض ﴾ أي لو فرض تعدد الآلهة لانفرد كل إله بما خلق فما كان ينتظم الوجود ،

والمساهد أن الوجود في غاية الانتظام ، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر ومخالفته فيعلو بعض على بعض ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ أي عما يصفه الظالمون المعتدون بالولد أو الشريك علواً كبيراً ، ﴿ عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ أي تنزه وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون .

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيْكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿ (٩٥) أَذْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿ (٩٨) ۞﴾

يأمر الله نبيه محمداً ﷺ ان يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم : ﴿ رب إما تريني ما يوعدون ﴾ أي إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك ، فلا تجعلني فيهم كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد والترمذي وصححه : ٢٧٥ [وإذا أردتَ بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون] وقوله تعالى : ﴿ وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ﴾ أي لو شئنا لأريناك ما تحل بهم من النقم ثم قال تعالى مرشداً إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة فقال تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة ﴾ وهذا كما قال تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ لما أمره بدفع الناس بالتي هي أحسن ، أمره تعالى أن يستعيذ به تعالى من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم وسيلة بالتي هي أحسن ولا يتقاد الشياطين بالمعروف فلا يدفع كيدهم إلا الله تعالى : وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله ﷺ كان يقول : ٢٧٦ [أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه] وقوله تعالى : ﴿ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ أي في شيء من أمري ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور . ولهذا روى ابو داود : ٢٧٧ [إن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم إني أعوذ بك من الهدم ومن الغرق وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت] .

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩)
لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ
بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

ينخبّر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى ،
وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته ولهذا
قال : ﴿رب ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت كلاً﴾ كقوله تعالى : ﴿يوم
يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء
فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾ وسؤال الرجعة يسألونه في عدة مواطن :
عند الاحتضار ، ويوم النشور ، ووقت العرض على الجبار ، وحين يعرضون على النار ،
وهم في غمرات عذاب الجحيم ، كما تنبّئ بذلك الآيات الكريمة .

ولكن الله تعالى يقول : ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ كلاً حرف ردع وزجر أي لا
نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه . وقوله تعالى : ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ كان يقول
العلاء بن زياد بقول : ليتزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله ،
فليعمل بطاعة الله تعالى . وقال قتادة : والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله ،
فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها ، ولا قوة إلا بالله .

وقال ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصي من
أهل القبور تدخل عليهم في قبورهم حيات سوداء أو دهم ، حية عند رأسه ، وحية عند
رجليه يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى ﴿ومن
ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ قال مجاهد : البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة
وفي قوله تعالى : ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من
الظلمة بعذاب البرزخ ، كما قال تعالى : ﴿ومن ورائهم جهنم﴾ وقوله تعالى : ﴿ومن
ورائهم عذاب غليظ﴾ وقوله تعالى : ﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي يستمر به العذاب إلى يوم
البعث ، كما جاء في الحديث ٢٧٨ [فلا يزال معذباً فيها] أي في الأرض ^(١) .

(١) قلت : إن قوله تعالى : « ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » عدا عما يفهم منه أن وراء الكفار
أو العصاة عذاب البرزخ ، فكذلك يفهم أيضاً أن البرزخ من حيث كون معناه (حاجزاً) بين الدنيا =

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١٠١) ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٠٢) ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (١٠٣) ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ (١٠٤) ﴿

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور من القبور ﴿ فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون ﴾ أي لا تنفع الأنساب يومئذ حتى ولا ينظر والد لولده وهو يبصره ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره وهو كان أعزّ الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة قال الله تعالى : ﴿ يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد : ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه قال فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً ومصداق ذلك في كتاب الله قال الله تعالى : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ رواه ابن أبي حاتم . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : ٢٧٩ [سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر : « ما نال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه ؟ بلى والله إن راحمي موصولة في الدنيا والآخرة وإني أيها الناس فرط لكم إذا جئتم قال رجل : يا رسول الله أنا فلان بن فلان فأقول لهم : « أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدي وارتدتم القهقري »] وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة قاله ابن عباس ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ أي الذين فازوا فنجوا من النار وادخلوا الجنة ﴿ ومن خفت موازينه ﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته ، ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي خابوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة ﴿ في جهنم خالدون ﴾ أي دائمون فلا يظعنون ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين

= والآخرة هو حاجز بين أهل الدنيا وأهل القبور ولا يجوز أن يلتقي هؤلاء هؤلاء إلى يوم القيامة بمعنى أنه لا رجعة للأموات إلى الدنيا فإذا فهم هذا من كلام الله تعالى ، فينتفي أن يستطيع أحد من الأموات أن يغيث أحداً استغاثه من أهل الدنيا كما يدعي المشعوذون وأهل الخرافات ، لأن الاستغاثة بغير الله تعالى شرك والعباد بالله تعالى وإن العودة مستحيلة بنص هذه الآية .

لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴿ روى ابن مردويه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : ٢٨٠ [قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ قال : ﴿ تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم ﴾] وقوله تعالى : ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ روى الامام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : [﴿ وهم فيها كالحون ﴾ ٢٨١ قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته] .

﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (١٠٥)
قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿ (١٠٦) رَبَّنَا
أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿ (١٠٧)

هذا توبيخ من الله لأهل الكفر والمآثم فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت إليكم الكتب ، وأزلت شبهكم ، ولم يبق لكم حجة كما قال تعالى : ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ولهذا قالوا : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ أي قد قامت علينا الحجة ، ولكن كنا أشقى من أن نقاد لها ونتبعها ، فضللنا عنها ولم نرزقها ثم قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ أي أرددنا إلى الدنيا فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة . كما قال تعالى : ﴿ فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل - إلى قوله تعالى - فالحكم لله العلي الكبير ﴾ أي لا سبيل إلى الخروج لأنكم قوم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون .

﴿ قَالِ أَخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ ﴾ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ
مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَبِيرُ
الرَّاحِمِينَ ﴿ (١٠٩) فَاتَّخَذُوا لَهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ
مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ
الْفَائِزُونَ ﴿ (١١١)

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار . يقول تعالى : ﴿ إخشأوا فيها ﴾ أي امكثوا فيها صاغرين مهانين اذلاء ﴿ ولا تكلمون ﴾ أي لا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي . قال عبد الله بن عمرو : فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة ، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم . قال : فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق ، رواه ابن أبي حاتم وروى أيضاً عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : ﴿ إخشأوا فيها ولا تكلمون ﴾ قال : ... فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد . ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه . فقال تعالى : ﴿ إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخرياً ﴾ أي فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إليّ : ﴿ حتى أنسوكم ذكرى ﴾ أي جعلكم بغضهم على أن أنسى معاملتي ﴿ وكنتم منهم تضحكون ﴾ أي من صنعهم وعبادتهم . كما قال تعالى : ﴿ إن الذين أجروا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون ﴾ أي يلمزونهم استهزاء ثم أخبر تعالى عما جازى به أوليائه وعباده الصالحين ، فقال تعالى : ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ أي جزيتهم الجنة ، ونجيتهم من النار بما صبروا على أذاكم لهم واستهزائكم بهم .

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ (١١٢) قَالُوا

لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴿ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿ (١١٦) ﴾

ينبه تعالى هؤلاء على ما أضاعوه من طاعة الله تعالى في عمرهم القصير في الدنيا وعبادته وحده لا شريك له ، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أوليائه المتقون ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ﴾ أي كم كانت إقامتكم في الدنيا ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ﴾ أي الحاسبين ﴿ قال إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ أي مدة سيرة على كل تقدير ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ لما آثرتم الفاني على الباقي ولما تصرفتم

هذا التصرف السيء ولا استحقاق من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة . روى ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي يخطب الناس فقال : قال رسول الله ﷺ [٢٨٢] **إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ ، قَالَ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ - قَالَ - لَنَعْمَ مَا اتَّجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ رَحِمَنِي وَرِضْوَانِي وَجِئْتِي أَمْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مَحَلَّدِينَ** ثُمَّ قَالَ : **يَا أَهْلَ النَّارِ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ** فيقول بثس ما اتَّجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ ، نَارِي وَسَخَطِي أَمْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مَحَلَّدِينَ [وقوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ أي أظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا . وقيل في تفسيرها : أي للعبث أي لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب ، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل ﴿ وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجِعُونَ ﴾ أي لا تعودون في الدار الآخرة . كما قال تعالى : ﴿ أَيْحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سُدًى ﴾ يعني هملًا .

روى أبو نعيم عن إبراهيم بن الحارث قال : [٢٨٣] **بَعَثْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ وَأَمَرْنَا أَنْ نَقُولَ إِذَا نَحْنُ أَمْسَيْنَا وَأَصْبَحْنَا : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجِعُونَ ﴾** قال : **فَقَرَأْنَاهَا فَغَنَمْنَا وَسَلَمْنَا** .

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ أي تقدس وتنزه عن أن يخلق شيئاً عبثاً فإنه الملك الحق المنزه عن العبث ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ووصفه بأنه كريم أي حسن المنظر بهي الشكل .

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ [٢٨٤] **أَمَانٌ أُمِّي مِنَ الْغَرَقِ إِذَا رَكَبُوا السَّفِينَةَ بِاسْمِ اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقِّ . وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** .

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١١٧) **وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ** * (١١٨)

٢٥٤ (٢٣ - المؤمنون - ج ١٨) : الدعاء هو العبادة فمن دعا غير الله فقد كفر وأشرك

يتوعد الله من أشرك به غيره ، وعبد معه سواه ويخبر ان من أشرك بالله بلا برهان له على قوله فقال عز من قائل : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ﴾ وهذه جملة معترضة ، وجواب الشرط في قوله تعالى : ﴿ فإنما حسابه عند ربه ﴾ أي والله يحاسبه على ذلك ، ثم أخبر : ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾ أي لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاح ولا نجاة .

قال قتادة : ٢٨٥ [ذكر لنا ان نبي الله ﷺ قال لرجل : ما تعبد قال : أعبد الله ، وكذا وكذا حتى عدّ أصناماً ؛ فقال رسول الله ﷺ : « فأبهم إذا أصابك ضرّ فدعوتك كشفه عنك ؟ » قال : الله عز وجل . قال : « فأبهم إذا كانت لك حاجة فدعوتك فأعطاكها » قال : الله عز وجل ، قال : « فما يملكك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه ؟ » قال : أردت أن أشكره بعبادة هؤلاء معه ؛ فقال رسول الله ﷺ : « تعلمون ولا يعلمون » فقال الرجل بعدما أسلم : لقيت رجلاً خصمني [هذا مرسل من هذا الوجه وقد روى أبو عيسى الترمذي في جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين عن أبيه عن رسول الله ﷺ نحو ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وسره عن الناس ، والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال .

آخر اختصار تفسير سورة المؤمنون والله الحمد والمنّة

١٣٩٠/١/٥ و ١٩٧٠/٣/١٢

(٢٤) سُورَةُ النُّورِ مَدَنِيَّةٌ وَأَنبَأَ بِهَا ابْنُ جَبْرٍ وَشَيْخُونُ

نزلت بعد الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ لِّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ * (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ * (٢)

قوله تعالى : ﴿سورة أنزلناها﴾ أي هذه السورة أنزلناها ، فيه تنبيه على الاعتناء بها ، ولا ينفي هذا الاعتناء عما عداها من السور ﴿وفرضناها﴾ أي بينا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود . ﴿وأنزلنا فيها آياتٍ بيناتٍ﴾ أي مفسرات وأصحات ﴿لعلكم تذكرون﴾ ثم قال : ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ يعني هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد . وللعلماء فيه تفصيل ونزاع : فإن الزاني إما أن يكون بكراً أي غير متزوج فحدّه مائة جلدة كما في الآية ... وتغريب عام عن بلده عند جمهور العلماء خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله لأن التغريب أو عدمه متروك لرأي الإمام عند أبي حنيفة ، على أن حجة الجمهور وهو ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ، وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللذين أنبا رسول الله ﷺ فقال أحدهما : ٢٨٦ [يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيماً - يعني أجيراً - على هذا فزني بامرأته فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام وإن على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده

لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى . الوليدة والغنم ردُّ عليك ، وعلى ابنتك مائة جلدة وتغريب عام ، واغدُ يا أنيس - لرجل بن أسلم - إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها [فغدا إليها فاعترفت فرجمها . وفي هذا أدلة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج . فأما إذا كان محصناً ، وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حرّ بالغ عاقل فإنه يرجم . كما روى مالك رحمه الله عن عمر بن الخطاب : ٢٨٧] انه قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمد ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها ووعيناها ، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشى أن يطول بالناس زمان ان يقول قائل لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال ومن النساء إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف [أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولاً وقد اقتطفنا منه ما ثبت به مقصودنا ههنا .

روى الحافظ ابو يعلي الموصلي عن كثير بن الصلت قال : ٢٨٨] كنا عند مروان وفينا زيد ، فقال زيد بن ثابت ، كنا نقرأ : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، قال مروان : ألا كتبته في المصحف ؟ قال : ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب ، فقال : أنا أشفيكم من ذلك قال : قلنا فكيف ؟ قال جاء رجل إلى النبي ﷺ : قال فذكر كذا وكذا وذكر الرجم ، فقال يا رسول الله اكتب لي آية الرجم ، قال : « لا أستطيع الآن » [هذا أو نحو ذلك وقد رواه النسائي وقد روينا طرقاً متعددة متعاضدة ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة ، فنسخ تلاوتها ، وبقي حكمها معمولاً به ، والله أعلم .

وقد روي الجمع على الزاني المحصن بين الجلد مائة للآية والرجم للسنة وذلك من رواية أهل السنن الأربعة ومسلم عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٨٩ [خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم] . على ان رسول الله ﷺ ، أمر برجم المرأة التي زنى بها العسيف ورجم ماعزاً والغامدية ولم ينقل عنه ﷺ أنه جلدهم قبل الرجم ^(١) .

(١) قلت : لعل حديث الجمع بين الجلد والرجم للمحصن منسوخ بدليل أنه صلى الله عليه وسلم لم يطبقه لأن قوله صلى الله عليه وسلم « لقد جعل الله لهن سبيلاً » فهذه قاطبة لما كان جزاء الزانية الإمساك في البيوت حتى يتوفاهن الله أو يجعل الله لهن سبيلاً كما في سورة النساء الآية ١٥ / وهكذا يتضح ان الحديث جاء بعد هذه الآية لقوله صلى الله عليه وسلم قد جعل الله لهن سبيلاً « فظهر ان الحديث متقدم على تطبيقه الرجم بحق =

وانما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة الطرق والألفاظ ، بالاقتصار على رجمهم وليس فيها ذكر الجلد . وقوله تعالى : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ أي في حكم الله أي لا ترأفوا بهما في شرع الله أي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد . وفي الحديث ٢٩٠ : [لحدٌ يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمحطوا اربعين صباحاً] وقال ابن أبي حاتم عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجلها ، قال نافع : أراه قال وظهرها قال قلت : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ قال : يا بني ورأيتني أخذتني بها رأفة ان الله لم يأمرني أن اقتلها ، ولا أن اجعل جلدها في رأسها ، وقد أوجعت حين ضربتها . وقوله تعالى : ﴿ ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنى وشددوا عليه الضرب ، ولكن ليس مبرحاً ، ليرتدع هو ومن يصنع مثله ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ يعني علانية بحضرة الناس وذلك أبلغ في زجرهما وأنجع في ردعهما وأن في ذلك تقريباً وتوبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حضوراً ، وقيل : ليس ذلك للفضيحة انما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة . (١)

﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

هذا خبر الله تعالى بأن الزاني لا يبطأ إلا زانية أو مشركة أي لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية ، أو مشركة لا ترى حرمة ذلك وكذلك ﴿ الزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك ﴾ أي زان عاص بزناه أو مشرك لا يعتقد تحريمه قال سفيان الثوري عن ابن عباس رضي الله عنه : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ﴾ قال : ليس هذا بنكاح إنما هو الجماع ، لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك ، وهذا اسناد صحيح عنه وكذلك روي عن جماعة من التابعين .

وقوله تعالى : ﴿ وحرّم ذلك على المؤمنين ﴾ أي تعاطيه والتزوج بالبغايا ، أو تزويج

= المرأة التي زنى بها العسيف وبحق ما عز والغامدية وعلى قوله لأنيس « أغد إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها » لهذا كله فمن المحتمل بل من الراجح أن يكون حديث الجمع بين الجلد والرجم المحصن منسوخاً ولذلك كان هذا مذهب جمهور العلماء وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله ، أما أحمد فمذهبه الجمع ، للحديث المتقدم بالجمع .

(١) قلت : وللملغة والاعتبار لأن الحد أنفى للجرم ، وإظهاراً لحكم الله ، وإعزازاً للشرع وأهله .

العفاف بالرجال الفجار ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ﴾ وقوله ﴿ محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ﴾ الآية ، ولذا فعند أحمد لا يصح عقد الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب ، فإن تابت صحَّ العقد وإلا فلا ، وكذلك لا يصح تزويج المرأة العفيفة بالرجل الفاجر والمسافح حتى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى : ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ٢٩١ [ان رجلاً من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه ، قال فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها قال : فقرأ عليه رسول الله ﷺ : ﴿ الزاني لا ينكح الزانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾] ورواه الترمذي والنسائي قال الترمذي حسن غريب ورواه أبو داود .

روى ابن حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٢٩٢ [لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله] وهكذا أخرجه أبو داود في سننه .

روى الامام أحمد عن عبد الله بن عمر ان رسول الله ﷺ قال : ٢٩٣ [ثلاثة حرم الله عليهم الجنة : مدمن الخمر ، والعاق لوالديه ، والذي يُقر في أهله الخبث] .

وأما إذا حصلت توبة فإنه يحلّ التزويج ، كما روى الإمام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله عن شعبة مولى ابن عباس رضي الله عنه قال سمعت ابن عباس وسأله رجل فقال : ٢٩٤ [إني كنت أُمُّ بامرأة آتت منها ما حرم الله عز وجل علي ، فرزق الله عز وجل من ذلك توبة فأردت أن اتزوجها ، فقال أناس : إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، فقال ابن عباس : ليس هذا من هذا ، [إنكحها فما كان من أثم فعلي] .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهي الحرة البالغة

الضعيفة ، فإذا كان المقدوف رجلاً كذلك يجلد قاذفه أيضاً ، وليس فيه نزاع بين العلماء فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درأ عنه الحد . ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ﴾ فأوجب على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ، ثلاثة أحكام : « أحدها » أن يجلد ثمانين جلدة . « الثاني » أنه ترد شهادته أبداً . « الثالث » أن يكون فاسقاً ليس يعدل لا عند الله ولا عند الناس .

ثم قال تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ الآية واختلف العلماء في هذا الاستثناء هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط ، فترفع التوبة الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب ، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ وأما الجلد فقد ذهب وانقضى سواء تاب أو أصر ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف ، فذهب الأئمة الثلاثة إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق ، ونص عليه سعيد بن المسيب سيد التابعين وجماعة من السلف أيضاً ، وقال الإمام أبو حنيفة إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة أبداً ، ومن ذهب إليه من السلف القاضي شريح وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وغيرهم ، قال الشعبي والضحاك لا تقبل شهادته وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان فحينئذ تقبل شهادته ^(١) والله أعلم .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ٦ ﴾
وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٧ ﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ٨ ﴾

(١) قلت : فيما يبدو والله أعلم أن تقرير الجمهور في قبول شهادته لا شك أنه أقرب إلى الصواب من قول أبي حنيفة برد شهادته أبداً لأن الاستثناء جاء عاماً والتخصيص يحتاج إلى دليل ثم لا يبقى معنى لقوله تعالى ... (فإن الله غفور رحيم) فأين المغفرة والرحمة أن بقي مردود الشهادة أبداً ؟!! وكيف يقر على نفسه بالبهتان وهو لم يبهت ولم يكذب وقد رأى الفعل عياناً فكيف يتهم نفسه بالبهتان وهو لم يبهت بل إذا قرع نفسه بالبهتان يكون قد كذب بالفعل على نفسه لأنه صادق برؤيته ولكنه اخطأ فكان عليه أن لا يدلي بشهادته قبل أن يدلي بها ثلاثة قبله وإلا فالجلد جزاؤه على تفريطه وهو العدل .

وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ • (٩) وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ • (١٠) ﴿١٠﴾

في هذه الآية الكريمة فرج للأزواج ، وزيادة مخرج اذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة ، أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل ، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين أي فيما رماها به من الزنا • والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين • عندها تبين منه بهذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء وتحرم عليه أبدا ، ويعطيها مهرها ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماها به • والخامسة ان غضب الله عليها إن كان من الصادقين • ولهذا قال تعالى : ﴿ ويدرأ عنها العذاب ﴾ يعني الحد ، ﴿ ان تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ﴾ والخامسة ان غضب الله عليها إن كان من الصادقين • فخصها بالغضب ، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور ، وهي تعلم صدقه فيما رماها به ، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها ، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يجحد عنه . ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج ، من شدة ما يكون بهم من الضيق ، فقال تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ أي يشق عليكم كثير من أموركم ﴿ وأن الله تَوَّابٌ ﴾ أي على عبادته ، وان كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما شرعه وأمر به ، ونهى عنه وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية وذكر سبب نزولها وفيمن نزلت فيه من الصحابة، تقتصر منها على ما جاء في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وما رواه البخاري عن ابن عباس والنسائي في التفسير من حديث عبد الملك ابن أبي سليمان والامام أحمد عن سعيد بن جبير قال :

٢٩٥ [سئلت عن المتلاعنين أيفرق بينهما في إمارة ابن الزبير فما دريت ما أقول ، فقممت من مكاني إلى منزل ابن عمر فقلت : يا أبا عبد الرحمن ، المتلاعنان أيفرق بينهما ؟ فقال : سبحان الله إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال : يا رسول الله أرايت الرجل يرى امرأته على فاحشة فلان تكلم تكلم بأمر عظيم ، وان سكنت سكنت على مثل ذلك فسكت فلم يجبه ، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال : الذي سألتك عنه قد ابتليت به]

فأنزل الله تعالى هذه الآيات في سورة النور : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ حتى بلغ ﴿ أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ فبدأ بالرجل فوعظه وذكره ، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقال : والذي بعثك بالحق ما كذبت ، ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكرها ، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقالت المرأة : والذي بعثك بالحق إنه لكاذب . قال فبدأ بالرجل فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ثم ثنى بالمرأة ، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ثم فرق بينهما [رواه النسائي وأخرجاه في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس .

روى البخاري عن ابن عباس : ٢٩٦] أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء ، فقال النبي ﷺ : « البينة أو حدٌ في ظهرك » فقال يا رسول الله إذا أرى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبي ﷺ يقول : « البينة أو حدٌ في ظهرك » فقال هلال : والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن الله ما يرى ظهري من الحد ، فترل جبريل وأنزل عليه : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ ... ان كان من الصادقين ﴾ فانصرف النبي ﷺ ، فأرسل إليهما ، فجاء هلال فشهد والنبي ﷺ يقول : « ان الله يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب ؟ » ثم قامت فشهدت فلما كان في الخامسة وقفوها وقالوا : إنها موجبة ، قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفصح قومي سائر اليوم فمضت ، فقال النبي ﷺ : « أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الألتين خدلج الساقين ، فهو لشريك بن سحماء » فجاءت به كذلك ، فقال النبي ﷺ : « لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن » [انفرد به البخاري من هذا الوجه وقد رواه من غير وجه عن ابن عباس وغيره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١١)

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه فأنزل الله براءتها صيانةً لعرض الرسول ﷺ فقال تعالى : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ﴾ وكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلموا به وجوزوه آخرون منهم ، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن ، وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة :

قال الإمام أحمد عن الزهري قال : أخبرني سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها الله تعالى ، وكلهم قد حدثني بطائفة من حديثها ، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصاً ، وقد وعيت عن كل رجل فهم الحديث الذي حدثني عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضاً ، ذكروا أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت : ٢٩٧ [كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها ، خرج بها رسول الله ﷺ معه قالت عائشة رضي الله عنها : فأقرع بيننا في غزوة غزاها ، فخرج فيها سهمي ، وخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعدما نزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة ، أذن ليلةً بالرحيل فقممت حين أذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري ، فاذا عقدلي من جذع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمت عقدي ، فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذي كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعير الذي كنت أركب ، وهم يحسبون أنني فيه ، قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقمة من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جاريةً حديثة السن ، فبعثوا الحمل وساروا ووجدت عقدتي بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا محيب ، فتمتمت منزلي الذي كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون لي ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناى فتمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فأدلى فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم ، فأتاني فعرفني حين رأيته وقد كان رأي قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه

حين عرفني ، فخمرت وجهي بجلبابي ، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته ، فوطيء على يدها فركبتها فانطلق يقودني الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمناها شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريني في وجعي أي لا أرى رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين اشتكي ، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول : « كيف تيكم » ؟ فذلك الذي يريني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نفهت ، وخرجت معي أم مسطح قبيل المناصع وهو متبراً زناً ، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرية وكنا نأذى بالكنف ان نتخذها في بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف ، وأما ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثانة بن عباد بن عبد المطلب ، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح ، قبيل بيتي حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح في مرطها ، فقالت قعس مسطح ، فقلت لها : بشما قلت تسببن رجلاً شهد بدرأ ؟ فقالت : أي هنتاه ألم تسمعي ما قال ؟ قلت وماذا قال ؟ قالت فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً إلى مرضي ، فلما رجعت إلى بيتي دخل رسول الله ﷺ ، فسلم ثم قال : « كيف تيكم ؟ » فقلت له : أأذن لي أن آتي أبوي ؟ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لي رسول الله ﷺ ، فجئت أبوي فقلت لأمي : يا أمتاه لماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أي بنية هوتي عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضية عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت : فقلت سبحان الله وقد تحدث الناس بها ، فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكي قالت : فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله قالت فأما أسامة بن زيد فأشار علي رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود ؛ فقال أسامة : يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً . وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر . قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : « أي بريرة هل رأيت من شيء يريك من عائشة ؟ » فقالت له بريرة ، والذي بعثك بالحق ان رأيت منها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة

السن ، تنام عن عجين أهلها فتأتي الذاجن فتأكله . فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي » فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال : أنا أعذرک منه يا رسول الله ان كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من أخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک . قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطک ما أحببت أن يقتل ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فانك منافق تجادل عن المنافق ، فتناور الحيان : الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، وسكت رسول الله ﷺ قالت : وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فائق كبدي ، قالت : فينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي ، فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ ، فسلم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل... وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : « أما بعد يا عائشة فانه قد بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئک الله وإن كنت أئمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فان العبد اذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه » قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته ، قلص دمي حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبي : أجب عني رسول الله فقال والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمي : أجبني عني رسول الله ﷺ ، فقالت : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن والله لقد علمت ، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني ، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني ، فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، قالت : وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة وأن الله تعالى مبرئني براءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحى يتلى ، ولشأنني كان أحقر في

نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ ، في النوم رؤيا يبرئني الله بها ، قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه ، قالت : فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها ان قال : « أبشري يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك » قالت : فقالت لي أُمي : قومي إليه . فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذي أنزل براءتي ، وأنزل الله تعالى عز وجل ﴿ ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ﴾ العشر الآيات كلها ، فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقربته منه وفقره : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ، فأنزل الله تعالى ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى ﴾ - إلى قوله - ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ فقال أبو بكر : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً . قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري فقال : « يا زينب ماذا علمت ورأيت ؟ » فقالت : يا رسول الله أحمى سمعي وبصري ، والله ما علمت إلا خيراً . قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع . وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك [أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث الزهري .

روى الامام أحمد عن عائشة قالت : لما نزل عذري ٢٩٨ [قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك ، وتلا القرآن ، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حذهم] ورواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذي هذا حديث حسن ، ووقع عند أبي داود تسميتهم : حسان بن ثابت ، ومسطح بن أثانة ، وحمنة بنت جحش .

فقوله تعالى : ﴿ ان الذين جاءوا بالإفك ﴾ أي الكذب والبهت والافتراء ﴿ عصبة ﴾ أي جماعة منكم ﴿ لا تحسبهوا شراً لكم ﴾ أي يا آل أبي بكر ﴿ بل هو خير لكم ﴾ أي في الدنيا والآخرة . لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة واطهار شرف لهم باعتهاء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم ﴿ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ الآية ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنه وعنهما وهي في سياق الموت ، قال لها : أبشري فانك زوجة رسول الله

ﷺ ، وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك ، ونزلت براءتك من السماء وعن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت عائشة وزينب رضي الله عنهما فقالت زينب أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة : أنا التي نزل عذري في كتاب الله .

وقوله تعالى : ﴿ لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ﴾ أي لكل من تكلم في هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة ، نصيب عظيم من العذاب ﴿ والذي تولى كبره منهم ﴾ قيل ابتداء به ، وقيل الذي كان يجمعه ويستوشيه ، ويذيعه ويشيعه ﴿ له عذاب عظيم ﴾ أي على ذلك والمقصود بذلك هو عبد الله بن أبي بن سلول قبحه الله تعالى ولعنه .

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ (١٢) ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (١٣)

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء ، فقال تعالى : ﴿ لولا ﴾ يعني هلاً ﴿ إذ سمعتموه ﴾ أي كلام الإفك ﴿ ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى ، نزلت في أبي أيوب الأنصاري وامراته رضي الله عنهما فإن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها ؟ قال : نعم وذلك الكذب أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت لا والله ما كنت لأفعله ، قال : فعائشة والله خير منك فذلك قوله تعالى : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ ، وقالوا هذا إفك مبين ﴿ كما قال أبو أيوب وصاحبه .

قال الله تعالى : ﴿ لولا ﴾ أي هلاً ﴿ جاءوا عليه ﴾ أي على ما قالوه ﴿ بأربعة شهداء ﴾ يشهدون على صحة ما جاءوا به ﴿ فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ أي في حكم الله كاذبون فاجرون .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّينَ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ (١٥)

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ يا أيها الخائفون في شأن عائشة بأن قبل توبتكم وانابتكم اليه في الدنيا وعفاعدكم في الآخرة من أجل إيمانكم ، ولولا فضل الله عليكم بهذه التوبة وقبولها ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ من قضية الإفك ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة ، كسطح وحسان وحمئة . فأما من خاض من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول واضرابه فليس أولئك المقصودين من هذه الآية ، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا الفضل من الله تعالى على التائبين .

ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّينَ ﴾ أي يرويه بعضكم عن بعض وفي صحيح البخاري عن عائشة أنها كانت تقرأها ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّينَ ﴾ وتقول : هو من ولق اللسان . يعني الكذب الذي يستمر صاحبه عليه ، تقول العرب : ولق فلان في السير إذا استمر فيه والقراءة الأولى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ ... ﴾ أشهر وعليها الجمهور ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة قال ابن أبي حاتم عن ابن عمر عن عائشة أنها كانت تقرأ : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ ﴾ قال ابن أبي مليكة : هي أعلم به من غيرها .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي تقولون ما لا تعلمون .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أي تحسبون ذلك يسيراً سهلاً ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هيناً ، فكيف وهي زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ؟ فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل ، فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا ، وهو سبحانه وتعالى لا يقدر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك حاشا وكلا ، ولما لم يكن ذلك فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء! ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ وفي الصحيحين : ٢٩٩ [إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ

بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ ، يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض [وفي رواية : [لا يلقي لها بالاً] .

﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٦) يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ (١٧) وَيَسِّئُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٨)

هذا تأديب آخر بعد الأول الأمر بظن الخير ، إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن المؤمنين فالأولى ينبغي الظن بهم خيراً ، وإن علق بنفسه شيء ، فلا ينبغي أن يتكلم به لقوله ﷺ : ٣٠٠ [ان الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل] أخرجه في الصحيحين . وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله .

ثم قال تعالى : ﴿ يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ أي يتوعدكم الله أن يقع منكم مثل هذا في المستقبل ، ولهذا قال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي ان كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسوله ﷺ ، فأما من كان متصفاً بالكفر فله حكم آخر ؛ ثم قال تعالى : ﴿ وَيَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ﴾ أي يوضح لكم الأحكام الشرعية ، والحكم القدرية ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بما يصلح عباده ، حكيم في شرعه وقدره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٩)

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ ، فلا يشيعه ولا يذيعه فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبیح ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي بالحد ، وفي الآخرة بالعذاب ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي فردوا الأمور إليه ترشدوا . روى الإمام أحمد عن

ثوبان عن النبي ﷺ قال : ٣٠١ [لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ، ولا تطلبوا عوراتهم فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته] .



﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢١)

يقول تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رؤوف رحيم ﴾ لولا ان قبل الله توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا لكان أمراً آخر ، ولكنه تعالى رؤوف بعباده فتاب على من تاب إليه ، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليهم ، ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أي مسالكه وما يأمر به ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ هذا تنفير وتحذير بأفصح عبارة وأبلغها ﴿ خطوات الشيطان ﴾ كل معصية فهي من خطوات الشيطان .

ثم قال تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكّي منكم من أحد أبداً ﴾ أي لولا أن رزقكم التوبة وزكّي نفوسكم من شركها لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً ﴿ ولكن الله يزكّي من يشاء ﴾ من خلقه ، ويضلّ من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغيّ . وقوله تعالى : ﴿ والله سميع ﴾ أي لأقوال عباده ﴿ عليم ﴾ بمن يستحق منهم الهدى أو الضلال .

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيُغْفِرُوا وَلِيُصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٢)

يقول تعالى : ﴿وَلَا يَأْتِلْ﴾ أي لا يحلف ﴿أولو الفضل منكم﴾ أي أهل الصدقة ﴿والسعة﴾ أي الغنى ﴿أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتهم المساكين والمهاجرين . وهذا في غاية الترفق ، والعطف على الأرحام ، ولهذا قال تعالى ﴿وليعفوا وليصفحوا﴾ أي عما تقدم منهم من الأساءة والأذى ، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم ، وهذه الآيات نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثانة بنافعة أبداً بعدما قال عن عائشة ما قال ، كما تقدم في الحديث ، فلما نزلت براءة عائشة أم المؤمنين وطابت نفوس المؤمنين واستقرت ، وتاب الله على من تكلم من المؤمنين في ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه ، شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة ، يعطف الصديق على قريبه وابن خالته مسطح بن أثانة وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه ، وكان من المهاجرين في سبيل الله وقد زلق وقاب وضرب الحد عليها ومعروف أبو بكر بالمعروف والأبيادي على الأقارب والأجانب وسمع قوله تعالى : ﴿ألا تحبون أن يعفركم الله لكم﴾ الآية فقال الصديق : بلى والله وإنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا، ثم أرجع إلى مسطح صلاته وقال: والله لا أنزعها منه أبداً. ولهذا كان صديقاً رضي الله عنه وعن بنته ، - فهي البريثة المبرأة الطاهرة ، وزوجة اشرف مخلوق في السموات والأرض - عصمها الله وسائر زوجاته عليهن السلام بعصمته من الزنا وكذلك زوجات وأمهات سائر الأنبياء والمرسلين وهذا من تمام عصمتهم عليهم الصلاة والسلام - (١) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ نَبْذِي يُوفِّهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات ، خرج مخرج الغالب المؤمنات ، فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ، ولا سيما التي كانت سبب النزول ، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما ، وقد أجمع العلماء

رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورمأها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية ، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن ، وبقية أمهات المؤمنين لهن حكمها وقوله تعالى ﴿ لعنوا في الدنيا والآخرة ﴾ الآية كقوله تعالى : ﴿ ان الذين يؤذون الله ورسوله ﴾ الآية وقيل أنها نزلت خاصة في عائشة رضي الله عنها والصحيح إنها وان نزلت خاصة بعائشة إنما لها حكم العموم فهي عامة في تحريم قذف كل محصنة غافلة مؤمنة ، وليس في هذه الآية ان الحكم خاص بها رضي الله عنها وانما فيه أنها سبب النزول دون غيرها وان كان الحكم يعمها كغيرها .

ويعضد تعميم الحكم ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ : ٣٠٢ [« اجتنبوا السبع الموبقات » قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال : « الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »] . أخرجاه في الصحيحين من حديث سلمان بن بلال به . روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن حذيفة عن النبي ﷺ قال : ٣٠٣ [قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة] .

وقوله تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : انهم يعني المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا : تعالوا حتى نجحد فيجحدون ، فيختم على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً . وروى ابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : ٣٠٤ [اذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فيجحد ويخاصم ، فيقال له : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول : كذبوا ، فيقال أهلك وعشيرتك ، فيقول كذبوا ، فيقال : إحلفوا ، ثم يصمهم الله فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ، ثم يدخلهم النار] . وفي رواية مسلم والنسائي ٣٠٥ [... فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقي ، فتنتطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكُنَّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل] .

وقوله تعالى : ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾ قال ابن عباس : ﴿ دينهم ﴾ أي حسابهم ^(١) .

(١) ومن ذلك « يوم الدين » أي يوم الحساب .

٢٧٢ (٢٤-التوز-ج ١٨) : لو كانت عائشة خبيثة لما صلحت لرسول الله شرعاً ولا قدراً

وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ أي وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه .

﴿ الْحَبِيثَاتُ لِلْحَبِيثِينَ وَالْحَبِيثُونَ لِلْحَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ
لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢٦)

نزلت في عائشة وأهل الإفك قاله ابن عباس وجماعة من التابعين والمعنى بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس ، فما نسبته أهل النفاق إلى عائشة من كلام ، هم أولى به ، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة لأنه أطيب من كل طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعاً ولا قدراً. ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي هم بُعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ أي بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أي عند الله في جنات النعيم ، وفيه وعد أن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى
تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَأَلُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٧)
فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ
لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ ﴾ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ (٢٩)

هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين وذلك في الاستئذان . أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأمنوا ، أي يستأذنوا قبل الدخول ، ويسلموا بعده ،

وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات فإن أذن له ، وإلا انصرف ، كما ثبت في الصحيح ٣٠٦ [ان أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذن له انصرف ، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ؟ إئذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما أرجعك ؟ قال : إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي ، وإني سمعت النبي ﷺ يقول : « اذا استأذن أحدكم فلم يؤذن له فليانصرف » فقال عمر : لتأثني على هذا بيينة وإلا أوجعتك ضرباً . فذهب إلى ملأ الأنصار فذكر لهم ما قال عمر فقالوا لا يشهد لك إلا اصغرنا فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك فقال ألهاني عنه الصفق بالأسواق] .

روى الإمام أحمد عن أنس أو غيره ٣٠٧ [ان النبي ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال : « السلام عليك ورحمة الله » فقال سعد عليك السلام ورحمة الله ، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً ، ورد عليه سعد ثلاثاً ولم يسمعه فرجع النبي ﷺ فأتبعه سعد فقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، ما سلّمت تسليمه إلا وهي بأذني ، ولقد رددت عليك ولم أسمعك وأردت أن استكثر من سلامك ومن البركة ، ثم أدخله البيت فقرب اليه زيباً فأكل نبي الله فلما فرغ قال : « أكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة ، وأفطر عندكم الصائمون » [وروى أبو داود قال : حدثنا عثمان بن أبي شيبة بسنده إلى هذيل قال ٣٠٨ [جاء رجل ، قال عثمان سعد فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن فقام على الباب قال عثمان : مستقبل الباب ، فقال له النبي ﷺ هكذا عنك — أو هكذا — فإنما الاستئذان من النظر » [فعلم من هذا انه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل ان لا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره .

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٣٠٩ [لو أن امرأً اطّلع عليك بغير إذن فخذه ففقهه بحصاة ففقات عينه ، ما كان عليك من جناح] . وأخرج الجماعة عن جابر قال : ٣١٠ [أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي فدققت الباب فقال : « من ذا ؟ » فقلت : أنا . قال : « أنا أنا ... !!! » كأنه كرهه [وانما كره ذلك لأنه لا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس وإلا فكل واحد يعبر عن نفسه بأنا فلا يعرف من الطارق إلا بالإفصاح عن الاسم حتى يحصل الإذن . وروى أبو داود عن ربعي قال : ٣١١ [أتى رجل من بني عامر استأذن على رسول الله ﷺ وهو في بيته ، فقال : أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له :

قل السلام عليكم أَدْخُلْ ؟ » فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم أَدْخُلْ ؟ فأذن له النبي ﷺ ، فدخل [.

ويجب الاستئذان على الأمهات والأخوات ، فقد روى أشعث عن عدي بن ثابت ٣١٢ [أن امرأة من الأنصار قالت يا رسول الله : إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها لا والد ولا ولد ، وانه لا يزال يدخل على رجل من أهلي وأنا على تلك الحال ؛ قال فترلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا ﴾ [الآية .

وقال قتادة: ﴿ حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ وهو الاستئذان ثلاثاً ، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع أما الأولى فليسمع الحي ، وأما الثانية فليأخذوا جذرهم ، وأما الثالثة فإن شاءوا أدنوا وإن شاءوا ردوا . ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم ، فان للناس حاجات ولهم أشغال ، والله أولى بالعذر .

وقوله تعالى : ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ يعني الاستئذان خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ﴾ وذلك لما فيه من التصرف بملك الغير بغير إذنه ، فإن شاء أذن ، وإن شاء لم يأذن ، ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ أي إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ﴿ فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ أي أظهر ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ وقال قتادة ، قال بعض المهاجرين : لقد طلبت عمري كله هذه الآية ، فما أدركتها ان استأذن على بعض اخواني فيقول لي ارجع وأنا مغتبط

وقوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة ﴾ الآية ... هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها بغير إذن ، كاليات المعد للضيف إذا اذن له فيه أول مرة كفى . وقال آخرون : هي بيوت التجار كالحانات ومنازل الأسفار ، وبيوت مكة وغير ذلك ، اختاره بن جرير وحكاه عن جماعته ولكن الأول أظهر . والله أعلم وقيل هي بيوت الشعر .

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣٠) ﴿

هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين بغض البصر عما حرم الله ، فلا ينظر إلا إذا وقع البصر فجأة فإن حصل هذا فليصرف بصره عنه سريعاً . كما رواه مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد البجلي رضي الله عنه قال : ٣١٣ [سألت النبي ﷺ عن نظر الفجأة ، فأمرني أن اصرف بصري] وكذا رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي حسن صحيح . روى أبو داود عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ لعلي : ٣١٤ [يا علي لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى ، وليس لك الآخرة] وفي الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ ٣١٥ [« إياكم والجلوس على الطرقات » قالوا : يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله ﷺ « إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه » قالوا وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال « غَضُّ البصر ، وكفُّ الأذى ، وردُّ السلام والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر » .

قال بعض السلف : النظر سهم سم إلى القلب . ولذلك أمر الله بحفظ الفروج ، كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك . فقال تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا كما قال تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ الآية ... وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن « ٣١٦ [إحفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك] ﴾ ذلك أزكى لهم ﴿ أي أطهر لقلوبهم وأتقى لدينهم ، كما قيل : من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته ﴾ إن الله خبير بما يصنعون ﴿

وفي الصحيح عن أبي هريرة : ٣١٧ [كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فرنا العينين النظر ، وزنا اللسان النطق ، وزنا الأذنين الاستماع ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين الخطى ، والنفس تمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه] .

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي

أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي
الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطُّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ
وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ
جَمِيعاً آيَةُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿٣١﴾

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات ، وغيرة منه لأزواجهن . وتمييز لهن عن صفة
نساء الجاهلية وفعال المشركات وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان
قال : بلغنا - والله أعلم - أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت مرثد
كانت في محل لها في بني حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزوات فيبدو ما في
أرجلهن من الخلخال وتبدو صدورهن وذواتهن فقالت أسماء ، ما أقبح هذا ، فأنزل
الله تعالى : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ﴾ الآية ... أي عما حرم الله
عليهن من النظر إلى غير أزواجهن ؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة
النظر إلى الرجال الأجانب إطلاقاً واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذي ٣١٨
[عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة ، قالت فبينما نحن عنده أقبل
ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعدما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله ﷺ « احتجبا
منه » فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله ﷺ
« أو عميوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه »] وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح .

وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة كما ثبت في
الصحيح : ٣١٩ [إن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم
العيد في المسجد وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملّت
ورجعت] وقوله تعالى : ﴿ ويحفظن فروجهن ﴾ عن الفواحش كالزنا وما يؤول إليه
من نظر أو غيره وقوله تعالى : ﴿ ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾ قيل : أي لا
يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب ، إلا ما لا يمكن اخفاؤه كالرداء الذي يحلل الثياب
وما يبدو من أسافل الثياب . وعن ابن عباس ﴿ ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾
قال : وجهها وكفيها والخاتم وروي نحوه عن ابن عمر وعطاء وغيره من التابعين ،
وقال مالك ﴿ إلا ما ظهر منها ﴾ الخاتم والخلخال . ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه

أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين وهذا هو المشهور عند الجمهور ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن خالد بن دريك عن عائشة رضي الله عنها : أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : ٣٢٠ [« يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي هو مرسل : خالد بن دريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها وقوله تعالى : ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ أي على نحو رهن وصدورهن ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية اللائي كن مسفحات بصدورهن وأعناقهن وذوائب شعورهن فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن ، كما قال تعالى ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذين ﴾

والخمرُ جمع خمار. وهو ما يغطى به الرأس وما يسميها الناس بالمقانع وقال البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن ﴾ أي أزواجهن ﴿ أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن ﴾ كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزيتها ولكن من غير تبرج . وقد روى ابن المنذر عن عكرمة في هذه الآية وقال بعد أن فرغ من قراءتها : لم يذكر العم ولا الخال لأنهما ينعتان لأبناهما ولا تقض خمارها عند العم والخال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله فتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره .

وقوله تعالى : ﴿ أو نسائهن ﴾ يعني تظهر بزيتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لثلاث تصفهن لرجالهن ، وذلك وان كان محظوراً في جميع النساء إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد فلأنهن لا يمنعهن من ذلك مانع فأما المسلمة فإنها تعلم ان ذلك حرام فتتبرج عنه ، وقد قال رسول الله ﷺ : ٣٢١ [لا تبأشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها] أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود . وروى سعيد بن منصور في سننه عن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة :

أما بعد فإنه بلغني أن نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك فإنه من قبلك فلا يحل لأمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها

وقال مجاهد في قوله : ﴿أو نسائن﴾ قال : نساؤهن المسلمات ، ليس المشركات من نسائن ، وليس للمرأة المسلمة ان تنكشف بين يدي مشركة . وأما ما رواه ابن أبي حاتم عن عطاء قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ بيت المقدس كان قوابل نسائن اليهوديات والنصرانيات ، فهذا محمول على حال الضرورة .

وقوله تعالى : ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾ قال ابن جرير يعني من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها ، وان كانت مشركة لأنها أمتها . وقال الأكثرون : بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء ، واستدلوا بالحديث الذي رواه ابودود عن أنس : ٣٢٢ [ان النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد وقد وهبه لها ، قال : وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلها ، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى ، قال : «إنه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلأمك»] (١) .

وقوله تعالى : ﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ولا همة لهم إلى النساء ، ولا يشتهونهن ، قال ابن عباس : هو المغفل الذي لا شهوة له وروى الإمام أحمد عن أم سلمة أنها قالت : ٣٢٣ [دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث ، وعندها عبد الله بن أبي أمية يعني أخاها ، والمخنث يقول : يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غداً فعليك بابنة غيلان فانها تقبل بأربع وتدبر بثمان ، قال : فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة « لا يَدْخُلَنَّ هذا عليك »] أخرجاه في الصحيحين وقوله تعالى : ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك ؛ فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما إن كان مرافقاً بحيث يعرف ذلك ويدريه ويفرق بين الشوهاة والحسنة ، فلا يمكن من الدخول على النساء . وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ انه قال : ٣٢٤ [إياكم والدخول على النساء] قيل : يا رسول الله أفرأيت الحمى ؟ قال : « الحمى الموت » [

وقوله تعالى : ﴿ولا يضرين بأرجلهن﴾ الآية ؛ كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوتها ، ضربت برجلها الأرض

(١) إنما كان صغير السن فربته ثم اعتقه حينما كبر . كما أورده الحافظ ابن عساكر .

فيسمع الرجال طنينه ، فهي الله المؤمنات عن مثل ذلك ، وكذلك اذا كان شيء من زيتها مستوراً فتحرّكت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي . من ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها . فقد روى الترمذي عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال ٣٢٥ [كل عين زانية والمرأة اذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا] يعني زانية

وقوله تعالى : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ أي افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات والأخلاق الجليلة واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الصفات والأخلاق الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى الله ورسوله عنه والله تعالى المستعان .

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَلَا مَانِكُمْ ۖ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ (٣٢) وَلَيْسَتَغْنِفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَايِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝ (٣٤) ﴾

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة والأوامر المبرمة ؛ فقوله تعالى : ﴿ وانكحوا الأيامى منكم ﴾ إلى آخره ، هذا أمر بالتزويج ،

فقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه ، واحتجوا بظاهر قوله ﷺ ٣٢٦ [يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء] أخرجاه في الصحيحين . وقد جاء في السنن من غير وجه . ان رسول الله قال ﷺ : ٣٢٧ [تزوجوا الولود تnasلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة] وفي رواية : [حتى السقط] .

الأيامي جمع أيم ، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها وللرجل الذي لا زوجة له ، سواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج واحد منهما ، حكاه الجوهري عن أهل اللغة يقال رجل أيم وامرأة أيم .

وقوله تعالى : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ الآية قال ابن عباس : رغبهم الله في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى ، وعن الليث من أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ ٣٢٨ [ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف والكاتب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله] .

وقوله تعالى : ﴿ وليستغف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام كما قال ﷺ في الحديث المتقدم « يا معشر الشباب ... » .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ﴾ هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه ، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا أمر ارشاد واستحباب ، لا أمر تحتم وإيجاب ، بل السيد مخير أن شاء كاتب عبده أو لم يشأ لم يكاتبه وقال البخاري : وقال روح عن ابن جريج قلت لعطاء : أوجب عليّ إذا علمت له مالاً أن أكاتبه قال : ما أراه إلاً واجباً . وقال عمر بن دينار : قلت لعطاء أتأثره عن أحد ؟ قال : لا ثم أخبرني ان موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنساً المكاتب ، وكان كثير المال فأبى ، فانطلق إلى عمر رضي الله عنه ، فقال : كاتبه فأبى فضربه بالدرة ، وبتلو عمر رضي الله عنه ﴿ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ﴾ فكاتبه هكذا ذكره البخاري معلقاً . وروى عن الضحاك أنها عزمة وذهب الشافعي في الجديد إلى أنه لا يجب وعند مالك ليس بواجب واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ فقد روى أبو داود في المراسيل عن يحيى بن أبي كثير قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ فكاتبوهم إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ قال إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ حُرْفَةً ، ولا ترسلوهم كلاًّ على الناس » وقوله تعالى : ﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ أي اطرحوا لهم من الكتابة بعضها وقال آخرون بل المراد هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكاة ، واختاره ابن جرير وقال ابن عباس : أمر الله المؤمنين أَنْ يَعِينُوا فِي الرِّقَابِ - يعني ان يعينوهم في تحرير أنفسهم بأن يضعوا عنهم من مكاتبتهم وقال ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال ربح الكتابة وروي مرفوعاً والأشبه أنه موقوف على علي رضي الله عنه كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلمي .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ ﴾ الآية ... ، كان أهل الجاهلية اذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت فلما جاء الاسلام نهى الله عنها المؤمنين ، وكان سبب نزولها فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول ، فإنه كان له إماء ، فكان يكرههن على البغاء طلباً ، لخراجهن ، ورغبة في أولادهن ورياسة منه فيما يزعم . وقد تضافرت الآثار على ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، وقوله تعالى : ﴿ لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي من خراجهن ومهورهن وأولادهن ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام ، ومهر البغي ، وحلوان الكاهن ، وفي رواية ٣٢٩ [مهر البغي خبيث ، وكسب الحجام خبيث ، وثمن الكلب خبيث] وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْرَهُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم وأثمهن على من أكرههن ، كذا قال ابن عباس وجماعة من التابعين وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ انه قال ٣٣٠ [رفع عن أمي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه] .

ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ يعني القرآن فيه آيات واضحة مفسرات ﴿ ومثلاً ﴾ من الذين خلوا من قبلكم ﴿ أي خبراً ﴾ عن الأمم الماضية ، وما حلّ بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخَرِينَ ﴾ أي زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ أي لمن اتقى الله وخافه . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفته القرآن : فيه حكم ما بينكم وخبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .



﴿الله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿الله نور السموات والأرض﴾ يقول : هادي أهل السموات والأرض . روى ابن جرير عن أنس بن مالك قال : ان الله يقول : (نوري هدى) اختار هذا القول ابن جرير ﴿مثل نوره﴾ أي مثل هدايته هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره وكان أي بن كعب يقرأها ﴿مثل نور من آمن به﴾ فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره ، وهكذا رواه سعيد بن جبير وقيس بن سعد عن ابن عباس انه قرأها كذلك ﴿مثل نور من آمن بالله﴾ وقرأ بعضهم : ﴿الله منور السموات والأرض﴾ وعن الضحاك : ﴿الله نور السموات والأرض﴾ . وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال : ٣٣١] كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد ، انت نور السموات والأرض ومن فيهن ^(١) ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن » [.

وقوله تعالى : ﴿مثل نوره﴾ في هذا الضمير قولان : (أحدهما) أنه عائد إلى الله عز وجل أي مِثْلُ هُدايته في قلب المؤمن ، قاله ابن عباس (والثاني) ان الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه السياق ، تقديره مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة ، فشبّه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه كما قال تعالى : ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ فشبّه قلب المؤمن

(١) قلت : وهذا دليل على أن المراد من قوله تعالى : الله نور السموات والأرض « أي هادي أهلها إذ ليس هذا النور هو نور ذاته الذي هو صفته إنما هو النور الذي يقذفه في قلب المؤمن من الهداية . وإن القراءات المتقدمة تشهد لهذا أيضاً وهي : « الله منور السموات والأرض » و « الله نور السموات والأرض » لا سيما وقوله تعالى في آخر هذه الآية : « يهدي لنوره من يشاء » فاتضح مما تقدم صحة قول من فسر نور الله بهدايته والله الموفق للصواب .

في صفاته في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري ، وما يستهديه من القرآن ، والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف ، فقوله تعالى ﴿ كشكاة ﴾ قال ابن عباس وجماعة من التابعين : هو موضع الفتيلة من القنديل هذا هو المشهور ولهذا قال تعالى بعده : ﴿ فيها مصباح ﴾ وهو النور الذي في الزبالة . قال أبي بن كعب : المصباح النور وهو القرآن والإيمان الذي في صدره ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ أي زجاجة صافية مشرقة وهو نظير قلب المؤمن ﴿ الزجاجة كأنها كوكب دري ﴾ أي كأنها كوكب من در مضيء مبين ضخمة ﴿ يوقد من شجرة مباركة ﴾ أي يستمد من شجرة زيتون مباركة ﴿ زيتونة ﴾ بدل ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ أي ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ، ولا في غربيها فيقلص عنها الفيء قبل الغروب بل هي في مكان وسط تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره فيجيء زيتها صافيا معتدلاً مشرقاً وذلك أصفى ما يكون من الزيت . وقال نحو ذلك ابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير والسدي وقيل المراد أنها وسط الشجر ليست بادية للمشرق ولا للمغرب ، وقيل وقيل ... ولكن أولى هذه الأقوال القول الأول ، وهو أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشمس تفرعه من أول النهار إلى آخره ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف كما قال غير واحد مما تقدم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ يعني لضوء إشراق الزيت .

وقوله تعالى : ﴿ نور على نور ﴾ قال ابن عباس يعني بذلك : إيمان العبد وعمله . وكذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعا ، فلا يكون واحد منهما الا بصاحبه .

وقوله تعالى : ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ أي يرشد الله إلى هدايته من يختاره كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٣٣٢ [ان الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم القى عليهم من نوره يومئذ ، فمن أصاب من نوره يومئذ اهتدى ومن أخطأ ضل فلذلك أقول : جف القلم على علم الله عز وجل] .

وقوله تعالى : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداة في قلب المؤمن ختم الآية بقوله تعالى : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال .

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٣٣

﴿القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد : فقلب المؤمن سراج فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب ، ومثل المنافق فيه كمثل القرحة يمدّها الدم والقيح، فأَي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه] اسناده جيد ولم يخرجوه .

﴿ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿ (٣٧) لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٨)

لما ضرب الله تعالى مثل القلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم ، بالمصباح في الزجاج الصافية المتوقد من زيت طيب وذلك كالفناديل مثلاً ، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحّد فقال تعالى : ﴿ في بيوت أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ أي أمر الله بتعاهدها وتطهيرها من الدنس وكل ما لا يليق فيها كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : قال نهى الله سبحانه عن اللغو فيها وكذا قال جماعة من العلماء المفسرين .

• وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٣٣٤ من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة [.

• وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ٣٣٥ [أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في النور وان تنظف وتطيب •] ^(١) وروى البخاري عن عمر بن الخطاب : ابن للناس ما

(٥) رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي ، وأحمد وأبي داود نحوه عن سمرة بن جندب .

(١) قلت : من حيث بناء المساجد في الدور فهذا خاص بالنساء لأن المرأة صلاتها في بيتها خير من صلاتها في المساجد أما من حيث تنظيفها وتطيبها فهذا معلوم انه عام في المساجد جميعها

يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس^(١) وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٣٣٦ [لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد] رواه أحمد وأهل السنن والترمذي وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٣٣٧ [إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد ، فقولوا لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا : لا ردها الله عليك] .

* وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٣٣٨ [صلاة الرجل في الجماعة ، تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً] وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخطُ خطوة إلا رُفِعَ له بها درجة وحطَّ عنه بها خطيئة فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه : اللهم صلِّ عليه ، اللهم ارحمه . ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة] .

* وفي السنن ٣٣٩ [بشر المشائين إلى المساجد في الظلِّم بالنور التام يوم القيامة] .

* وروى مسلم بسنده عن أبي حميد أو أبي أسيد قال : قال رسول الله ﷺ ٣٤٠ [إذا دخل أحدكم المسجد فليقل ، اللهم افتح أبواب رحمتك . وإذا خرج فليقل : اللهم اني أسألك من فضلك] .

وقوله تعالى : ﴿ ويذكر فيها اسمه ﴾ أي يتلى كتابه قاله ابن عباس وقوله تعالى : ﴿ يسبح له فيها بالغدو ﴾ أي في البكرات والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار وعن ابن عباس كل تسبيح في القرآن هو الصلاة . ومن قرأ بفتح الباء وقف على قوله تعالى : ﴿ والآصال ﴾ وقفاً تاماً ، وابتدأ بقوله تعالى : ﴿ رجال ... ﴾ وكأنه مفسر للفاعل المحذوف ، وكأنه قيل من يسبح له فيها ؟ قال رجال . وأما على قراءة من قرأ بالكسر فجعله فعلاً ، وفاعله ﴿ رجال ﴾ فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل لأنه تمام الكلام .

فقوله تعالى : ﴿ رجال ﴾ فيه إشعار بهمهم السامية ، ونياتهم وعزائمهم العالية ، التي بها صاروا عماراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتزيهه كما قال تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ الآية أما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لمن لما رواه الإمام أحمد عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت النبي ﷺ فقالت : ٣٤١ [يا رسول الله إني أحب الصلاة معك . قال : « قد علمت أنك تحبين الصلاة معي ، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك

(١) قات هذه قاعدة جلية في بناء المساجد وعدم زخرفتها وبأليتنا نتمظ ... ولكننا نتسابق في الزخرفة ، تقليداً للكنائس فلا حول ولا قوة إلا بالله .

في حجرتك ، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك ، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي » قال : فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت من بيوتها فكانت والله تصلي فيه حتى لقيت الله تعالى .

ويجوز لها شهود الجماعة في المساجد بشرط أن لا تؤذي أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر انه قال قال رسول الله ﷺ : ٣٤٢ [لا تمنعوا إماء الله ، مساجد الله] ولأحمد وأبي داود ٣٤٣ [وبيوتهم خير لهم] وفي رواية [وليخرجن وهن ثقلات] أي لا ريح لهن. وفي الصحيحين عن عائشة أنها قالت : ٣٤٤ [لو أدرك رسول الله ﷺ ، ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد كما منعت نساء بني اسرائيل .]

وقوله تعالى : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ الآية فمعنى قوله تعالى : ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ أي يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم . قال هشيم عن شيبان قال حدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق حيث نودي للصلاة المكتوبة تركوا بيعاتهم ونهضوا إلى الصلاة فقال عبد الله بن مسعود : هؤلاء من الذين ذكر الله تعالى في كتابه ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ الآية وقال ابن عباس أي عن الصلاة المكتوبة وقال مقاتل بن حيان ... وأن يحافظوا على مواقيتها .

وقوله تعالى : ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ أي يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار ، أي من شدة الفزع وعظمة الأهوال ، كقوله تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً . وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ﴾ وقوله تعالى ههنا ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ﴾ أي هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم وقوله تعالى : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي يتقبل منهم الحسن ويضاعف لهم كما قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ وقال ها ههنا : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَفْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

هذان مثالان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين : نارياً ومائياً ^(١) وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين : نارياً ومائياً وقد تكلمنا على كل منهما في موضعه ، بما أغنى عن إعادته والله الحمد والمنة فاما الأول من هذين المثالين فهو للكفار الدعاة الى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء وهم ليسوا كذلك ، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض ، من بُعد كأنه بحر طام ، والقيعة : جمع قاع ، كجار وجيرة ، والقاع أيضاً واحد القيعان ، كما يقال جار وجيران . وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب ، وانما يكون ذلك بعد نصف النهار ، وأما الآل ، فإنما يكون أول النهار يرى كأنه ماء بين السماء والأرض ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء ، يحسبه ماءً ، قصده ليشرب منه ، فلما انتهى إليه ﴿لم يجده شيئاً﴾ فكذلك الكافر يحسب انه قد عمل عملاً وانه قد حصل شيئاً ، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله ، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قبل ، إما لعدم الإخلاص ، أو لعدم سلوك الشرع كما قال تعالى : ﴿وقدمنّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ وقال ههنا : ﴿ووجد الله عنده فوقاه حساباً والله سريع الحساب﴾ وهكذا روي عن أبي بن كعب وابن عباس وغيرهما . وفي الصحيحين أنه يقال يوم القيامة لليهود : [ما كنتم تعبدون؟ فيقولون : كنا نعبد عزيز ابن الله فيقال : كذبتُم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون ؟

(١) عند قوله تعالى الآية رقم / ١٣ - ٢٠ / من سورة البقرة . (٢) في الآية رقم / ١٧ / من سورة الرعد .

فيقولون : يا رب عطشنا فاسقنا ، فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سرب يحطم بعضها بعضاً ، فينطلقون ، فيتهاوتون فيها ، وهذا المثال لذوي الجهل المركب ، فأما أصحاب الجهل البسيط وهم الطماطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى : ﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾ أي عميق ﴿ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام ، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده ، ولا يدري أين يذهب ، بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب ؟ قال معهم قيل : إلى أين يذهبون قال : لا أدري .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ يغشاه موج ﴾ الآية ... يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر ، وهي كقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل ، حائل ، باثر ، كافر ، كقوله تعالى : ﴿ من يضل الله فلا هادي له ﴾ وهذا في مقابلة ما قال تعالى في مثل المؤمنين : ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً ، وعن أيماننا نوراً ، وعن شمائلنا نوراً ، وأن يعظم لنا نوراً .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٤١)
وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿ (٤٢) ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له من في السموات والأرض أي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد ، كما قال تعالى : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ والطير صافات ﴾ أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشداه إليه ، وهو يعلم ما هي فاعلة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ أي كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل . ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والله عليم بما يفعلون ﴾

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلاَّ له ولا معقب لحكمه ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي يوم القيامة ، فيحكم فيه بما يشاء ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ﴾ الآية ، فهو الخالق المالك ، ألا له الحكم في الدنيا ، وله الحمد في الأولى والآخرة .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنًا بَرَقَهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ (٤٣) ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (٤٤) ﴿

يخبر تعالى انه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة . وهو الازجاء ﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أي يجمعه ﴿ ثم يجعله ركاماً ﴾ أي متراكماً ﴿ فتري الودق ﴾ أي المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾ أي من خلله . وقوله تعالى : ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ أي جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب . وقوله تعالى : ﴿ فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ﴾ أي بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد ، فيكون قوله تعالى : ﴿ فيصيب به من يشاء ﴾ رحمة لهم ﴿ ويصرفه عن من يشاء ﴾ أي يؤخر عنهم الغيث ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ فيصيب به ﴾ أي بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم ، ويصرفه عن من يشاء رحمة بهم . وقوله تعالى : ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ أي من شدته يخطف الأبصار وقوله تعالى : ﴿ يقلب الله الليل والنهار ﴾ أي يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيراً ويقصر الذي كان طويلاً . والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه ﴿ ان في ذلك لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أي لدليلاً على عظمته تعالى : ﴿ ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار ﴾ وما بعدها من الآيات الكريمات .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

يذكر تعالى قدرته التامة ، وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها ، وحركاتها وسكناتها من ماء واحد ، فمنهم من يمشي على بطنه كالحية وما شاكلها ، ﴿ ومنهم من يمشي على رجلين ﴾ كالإنسان والطيور ﴿ ومنهم من يمشي على أربع ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي بقدرته لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿٤٦﴾

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والحكم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً وأنه يرشد إلى تفهمها وتعليلها أولي الأبواب والبصائر والنهي ، ولهذا قال تعالى ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ • (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ • (٥٢)

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، يقولون قولاً بألسنتهم ، : ﴿ آمنا بالله وبالرسل وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ﴾ أي يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون ما لا يفعلون ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ﴾ الآية ، أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ — إلى قوله — رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ . وعن سمرة مرفوعاً : ٣٤٦ [من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له] وقوله تعالى : ﴿ وان يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾ أي وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ مذعنين ﴾ وإذا كانت الحكومة عليهم أعرضوا ودعوا إلى غير الحق ، وأحبوا أن يتحاكموا إلى غير النبي ﷺ ، ليروجوا باطلهم ، ثم إذعانهم أولاً لم يكن عن اعتقاد منهم أن ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواهم ولهذا لما خالف قصدهم عدلوا عنه إلى غيره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أفى قلوبهم مرض ﴾ الآية ... يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها ، أو قد عرض لها شك في الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم ، وأياً كان فهو كفر محض ، والله عليم بكل منهم وما هو منطوق عليه من هذه الصفات .

وقوله تعالى : ﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾ أي هم الظالمون والله ورسوله مبرّان مما يظنون . ثم أخبر تعالى عن صفات المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقال تعالى : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ أي سمعاً وطاعةً ولهذا وصفهم الله بالفلاح . فقال تعالى : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ وقال قتادة : ذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا في جماعة ^(١) ، والنصيحة لله

(١) قلت : قوله : ولا خير إلا في جماعة هذا محدود في الجماعة التي تكون مجمعة على الحق وهو موافقة الكتاب والسنة في الظاهر والباطن وليس مجرد الجماعة فقط هو دليل الخير وإلا فإن فرداً واحداً متمسكاً بحكم الكتاب والسنة هو جماعة ومصاداته قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة ... » ولو خالفه الناس جميعهم .

ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامة . وقوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ قال قتادة : يطع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهاه عنه ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه ويتقاه فيما يستقبل . وقوله تعالى : ﴿ فأولئك هم الفائزون ﴾ يعني الذين فازوا بكل خير وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة .



﴿ وَأَقِمْوْا لِلّٰهِ جِهَدًا أَيْمَانَهُمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٥٤)

يخبر تعالى عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ لئن أمرتهم بالغزو ليخرجن فقال الله تعالى ﴿ قل لا تقسموا ﴾ أي لا تحلفوا . وقوله تعالى : ﴿ طاعة معروفة ﴾ أي طاعتكم معروفة أنها لا فعل معها بل قول مجرد ، وحلفكم كاذب ، كما قال تعالى : ﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾

وقال تعالى : ﴿ اتخذوا إيمانهم جنة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن الله خير بما تعملون ﴾ أي خير بكم وبمن يطع ممن يعصى فلا فائدة من إظهار الطاعة والباطن بخلافه فإن الله لا يروج عليه شيء من التدليس فهو الخير بسرائر عبادته وإن أظهروا خلافها . ثم قال الله تعالى : ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ أي اتبعوا الكتاب والسنة .

وقوله تعالى . ﴿ فإن تولوا ﴾ أي تركوا ما جاءهم به ﴿ فإنما عليه ما حمل ﴾ أي إبلاغ الرسالة ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ أي بقبولها وتنفيذها ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم وقوله تعالى : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾ .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ
الَّذِي أَرَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا
يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته الولاة على الناس فتصلح بهم البلاد ، وتخضع لهم العباد وليبدلنهم بعد خوفهم أمناً وحكماً وقد فعله وتبارك وتعالى وله الحمد والمنة ففتح رسول الله ﷺ مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها ، وأخذ الجزيرة من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام وهاداه هرقل والمقوقس وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد النجاشي المسلم أصحمة رحمه الله وأكرمه .

ثم تولى أبو بكر الصديق فلمَّ شعث ما وهى بعد موته عليه الصلاة والسلام فمهّد الجزيرة العربية ، وفتح طرفاً من فارس بقيادة خالد بن الوليد وفتح بصري ودمشق وحوارن بقيادة أبي عبيدة ، وبلاد مصر بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين ، وأهم الله الصديق ان يستخلف عمر الفاروق الذي قام بعده بالأمر قيماً تاماً فتم في أيامه فتح الشام ومصر وأكثر اقليم فارس وتقهقر كسرى إلى أقصى مملكته ، وفر قيصر إلى القسطنطينية وأنفق أموالهما في سبيل الله .

ثم امتدت دولة عثمان إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت المغرب إلى البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق مدائن العراق وخراسان والأهواز ، وقتل المسلمون الترك مقتلة عظيمة جداً ، وخذل الله ملكهم (خاقان) ولهذا ثبت في الصحيح ان رسول الله ﷺ : قال ٣٤٧ [ان الله زوي لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمي ما زوي لي منها] . فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ﷺ ، وصدق الله ورسوله ﷺ فنسأل الله الإيمان به وبرسوله ﷺ والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا (١) .

(١) قلت : نعم ... هذا لما كان المسلمون متمسكين بالكتاب والسنة ففتح الله تعالى عليهم البلاد وأدان لهم العباد . ولكن يا للأسف فنحن المسلمين اليوم رغم ترامي أطراف بلادنا في الشرق والغرب ورغم عددنا وعديدنا محكومون في جميع بلادنا من قبل الكفار بشكل مباشر أو غير مباشر حتى اليهود المغضوب عليهم ، -

قال البراء بن عازب : نزلت هذه الآية : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ... ﴾ ونحن في خوفٍ شديد . أي كانوا خائفين يمسون ويصبحون في السلاح .

وان رجلاً من الصحابة قال : ٣٤٨] يا رسول الله : أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح فقال رسول الله ﷺ لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتباً ليست فيه حديدة] . فأنزل الله هذه الآية الكريمة : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ... ﴾ كقوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ كما قال أحمد عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٤٩] بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة ، والدين والنصر والتمكين في الأرض . فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب] .

وقوله تعالى : ﴿ يعبدوني لا يشركون بي شيئاً ﴾ يفسره ما جاء في الصحيحين من حديث قتادة عن أنس أن معاذ بن جبل حدثه قال : ٣٥٠ ﴿ بينا أنا رديف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلاّ آخرة الرحل قال : « يا معاذ » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ثم سار ساعة ، ثم قال « يا معاذ بن جبل » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك قال « هل تدري ما حق الله على العباد ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » قال : ثم سار ساعة ، ثم قال « يا معاذ بن جبل » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك قال « فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » قال : قلت الله ورسوله أعلم قال « فإن حق العباد على الله أن لا يعذبهم » أخرجاه .

وقوله تعالى : ﴿ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً فالصحابة رضي الله

= اغتصبوا بيت المقدس وأسسوا دولتهم بفلسطين واستولوا على أطراف مصر والأردن وسوريا ... كل ذلك لأننا مسلمون إسماء فقط ... ؟!!! نحكم بغير ما أنزل الله ، ولا نتبع كتاباً ولا سنة ونمعى الله جهرة ، وننقض عهد الله وميثاقه ... فإذا قنا الله لباس الجوع والخوف والذل ذلك بما كسبت أيدينا ويعفو عن كثير ... فإذا أردنا عودة الماضي العظيم فلنعد إلى شرع الله الكريم ودينه القيم ، وصراطه المستقيم .

عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم له ، كان نصرهم بحسبهم ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم ، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال : ٣٥١ [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة - وفي رواية - حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك - وفي رواية - حتى يقاتلوا الدجال - وفي رواية - حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون] وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

يأمر عباده سبحانه بإقامة الصلاة له وحده وإتداء الزكاة لوجهه وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم سالكين طريق ما أمرهم به رسول الله ﷺ ، وترك ما زجرهم عنه ابتغاء مرضاته تعالى ورحمته . وقوله تعالى : ﴿ لا تحسبن ﴾ أي لا تظن يا محمد أن ﴿ الذين كفروا ﴾ أي خالفوك وكذبوك ﴿ معجزين في الأرض ﴾ أي لا يعجزون الله ، بل الله قادر عليهم ومعذبهم أشد العذاب ولهذا قال : ﴿ وماؤاهم ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ النار ولبئس المصير ﴾ أي بئس المال مال الكافرين ، وبئس القرار والمهاد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدُهَا طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ • (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا
كَمَا أَسْتَأْذِنُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ • (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا
فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ
يَسْتَغْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ • (٦٠) ﴿٦٠﴾

هذه الآيات الكريمات اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض ، وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض ، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدامهم مما ملكت أيماهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال . (الأول) من قبل صلاة (١) الغداة لأن الناس إذ ذاك نيام في فرشهم (الثاني) : ﴿ وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ﴾ أي وقت القيلولة ، لأن الانسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله (الثالث) : ﴿ ومن بعد صلاة العشاء ﴾ لأنه وقت النوم ، فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال ، ولهذا قال تعالى ﴿ ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴾ أي إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم ، ولا عليهم إن رأوا شيئاً ، لأنه قد أذن لهم في الهجوم ، ولأنهم طوافون عليكم في الخدمة وغير ذلك ، ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم ولما كانت هذه الآية محكمة ، وكان عمل الناس بها قليلاً ، أنكر عليهم عبد الله بن عباس روى أبو داود عن عبيد الله بن يزيد سمع ابن عباس يقول : لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن ، وإني لأمر جاريتي هذه أن تستأذن علي ، وقال الشعبي : لم تنسخ . والدليل على أنها لم تنسخ قوله تعالى : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ يعني إذا بلغ الأطفال الحلم وجب عليهم الاستئذان في كل حال وإن لم تكن في الأحوال الثلاث وقوله تعالى : ﴿ كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ يعني مثلما كان الأطفال قبل أن يبلغوا الحلم يستأذنون فليستأذن الذين بلغوا الحلم دائماً . وقوله تعالى : ﴿ والقواعد من النساء ﴾

(١) قلت : أي صلاة الصبح (والغداة) ما بين الفجر إلى طلوع الشمس والمراد عدم الدخول قبل صلاة الفجر .

هن اللواتي انقطع حيضهن ويثن من الولد ﴿اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾ أي لم يبق لهن تشوف إلى التزوج ﴿فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة﴾ أي ليس عليها من الحجر في التستر كما على غيرها من النساء أي تضع الجلباب أو الرداء ، ولا يرجن بوضع الجلباب ليرى عليهن من الزينة . وقوله تعالى : ﴿وإن يستعففن خير لهن﴾ أي وإن وضعن لثيابهن وإن كان جائزاً ولكن الخير لهن والأفضل أن لا يفعلن ﴿والله سميع عليم﴾ .

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَأَلُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٦١) ﴿

قيل ان المراد هنا : أنه كان الناس يتحرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك ، . ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه ، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره ، فكروا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم فانزل الله على هذه الآية رخصة في ذلك . كما أن الرجل كان يدخل بيت أبيه ، أو أخيه أو ابنه ، فتتحفه المرأة بشيء من الطعام.. فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم ، فقال الله تعالى : ﴿ليس على الأعمى حرج ...﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ إنما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ ، وليسأوى به ما بعده في الحكم ، وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم ، ولهذا استدل من ذهب أن مال الولد بمنزلة مال أبيه وقد جاء في السنن من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٣٥٢ [أنت ومالك لأبيك]

وقوله تعالى : ﴿أَوْ بِيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بِيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ - إلى قوله- ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُ﴾ هذا ظاهر ، وقد يستدل به من يوجب نفقه الأقارب بعضهم على بعض كما هو المشهور في مذهب أبي حنيفة وأحمد ، وأما قوله تعالى : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُ﴾ هو خادم الرجل من عبد وقهرمان فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف . وعن عائشة رضي الله عنها فيما معناه : كان المسلمون يدفعون مفاتيحهم إلى ضمنتائهم يحلون لهم أكل ما احتاجوا إليه في غيبتهم ولكن الضمنتاء كانوا يتخرجون لأن الإذن لهم ما كان عن طيب نفس فأنزل الله تعالى : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُ﴾ وقوله تعالى : ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك . وقوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ كانوا يأنفون ويتخرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره فرخص الله لهم في ذلك فقال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ فهذه رخصة منه تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة، وإن كان مع الجماعة أبرك .

وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني فليسلم بعضهم على بعض . وعن جابر بن عبد الله قال : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة . قال أبو الزبير : ما رأيته إلا يوجهه .

وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول الله ، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وقال قتادة : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإنه كان يؤمر بذلك . وحدثنا أن الملائكة ترد عليه . وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس قال : ٣٥٣ [أو صاني النبي ﷺ بخمس خصال قال : ﴿يَا أَنَسُ اسْبِغِ الْوُضُوءَ يُزِدْ فِي عَمْرِكَ ، وَسَلِّمْ عَلَى مَنْ لَقِيتَ مِنْ أُمَّتِي تَكْثُرْ حَسَنَاتُكَ وَإِذَا دَخَلْتَ - يَعْنِي بَيْتَكَ - فَسَلِّمْ عَلَى أَهْلِكَ يَكْثُرْ خَيْرُ بَيْتِكَ ، وَصَلِّ صَلَاةَ الضُّحَى فَإِنَّهَا صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ قَبْلَكَ . يَا أَنَسُ : إِرْحَمِ الصَّغِيرَ وَوَقِّرِ الْكَبِيرَ تَكُنْ مِنْ رَفَقَائِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ] . وقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تنبيه منه تعالى لعباده وتبيين لهم الآيات بياناً شافياً ليتدبروها ويتعقلوها ، لعلهم يعقلون .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٦٢)

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ثم أمر الله رسوله ﷺ إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء ولهذا قال سبحانه : ﴿ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآية . وقد روى أبو داود عن أبي هريرة عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [٣٥٤] إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم وإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة [هكذا رواه النسائي والترمذي وقال : حديث حسن .

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦٣)

عن ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد يا أبا القاسم ، فنهاهم عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ قال : فقولوا : يا نبي الله ، يا رسول الله ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ — إِلَى قَوْلِهِ — إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ﴾ الآية فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده ، كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته .

وقوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوذاً ﴾ قال مقاتل بن حيان هم المنافقون كانت تثقل عليهم الخطبة يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحاب النبي ﷺ حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن النبي ﷺ في يوم الجمعة بعدما يأخذ في الخطبة .

وقوله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ أي عن أمر رسول الله ﷺ وهو منهاجه وسنته وشريعته ، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قبل ، ومن خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان . كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ انه قال : ٣٥٥ [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد] أي فليخش من خالف سنة رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً ﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك ، كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٣٥٦ [مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللاتي يقعن في النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبهن ، فيقتحمن فيها - قال - فذلك مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار ، فتغلبوني وتقتحمون فيها] أخرجه من حديث عبد الرزاق .

﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيَنْبِتُهُمْ بَمَا عَمِلُوا ﴾ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ ٦٤ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وعالم الغيب والشهادة ، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم ، فقال : ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ وقد للتحقيق (١) كما قال قبلها : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوذاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ قد نرى تقلب وجهك ... ﴾ فقوله تعالى : ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ أي هو عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة ، كقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم

(١) قلت : كل / قد / تدخل على المضارع وتعلق بذات الله تعالى فهي للتحقيق قطعاً ، بخلاف ما إذا كانت تتعلق بالخلقين فهي للتقليل كما هو معلوم من قواعد اللغة العربية .

ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴿ والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً .

وقوله تعالى : ﴿ ويوم يرجعون إليه ﴾ أي ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ أي يخبرهم بكل ما فعلوه في الدنيا صغيراً كان أو كبيراً كما قال تعالى : ﴿ ... ويقولون ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم ﴾ . آخر اختصار تفسير سورة النور نسأل الله التمام وله الحمد والمنة .

١٣٩٠/٢/٢٤

١٩٧٠/٤/٣٠

ندعو الله تعالى أن يوفقنا إلى اتمام هذا الاختصار على ما يرضيه سبحانه وأن يمنحنا الزلل والله الموفق أولاً وآخراً والحمد لله رب العالمين .

(٢٥) سُورَةُ الْفُرْقَانِ مَكِّيَّةٌ وَأَنبَأْنَا هَاسِبٌ وَسَبْعُونَ

إِلَّا الْآيَاتِ ٦٨ وَ ٦٩ وَ ٧٠ فَمَدَنِيَّةٌ
نَزَلَتْ بَعْدَ يَس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ
تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

نحمد الله تعالى نفسه الكريمة على ما نزل على رسوله الكريم من القرآن العظيم كما قال تعالى : ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ﴾ وقال ههنا : ﴿ تبارك ﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرّة الثابتة الدائمة ﴿ الذي نزل الفرقان ﴾ نزل فعل من التكرار والتكرار لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملةً واحدة ، والقرآن نزل آيات بعد آيات وأحكاماً بعد أحكام وسوراً بعد سور وهذا أبلغ وأشدّ اعتناءً بمن أنزل عليه ، كما قال تعالى في هذه السورة : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ ولهذا سماه ههنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغى والرشاد والحلال والحرام .

وقوله تعالى : ﴿ على عبده ﴾ هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافه إلى عبوديته كقوله تعالى : ﴿ سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾

كما قال ﷺ ٣٥٧ » [إني أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي فذكر منهم :
« كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس عامة »] .

وفوله تعالى : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ﴾ أي هو مالك السموات والأرض المنزه عن الولد والشريك ثم أخبر أنه تعالى : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ أي كل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه وكل شيء تحت قهره وتديبره وتسخيره وتقديره .

﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَوةً وَلَا نَشُوراً ﴾ (٣)

يخبر تعالى عن جهل المشركين باتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء ، وعبدوا معه ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فكيف يملكون لعابديهم ﴿ ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ أي ليس لهم من ذلك شيء بل مرجعه جميعاً إلى الله تعالى الذي هو يحيي ويميت وهو الذي يعيد الخلاق يوم القيامة أولهم وآخرهم ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ فهو الذي لا إله غيره ولا رب سواه ولا تنبغي العبادة إلاّ له لأنه هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ أُفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلماً وَزُوراً ﴾ (٤) ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فِيهِ تُمْلَأُ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴾ (٥) ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (٦)

يخبر تعالى عن سخافة عقول الكفار في قولهم عن القرآن : ﴿ إن هذا إلاّ إفك ﴾ أي كذب ﴿ افتراه ﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿ وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ فقد جاءوا ظلماً

وزوراً ﴿ أي قالوا قولاً هم يعلمون أنهم يكذبون فيه ﴾ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ﴿ أي استنسخها ﴾ فهي تملئ عليه بكرةً وأصيلاً ﴿ أي تقرأ عليه صباحاً ومساءً وهذا قول متهافت سخيف لأن الجميع يعلمون ما كان رسول الله يعلم شيئاً من الكتابة أبداً ويعرفون منه الصدق والأمانة وبعده عن أي خلق رذيل بل وينادونه بالأمين لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بالرسالة والنبوة رموه بهذه الافتراءات، وثاروا فيما يقذفونه به، فيقولون تارة ساحراً، وتارة شاعراً، وطوراً مجنون وكذاب. فأمر تعالى : ﴿ قل أنزل الذي يعلم السر في السموات والأرض ﴾ أي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين حقاً وصدقاً مطابقاً للواقع وقوله تعالى : ﴿ الذي يعلم السر ﴾ أي الله الذي يعلم غيب السموات ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر ، وقوله تعالى : ﴿ إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ دعوة لهم إلى التوبة والإنابة ، وأخبار لهم بأن رحمته واسعة وحلمه عظيم مع من تاب وأناب إليه . كقوله تعالى : ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ قال الحسن البصري : انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة .

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ (٨) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴾ (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ (١٤)

ينخبأ تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم وانما تملأوا بقولهم : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾ يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿ ويمشي في الأسواق ﴾ أي طلباً للتكسب والتجارة ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ أي هلاً أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهداً على صدقه فيما يدعيه كما قال فرعون : ﴿ فلو لا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم ولهذا قالوا : ﴿ أو يلقي إليه كثر ﴾ ينفق منه ﴿ أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ أي تسير معه حيث سار وهذا سهل يسير على الله ولكن له الحكمة والحجة البالغة في ترك ذلك ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ أي يقذفونك بالكذب عليك، من قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر، وكل ذلك باطل مخالف لسيرته عليه الصلاة والسلام ولهذا قال تعالى : ﴿ فضلوا ﴾ عن طريق الهدى ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ وذلك أن كل من خرج عن طريق الحق والهدى ، فهو ضال حيثما توجه . ثم قال تعالى : ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴾ روى سفيان الثوري عن خيشمة : ٣٥٨ [قيل للنبي ﷺ إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبياً من قبلك ، ولا نعطي أحداً من بعدك ولا ينقص ذلك مما لك عند الله فقال : « اجمعوها لي في الآخرة فأُنزل الله عز وجل » ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً ﴾] وقوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ قالوا هكذا عناداً لا استرشاداً لأنهم كافرون بالبعث لذا قال تعالى : ﴿ واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ أي أرصدنا له عذاب الحريق .

وقوله تعالى : ﴿ إذا رأتهم ﴾ أي جهنم ﴿ من مكان بعيد ﴾ يعني في مقام المحشر ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ حنقاً عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور. تكاد تميز من الغيظ ﴾ أي تكاد تمزق من الغيظ على من كفر بالله.

وروى ابن أبي حاتم عن خالد بن دريك بإسناده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : ٣٥٩ [« من يقل عليّ ما لم أقل ، أو ادعى إلى غير والديه أو انتمى لغير مواليه فليتبوأ مقعده من النار - وفي رواية - فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً » قيل يا رسول الله وهل لها من عينين ؟ قال : أما سمعتم الله يقول : ﴿ إذا رأتهم من مكان

بعيد ﴿ الآية ﴾ [وقوله تعالى ﴿ وإذا ألقوا منها مكانا ضيقاً مقرنين ﴾ روى عبد الله بن وهب بن يحيى بن أبي أسيد يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ، ٣٦٠] أنه سئل عن قول الله : ﴿ وإذا ألقوا منها مكانا ضيقاً مقرنين ﴾ قال : « والذي نفسي بيده ، إنهم ليُسْتَكْرَهُونَ في النار كما يُسْتَكْرَهُ الوتد في الحائط » [وقوله تعالى : ﴿ مقرنين ﴾ أي مكتفين ﴿ دعوا هنالك ثبوراً ﴾ أي بالويل والحسرة والخيبة ﴿ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً ﴾ الآية قال ابن عباس أي لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً وادعوا ويلاً كثيراً . وقال الضحاك : الثبور الهلاك والأظهر : ان الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار .

﴿ قُلْ أَذِلَّةٌ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴾ (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْتَوْلاً ﴿ (١٦) ﴾

يقول تعالى : يا محمد قل لهم : هذا الذي وصفه الله من حال الأشقياء في جهنم وما يلقون فيها ، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده التي أعدّها لهم وجعلها لهم جزاءً ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا وجعل ما لهم إليها ، ﴿ لهم فيها ما يشاؤون ﴾ من الملاذ المنوعة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بلا انقطاع ولا انقضاء ، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن به إليهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كان على ربك وعداً مسؤولاً ﴾ أي وعداً واجباً لا بد أن يقع

﴿ وَيَوْمَ يَخْشَرُ هُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿ (١٨) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ (١٩) ﴾

ينخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم ، فقال سبحانه : ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السبيل ﴾ أي ، أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني ، أم هم عبدوكم من غير دعوة منكم لهم ؟ كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلاّ ما أمرني به ﴾ الآية ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجب به المعبودون يوم القيامة ﴿ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ أي ليس للخلائق أن يعبدوا أحداً سواك لا نحن ولاهم فنحن ما دعوناهم إلى ذلك بل فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم هذا على تقدير فتح نون ﴿ نَتَّخِذْ ﴾ أما على ضم النون. وفتح الخاء ﴿ نَتَّخِذْ ﴾ أي ما ينبغي لأحد أن يعبدنا ، فنحن عبيد لك فقراء إليك وهي قريبة المعنى من الأولى ﴿ ولكن متعتهم وآباءهم ﴾ أي طال عليهم العمر حتى نسوا ما أنزلته اليهم من الكتب الداعية إلى عبادتك وحدك لا شريك لك . ﴿ وكانوا قوماً بوراً ﴾ قال ابن عباس أى هلكي .

فقال تعالى : ﴿ فقد كذبوكم بما تقولون ﴾ أي فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله ، وزعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى كقوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ﴾ أي لا يقدرّون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ﴿ ومن يظلم منكم ﴾ أي يشرك بالله ﴿ نذقه عذاباً كبيراً ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ
وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (٢٠)

يقول تعالى مخبراً عن رسله المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذية به ، ويمشون في الأسواق للتكسب ، وما ذلك بضائرهم فإن الله تعالى رزقهم من الصفات

الكاملة والأعمال الفاضلة والخوارق والمعجزات ما يستدل به كل ذي عقل سليم على صدق دعوتهم ولم يجعلهم الله إلا بشراً يأكلون ويشربون .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ أي اختبرنا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع من يعصى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴾ أي بمن يستحق أن يوحى إليه كما قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ : ٣٦١ [يقول الله تعالى إني مبتليك ومبتلى بك] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلِيكَةُ
أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴾ (٢١)
يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا
مَّحْجُورًا ﴾ (٢٢) وَقَدْ مَنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً
مَّنْثُورًا ﴾ (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ
مَقِيلًا ﴾ (٢٤)

يخبر تعالى عن تعنت الكفار في كفرهم ، وعنادهم في قولهم : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ عياناً فيخبرونا أن محمداً رسول الله ، كقولهم : ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ ولهذا قالوا ﴿ أو نرى ربنا ﴾ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ﴾ أي هم لا يرون الملائكة ... إلا في يوم لا بشرى لهم فيه ، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار وقال آخرون بل المراد بقوله تعالى : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى ﴾ يعني يوم القيامة ، قال مجاهد والضحاك وغيرهما : ولا منافاة بين هذا وما تقدم فلأن الملائكة في هذين اليومين ، يوم الممات

ويوم المعاد ، تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان وتخبّر الكافرين بالحربة والخسران فلا بشرى يومئذ للمجرمين ﴿ ويقولون حجراً محجوراً ﴾ أي وتقول الملائكة للكافرين : حرام محرم عليكم الفلاح اليوم. وأصل الحجر المنع ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام ، لأنه يمنع الطواف ان يطوفوا فيه ، وإنما يطاف من ورائه ، والغرض أن الضمير في قوله تعالى : ﴿ ويقولون ﴾ عائد على الملائكة ، هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن وغيرهم واختاره ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ﴾ أي عمدنا إلى ما عملوا من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم ، لكنها فقدت الشرط الشرعي ، فكل عمل لا يكون خالصاً ، وعلى الشريعة المرضية فهو باطل فأعمال الكفار ليست خالصة ولا موافقة للشريعة المرضية فتكون أبعد من القبول حينئذ ولهذا قال تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ والهباء المنثور قال علي رضي الله عنه هو شعاع الشمس إذا دخل الكوة . وقال الحسن البصري : هو الشعاع في كوة أحدكم ، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع . وهكذا فإن الكفار عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجوز ولا يظلم إذا بها لا شيء بالكلية. كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ أي يوم القيامة أي بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا وصاروا إلى ما صاروا إليه بخلاف أهل النار فانهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة ، والنجاة من النار . فبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء فقال تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ قال ابن عباس : إنما هي الساعة يقبل فيها أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويقبل أعداء الله مع الشياطين مقرّنين .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾ (٢٥)

الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿ (٢٦) وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿ (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿ (٢٨) لَقَدْ

أَصْلَنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ
خَذُولًا ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام وهو ظُلُلُ النور العظيم الذي يبهل الأبصار ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ثم يحيي الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء قال مجاهد : وهذا كما قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ وفي الصحيح : ٣٦٢ [ان الله تعالى يطوي السموات بيمينه ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول : انا الملك أنا الديان ، أين ملوك الأرض ، أين الجبارون أين المتكبرون ؟] . وقوله تعالى : ﴿ وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ أي شديداً صعباً . . . فهذا حال الكافرين في هذا اليوم ، وأما المؤمنون فكما قال تعالى : ﴿ لا يجزيهم الفرع الأكبر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ الآية يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق البين الذي لا مرية فيه ، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول . فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ، وعض على يديه حسرةً وأسفاً ، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة في كل ظالم . كما قال تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار ﴾ الآيتين فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم وبعض على يديه قائلاً ﴿ يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴾ يا ويلتنا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبي بن خلف أو غيرهما ﴿ لقد أضلني عن الذكر ﴾ وهو القرآن ﴿ بعد إذ جاءني ﴾ أي بعد بلوغه إلي قال الله تعالى : ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ أي يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه .

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ

مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ
وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

يخبر تعالى عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال : ﴿ يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ وذلك أن المشركين إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغو والكلام في غيره حتى لا يسمعون فهدا من هجرانه ، وترك الإيمان به ، وعدم تدبره ، وترك العمل به ، والعدول عنه إلى غيره . كل ذلك من هجرانه أيضاً ، نسأله تعالى ان ينجبنا ما يسخطه ، ويستعملنا في ما يرضيه من حفظ كتابه بفهمه والعمل بمقتضاه دائماً على الوجه الذي يرضاه انه سميع مجيب كريم وهاب . وقوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّاً من المجرمين ﴾ أي كما أن قومك عادوك لما دعوت إلى توحيد الله ، كذلك فعل الأمم الماضية مع رسلهم فكان منهم أعداء لهم يصتّون الناس عن الهدى ، ولكن الله تعالى هو الهادي فلا يستطيع أحد أن يحول دون هدايته . ولذلك قال عز من قائل : ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ لمن اتبع رسوله وآمن بكتابيه وصدقته وأتبعه فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة والله غالبٌ على أمره .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (٣٣) الَّذِينَ يُخَسِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٣٤)

يخبر تعالى عن كثرة اعتراض الكفار ، وتعتنتهم وكلامهم فيما لا يعينهم فقالوا : ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ أي كما نزلت التوراة والإنجيل والزرور وغيرها من الكتب الإلهية ، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به ولهذا قال ﴿ كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ﴾ أي بيناه تبيناً ﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ أي بشبهة ﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ أي ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق ، وأبين وأفصح من مقالتهم .

وهذا اعتناء ، وكبير شرف للرسول ﷺ حيث كان يأتيه الوحي من الله عز وجل بالقرآن صباحاً ومساءً ، وليلاً ونهاراً ، سفرأ وحضرأ ، لا كما أنزلت الكتب المتقدمة جملة واحدة ، وقد جمع الله للقرآن الصفتين معاً ، ففي المأ الأعلى أنزل جملة واحدة

من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض مفزقاً حسب الوقائع والحوادث .

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة ، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ سبيلاً ﴾ وفي الصحيح عن أنس أن رجلاً قال : ٣٦٣ [يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة فقال : «ان الذي أمشاه على رجله قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة »] .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴾ (٣٥) ﴿ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْرنَاهُمْ تَدْمِيْرًا ﴾ (٣٦) ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيْمًا ﴾ (٣٧) ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرُّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيْرًا ﴾ (٣٨) ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيْرًا ﴾ (٣٩) ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا أَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونِ نُشُورًا ﴾ (٤٠) ﴿

يتوَعَد الله تعالى من كذب على رسوله ﷺ من مشركي قومه ومن خالفه ، ويحذرهم من عقابه، وأليم عذابه، ممَّا أحلّه بالأُمم الماضية المكذبين لرسله عليهم الصلّاة والسلام فيبدأ بذكر موسى عليه السلام وأنه بعث معه أخاه هارون نبياً مؤازراً، فكذبهما فرعون وجنوده ﴿ فدمرناهم تدميراً ﴾ وكذلك قوم نوح عليه السلام لما كذبوا نوحاً فكأنما كذبوا الرسل قبله إذ لا فرق بين رسول ورسول ﴿ فما آمن معه إلا قليلاً ﴾ ولهذا أغرقهم الله ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط ﴿ وجعلناهم للناس آية ﴾ أي عبرة يعتبرون بها . وقوله تعالى : ﴿ وعاداً وثمود وأصحاب الرس ﴾ أما عاد وثمود فقد تقدم الكلام عليهما في غير ما سورة كالأعراف بما أغنى عن الإعادة .

وأما أصحاب الرس فهم أصحاب الرس بفلج من قرى اليمامة بنجد ، والرس برّ
رسوا فيها نبيهم ، أي دفنوه فيها .

وقوله تعالى : ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ أي وأما كثيرة أضعاف من ذكرنا فقد
أهلكناهم بتكذيبهم رسلهم ﴿ وكلاً ضربنا له الأمثال ﴾ أي بينا لهم الحجج ووضحنا
لهم الأدلة . كما قال قتادة : وأزحنا الأعذار عنهم ﴿ وكلاً تبرأنا تنبراً ﴾ أي أهلكنا
إهلاكاً ، كقوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ والقرن هو الأمة من
الناس متعاصرون في الزمن الواحد وإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهو قرن آخر وقد
قدروا لهذا الزمن مائة سنة . وقوله تعالى : ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر
السوء ﴾ يعني قرية قوم لوط وهي سدوم التي أهلكها الله بالقلب وبالطرب والحجارة
التي من سجيل . كما قال تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ﴾ وقال
تعالى : ﴿ وإنكم لتمرّون عليها مصبحين ﴾ وبالليل أفلا تعقلون ﴿ ولهذا قال ههنا
﴿ أفلم يكونوا يرونها ﴾ أي فيعتبروا بما حلّ بأهلها من العذاب والنكال ، بتكذيبهم
بالرسول . ﴿ بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴾ يعني المارين بها من الكفار ، لا يعتبرون لأنهم
لا يرجون نشوراً أي معاداً يوم القيامة .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ
اللَّهُ رَسُولًا ﴾ (٤١) ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ الْبَيْتِ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا
عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٤٢)
﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (٤٣)
﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ
بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٤٤) ﴿

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ فقال تعالى : ﴿ وإذا رأوك إن
يتخذونك إلا هزواً ﴾ وقالوا : ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولا ﴾ أي يتنقصونه ويستخفون
به ، فلعنهم الله وقبحهم . وقالوا : ﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا ﴾ يعنون أنه كاد يشينهم
عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا واستمروا عليها ، فقال الله متوعداً لهم : ﴿ وسوف
يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ ﴿ وهنا ينبه تعالى نبيه ﷺ إلى أنَّ من كتب الله عليه الشقاوة والضلال لا يستطيع أحد أن يهديه إلا الله تعالى فيستحسِّن كل ما استهوته نفسه ويجعله ديناً له . كالذي أراد لنفسه اتباع هواه فإن الله تعالى يعاقبه من نوع عمله فيضله . ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ أي هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة لأنهم يعبدون غير الله ويشركون به مع قيام الحاجة عليهم ، وارسال الرسل إليهم ، وإتمام التبليغ . ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ (٤٥) ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ (٤٦) ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ (٤٧) ﴿

بعد أن بيَّن الله حال المشركين وإصرارهم على شركهم ، شرع ههنا سبحانه ببيان نعمه وقدرته . فقال عزّ من قائل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ قال ابن عباس وابن عمر وبعض التابعين : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ أي دائماً لا يزول كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ الآيات ... وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أي لولا ان الشمس تطلع عليه لما عرف إذ لا يتميز الضد إلا بضده . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أي شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى في الأرض ظلٌّ إلا تحت سقْفٍ أو شجرةٍ ، وقد أظلت الشمس ما فوقه . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أي يلبس الوجود ويغشاه ﴿ والنوم سباتاً ﴾ أي قاطعاً للحركة لراحة الأبدان فبسكون الليل تسكن الحركات وتستريح فيحصل النوم المريح للروح والبدن ﴿ وجعل النهار نشوراً ﴾ أي ينتشر الناس فيه لمعايشتهم ومكاسبهم . كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ رَحِمْتَهُ جَعَلْ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ الآية .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْطِيَ بِهِ بَلَدَةً مِّيتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْبِيَاءَ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

وهذا أيضاً من نعمته التامة وقدرته وسلطانه العظيمين وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات أي بمجيء السحاب بعدها والرياح أنواع كثيرة ... ومنها ما يلقح السحاب بمطره. ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً ﴾ أي آلة يتطهر بها .

وقوله تعالى : ﴿ لنخني به بلدة ميتاً ﴾ أي أرضاً قد طال انتظارها للغيث فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء فلما جاء المطر ، عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان . كما قال تعالى : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأنا سيّ كثيراً ﴾ أي وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم وزرعهم وثمارهم . كما قال تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليعلموا ﴾ أي أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب يمرّ على الأرض وتتعداها ويتجاوزها إلى الأرض الأخرى فيمطرها ويكفيها ويجعلها غدقاً ، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة . قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما : ليس عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء ثم قرأ هذه الآية : ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليعلموا ﴾ فأي أكثر الناس إلا كفوراً ؟ أي ليعلموا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات أو ليعلموا من منع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه فليقلع عما هو فيه . قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ يعني الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ، كما صح في الحديث الذي رواه مسلم عن رسول الله ﷺ [٣٦٤] انه قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل ﴿ أتدرون ماذا قال ربكم ؟ ﴾ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب » [.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ (٥١) فَلَا تُطِيعُ
الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ
الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا
وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ
نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (٥٤)



يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل ولكنّا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع الأرض ، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ﴿ لَأَنْذَرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وفي الصحيحين : ٣٦٥ [«بعثت إلى الأحمر والأسود» - وفيهما - « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »] ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ يعني بالقرآن قاله ابن عباس ﴿ جهاداً كبيراً ﴾ أي غليظاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي خلق المائين : الحلو والمالح . فالخلو كالأنهار والعيون والآبار ، وهو العذب الفرات . فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس ، فرّقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعيوناً في كل أرض ، بحسب حاجتهم لأنفسهم وأراضيهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي مالح مَر لا يستساغ وذلك كالبحار المعروفة في المشرق والمغرب من البحار الساكنة التي لا تجري ولكن تموج وتضطرب في زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجزر ، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض ، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى فإذا استهل الشهر الحديدي شرعت البحار في المدّ إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرع في النقص فأجرى الله ذو القدرة التامة العادة بذلك ، وقد خلقها مالحةً لئلا يفسد الهواء فيفسد الوجود بذلك ، بل يكون هواؤها صحيحاً وميتتها طيبة . ولهذا قال رسول الله ﷺ ٣٦٦ [وقد سئل عن ماء البحر : أنتوضأ به ؟ فقال « هو الطهور ماؤه الحل ميتته »] رواه الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السنن بإسناد جيد .

وقوله تعالى : ﴿ وجعل بينهما برزخاً وحجراً ﴾ أين بين العذب والمالح حاجزاً وهو اليبس من الأرض ﴿ محجوراً ﴾ أي ممنوعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر . كقوله تعالى : ﴿ آمننْ جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنها رأو جعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً ﴾ أي خلق الانسان من نقطة ضعيفة فجعله كامل الحلقة ذكراً وأنثى ، كما يشاء ﴿ فجعله نسباً وصهراً ﴾ فهو في ابتداء أمره ولدٌ نسيبٌ ، ثم يتزوج فيصير صهراً ، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات وكل ذلك من ماء مهين ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان ربك قديراً ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿ (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَنَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ (٦٠)



يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تنفع ولا تضر بمجرد الأهواء فهم يوالونهم، ويقاتلون في سبيلهم ، ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ أي عوناً للشيطان على حزب الله وحزب الله هم الغالبون . ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وما أرسلناك إِلَّا مبشراً ونذيراً ﴾ أي بشيراً للمؤمنين ، ونذيراً للكافرين لمن خالف أمره . ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجرٍ ﴾ أي على هذا البلاغ إنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أي طريقاً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به .

ثم قال تعالى : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾ أي في أمورك كلها كن متوكلاً على الحي القيوم رب كل شيء ومليكه . واجعله ذكرك وملجأك فانه كافيك وناصرك ﴿ وسبح بحمده ﴾ أي اقرن بين حمده وتسيبحه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : ٣٦٧ [سبحانك اللهم ربنا وبحمدك] أي أخلص له العبادة والتوكل . كقوله تعالى ﴿ فاعبه وتوكل عليه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ أي بعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية .

وقوله تعالى : ﴿ الذي خلق السموات والأرض ﴾ أي بقدرته وسلطانه وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه ﴿ في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن ﴾ أي علا عليه يدبر الأمر ويقضي الحق وهو خير الفاصلين . وقوله تعالى : ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ أي استعلم عنه من هو خير به عالم به فاتبعه واقتد به وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، سيد ولد آدم وأفضل خلق الله على الإطلاق في الدنيا والآخرة . الذي لا ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى ، فما قاله هو الحق ، وما أخبر به هو الصدق ، وهو الإمام المحكم الذي اذا تنازع الناس في شيء وجب ردّ نزاعهم إليه ، فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق ، وما خالفها فهو الباطل ، ومردود على قائله وفاعله كائناً من كان . قال الله تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ وقيل ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ أي هذا القرآن خير به - فلا منافاة فالرسول الأعظم صلوات الله عليه وسلامه هو الذي لا أحد أعلم بالله ولا بالقرآن منه ﷺ - (١) .

وقوله تعالى : ﴿ واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴾ أي لا نعرف الرحمن ولا نُقرُّ به ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ أي لمجرد قولك ﴿ وزادهم نفوراً ﴾ فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ويسجدون له . وقد اتفق العلماء رحمهم الله على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها ، كما هو مقرر في موضعه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا
وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ
أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿ (٦٢) ﴾

يمجد تعالى نفسه ويعظمها على جميل ما خلق في السموات من البروج وهي الكواكب العظام التي قيل انها قصور للحرس ، ويروى هذا عن علي وابن عباس وغيرهما. فقال تعالى : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً ﴾ وهي الشمس ﴿ وقمرًا منيرًا ﴾ أي مضيئاً وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ﴾ أي يخلف كل واحد منهما صاحبه ، يتعاقبان لا يفتران كما قال تعالى : ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ أي جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة الله عز وجل فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل ، وقد جاء في الحديث الصحيح : ٣٦٨ « [ان الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل] .

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين : ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ بتواضع ووقار وبلا تجبر واستكبار ولا أشر ولا بطر وليس المراد انهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياءً فقد كان ﷺ إذا مشى فكأنما ينحط من صيب ، والمراد بالهون هنا السكينة والوقار ، كما قال رسول الله ﷺ ٣٦٩ [إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم منها فصلوا ، وما فاتكم فأتموا] وقوله تعالى : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ أي إذا سفه عليهم الجاهل بالقول السيء لم يقابلوههم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً كما قال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ الآية ... روى الإمام أحمد عن النعمان بن مقرن المزني قال : قال رسول الله

٣٢٠ (٢٥-الفرقان-ج ١٩): ذكر صفات عباد الرحمن لمعرفة والافتداء والتخلُّق بها والعمل بموجبها

عَلَيْهِ السَّلَامُ ٣٧٠] - وَسَبَّ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَهُ فَجَعَلَ الْمَسْبُوبُ يَقُولُ عَلَيْكَ السَّلَامُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أَمَا إِنْ مَلَكَأَ بَيْنَكُمَا يَذُبُّ عَنْكَ ، كُلَّمَا شَتَمَكَ هَذَا قَالَ لَهُ : بَلْ أَنْتَ وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ وَإِذَا قُلْتَ لَهُ وَعَلَيْكَ السَّلَامُ ، قَالَ : لَا بَلْ عَلَيْكَ وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ » [اسناده حسن ولم يخرجوه .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ أي في طاعته وعبادته كقوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ خائفين من عذاب الله راجين رحمته ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أي محرقاً دائماً ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي بئس المنزل منظرًا ، وبئس المقييل مقامًا يهوي في النار فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له مكانك حتى تُتَحَفَّ ، فيسقى كأساً من سم الأسود والعقارب ، فيتميز الجلد عن الشعر والعصب والعروق كل على حدة . كما هو مروي عن مالك بن الحارث .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ أي ليسوا بمبذرين ولا بخلاء ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ روى أبو بكر عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ ٣٧١ [ما أحسن القصد في الغنى ، وما أحسن القصد في الفقر ، وما أحسن القصد في العبادة] ثم قال : لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضي الله عنه . وقال الحسن البصري : ليس في النفقة في سبيل الله سرف .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿ (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿ (٧١) ﴿

(٢٥ - الفرقان - ج ١٩) : أعظم الذنوب الشرك ، ثم قتل الولد ثم الزنى بحليلة الجار ٣٢١

روى الإمام أحمد عن عبد الله هو ابن مسعود قال : ٣٧٢ [سئل رسول الله ﷺ ، أي الذنب أكبر؟ قال : « ان تجعل لله أنداداً وهو خلقك » قال : ثم أي ؟ قال : « ان تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قال : ثم أي ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ الآية [وهكذا رواه النسائي وقد أخرجه البخاري ومسلم . ولفظهما عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ...

روى النسائي عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : ٣٧٣ [« ألا إنما هي أربع » فما أنا بأشجع عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ « لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ولا تسرقوا »] روى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه ٣٧٤ [ما تقولون في الزنا] قالوا : حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لأن يزني الرجل بعشر نساء أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره » قال « فما تقولون في السرقة ؟ » قالوا : حرمها الله ورسوله فهي حرام . قال « لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره » [.

روى أبو بكر بن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ قال ٣٧٥ [ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له] .

روى ابن جريج عن ابن عباس يحدث ٣٧٦ [أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا : ان الذي تدعو إليه الحسن ، لو تخبرنا أن لِمَا عملنا كفارة فنزلت : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إله آخر ... ﴾ ونزلت : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الآية] .

وذكر لنا ان لقمان كان يقول : يا بني إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك يلقِ أثاماً ﴾ روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : واد في جهنم وقال عكرمة : ﴿ يلقِ أثاماً ﴾ أودية في جهنم يعذب فيها الزناة .

وقوله تعالى : ﴿ يضاعف له العذاب يوم القيامة ﴾ أي يكرر عليه ويغلظ ﴿ ويخلد فيه مهاناً ﴾ أي حقيراً ذليلاً . وقوله تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً .. ﴾

أي جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ إلا من تاب ﴾ في الدنيا إلى الله ﴿ وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾ فإن الله يتوب عليه وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً ﴾ الآية فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب لأن هذه مقيدة بالتوبة ولقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ :

وقوله تعالى : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ فيه قولان أحدهما : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فيقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه فإنه لا يضره ، وينقلب حسنة في صحيفته ، كما ثبت بالسنة وصحت به الآثار المروية عن السلف رضي الله عنهم . روى الامام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٧٧ [إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار ، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة ، يؤتى برجل فيقول نحوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها قال فيقال له عملت يوم كذا ، كذا ، وكذا ، وعملت يوم كذا ، كذا وكذا فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً ، فيقال فإن لك بكل سيئة حسنة ؛ فيقول : يا رب عملت أشياء لا أراها ههنا قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه] انفراد باخراجه مسلم .

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٧٨ [إذا نام ابن آدم قال الملك للشیطان : أعطني صحيفتك . فيعطيه إياها فما وجد في صحيفته من حسنة محابها عشر سيئات من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنات . فإذا أراد أحدكم أن ينام فليكبّر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة فتلك مائة] .

روى الطبراني عن أبي فروة أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : ٣٧٩ [أ رأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة ، فهل له من توبة ؟ فقال : « أسلمت ؟ » فقال : نعم قال « فافعل الخيرات واترك السيئات ، فيجعلها الله لك خيرات كلها » قال : وغدراي وفجراي ؟ قال : « نعم » فما زال يكبّر حتى توارى] .

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده ، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلاً أو حقيراً ، كبيراً أو صغيراً ؛ فقال تعالى : ﴿ ومن تاب وعمل

صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴿ أي فإن الله يقبل توبته كقوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ الآية ، أي لمن تاب إليه

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿ (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٧٤) ﴿

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور وقد قيل في معنى الزور الشرك وعبادة الأصنام والكذب والفسق والكفر والغناء والخمر والباطل ومجالس السوء والحناء وأعياد المشركين وشهادة الزور ، فقوله تعالى : ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ أي لا يحضرون كل هذه المجالس ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ أي لا يحضرون مجالس الزور وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء ولهذا قال : ﴿ مروا كراماً ﴾ .

روى ابن أبي حاتم عن ابراهيم بن ميسر ٣٨٠ [ان ابن مسعود مرّ بلهوى فلم يقف فقال رسول الله ﷺ « لقد أصبح ابن مسعود وأمسي كريماً »] ثم تلا ابراهيم بن ميسرة : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ وهذه أيضاً من صفات المؤمنين قال الحسن : كم من رجل يقرأها ويختر عليها أصم وأعمى قال ابن أبي حاتم عن عون قال : سألت الشعبي قلت : الرجل يرى القوم سجوداً ولم يسمع ما سجدوا ، أسجد معهم ؟ فتلا هذه الآية ... يعني لا يسجد معهم ، لأنه لم يتدبر أمر السجود ولا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة بل يكون على بصيرة من أمره ويقين واضح بين .

وقال مجاهد : قوله تعالى : ﴿ لم يخروا عليها صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ قال لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئاً . وقوله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا

وذرياتنا قررة أعين . يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين . روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن جبيرة بن نفيير عن أبيه - جبيرة - قال [جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً . فمرَّ به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ لوددنا أننا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت ؛ فاستغضب المقداد ، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيراً ، ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيبه الله عنه لا يدري لو شهدته كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوامٌ أكبَّهم الله على مناخرهم في جهنم لم يحيوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم ، مصدقين بما جاء به نبيكم ، قد كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشرف حال بعثَ عليها نبياً من الأنبياء في فترة جاهلية ما يرون أن ديننا أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافراً وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه ، وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وأنها التي قال الله تعالى : ، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين . وهذا اسناد صحيح ولم يخرجوه .

وقوله تعالى : ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ أي أئمة يقتدى بنا في الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وإن يكون هداهم متعدداً إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثواباً ، وأحسن مآباً .

ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ [إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به ، أو صدقة جارية .]

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿ (٧٦) قُلْ مَا يَعْبُوهُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لَوَامًا ﴾ (٧٧)

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكره من الصفات الجليلة ، قال بعد ذلك كله ﴿ أولئك ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات ﴿ يجزون ﴾ يوم القيامة ﴿ الغرفة ﴾ وهي الجنة ﴿ بما صبروا ﴾ أي على القيام بذلك ﴿ ويلقون فيها نحية وسلاماً ﴾ أي يتندرون فيها بالنحية والإكرام فلهم السلام وعليهم السلام كما قال تعالى : حاكياً عن الملائكة قولهم : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مقيمين أبداً لا يزولون . وقوله تعالى : ﴿ حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ أي حسنت منظراً وطابت منزلاً ثم قال تعالى : ﴿ قل ما يعبا بكم ربّي لولا دعاؤكم ﴾ أي إنما خلقكم لعبادته ولا يبالي ولا يكثر بكم إذا لم تعبدوه ، إنما خلق الخلق لعبادته .

وقوله تعالى : ﴿ فقد كذبتم ﴾ أيها الكافرون ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ أي فسوف يكون تكذيبكم مقتضياً لتعذيبكم وإهلاككم في الدارين ويدخل في ذلك يوم بدر .

آخر اختصار تفسير سورة الفرقان

ولله الحمد والمنة

١٥ ربيع الأول سنة ١٣٩٠

٢٠ أيار سنة ١٩٧٠

(٢٦) سُورَةُ الشُّعَرَاءِ مَكِّيَّةٌ وَأَنبَأَانَهَا سِتِّجٌ وَعَشْرُونَ وَمِائَتَانِ

إِلَّا الْآيَةَ ١٩٧ ثُمَّ مِنَ الْآيَةِ ٢٢٤ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ فَمَدْنِيَّةٌ. نَزَلَتْ بَعْدَ الْوَاقِعَةِ
(وَوَقَعَ فِي تَفْسِيرِ مَالِكِ الْمُرَوِّي عَنْهُ تَسْمِيَتُهَا سُورَةَ الْجَامِعَةِ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ
بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ نَزْلٍ عَلَيْهِمْ مِنْ
السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ
ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ
كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أُولَئِكَ يَرَوْنَ
إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة
البقرة .

وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي
الفاصل بين الحق والباطل ، وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ ﴾ أي مهلك ﴿ نَفْسَكَ ﴾ أي

من شدة ما تحرص وتحزن عليهم ﴿ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ وهذه تساية من الله تعالى لرسوله ﷺ كما قال تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ لو نشاء لأنزلنا معجزة تضطرهم إلى الإيمان قهراً ، ولكن لا نريد إلاّ الإيمان الاختياري . ثم قال تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ أي كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض أكثر الناس عنه كقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقال تعالى هنا : ﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون ما سيعيق بهم ، ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه ، وجلالة قدره وقدرته فقال تعالى : ﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ أي هو القادر العظيم الذي أنبت في الأرض بما فيها من كل زوج من زروع وثمار وحيوان .

ثم قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي دلالة على قدرة الخالق ... ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل كذبوا برسله وكتبه ؛ وقوله تعالى : ﴿ وإن ربك هو العزيز ﴾ الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿ الرحيم ﴾ بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . وقال سعيد بن جبير : ﴿ الرحيم ﴾ بمن تاب إليه وأتاب .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠)
 قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿ (١٤) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿ (١٥) فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ (١٦) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ (١٧) قَالَ أَلَمْ أَنْزِلْكُمْ مِنْهُ وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا

إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * (٢٠) فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي
رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ
أَنْ عَبَدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * (٢٢) ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ﴾ يخبر تعالى عما أمر عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الأيمن واصطفاه وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه . ولهذا قال تعالى : ﴿ أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ألا يتقون ﴾ . قال رب إني أخاف أن يكذبون ﴾ . ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون ﴾ . ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ . هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه . كما قال في سورة طه : ﴿ قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري — إلى قوله — قد أوثقت سؤلك يا موسى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ أي بسبب قتل القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر ﴿ قال كلا ﴾ أي قال الله له : لا تخف من شيء من ذلك كقوله تعالى : ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما أنتما ومن أتبعكما الغالبون ﴾ ﴿ فاذهبا بآياتنا إننا معكم مستمعون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ أي يسمعهما ماذا يقولان لفرعون ويراهما وهما تحت حفظه وتأنيده ﴿ فأتيا فرعون فقولاً إننا رسول رب العالمين ﴾ أي كل منا أرسل إليك ﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ أي أطلقهم من أسارك وتعذيبك فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون . فلما قال موسى ذلك ازدراه فرعون وامتن عليه قائلا : ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ الآية في بيتنا وعلى فراشنا وأنعمنا عليك مدة من السنين ، ثم قابلت ذلك الإحسان بقتلك رجلاً منا ، وجحدت نعمتنا عليك . ولهذا قال : ﴿ وانت من الكافرين ﴾ أي الجاحدين ﴿ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾ أي في تلك كنت من الجاهلين قبل أن ينعم الله علي بالنبوة ﴿ فقررت منكم لما خفتكم ﴾ أما الآن فقد جاء أمر آخر ، فقد أرسلني الله إليك ، فإن أطعته سلمت وإن عصيته هلكت ثم قال موسى : ﴿ وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ﴾ أي ما أحسنت بتربتي بقدر ما أسأت لبني إسرائيل فاستعبدتهم واستعملتهم في أعمالك الشاقة ، أحسنت إلى رجل واحد — واستعبدت أمة كاملة .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٣) قَالَ رَبُّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿ (٢٤) قَالَ لِمَنْ
حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿ (٢٦)
قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿ (٢٧) قَالَ رَبُّ
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ (٢٨) ﴿

يخبر تعالى عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحده في قوله تعالى : ﴿ وما رب العالمين ﴾ أي من هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري ؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف أنه كان يقول لقومه : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ وهذا مما يدل على أنه كان جاحداً لله تعالى بالكلية . ولكن موسى عليه السلام أجابه على سؤاله : ﴿ وما رب العالمين ﴾ قال موسى : ﴿ قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وإلهه لا شريك له ، فالجميع عبيد له خاضعون ذليلون . ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة ﴿ قال ﴾ أي فرعون على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله : ﴿ ألا تستمعون ﴾ ؟ ! أي ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري ؟ فقال لهم موسى : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أي خالقكم وخالق آبائكم الذين كانوا قبلكم ﴿ قال ﴾ أي فرعون لقومه : ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ أي ليس له عقل في دعواه أن ثم رباً غيري ﴿ قال ﴾ أي موسى لقوم فرعون مجيئاً ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون ﴾ أي هو الذي جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب فإن كان فرعون يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً ، فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً ، ولما انقطعت حجة فرعون وبهت ، عدل إلى استعمال قوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى عليه السلام فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

﴿ قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (٢٩)

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿ (٣٢)

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * (٣٣) قَالَ لِمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * (٣٦) يَا تُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * (٣٧) ﴿٣٧﴾

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل ، وكان فرعون خلواً من كل حجة يدحض بها حجة موسى لجأ إلى القوة والسلطان وهدده بالسجن إن اتخذ آلهة غيره فعند ذلك قال موسى : ﴿ أو لو جئتكَ بشيء مبين ﴾ أي ببرهان قاطع واضح ﴿ قال فأت به ان كنت من الصادقين ﴾ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴿ أي ظاهر في غاية الجلاء والعظمة ، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مروّع ﴾ ونزع يده ﴿ أي من جيبه ﴾ فإذا هي بيضاء للناظرين ﴿ أي تتلأأ كقطعة من القمر ، فأصر فرعون على تكذيبه وعناده ﴾ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ﴿ أي بارع في السحر ، وفعله هذا سحر لا معجزة ثم حرّضهم على الكفر به فقال : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ أي يأخذ البلاد منكم فماذا ترونني صانعاً به ؟ ﴿ قالوا أرجه وأخاه وأبعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ﴾ أي أخره وأخاه حتى تجمع له من مملكته كل سحّار عليم يأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه وتكون لك النصره عليه فأجابهم إلى ذلك ليجتمع الناس في صعيد واحد وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة .

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ * (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ * (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لِنَأْتِي لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * (٤٢)

قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ
وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى
مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ
سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى
وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾

ذكر الله تعالى هذه المناظر الفعلية بين موسى عليه السلام والقبط في سورة الأعراف
وطه وهذه السورة ، وذلك أن القبط أرادوا أن يطفثوا نور الله بأفواههم ، فأبى الله
إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وهذا شأن الكفر والإيمان ما تواجهها ، وتقابلا
إلا غلبه الإيمان ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾ ولهذا لما جاء السحرة من مختلف
بلاد مصر وكانوا أسحر الناس وأشدهم تخيلاً عليهم وكانوا كثيرين جداً ، قيل كانوا
بين اثني عشر ألفاً إلى ثمانين ألفاً والله أعلم بعدتهم ، واجتهد الناس في الاجتماع ذلك
اليوم وقال قائلهم : ﴿لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين﴾ ولم يقولوا نتبع الحق
أيّاً كان بل الرعية على دين ملوكهم ﴿فلما جاء السحرة﴾ إلى مجلس فرعون وهو في
أبهة في جمع من خدمه وحشمه ووزرائه ورؤساء دولته وجنوده فقال السحرة : ﴿إن
لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين ﴿أي وأخص مما يطلبون
أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي ، فعادوا إلى مقام المناظرة . ﴿قالوا يا موسى إما أن
تلقى وإما أن نكون أول من ألقى﴾ قال بل ألقوا ﴿فقال لهم موسى : ﴿ألقوا ما أنتم
ملقون﴾ فألقوا حبالهم وعصيتهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ وهكذا الجهلة
من العوام إذا فعلوا شيئاً هذا بثواب فلان ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾
أي تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً . قال الله تعالى : ﴿فوقع
الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾ فكان هذا أمراً عظيماً جداً وبرهاناً قاطعاً للعذر ، وحجة
دامغة ، وذلك ان الذين استنصر بهم غلبوا وخضعوا ﴿فألقى السحرة ساجدين﴾ لله رب
العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة ﴿قالوا آمنا برب العالمين﴾
رب موسى وهارون ﴿فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله ، ومن وقاحته وجراته
أن عدل إلى تهديد السحرة :

﴿٢٦﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَبُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَاَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴿٢٧﴾

تهدد فرعونُ السحرة وتوعدهم ولكن ما زادهم ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً ، كيف لا وقد ظهر لهم الحق بأن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر إلاّ أن يكون الله قد أيده ، فعملوا من ذلك ما جهله قومهم وتمكنوا من إيمانهم ولم يلتفتوا إلى فرعون بما لديه من وعد أو وعيد ودون أكتراث به ولهذا فإن فرعون : ﴿ قال آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ أي كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ وهذه مكابرة يعلم حتى فرعون بطلانها وكيف يعلمهم السحر ولم يجتمعوا به قبل ذلك ... ثم توعدهم فرعون بتقطيع الأيدي والأرجل والصلب فقالوا : ﴿ لا ضير ﴾ أي لا نبالي بذلك ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ أي راجعون إلى الله الذي لا يضيع أجر المحسنين ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَاَنَا ﴾ وهي ما أكرهتنا عليه من السحر ﴿ إِن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من القبط ، فقتلهم كلهم .



﴿٢٨﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشُرُذَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاقِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْزَيْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴿٢٩﴾

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر ، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون

وملئه ، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج بني اسرائيل ليلاً من مصر ، وأن يمضي بهم حيث يؤمر ، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل . خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً ، وكان خروجه بهم وقت طلوع القمر وان موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام ، فدلته امرأة عجوز من بني اسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ، ويقال : إنه هو الذي حمله بنفسه عليهما السلام وكان يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك ، إذا خرج بنو اسرائيل أن يحتملوه معهم . وهناك حديث عن أبي موسى مرفوعاً في مال ذلك والأقرب أنه موقوف والله أعلم . فلما أصبحوا ... غاظ فرعون خروجهم فأرسل سريعا من يحشد الجند ونادى فيهم : ﴿ إن هؤلاء ﴾ يعني بني اسرائيل ﴿ لشردمة قليلون ﴾ أي لطائفة قليلة ﴿ وانهم لنا لغائظون ﴾ أي مديمون الإغاطة لنا ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ أي نخذر من غائلتهم وإني أريد أن أستأصل شأفتهم فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم قال الله تعالى : ﴿ فأخرجناهم من جنات وعبود . وكنوز ومقام كريم ﴾ أي فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين ، والأنهار ، والأموال ، والأرزاق ، والملك ، والجاه الوافر في الدنيا . ﴿ كذلك وأورثناها بني اسرائيل ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم البوارثين ﴾ الآيتين .

﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ (٦٠) ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ (٦١) ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٦٢) ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَخْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (٦٣) ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴾ (٦٤) ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ (٦٥) ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴾ (٦٦) ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٧) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٦٨)

لحق فرعون بني اسرائيل في جيش كبير فيه أولو الحل والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ولم يعين القرآن عدتهم إذ لا فائدة تحته لأنهم خرجوا بأجمعهم ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ﴾ أي وصلوهم عند طلوع الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ﴾ أي رأى كل من الفريقين صاحبه ، عندها ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرَكُونَ﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر وهو بحر القلزم فصار أمامهم البحر وقد أدركهم فرعون بجنوده ، فلهذا قالوا : ﴿إِنَّا لَمَدْرَكُونَ﴾ قال كلاً إن معي ربي سيهدين ﴿أَيَّ لَا تَحْذَرُوا فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَنِي أَنْ أُسِيرَ هَهُنَا بِكُمْ ، وَهُوَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ وَكَانَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَقْدَمَةِ ، وَمَعَهُ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ . وَمُؤْمِنٌ آلُ فِرْعَوْنَ ، وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّاقَةِ . وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّهُمْ وَقَفُوا لَا يَدْرُونَ مَا يَصْنَعُونَ ، وَجَعَلَ يَوْشَعَ بْنُ نُونٍ أَوْ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ ، يَقُولُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَهُنَا أَمْرُكَ رَبِّكَ أَنْ تَسِيرَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَاقْتَرَبَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودُهُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْقَلِيلُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ الْبَحْرَ ، فَضْرِبَهُ وَقَالَ : انْفَلِقْ يَا ذَنْ اللَّهَ ، فَانْفَلَقَ . فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أَي كَالْجَبَلِ الْكَبِيرِ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُمَا . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ صَارَ الْبَحْرُ اثْنِي عَشَرَ طَرِيقاً لِكُلِّ سَبْطٍ طَرِيقٌ وَزَادَ السَّيِّدِيُّ : وَصَارَ فِيهِ طَاقَاتٌ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَقَامَ الْمَاءُ عَلَى حِيلِهِ كَالْحَيِّطَانِ ، وَبَعَثَ اللَّهُ الرِّيحَ إِلَى قَعْرِ الْبَحْرِ فَلَفَحَتْهُ ، فَصَارَ يَبساً كَوَجْهِ الْأَرْضِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿فَاضْرِبْ لَهُمُ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾ وَقَالَ تَعَالَى هَاهُنَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ : ﴿وَأَزَلْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ﴾ أَي هُنَاكَ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ : ﴿وَأَزَلْنَا ...﴾ أَي قَرَّبْنَا مِنَ الْبَحْرِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ وَأَذْنَيْنَاهُمْ إِلَيْهِ ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿أَيَّ أَنْجَيْنَا مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ ، فَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَاغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا هَلَكَ . وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَيِّ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : فَلَمَّا خَرَجَ آخِرُ أَصْحَابِ مُوسَى ، وَتَكَامَلُ أَصْحَابُ فِرْعَوْنَ ، انْطَمَ عَلَيْهِمُ الْبَحْرُ ، فَمَا رُؤْيَى سِوَادٍ أَكْثَرَ مِنْ يَوْمِئِذٍ ، وَغَرِقَ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللَّهُ ^(١) . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ أَي فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ وَمَا

(١) قات : أجل ؛ لمن الله فرعون لكفره وعناده حتي آخر نفس ولا عبرة بقوله : آمنت بأن لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل « لأن هذا كان في الغرغرة التي لا يقبل الله عندها إيماناً ولكن ما يزال الشيطان يستحوذ على قلوب البعض فيقولون : فرعون ناج ويصرون على ذلك رغم ما تنبئ الآيات بكفره وان الله تعالى لم يقبل إيمانه إذ قال له : « الآن...؟؟!! » وغيرها من الآيات ولكن «القوم ... هم هم» =

(٢٥-الشعراء-ج١٩) : قال إبراهيم لقومه ، إني عدوّ لأصنامكم ولا أخافها ... ٣٣٥

فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين ، لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة : ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين • وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ وقد تقدم تفسيره .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ • (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ
مَا تَعْبُدُونَ • (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ • (٧١)
قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ • (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُم أَوْ
يَضُرُّونَ • (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ • (٧٤)
قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ • (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ أَلاَّ تَقْدُمُونَ • (٧٦)
فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ • (٧٧)﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الخفاء ، أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبري من الشرك وأهله ، فإنه عليه السلام منذ نشأته أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل : ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون﴾ أي ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ ﴿قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين﴾ أي مقيمين على عبادتها ودعائها ﴿قال هل يسمعونكم إذ تدعون • أو ينفعوكم أو يضرون • قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ يعني اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون ، فقال لهم إبراهيم : ﴿أفرأيتُمْ ما كنتم تعبدون • أنتم وأباؤكم الأقدمون • فإنهم عدولي إلا رب العالمين﴾ فإن كان لهذه الأصنام أي تأثير فلتنتقم مني فإني عدوّ لها لا أبالي بها . كما قال هود عليه السلام : ﴿إني أشهد الله وأشهدوا إني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾ وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم ، فقال : ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله﴾ الآية .

= اللهم العن فرعون وقومه في كل آن وزمان...؟ واحشرهم معه طالما أحبّوه وأشفقوا عليه إلى هذا الحد : «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم» ... الآية

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ • (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ • (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ • (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ • (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ • (٨٢) ﴿

يعني لا أعبد إلاّ الذي يفعل هذه الأشياء ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ أي الذي خلقني قدّر هدايتي فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿والذي هو يطعمني ويسقيني﴾ أي هو رازقي بما سخر ويسّر من الأسباب التي تؤدّي إلى رزق العباد طعاماً وشراباً ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ وإذا قدّر الله مرضي فمرضت فهو الذي يقدر الشفاء فأشفى ولا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدره من الأسباب ﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾ أي هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ أي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلاّ هو .

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ • (٨٣) وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ • (٨٤) وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ • (٨٥) وَأَغْفِرْ لَأَيِّئِهِ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِّينَ • (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَتُونَ • (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ • (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ • (٨٩) ﴿

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتیه ربه حكماً قال السدي : النبوة وقوله تعالى : ﴿والحقني بالصالحين﴾ أي اجعلني معهم في الدنيا والآخرة . كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار ٣٨٢ [اللهم في الرفيق الأعلى] قالها ثلاثاً . وفي الحديث : ٣٨٣ [اللهم أحيينا مسلمين ، وأمنا مسلمين ، والحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبدلين] وقوله تعالى : ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ أي واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به ويقتدى بي في الخير ، كما قال تعالى : ﴿وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين﴾ . وقوله تعالى : ﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ أي أنعم عليّ في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم

وقوله تعالى : ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي ﴾ كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَي ﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْاهٍ حَلِيمٌ ﴾ وقد قطع تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه فقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ - إِلَى قَوْلِهِ - وَمَا أَمْلَكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۝ (١) 》 .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي أخرجني من الخزي يوم القيامة .

روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً : ٣٨٤ [يلقي إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قرة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصيني ، فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأني خزي أخزى من أبي الأبعد فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول : يا إبراهيم انظر تحت رجلك ، فينظر فإذا هو بذيخٍ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار] تفرد به البخاري .

والذيخ هو الذكر من الضباع ، كأنه حوّل آزر إلى صورة ذبيخٍ متلطخ بعذرتة فيلقى في النار .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ أي لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿ وَلَا بَنُونَ ﴾ أي ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً ، ولا ينفع يومئذ إلاّ الإيمان بالله واخلاص الدين له ، والتبرّي من الشرك وأهله ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي سالم من الدنس والشرك .

﴿ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٩٠) وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ

لِلْغَاوِينَ ﴿ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَتَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ (٩٢) مِنْ

دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (٩٣) فَكَبَّوْا فِيهَا هُمْ

وَالْغَاوُونَ ﴿ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَتَمَّعُونَ ﴾ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا

يَخْتَصِمُونَ ﴿ (٩٦) تَأْتِيهِمْ مِنْ فَوْقِهِمُ ظُلُمٌ مِنْ فِضَّةٍ قَدِمَتْ فِيهَا نَارٌ لَأُضْطَرَّ

نَسُوا بِكُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٩٩﴾
فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ
لَنَا كُرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿ وأزلت الجنة ﴾ أي قربت مزخرفة من أهلها المتقين الذين عملوا لها في الدنيا
﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ أي أظهرت وبدت منها عتقها فزفرت زفرة بلغت منها
القلوب الخناجر : وقيل لأهلها تقريباً : ﴿ أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم
أو ينتصرون ﴾ أي لا تغني عنكم اليوم شيئاً ولا تدفع عن أنفسها ، فإنكم وإياها حصب
جهنم أنتم لها واردون . وقوله تعالى : ﴿ فكذبوا فيها هم والغاوين ﴾ أي ألقى فيها
بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ﴿ وجنود إبليس أجمعون ﴾
أي ألقوا فيها عن آخرهم ﴿ قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين .
إذ نسويكم برب العالمين ﴾ أي نطيعكم كما يطاع أمر رب العالمين وعيدناكم معه
﴿ وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين ﴾ يشفعون لنا من الملائكة وغيرهم
﴿ ولا صديق حميم ﴾ أي قريب إلا صالحاً فيشفع ﴿ فلو أن لنا كرة فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
والله يعلم أنهم لكاذبون إذ لو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر ﴿ إن في ذلك لآية وما كان
أكثرهم مؤمنين ﴾ أي إن في ذلك لدليلاً واضحاً في محاجة إبراهيم لقومه أنه لا إله
إلا الله ﴿ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ تقدم تفسيره في أول السورة .

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ
أُخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١١٠﴾



هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الشرك ، ونزل الله تكذيبهم لنوح منزلة تكذيبهم لجميع الرسل ، فلهذا قال تعالى : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمَ نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ﴾ أي ألا تخافون الله في عبادتكم غيره ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي إني رسول من الله حقاً وأمين على رسالته لا أزيد فيها ولا أنقص منها ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ وما أسألكم عليه من أجر ﴿ أي لا أطلب منكم جزاءً على نصحي لكم ، ﴿ إن أجري إلا على رب العالمين ﴾ أي أدخر ثواب ذلك عنده تعالى ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ فقد وضح لكم صدقي ونصحي وأمانتي فأطيعوني فيما أدعوكم إليه من توحيد الله تعالى ونبذ الشرك .

﴿ قَالُوا أَنْوُمِنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرَذَلُونَ ﴾ (١١١) قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ (١١٢) إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿ (١١٥)

كانهم سألوه أن يستبعد المستضعفين حتى يتابعوه وذلك استكباراً منهم ، ولهذا : ﴿ قَالُوا أَنْوُمِنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرَذَلُونَ ﴾ أي نستوي معهم في الحقوق والواجبات والمكانة ﴿ قال وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ أي وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه ، إنما علي أن أقبل إيمانهم والله يتولى سرائرهم ﴿ إن حسابهم إلا على ربِّي لو تشعرون ﴾ وما أنا بطارد المؤمنين ﴿ فأبى عليهم ذلك ، لأنه رسول ربه فمن أطاعه واتبعه وصدقه فيما نزل عليه قبله سواء كان شريعاً أو وضعياً ، أو جليلاً أو حقيراً . ﴿ إن أنا إلا نذير مبين ﴾ أي إنما بعثت نذيراً

﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذِبُونَ ﴿ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ (١١٨) فَانْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي

أَلْفَلْكَ الْمَشْحُونِ • (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ • (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ • (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) ﴿١٢٢﴾

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم ، يدعوه إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً وسراً وجهراً ، وكلما دعاهم ازدادوا كفراً وعناداً فيه وإصراراً عليه فقالوا أخيراً : ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ أي لترجمنك ، عندها دعا عليهم دعوة استجابها الله منه فقال : ﴿ رب إن قومي كذبون * فافتح بيني وبينهم فتحاً ﴾ كقوله : ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ إلى آخر الآية ... وقال ههنا : ﴿ فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ﴾ ثم أغرقنا بعد الباقيين • والمشحون هو المملوء بالأمته والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين ، أي أنجيناً نوحاً ومن اتبعه كلهم ، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين • ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ • وإن ربك هو العزيز الرحيم • . وقد تقدم تفسيره .

﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ • (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ • (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا • (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ • (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ • (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ • (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ • (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا • (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ • (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ • (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَوُجُوهِ • (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ • (١٣٥) ﴾ ﴿١٣٥﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام ، أنه دعا قومه عاداً وكان قومه يسكنون الأحقاف ، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت ، متاخمة بلاد اليمن وكان زمانهم بعد قوم نوح كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ﴾ ذلك أنهم كانوا في غاية القوة والطول المديد والبطش الشديد ، والأبناء والجنات والأنهار والزروع والثمار وكانوا مع كل هذه النعم يشركون بمولايها جل وعز . فبعث الله اليهم هوداً عليه السلام رسلاً منهم بشيراً ونذيراً ، فدعاهم إلى توحيد الله وحذرهم نقمته وعذابه إلى أن قال : ﴿ أتبنون بكل ريع بنیاناً هائلاً ﴾ تعبثون ﴿ والربع المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة ، فينون بكل ريع بنیاناً هائلاً ﴾ تعبثون ﴿ أي دون احتياج إليه إنما مجرد اللهو وإظهار القوة مما لا يجدي في الدنيا والآخرة وقال : ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ أي تتخذون بنیاناً عظيماً زائلاً عنكم كما زال عن قبلكم ، - لأن كفرهم سيسبب دمارهم واستئصالهم عقاباً على ما فرطوا وسيتركون أبنيتهم عبرة لمن بعدهم كان أبو الدرداء يقول لأهل دمشق فيما قاله : ... فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين ؟ ... وقوله : ﴿ واذ باطشتم بطشتم جبارين ﴾ يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ﴿ فاتقوا الله وأطيعوا ﴾ أي اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : ﴿ واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ أي إن كذبتم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فما نفع فيهم .

﴿ قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ (١٣٦) ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١٣٧) ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ (١٣٨) ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٩) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٤٠) ﴿

يخبر تعالى عن جواب قوم هود عليه السلام له بعدما حذرهم وأنذرهم ، ورغبهم ورهبهم وبين لهم الحق ووضحه : ﴿ قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾

أي لا نرجع عما نحن عليه ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴾ وهكذا الأمر كما قال تعالى : ﴿ ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ وقولهم ﴿ إن هذا إلاّ خُلُقُ الأولين ﴾ بضم الخاء واللام يعنون دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد ، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم ، نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ، ولهذا قالوا : ﴿ وما نحن بمعتدين ﴾ وعن ابن عباس في قولهم : ﴿ إن هذا إلاّ خُلُقُ الأولين ﴾ يقول : دين الأولين وقاله عكرمة وعطاء الخراساني وقتادة وغيرهم ، واختاره ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ فكذبوه فأهلكناهم ﴾ أي استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية شديدة الهبوب فكان هلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره ، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة ، وعاد هذه قبيلة من نسل إرم بن سام بن نوح فقولته تعالى ﴿ إرم ذات العماد ﴾ أي القبيلة التي تسكن العمدة ، ومن زعم أن إرم مدينة فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب وهب وليس لذلك أصل أصيل ولهذا قال تعالى : ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ أي لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدهم وجبروتهم ولو كان المراد بذلك مدينة ، لقال : التي لم يبن مثلها في البلاد . وعلى كل فقد أهلك الله عاداً لما عتت وتكبرت وتجبرت وأصرت على كفرها فأرسل عليها ريحاً عاتية فحصبت بلادهم ، وكل شيء لهم كما قال تعالى : ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ وقال تعالى : ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ أي بقوا أبداناً بلا رؤوس ، وذلك أن الريح كانت تقتلع الرجل وترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه وتكسر رأسه وتلقيه كأنهم أعجاز نخل منقعر فلم تغن عنهم الجبال والكهوف التي تحصنوا فيها من أمر الله شيئاً .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿ (١٤٣) فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ (١٤٥)

وهذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله صالح عليه السلام ، أنه بعثه إلى قومه ثمود ، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة وقد قدمنا في سورة الأعراف الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام وكانت ثمود بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام . فدعاهم نبيهم صالح إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه ، وأخبرهم أنه لا ينبغي بدعوتهم أجراً منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عز وجل ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم . فقال :

﴿ أَتَرَكُونَ فِي مَاهِنَا آمِينَ • (١٤٦) فِي جَنَاتٍ وَعَيُْونٍ • (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ • (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ • (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا • (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ • (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ • (١٥٢) ﴾

يقول لهم واعظاً ، ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وجعلهم في أمن من المحذورات ، وأنبت لهم من الجنات وفجر لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات . ولهذا قال : ﴿ ونخل طلعها هضيم ﴾ أي هو الطلع الرطب اللين إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضها بعضاً فهو هضيم وقوله : ﴿ وتنتحون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ أي يتخذون من الجبال بيوتاً منحوتة أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكنائها ، وكانوا حاذقين متقين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ولهذا قال : ﴿ فاتقوا الله وأطيعوا ﴾ أي أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم فتعبدوه وتوحدوه ، وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ يعني رؤساءهم وكبراءهم ، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ • (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا

بَشَرُ مِثْلُنَا قَاتٍ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ • (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ • (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ • (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ • (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ • (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ • (١٥٩)

يخبر تعالى عن ثمود في جوابهم لنبيتهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل أنهم : ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ أي المسحورين لا عقل لك ؛ ثم قالوا : ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ يعني فكيف أوحى إليك دوننا ؟ كما قالوا في الآية الأخرى : ﴿ أنزل عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر • سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ ثم إنهم طلبوا منه تدليلاً على صدقه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء ، فأخذ نبينهم عليهم الموائيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم أيؤمنون ... ؟ فأعطوه ذلك : فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله تعالى أن يستجيب إلى سؤالهم فانفطرت الصخرة عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها ، فأمن بعضهم ، وكفر أكثرهم ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ يعني ترد ماءكم يوماً ، ويوماً تردونه أنتم ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ، ترد الماء وتأكل المرعى ويتنفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تأمروا على قتلها وعقروها ﴿ فعقروها فاصبحوا نادمين فأخذهم العذاب ﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزلاً شديداً وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها وأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين • وإن ربك هو العزيز ﴾ الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿ الرحيم ﴾ بمن تاب إليه وأتاب .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ • (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ • (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • (١٦٢) فَاقْتُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ • (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ

إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ • (١٦٤) ﴿١٦٤﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام وهو ابن هاران بن آزر ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام وكان قد بعث إلى أمة ، كانوا يسكنون سدوم ، وأعمالها، التي أهلكها الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ، وهي مشهورة ببلاد الغور متاخمةً لجبال البيت المقدس فدعاهم إلى توحيد الله وإطاعة رسوله ونهاهم عن معصية إتيان الذكور دون الإناث فقال :

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ • (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ • (١٦٦) قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ • (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ • (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ • (١٦٩) فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ • (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ • (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ • (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ • (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ • (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ • (١٧٥) ﴿١٧٥﴾

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش من غشيان الذكور دون النساء ، فقالوا : ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ﴾ عما جئنا به ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي تنفك من بين أظهرنا ، كما قال تعالى عن قومه ﴿قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ...﴾ فلما رأى أنهم لا يترددون عن ضلالتهم تبرأ منهم وقال : ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ أي المبغضين وأتبرأ منكم ثم دعا الله عليهم فقال : ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال الله تعالى : ﴿فنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ وهي امرأته ، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأعراف وهود والحجر حين أمره الله أن يسري بأهله إِلَّا امرأته ، فأنجى المؤمنين ، وأهلك الكافرين وعمهم بعداب أليم وأمطر عليهم حجارة من سجيل فساء مطر المنذرين .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ النَّيْكََةِ الْمُرْسَلِينَ • (١٧١) إِذْ قَالَ لَهُمْ
شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ • (١٧٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • (١٧٣) فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُوا • (١٧٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ • (١٨٠) ﴾

أصحاب الأيكة هم أهل مدين على الصحيح وكان نبي الله شعيب من أنفسهم
والأيكة شجرة ، وقيل شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها فأمرهم شعيب بترك
عبادتها وعبادة الواحد الأحد ، قيل إن شعيباً بعث إلى أمتين أو ثلاث أمم والحقيقة ما
بعثه الله إلا لأصحاب الأيكة الذين هم أنفسهم أصحاب مدين ولكن وصفوا في كل
مقام بشيء ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء الكيل والميزان كما في قصة مدين سواء
بسواء فدل ذلك على أنهم أمة واحدة .

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ • (١٨١)
وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ • (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ
وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ • (١٨٣) وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ • (١٨٤) ﴾



بأمرهم عليه السلام بإيفاء الكيل والميزان ، وينهاهم عن التططيف فيهما فقال :
﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ﴾ أي اجعلوه تاما وافيا في البيع والشراء ،
خذوا كما تعطون وأعطوا كما تأخذون من غير تططيف . ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾
والقسطاس هو الميزان ، وقيل : القسطاس العدل وقوله : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾
أي لا تنقصوهم أموالهم ﴿ ولا تعتوا في الأرض مفسدين ﴾ يعني قطع الطريق وقوله :
﴿ واتقوا الله الذي خلقكم والجبل الأولين ﴾ يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم
الأوائل كما قال موسى عليه السلام : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا
بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا
مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٨٩) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كُنَّا أَكْثَرَهُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿ (١٩٠) وَإِنْ رَبُّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٩١) ﴿

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما اجابت به ثمود لرسولها ، تشابهت قلوبهم فقالوا : ﴿ إنما أنت من المسحورين ﴾ أي المسحورين ﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا وإن ظنك لمن الكاذبين ﴾ أي تعتمد الكذب وإنك لست مرسلًا ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ أي أسقط علينا قطعاً من السماء ، كما قالت قريش وأخبر عنهم الله تعالى في قوله عز وجل ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً... ﴾ إلى أن قالوا ... ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي باله والملائكة قبلاً ﴾ وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلاء : ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء ... ﴾ الآية ﴿ قال ربِّي أعلم بما تعملون ﴾ أي الله أعلم بكم وما تستحقون من العذاب ، فوقع بهم ما سألوهم جزاءً وفاقاً. ولهذا قال تعالى : ﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ قال قتادة : قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه : إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلمهم منه شيء ، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابةً فانطلق إليها أحدهم فاستظل بها فأصاب تحتها برداً وراحة ، فأعلم بذلك قومه فأتوها جميعاً فاستظلوا تحتها ، فأججت عليهم ناراً . وهكذا روي عن عكرمة ، وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم قال ابن عباس : ... فذلك يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم ﴿ إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ أي العزيز في انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ
الْأَمِينُ ﴿ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (١٩٤)

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾

يخبر تعالى عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿وإنه﴾ أي القرآن ﴿لتنزيل رب العالمين﴾ الذي أوحاه إليك ﴿نزل به الروح الأمين﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿على قلبك لتكون من المنذرين﴾ أي نزل به على قلبك سالماً من الزيادة والنقص لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه ، وتبشربه المؤمنين المتبعين له ﴿بلسان عربي مبين﴾ أي أنزلنا القرآن باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل ليكون واضحاً قاطعاً للعدو مقيماً للحجة دليلاً إلى المحجة .

روى ابن أبي حاتم عن ابراهيم التيمي عن أبيه قال : ٣٨٥- [بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه في يوم دجن إذ قال لهم : « كيف ترون بواسقها ؟ » قالوا : ما أحسنها وأشد تراكها قال : « فكيف ترون قواعدها ؟ » قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها ، قال « فكيف ترون جريها ؟ » قالوا ما أحسنه وأشد سواده قال : « فكيف ترون رحاها استدارت ؟ » قالوا : ما أحسنها وأشد استدارتها . قال : « فكيف ترون برقها : أوميض أو خفق أم يشق شقاً ؟ » قالوا بل يشق شقاً . قال « الحياء الحياء ان شاء الله » قال : فقال رجل : يا رسول الله ، بأي وأمي ما أفصحك ، ما رأيت الذي هو أعرب منك قال : فقال « حق لي وإنما أنزل القرآن بلساني والله يقول : ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ » .

﴿وإنه لفي ذبر الأولين﴾ (١٩٦) ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ (١٩٧) ﴿ولوا نزلناه على بعض الأعجمين﴾ (١٩٨) ﴿فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ (١٩٩) ﴿﴾

يقول تعالى : وان ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين الماثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيباً في ملته بالبشارة بأحمد : ﴿ ولما قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل اني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ والزبر جمع زبور وهو الكتاب ، والزبور الكتاب الذي نزل على داود عليه السلام ومعنى زبر الأولين أي كتب الأولين ثم قال تعالى : ﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه

علماء بني اسرائيل ﴿ أي أو ليس يكفهم من الشاهد الصادق على ذلك أن علماء بني اسرائيل يحدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها ، والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته كعبد الله بن سلام وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ أي أن قريشاً من شدة عنادهم وكفرهم لهذا القرآن : أنه لو نزل على رجل من الأعاجم من لا يدري من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب بيانه وفصاحته لا يؤمنون به كما قال تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إن الذين حقَّتْ عليهم كلمة ربِّك لا يؤمنون ﴾ .

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿ (٢٠١) فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿ (٢٠٩)

يقول تعالى : ﴿ كذلك سلكناه في قلوب المجرمين ﴾ أي كذلك أدخلنا التكذيب والكفر والجحود والعناد في قلوب المجرمين جزاءً وفاقاً لما كذبوا به أول مرة فسلكناه في قلوبهم عقاباً لهم وجعلناهم ﴿ لا يؤمنون به ﴾ أي بالحق الذي كفروا به ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ حين لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴿ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ﴾ أي عذاب الله ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ فيقولوا هل نحن منظرون ﴿ أي يتنون لو يؤجلون ليعملوا في زعمهم بطاعة الله ، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً كما حصل لفرعون لعنه الله . ولكن ما ينفع الندم إذا أتى أمر الله .

وقوله تعالى : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ إنكار عليهم وتهديد لهم ، فقد كانوا

يكذبون بالعذاب ويستبعدون وقوعه ﴿أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ أي لو أخرناهم وأملينا لهم حيناً من الزمن ، فما يجدي ذلك إذا جاء أمر الله كما قال تعالى : ﴿وما يغني عنه ماله إذا تردى﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وما أهلكنا من قرية إلاّ لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين﴾ وهذا إخبار عن عدله تعالى انه لا يهلك أمة إلاّ بعد الإنذار ببعثة الرسل وقيام الحجة عليهم . كقوله تعالى : ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ .

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢١٠) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٢١١) ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ (٢١٢) ﴿

يخبر تعالى عن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك لأنه ما ينبغي لهم أي ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم لأن من سجاياهم الفساد ، وإضلال العباد ، والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة . ولهذا قال تعالى : ﴿وما ينبغي لهم﴾ وقوله تعالى : ﴿وما يستطيعون﴾ أي ولو انبغى لهم ، ما استطاعوا حمله وتأديته لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهاباً في مدة إنزال القرآن على رسول الله ﷺ فلم يخلص من الشياطين أحد إلى استماع حرف واحد منه لثلاث شتبه الأمر ، وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأييده لكتابه ورسوله ولهذا قال عز من قائل : ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ .

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ (٢١٣) ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤) ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١٥) ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢١٦) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٢١٨) ﴿وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (٢١٩) ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٢٠) ﴿

يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له ، ويخبر أن من أشرك به عذبه . ثم أمر رسوله ﷺ أن يُنذر عشيرته الأقربين ، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه عز وجل ، وأمره أن يُلين جانبه لمن اتبعه من المؤمنين وليتبرأ ممن عصاه كائناً من كان من خلقه ، ولهذا قال تعالى : ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هي جزء من أجزائها. كما قال تعالى : ﴿لَا تَذَكَّرْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ وفي صحيح مسلم ٣٨٦ [والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني . ثم لا يؤمن بي إلاّ دخل النار] .

وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة فلنذكر ما تيسر منها :

. الحديث الأول : روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ٣٨٧ [لما أنزل الله عز وجل : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى ﴿يا صباحاه﴾ فاجتمع الناس إليه بين رجل يخيء إليه وبين رجل يبعث رسوله ؛ فقال رسول الله ﷺ : « يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني لؤي أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ » قالوا نعم قال « فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب ، تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلاّ لهذا؟ وأنزل الله : ﴿تَبَّتْ يُدَا أُبَى لَهَبٌ وَتَبَ...﴾ ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الأعمش به .

. الحديث الثاني : قال الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ٣٨٨ [لما نزلت هذه الآية : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعمّ وخصّ فقال : « يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد انقذي نفسك من النار فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلاّ أن لكم رحماً سأبلها بيلالها »]. ورواه مسلم والترمذي وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة .

. الحديث الثالث - : روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : ٣٨٩ [لما نزلت : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال : ﴿يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بني عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي

ما شتم [انفراد بإخراجه مسلم . وقوله تعالى : ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ أي في جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومعلي كلمتك . وقوله تعالى : ﴿ الذي يراك حين تقوم ﴾ أي هو يراك ومعني بك حين تقوم إلى الصلاة . وقوله تعالى : ﴿ وتقابلك في الساجدين ﴾ أي ويراك في الصلاة وحدك ويراك مع الجماعة من صحابتك وقوله تعالى : ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بمركاتهم وسكناتهم . كما قال تعالى : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴾ الآية ...

﴿ هَلْ أَتَبُّكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿ (٢٢٣) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ ﴿ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿ (٢٢٧)

يخاطب تعالى الذين زعموا من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ عن ربه ليس حقاً وإنما افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به ربي من الجن فتره الله سبحانه وتعالى جناب رسوله ﷺ عن قولهم وافتراءهم ، ونبهه أن ما جاء به إنما هو من عند الله وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وأنه ليس من قبل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم . وإنما ينزلون على من يشاكلهم . ويشابههم من الكهان الكذبة . ولهذا قال تعالى : ﴿ هل أتبكم ﴾ أي أخبركم ﴿ على من تنزل الشياطين ﴾ تنزل على كل أفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿ أي كذوب في قوله وهو الأفَّاك ﴾ أَثِيمٍ ﴿ وهو الفاجر في أفعاله . فهذا الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان ، وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة ﴿ يلقون السمع ﴾ من السماء ، فيسمعون الكلمة من علم الغيب ، فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيحدثون بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت

من السماء كما صح بذلك الحديث كما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها : [٣٩٠] سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال : « إنهم ليسوا بشيء » قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً فقال النبي ﷺ « تلك الكلمة من الحق يخطئها الجني فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاج فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة [] وقوله تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ يعني الشعراء الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن قاله ابن عباس وغيره وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فثأم من الناس : ولهذا فثأم من الناس. فأنزل الله تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالمرج إذ عرض شاعر ينشد : فقال النبي ﷺ « ٣٩١ [خذوا الشيطان - أو أمسكوا الشيطان . لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحاً خير له من أن يمتلئ شعراً] .

وقوله تعالى : ﴿ ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون ﴾ أي في كل لغو وكل فن من الكلام يخوضون ، مرة في شتيمة هذا ومرة في مدح ، فيمدح ويذم بباطل ، وأكثر قولهم يكذبون فيه ، ويتجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم فيكثررون بما ليس لهم . ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حداً هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ... ، لأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ على قولين والأصح أنه لا يقام عليه الحد إلا إذا قارف فعلاً ، يوجب حداً فإن عمر بن الخطاب بلغه أن عاملة على ميسان من أرض البصرة أنه قال شعراً ذكر فيه معاقرة الجحرة والسماع من القيان فعزله ولم يُقم عليه الحد ، لأنه تأكد أنه لم يفعل شيئاً مما ذكره بشعره ولما حضر عاملة بين يديه قال : والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني فقال عمر أظن ذلك ولكن والله لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلت ما قلت .

والمراد : أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر لأن حاله مناف لحالهم كما قال تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴾ تنزيل من رب العالمين ﴿ وهكذا قال ههنا : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ . نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون ﴾ إلى أن قال : ﴿ ... والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ، إن هذا استثناء مما تقدم قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم ولا شك أن هذا الاستثناء يدخل فيه كل شاعر مؤمن ولو كان سابقاً مشركاً آمناً وتاب وأناب ورجع وأقنع وعمل صالحاً وذكر الله كثيراً في ما تقدم من الكلام السيء فإن الحسنات يذهبن السيئات وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه كما قال عبدالله بن الزبير حين أسلم :

يا رسولَ الملِكِ إنَّ لساني * راتقٌ ما فتقْتُ إذْ أنا بُورُ
إذْ أجاري الشيطانَ في سَنَنِ * الغيِّ ومن مالٍ مِلَّةٌ مَثْبُورُ

وقوله تعالى : ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قال ابن عباس: يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين ؛ وكذا قال مجاهد وقتادة . وهذا كما ثبت في الصحيح ٣٩٢ [أن رسول الله ﷺ قال لحسان : اهجم - أو قال - هاجهم وجبريل معك] روى الإمام أحمد عن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ : ٣٩٣ [أن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل فقال رسول الله ﷺ « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل »]

وقوله تعالى : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ ان هذه الآية عامة في كل ظالم من الشعراء وغيرهم . وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : ٣٩٤ [إياكم والظلم فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة] .

وإلى هنا آخر اختصار تفسير سورة الشعراء والحمد لله رب العالمين .

٣ ربيع الآخر سنة ١٣٩٠

الموافق ٧ حزيران سنة ١٩٧٠

(٢٧) سُورَةُ النَّمْلِ مَكِّيَّةٌ وَأَنبَأْنَا بِهَا ثَلَاثًا وَتَسْعُونَ

نزلت بعد الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ • (١) هُدًى
وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ • (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ • (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينًا
لَّهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ • (٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ
وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ • (٥) وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ
لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ • (٦)

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور . وقوله تعالى :
﴿ تِلْكَ آيَاتُ ﴾ أي هذه آيات ﴿ القرآن وكتاب مبين ﴾ أي بين واضح ﴿ هُدًى وبشرى
للمؤمنين ﴾ أي هو بشارة وهدى لمن اتبعه وصدقته ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة
وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ أي يقيمون الصلاة المكتوبة ويؤتون الزكاة المفروضة وابقنوا
بالدار الآخرة والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرها وشرها والجنة والنار . كما
قال تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ﴾ الآية
ولهذا قال هاهنا : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي يكذبون بها ﴿ زيناً لهم أعمالهم
فهم يعمهون ﴾ أي حسناً لهم ما هم فيه ومددنا لهم في غيهم فهم يتيهون في ضلالهم
جزاء تكذيبهم بالآخرة . ﴿ أولئك لهم سوء العذاب ﴾ أي في الدارين ﴿ وهم في الآخرة

هم الآخسرون ﴿ أي لا يخسر سواهم . وقوله تعالى : ﴿ وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ أي إنك يا محمد لتأخذ القرآن من عند حكيم في أمره ونهيه عليم بالأمور جليلها وحقيرها فخيرها هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنَّ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْرِياً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُغُورًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿ (١٤) ﴾

يذكر تعالى نبيه محمداً ﷺ ما كان من أمر موسى عليه السلام ، كيف اصطفاه الله وكلمه ، وأعطاه المعجزات الباهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه فكفروا بها ، واستكبروا عن اتباعه فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ ﴾ حين سار بأهله فأضل الطريق في الليل ﴿ إِنِّي آنستُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ عن الطريق ﴿ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي تستدفئون به وكان كما قال . فإنه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس منها نوراً عظيماً . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنَّ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ حيث رأى ناراً تضطرم في شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة

ونفصرة ثم رفع رأسه ، فإذا نورها متصل بعنان السماء ، قال ابن عباس وغيره . لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهج ، فوقف موسى متعجباً مما رأى ﴿ نودي أن بورك من في النار ﴾ أي تقدس ﴿ ومن حولها ﴾ أي من الملائكة قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير .

وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن مرة ، سمع أبا عبيدة يحدث عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٣٩٥ [إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار ، قبل الليل « زاد المسعودي » وحجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره . ثم قرأ أبو عبيدة ﴿ أن بورك من في النار ومن حولها ﴾ [وأصل الحديث يخرج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة . وقوله تعالى : ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ المنزه عن مماثلة المحدثات . وقوله تعالى : ﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عز كل شيء وقهره ، الحكيم في أقواله وأفعاله . ﴿ وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولتى مدبراً ولم يعقب ﴾ أي أمره أن يلقي عصاه فآلقها من يده ، انقلبت في الحال حية عظيمة في غاية الكبر وسرعة الحركة ، والجنان نوع من الحيات أسرعها حركة وأكثرها اضطراباً . وفي الحديث نهي عن قتل جنان البيوت فلما عاين موسى ذلك ﴿ ولتى مدبراً ولم يعقب ﴾ من خوفه . فقال تعالى : ﴿ يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ﴾ أي لا تخف مما ترى وإني اصطفتك رسولاً ونبياً وجيهاً ، وقوله تعالى : ﴿ إلا من ظلم ﴾ ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفورٌ رحيم ﴾ هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر ، فمن عمل عملاً ثم أقبل عنه وتاب فالله يتوب عليه كقوله تعالى : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ هذه آية أخرى ودليلٌ باهر على قدرة الله وهي انه إذا أدخل يده في جيب درعه خرجت بيضاء كأنها قطعة قمر ، لها لمعان تلالاً كالبرق الخاطف . وقوله تعالى : ﴿ في تسع آيات ﴾ أي هاتان ثنتان من تسع آيات أو يدك بين وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه ﴿ وإنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ والتسع آيات هي التي قال الله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ ^(١) كما تقدم تقرير ذلك هنالك . وقوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم آياتنا مبصرة ﴾ أي

واضحة ﴿ قالوا هذا سحر مبين ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا صاغرين ﴿ وجحدوا بها ﴾ ظاهراً ﴿ واستيقنتها أنفسهم ﴾ أي علموها أنها حق من عند الله لكنهم عاندوها ﴿ ظلماً وعلوا ﴾ أي ظلماً من أنفسهم واستكباراً عن اتباع الحق ولهذا قال تعالى: ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أي انظر كيف كانت عاقبتهم من الهلاك والفرق عن آخرهم في صبيحة واحدة . وفحوى الخطاب : تحذير قريش والمشركين عامة وسائر الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم من تكذيبهم لمحمد ﷺ أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من باب أولى ، لأن محمداً أعظم من موسى وبرهانه أدل وأقوى ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به ، وأخذ الموثيق له ، عليه من ربه وعلى الأنبياء عامة أفضل الصلوات وأتم التحيات .

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ • (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ • (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ • (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَخْطِئَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ • (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ • (١٩)

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة ما جمع لهما بين سعادة الدارين . والملك والتمكين التمام والنبوة والرسالة . ولهذا قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي

فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ فَأَيُّ نِعْمَةِ أَفْضَلٍ مِمَّا أُوتِيَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ أَيُّ فِي الْمُلْكِ وَالنَّبُوَّةِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ وَرِاثَةُ الْمَالِ - فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا تَوَرِثُ أَمْوَالَهُمْ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ [٣٩٦] نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نَوَرِثُ ، مَا تَرَكْنَاهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ] . وَقَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أَيُّ أَخْبَرَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنِعْمِ اللَّهِ وَمَا وَهَبَهُ مِنَ الْمُلْكِ التَّامِّ حَتَّى أَنَّهُ سَخَّرَ لَهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَالطَّيْرَ ، وَكَانَ يَعْرِفُ لُغَةَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ أَيْضًا وَهَذَا مَا لَمْ يَعْطِهِ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ فِيمَا عَلِمْنَاهُ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴿ إِنْ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ أَيُّ الظَّاهِرِ الْبَيِّنِ عَلَيْنَا . وَلَمَّا قَبِضَ مَلِكُ الْمَوْتِ رُوحَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الطَّيْرَ أَظْلِي دَاوُدَ فَظَلَّلَتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أَيُّ وَجُمِعَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ ، يَعْنِي رَكِبَ فِيهِمْ فِي أَبْهَةِ وَعَظْمَةِ كَبِيرَةٍ فِي الْإِنْسِ فَالْجِنِّ فَالطَّيْرِ وَكَانَتْ الطَّيْرُ تَظِلُّهُ فِي الْحَرِّ بِأَجْنَحَتِهَا وَقَوْلُهُ : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أَيُّ يَكْفُ أَوْلَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ لثَلَا يَتَقَدَّمُ أَحَدٌ عَنْ مَنَزَلَتِهِ الَّتِي هِيَ مَرْتَبَةٌ لَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ ﴾ أَيُّ حَتَّى إِذَا مَرَّ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجِيُوشِ وَالْجُنُودِ عَلَى وَادِي النَّمْلِ ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فَفَهِمَ سُلَيْمَانُ مَقَالَتَهَا ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أَيُّ أَهْمَنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي مَنَنْتَ بِهَا عَلَيَّ مِنْ تَعْلِيمِي مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ ، وَعَلَى وَالِدَيَّ بِالْإِسْلَامِ لَكَ وَالْإِيمَانُ بِكَ وَإِنْ أَعْمَلَ عَمَلًا نَجَبًا وَيَكُونُ مَقْبُولًا عِنْدَكَ ﴿ وَأَدْخَلَنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ أَيُّ إِذَا تَوَفَّيْتَنِي فَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ .

وَالْغَرَضُ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهِمَ قَوْلَهَا وَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ ذَلِكَ ، وَهَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ جَدًّا .

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ

الْأَغَاثِينَ • (٢٠) لَا عُذْبَتُهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا ذُبْحُهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي

بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ • (٢١) ﴿

قال محمد بن اسحق : كان سليمان عليه السلام إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه تفقد الطير ، وكان فيما يزعمون يأتيه نوب من كل صنف من الطير كل يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد ﴿ فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ أخطأه بصري من الطير ، أم غاب فلم يحضر ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه ﴾ لأعذبه بنتف ريشه وتشميشه أو لأقتلنه ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ أي بعذر واضح . ولما قدم الهدهد قصد مجلس سليمان .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ (٢٢) ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٣) ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَمْتَدُونُ ﴾ (٢٤) ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْغَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ (٢٥) ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢٦) ﴿

يقول تعالى : ﴿ فمكث ﴾ الهدهد ﴿ غير بعيد ﴾ أي غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال لسليمان : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿ وجئتك من سبأ نبأ يقين ﴾ أي بنجر صدق حق يقين ، وسبأهم حمير وهم ملوك اليمن ثم قال : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ قال الحسن البصري : وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ، وكانت بأرض يقال لها مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء وكان أولو مشورتها ثلثائة واثنى عشر رجلاً كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل والله أعلم .

وقوله : ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ أي ما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر والآلئ تجلس عليه ، ولها ستائة امرأة



(٢٧- النمل - ج ١٩) كانت بلقيس هي وقومها يعبدون الشمس ويذرون خالقها وكل شيء ٣٦١

تلي الخدمة وقوله : ﴿ وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ﴾ أي عن طريق الحق ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ وقوله ... ، ﴿ الا يسجدوا لله ﴾ أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي اخلاص السجود لله تعالى وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها . كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ولا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ والمعنى : ألا يا قوم اسجدوا لله .

وقوله : ﴿ الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ﴾ أي ما جعل فيهما من الأرزاق المطر من السماء . والنبات من الأرض . وهذا مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاسية ما ذكره ابن عباس وغيره من أن الهدهد يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلها .

وقوله ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ أي يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال كقوله تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ وقوله : ﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ الذي ليس في المخلوقات أعظم منه . ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير ، وعبادة الله وحده والسجود له نهي عن قتله ، كما رواه الإمام أحمد وابو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ٣٩٧: [نهى النبي ﷺ عن قتل اربع دواب : النملة والنحلة والهدهد^(١) والصرد^٢ وإسناده صحيح .



﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ • (٢٧)
أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظَرُ مَاذَا يَرْجِعُونَ • (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيَّتْ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ • (٢٩)
إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • (٣٠) أَلَا تَعْلَمُوْا
عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ • (٣١) ﴿

يخبر تعالى عن سليمان وقوله للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم ﴿ قال سننظر

(١) الصرد : طائر ضخيم الرأس أبيض البطن أخضر الظهر يصطاد صفار الطير .

أصدمت أم كنت من الكاذبين ﴿ أي أصدمت في خبرك هذا أم وددت أن تتخلص بالكذب من العقاب ﴾ إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴿ فقد كتب سليمان كتابه وأعطاه ذلك الهدهد فحملة إلى بلقيس وقومها فجاء قصرها إلى الخلوة التي تخلي فيها بنفسها فألقاه إليها من كوة هناك بين يديها ثم تولّى ناحية أدباً فتحيّرت وهالها ما رأت ، ثم عمدت إلى الكتاب فقرأته فإذا فيه : ﴿ إنّه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلّوا عليّ وأتوني مسلمين ﴾ فجمعت الأمراء والوزراء وأكابر مملكتها ، ثم قالت لهم : ﴿ يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتاب كريم ﴾ تعني بكرمه ما رآته من عجب أمره كون طائر ذهب به فألقاه إليها ، ثم تولّى عنها أدباً وإنه لا يقدر على مثل هذا أحد من الملوك ثم قرأته عليهم ... فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام ، وأنه لا قبل لهم به وإنه يأمرهم ألا يتكبروا ويتجبروا عليه بل يأتوه مسلمين موحدن مخلصين طائعين . قال ميمون بن مهران كان رسول الله ﷺ يكتب : باسمك اللهم حتى نزلت هذه الآية فكتب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

قال العلماء : لم يكتب أحد ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ قبل سليمان عليه الصلاة والسلام . ﴿ أن لا تعلّوا عليّ ﴾ لا تجبروا ﴿ وأتوني مسلمين ﴾ موحدن

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوَّلُوا قُوَّةً وَأَوَّلُوا بَأْسًا شَدِيدًا وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٣٥)

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها ، ولهذا قالت : ﴿ يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ﴾ أي حتى تحضروني وتشيروا عليّ ﴿ قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ﴾ أي نوهوا لها بعددهم وعدتهم وقوتهم ثم فوضوا الأمر إليها فقالوا : ﴿ والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ﴾ إن شئت

حاربناه أو هادناه فالأمر إليك نمتله ونطيعه ، فلما علمت وعلموا بأنه لا قبل لهم بجنوده وما سُخِّرَ لَهُ من الأنس والجن والطير وما شاهدت من أمر الهدهد فقالت : إني أخشى أن يقصدنا بجنوده ويهلكنا ﴿ ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ أي إذا دخلوها عنوة أفسدوها ﴿ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ أي أهانوها قتلاً أو أسراً قال الرب عز وجل : ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ ثم عدلت إلى المصالحة والمصانعة فقالت : ﴿ وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ فإن قبلها أي قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (٣٦) أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَّاَتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿ (٣٧) ﴾

إن الهدية التي أرسلتها بلقيس إلى سليمان عليه السلام لم ينظر إليها ولا اعتنى بها بل أعرض عنها وقال منكرأ عليهم : ﴿ أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ ﴾ ؟ أي اتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملكيكم ؟ ﴿ فما آتاني الله خير مما آتاكم ﴾ أي الذي اعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ﴿ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ بالهدايا والتحف أما أنا فلا أقبل منكم إلاّ الإسلام أو السيف . قال الأعمش عن ابن عباس : أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة ، فلما رأت رسلها ذلك قالوا : ما يصنع هذا بهديتنا ؟ وفي هذا جواز بتهيؤ الملوك واطهارهم الزينة للرسل والقصاد ، قال سليمان : ﴿ إرجع إليهم ﴾ أي بهديتهم ﴿ فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ﴾ أي لا طاقة لهم بقاتلهم ﴿ ولنخرجهم منها أذلة ﴾ أي من بلدتهم ﴿ وهم صاغرون ﴾ أي مهانون مدحورون . فلما رجع وفد بلقيس بهديتها وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها ، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة ، معظّمة لسليمان نارية متابعته على الاسلام ، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه : ووفودهم إليه فرح بذلك وسره .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي

مُسْلِمِينَ * (٣٨) قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ؕ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * (٤٠) ﴿٤٠﴾

فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت : قد والله عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة وما نضنع بمكابرته شيئاً وبعثت إليه : إني قادمة اليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه وكان من ذهب ولؤلؤ وزبرجد فجعل في سبعة آيات بعضها في بعض وأوصت بحفظه ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قبيل من ملوك اليمن وكانت الجن تأتي لسليمان بأخبار بلقيس كل يوم وليلة حتى إذا قربت جمع من عنده من الجن والإنس فقال : ﴿ يا أيها الملأ أياكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتيوني مسلمين ﴾ ففكره أن يأخذه بعد إسلامهم قبل أن تحرم عليه دماؤهم وأمواهم ﴿ قال عفريت من الجن ﴾ أي مارد منهم ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ أي من مجلسك أي من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿ واني عليه لقوي أمين ﴾ أي قوي على حمله أمين على ما فيه من الجواهر فأراد سليمان أعجل من ذلك إظهاراً لعظمة ما وهب الله له من الملك وما سخر له من الجنود الذي لم يعط أحد من قبله ولا يكون لأحد من بعد ، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن الإتيان بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه أمر خارق عظيم لاسيما وقد حجبه بالأغلاق والأقفال والحفظة ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ قال ابن عباس : وهو اصف كاتب سليمان وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم ^(١) ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد

(١) قلت : وقيل جبريل عليه السلام ، وقيل ملك أئد الله به سليمان عليه السلام وقيل هو سليمان نفسه كأنه استبطاً للعفريت فقال له أنا أريك ما هو أسرع مما تقول . وأرجح أنه سليمان عليه السلام نفسه لأنه نبي ورسول وملك فلا ينبغي أن يكون من حاشيته أعلم بالكتاب منه فالذي عنده علم من الكتاب أي يكون أحد حاشيته أو كاتبه ... ؟ ويكون لديه من القوة أعظم مما لدى سليمان نفسه؟ وكيف يكون ذلك وقد استجاب الله دعوة سليمان «وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب» فكيف يكون لكتابه قوة أقوى =

(٢٧-النمل-ج ١٩): فأجابه سليمان: بل أنا... وقبل ارتداد طرفك! فإذا العرش مائل! ٣٦٥

إليك طرفك ﴿ فلم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه ﴿ قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ومن شكر فأنما يشكر لنفسه ﴿ أي هذا من نعم الله علي ليختبرني أشكر نعمته أم أكفرها .

وقوله : ﴿ ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴿ أي هو غني عن العباد وعبادتهم . كريم في نفسه وإن لم يعبدوه فإن عظمته ليست مفقودة إلى أحد وهذا كما قال موسى : ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴿

﴿ قَالَ نَكُرُّوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿ (٤١) ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿ (٤٢) ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿ (٤٣) ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأُتِمَّمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ (٤٤) ﴿

لما جاء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به فقبرت بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته أتعرفه أم لا فقال : ﴿ نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ﴿ فزادوا فيه ونقصوا ﴿ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ﴿ فكان فيها ثبات وعقل ولها دهاء وحزم فلم تقطع بأنه هو ﴿ قالت كأنه هو ﴿ أي يشبهه ويقاربه ، وهذا غاية في الذكاء والحزم . وقوله : ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴿ أي كان مسلماً قبلها وما منعها من عبادة الله وحده إلا ان كانت من قوم كافرين . لذا قال سليمان ﴿ وصدّها ما كانت تعبد من دون الله أنها كانت من قوم

= منه أو ليست القوة من أهم أسباب الملك ، لا سيما وإنه نبي مؤيد بالهجات ... فبدهي أن يكون عند سليمان علم من الكتاب وذلك من باب أولى من جميع أفراد ملكته ... وإلا فيكون في ملكته من هو أصلح للنبوة والملك منه !!! يا سبحان الله... أصف يكون عنده عام من الكتاب وسليمان يحل هذا العالم... ؟؟؟؟
فأما إذا لم يكن سليمان عليه السلام ، فلا بد من أن يكون جبريل عليه السلام أو يكون ملكاً آخر ... ويستبعد جداً أن يكون أحداً من حاشيته ... والله تعالى أعلم .

كافرين ﴿ وهذا من تمام كلام سليمان عليه السلام ، في قول مجاهد وسعيد بن جبير ويؤيد قول مجاهد أنها إنما اظهرت الاسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتي ...

وقوله : ﴿ قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة ﴾ وكشفت عن ساقها ﴿ وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين ، فبنوا لها قصرًا عظيمًا من الزجاج وأجرى تحته الماء فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء لكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه . وذلك ليربها ملكاً هو أعز من ملكها فلما رأته حسبته لجة ﴾ من ماء وكشفت عن ساقها لتخوضه ﴿ قال إنه صرح ممرد من قوارير ﴾ فلما وقفت على سليمان دعاها الى عبادة الله تعالى ، وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله فقالت بقول الزنادقة فوقع سليمان ساجداً لله إعظاماً لما قالت وسجد معه الناس فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع فلما رفع سليمان رأسه قال : ويحك ماذا قلت ؟ فقالت : ﴿ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ فأسلمت وحسن إسلامها وأخلصت في عبادة الله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤٦) قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ (٤٧) ﴿

ينبغي تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ أي مؤمن وكافر كقوله تعالى : ﴿ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ وها هنا : ﴿ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ﴾ أي لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته ولهذا قال : ﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرونا بك وبمن معك ﴾ أي ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً وذلك أنهم - لشقاؤهم - كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال هذا من قبل صالح

وأصحابه كما قال تعالى مخبراً عن قوم فرعون : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ وقال هؤلاء : ﴿ اطيروا بل وبمن معك قال طائرکم عند الله ﴾ أي يجازيكم على ذلك ﴿ بل أنتم تفتنون ﴾ أي تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (٤٨) ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٤٩) ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥٠) ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٥١) ﴿ فَتِلْكَ يَوْمَئِذٍ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٢) ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٥٣) ﴿

يخبر تعالى : عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم الى الضلال والكفر وتكذيب صالح عليه السلام حتى آل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة وهموا بقتل صالح عليه السلام بأن يُبيّتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلةً ، ثم يقولوا لأهله وأقربيه ، إنهم ما علموا شيئاً من أمره وإنهم لصادقون . فقال تعالى : ﴿ وكان في المدينة ﴾ أي مدينة ثمود ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أي تسعة نفر ﴿ يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ وهؤلاء هم الذين عقروا الناقة ، وكان أشقاهاً اسمه قدار بن سالف عاقر الناقة بيده وهو الذي ذكره الله بقوله : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ والغرض ان هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد بكل طريق يقدرّون عليها .

وقوله تعالى : ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيّته وأهله ﴾ أي تحالفوا على اغتيال نبي الله صالح عليه السلام ، وبينما هم يتسلقون على صالح ليقتلوه ويفتكوا به إذ بعث عليهم صخرةً فاهمدهم ، وأنجى الله صالحاً ومن معه ولهذا قال تعالى : ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا

مكراً وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿

﴿٥٤﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾
أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ
لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا
أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ
مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٨﴾



يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه أنذر قومه نقمة الله بهم في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ، وهي إتيان الذكور دون الإناث فاستغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء . فقال : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تبصرون ﴾ أي يرى بعضكم بعضاً ، وتأتون في ناديكم المنكر ﴿ أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أي لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً . ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أي يتخرجون من فعل ما تفعلونه لإقراركم عليه فاخرجوهم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم فعزموا على ذلك ، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالهم . قال الله تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أي من الهالكين مع قومها ، لأنها كانت ردة لهم على دينهم وعلى طريقته في رضاها بأفعالهم القبيحة ، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكريماً لنبي الله ﷺ لا كرامة لها ^(١) . وقوله تعالى :

(١) قلت : وهذا ما يؤيد رأينا بمعصية نساء الأنبياء من اقتراف الزنا حتى لو كانت كافرة فإنه قد يقدر عليها الكفر والشرك ولا يقدر عليها الزنا تنزيهاً لبيوتهم الطاهرة وأنسابهم الطيبة أن تلوثها الفاحشة فالأنبياء معصومون من أن يكونوا أزواجاً لزانيات فلزم أن يكن يساؤهم طاهرات من الزنا ومعصومات منه بمعصيتهن أي تبعاً لمعصية الأنبياء من هذه الفواحش .

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ أي حجارةً من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد. ولهذا قال : ﴿ فساء مطر المنذرين ﴾ أي الذين قامت عليهم الحجة ، ووصل إليهم الإنذار فخالفوا الرسول وكذبوه وهموا بإخراجه من بينهم .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۗ اللَّهُ خَيْرُ
أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ
تَنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (٦٠)

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول : ﴿ الحمد لله ﴾ أي على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى ، وأن يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم وهم الأنبياء والرسل الكرام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام .

كقوله تعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ والمراد أن الله تعالى بعدما أخبر ما فعل بأوليائه من التأييد والنصر وما أحلّ بأعدائه من الخزي والنكال والقهر، أمر رسوله ومن اتبعه أن يحمده على جميع أفعاله وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار

وقوله تعالى : ﴿ الله خير أم ما يشركون ﴾ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى ثم قال تعالى : ﴿ أم من خلق السموات والأرض ﴾ أي خلق السموات وما فيها من الكواكب والأفلاك والشموس التي لا يعلمها ولا يحصيها إلا هو وخلق الأرض وما جعل فيها من الجبال والسهول والأوعار والقيافي والقفار والزروع والأثمار والبراري والبحار وما فيهن ومن فيهن ﴿ وأنزل لكم من السماء ماء ﴾ أي جعله رزقاً للعباد ﴿ فأنبتنا به حدائق ﴾ أي بساتين ﴿ ذات بهجة ﴾ أي منظر حسن بهي ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ أي لم تكونوا تقدرون على ذلك فهو تعالى المنفرد بالخلق المستقل بالرزق كما يعترف بذلك المشركون كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ أي هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره . فكما أنه خالق ورازق وحده لزم أن يكون معبوداً

وحده لا شريك له، ولهذا قال سبحانه : ﴿إِلَهَ مَعِ اللَّهِ﴾ أي أُمعبود مع الله فالجواب أن لا أحد فيقال : كيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المنفرد بالخلق والرزق والتدبير ؟ كما قال تعالى : ﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ الآية وقوله تعالى ها هنا ﴿أَمَّنْ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكلمة ﴿أَمَّنْ﴾ في هذه الآيات كلها تقديره أَمَّنْ يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها ، لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك وقد قال الله تعالى : ﴿الله خير أم ما يشركون﴾ ؟ . وقال في الآية الأخرى : ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ أي يجعلون لله نظيراً ومثيلاً مما لا يسمع ولا يبصر ولا يقدر على شيء من هذه الأصنام التي عبدوها من دون الله ؟ .

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ إلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴿﴾

يقول تعالى : ﴿أَمَّنْ جعل الأرض قراراً﴾ أي لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم فانها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾ أي جعل فيها الأنهار العذبة وسيرها في الأرض بحسب مصالح عباده ﴿وجعل لها رواسي﴾ أي جبالاً ترسيها وتثبتها لئلا تميد بكم ﴿وجعل بين البحرين حاجزاً﴾ أي بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا ، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة العذبة تسقي النبات والثمار ، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء من كل جانب وجعل ماءها أجاجاً لئلا يفسد الهواء بريحتها ﴿إله مَعَ اللَّهِ﴾ يعبد... ؟!! ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ إلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴿﴾

قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ يجيب المضطر إذا دعاه﴾ أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلاً إليه والذي لا يكشف الضرَّ المضرورين سواه . كقوله تعالى : ﴿واذا مسَّكم الضر في البحر ضلَّ من تدعون إلاَّ إياه﴾ روى الإمام أحمد عن رجل^(١) من بلهجم قال : ٣٩٨ قلت

(٢٧ - النمل - ج ٢٠) : أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ٣٧١

يا رسول الله إلامَ تدعو؟ قال : « أدعو إلى الله وحده الذي إن مسَّك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إذا أضللت بأرض كفر فدعوته ردَّ عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك » قال ؛ قلت أوصني ، قال : « لا تسبن أحداً ولا ترهذنَّ في المعروف ولو أن تلقى أخاك وانت منبسط اليه وجهك ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي وأترر إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين ، وإياك واسبال الإزار فإن اسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة » [ومن وجهٍ آخر ، زاد الصحابيُّ فقال : فما سببت بعده أحداً ولا شاةً ولا بعيراً .]

وحكي أن رجلاً رافق رجلاً آخر في سفر فغدر به وهمَّ بقتله فحاول التخلص منه بالتضرع وبتخويفه من الله فما كلن يزداد إلا إصراراً على قتله فقال : إذا دعني أصلي ركعتين قال: فخفف. فوقف يصلي ولكن ارتج عليه من شدة الخوف ولم يحضره من القرآن ولا حرف واحد قال فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول : هيه افرغ فأجرى الله على لساني قوله تعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي وبيده حربة فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده فخراً صريعاً فتعلقت بالفارس وقلت : بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . قال فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً .

وقوله تعالى : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ أي يخلف قرن قرناً وخلف سلفاً كقوله تعالى : ﴿ وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً كما قدمنا تقريره ^(١) وهكذا هذه الآية : أي أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل ﴿ أإله مع الله ﴾ أي بعد هذا التفصيل وإقامة حجج الله البالغة على أولئك الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر وعلموا أن الله هو المتفرد بالخلق ويجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وحده لا شريك له ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ أي ما أقل تذكركهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٦٣) ﴿

يقول تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أي بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية . كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْسُلِ الرِّيحَ بِشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجتدين القنطين ﴿ أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ أَمَّنْ يَبْدُوْا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٦٤)

أي هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الأرض كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ فهو تبارك وتعالى ويُنزل من السماء ماء مباركاً فيسلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والشمار والأزاهير ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ ﴾ الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى التي مرَّ ذكرها في الآيات المتقدمة ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على صحة عبادتكم لغير الله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في ذلك وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (٦٥) بَلْ أَدَارِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿ (٦٦)

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق انه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا اللَّهَ ﴾ استثناء منقطع ، أي لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل فانه المنفرد بذلك وحده لا شريك له . كما قال تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾

أي وما يشعر الخلائق جميعاً بوقت الساعة. كما قال تعالى : ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها . قالت : ٣٩٩ [من زعم أنه يعلم - يعني النبي ﷺ - ما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية لأن الله تعالى يقول : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾] .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها . وان علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا يتفهم ذلك وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ والمراد عائد على الكافرين فهم شاكون في وجودها ووقوعها ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ أي في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا إِنْ أُنْمِرُجُونَ ﴾ (٦٧) ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٦٨) ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٦٩) ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (٧٠) ﴿

يخبر تعالى عن المشركين المنكرين للبعث الذين قالوا : ﴿ لقد وُعِدْنَا هذا نحن وآباؤنا من قبل ﴾ أي نسمع ولا نرى حقيقة ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أي خرافاتهم . فرد الله عليهم : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهم ﴿ سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ أي المكذبين ، وكيف حلَّ بهم العذاب والنعال ، ونجى الله رسله الكرام ومن معهم . فدل على صحة رسالاتهم ، ثم قال تعالى مسلماً نبيّه ﷺ ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي لا تأسف على المكذبين ﴿ ولا تكن في ضيق مما يمكرون ﴾ في كيدك وتكذيبك فإني سأنصرك وأعلي دينك .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٧١) ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (٧٢) ﴿ وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٧٣)

وَأَنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ • (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ • (٧٥)

يخبر تعالى عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ فأجابهم تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ عسى أن يكون رُدْفٌ لَكُمْ بعض الذي تستعجلون ﴾ قال ابن عباس : ان يكون قرب لكم بعض الذي تستعجلون كقوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وإن ربك لذو فضل على الناس ﴾ أي في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم وهم مع ذلك لا يشكره إلا القليل منهم ﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ أي يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر كقوله تعالى : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما من غائبة في السماء والأرض ﴾ أي كل ما غاب عن العباد علمه في السماء والأرض إلا والله عالم به لا يعزب عن علمه ذرة ، وما من ذلك شيء ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ • (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ • (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ • (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ • (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ • (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ • (٨١) ﴾

يخبر تعالى عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقص على بني اسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿ أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ كاختلافهم في عيسى فاليهود افتروا ، والنصارى غلوا ، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل

أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام ، عليه أفضل الصلاة والسلام كما قال تعالى : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن ربك يقضي بينهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ بحكمه وهو العزيز ﴾ أي في انتقامه ﴿ العليم ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم ﴿ فتوكل على الله ﴾ أي في جميع أمورك وبلغ رسالة ربك ﴿ انك على الحق المبين ﴾ وإن خالفك الكافرون الذين لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية . ولهذا قال تعالى : ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ لأن حالهم في عدم سماع الحق يشبه حال الموتى الذين تعطل سمعهم بالموت ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم * إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ أي إنما يستجيب لك من ينفعه سمعه وبصره الخاضع لله ولما جاء عنه على ألسنة الرسل الكرام على نبينا وعليهم أفضل الصلاة وآتم السلام .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٨٢)



هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض ، قيل من مكة ، وقيل من غيرها كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى . فتكلم الناس على ذلك وتخطبهم مخاطبة ، وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة فلنذكر منها ما تيسر والله المستعان .

قال الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : ٤٠٠ [أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفته ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : ١ - طلوع الشمس من مغربها ، ٢ - الدخان ، ٣ - الدابة ، ٤ - خروج يأجوج ومأجوج ، ٥ - خروج عيسى ابن مريم عليه السلام ، ٦ - الدجال ، وثلاثة خسوف : ٧ - خسف بالمغرب ، ٨ - وخسف بالمشرق ، ٩ - وخسف بجزيرة العرب ، ١٠ - ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا] . وهكذا رواه مسلم وأهل السنن .

• حديث آخر : قال مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن عمرو قال : ٤٠١ [حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتهما كانت

قبل صاحبها فالأخرى على أثرها قريباً » [.

• حديث آخر : روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : ٤٠٢ [بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان والدجال والدابة ، وخاصة أحدكم وأمر العامة] .

قال ابن جريج عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فيما وصف ... ثم تقول الدابة لهم : يا فلان ، أبشر أنت من أهل الجنة ، ويا فلان انت من أهل النار ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آدَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ (٨٦) ﴿

يخبر تعالى عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله عز وجل يسألهم عما فعلوه في الدنيا توبيخاً وتحقيراً فقال تعالى : ﴿ ويوم نخسر من كل أمة فوجاً ﴾ أي من كل قوم وقرن فوجاً أي جماعة ﴿ مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فهم يوزعون ﴾ أي يساقون ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا ﴾ ووقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المساءلة فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم : ﴿ فلا صدق ولا صلتى ﴾ ولكن كذب وتولى ﴿ فحينئذ قامت عليهم الحجة ولم يكن لهم عذر يعتذرون به أمام مقام المساءلة المتمثل في قوله تعالى : ﴿ قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون ﴾ فما كان واقعهم إلا كما قال الله تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ وهكذا قال هاهنا : ﴿ وقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ أي بهتوا فلم يكن لهم جواب لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة ، الذي لا تخفى عليه خافية .

ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته ، والانقياد لأوامره وتصديق أنبيائه فيما جاءوا به من الحق الذي لا محيد عنه فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ ﴾ أي في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه ويستريحون من التعب في نهارهم ﴿ وَالنَّهَارَ مَبْصُراً ﴾ أي منيراً مشرقاً ، فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والأسفار والتجارات وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ قَافِرَعَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ ﴾ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٠)

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور ، وهو كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه . وفي حديث الصور : إن اسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطوئها وذلك في آخر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من في السموات ومن في الأرض ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون . روى الإمام مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ : ٤٠٣ [يخرج الدجال في أمي فيمكث أربعين - لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً^(١)] - فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحداً دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى قبضه قال : سمعتها من رسول الله ﷺ قال « فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع

لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل الشيطان لهم فيقول: الا تستجيبيون فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارَ رِزْقِهِمْ وَحُسْنِ عَيْشِهِمْ ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلاَّ أصغى ليتها ورفع ليتها -قال- أو قال ينزل الله مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم أنهم مسئولون، ثم يقال: أخرجوا بعث النار فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال فذلك يوم يجعل الولدان شيباً، وذلك يوم يكشف عن ساق] .

وقوله ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلاَّ أصغى ليتها ورفع ليتها . الليت هو صفحة العنق، أي أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً، فهذه نفخة الفزع ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجميع الخلائق . ولهذا قال تعالى: ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ أي صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره . كما قال تعالى: ﴿ ثم اذا دعاكم دعوة من الأرض اذا أنتم تخرجون ﴾ وفي حديث الصور انه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع في ثقب في الصور ثم ينفخ اسرافيل فيه بعدما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح تتوهج أرواح المؤمنين نوراً، وأرواح الكافرين ظلمة، فيقول الله عز وجل: وعزني وجلالي لترجعنَّ كل روح إلى جسدها، فتجيء الأرواح إلى أجسادها فتدب فيها كما يدب السم في اللدغ، ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعى كأنهم قد نصب يوفضون ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه وهي تمر مر السحاب ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ أي يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿ الذي أتقن كل شيء ﴾ أي أتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع: ﴿ انه خبير بما تفعلون ﴾ أي هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر وسيجازيهم عليه أتم الجزاء .

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال: ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ هي: لا إله الا الله، ﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ كما قال تعالى: ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ﴾ أي من لقي الله مسيئاً لا حسنة له، أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه، ولهذا قال

تعالى : ﴿ هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون ﴾ والسيئة التي جاءت في قوله تعالى : ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ قال جماعة من الصحابة والتابعين وغيرهم يعني الشرك .

﴿ إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أُعْبِدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٣)

ينخبر تعالى رسوله ويأمره أن يقول : ﴿ انما أمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء ﴾ كما قال تعالى : ﴿ قل يا أيّها الناس إنّ كنتم في شكّ من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفّقكم ﴾ وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها . كما قال تعالى : ﴿ فليعبدوا ربّ هذا البيت ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الذي حرّمها ﴾ أي هو الذي حرّمها فصارت حراماً شرعاً وقدرأ . كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : ٤٠٤ [ان هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعصّد شوكة ، ولا ينقرّ صيده ولا يلتقط لقطته إلاّ من عرفها ولا يختلّ خلاها] وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع ، كما هو مبين في موضعه من كتاب الأحكام ، والله الحمد والمنّة .

وقوله تعالى : ﴿ وله كل شيء ﴾ من باب عطف العام على الخاص ، أي هو رب هذه البلدة ورب كل شيء ومليكه لا إله إلاّ هو ﴿ وأمّرت أن أكون من المسلمين ﴾ أي الموحدّين المطيعين له . وقوله تعالى : ﴿ وأن أتلو القرآن ﴾ أي على الناس أبلغهم إياه ﴿ فمّن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فقل إنّما أنا من المنذرين ﴾ أي لي أسوة بالرسول الذين أنذروا قومهم وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم وحساب أمهم على الله تعالى . كقوله تعالى : ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ أي لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلاّ بعد قيام

٣٨٠ (٢٧- النمل -ج ٢٠) : لو كان الله غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والحرذلة والذرة

الحجة عليه ، والإنذار إليه . كقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي بل هو شهيد على كل شيء . قال ابن أبي حاتم عن أبي هريرة يقول : ٤٠٥ قال رسول الله ﷺ [يا أيها الناس لا يغترون أحدكم بالله ، فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والحرذلة والذرة] وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان ينشد هذين البيتين إمّالسه وإمّالغيره .

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقلُ خلوتُ ولكن قلْ عليّ رقيبُ
ولا تحسبنّ الله يغفل ساعةً ولا أنّ ما يخفي عليه يغيبُ

آخر اختصار تفسير سورة النمل والله الحمد والمنة .

١٣٩٠/٤/٩

١٩٧٠/٦/١٣

(٢٨) سُورَةُ الْقَصَصِ مَكِّيَّةٌ وَأَيُّهَا ثَمَانِينَ وَثَمَانُونَ

إِلَّا مِنْ آيَةِ ٥٢ - ٥٥ فمَدَنِيَّةٌ نَزَلَتْ بَعْدَ النَّمْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَتْلُوا
عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ
يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾
وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً
وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة ... وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أي هذه آيات الكتاب الواضح الجلي ، الكاشف عن الحقائق ، وعلم ما قد كان وما هو كائن وقوله تعالى : ﴿ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ أي نذكر لك أخبار الأولين كأنك تشاهدها . ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي تكبر وتجبّر ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أي أصنافاً قد صرف كل صنف فيما يحب من أمور دولته .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾ يعني بني إسرائيل ، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم ، وقد تسلط فرعون عليهم واستعملهم في أخسر الأعمال ، ليلاً ونهاراً وفوق ذلك يقتل أبناءهم ، ويستحي نساءهم خشية أن يأتي منهم مولود يكون هلاك فرعون على يديه بناءً على البشارة التي بشر بها إبراهيم عليه السلام بعد إنقاذ

الله لزوجته سارة التي أراد أن يفتصبها جبار مصر في زمنه فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون فأمر بذبح كل مولود ذكر من بني إسرائيل ولكن لن ينفع حذر من قدر ولكل أجل كتاب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ - إِلَى قَوْلِهِ - يُحَذِّرُونَ ﴾ وقد فعل تعالى ذلك بهم . كما قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فما نفع فرعون حذرهُ مع قدرة الملك العظيم جل جلالهُ بل نفذ حكمهُ وقدرهُ وأهلك فرعون وجنوده لأن ربَّ السموات العُلى هو القاهرُ الغالبُ القويُّ العزيزُ .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ

فِي الْيَمِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ

الْمُرْسَلِينَ • (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا

إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ • (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ

فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ

وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ • (٩) ﴾

أكثر فرعون من قتل ذكور بني إسرائيل حتى ان القبط خافوا أن يقتل بنو إسرائيل فلا يقوم بعدهم من يقوم وقتلهم بالأعمال الشاقة فكلموا فرعون بذلك فأمر فرعون بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً ، فكان أن قدر الله ولادة هارون في سنة الترك وولد موسى في سنة القتل .

ومن لطف الله تعالى بأُم موسى أنها لم يظهر عليها مخايل الحمل ولم تفتن لها الدابات اللائي كن يدرن بين نساء بني إسرائيل لمعرفة الحاملات ، فلما وضعت أُم موسى ابنها موسى ضاقت به ذرعا وخافت عليه وأحبته حباً شديداً وكان لا يرى أحدٌ موسى إلا وأحبه . قال الله تعالى : ﴿ وَالْقَبْتُ عَلَيْكَ حُبَةً مُنِي ﴾ وقد ألهمها الله تعالى ونفث في روعها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فلما ألقته في اليم أي في ساحل نهر النيل فذهب مع الماء واحتمله حتى مرَّ به على دار فرعون فالْتَقَطَهُ الجوّاري فاحتلمنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين ما فيه ، وخشين أن يفتحنه

دونها فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأباه ، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه وذلك لما أراد الله من كرامتها ، وشقاوة بعلها ولهذا قال تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ فإن الله تعالى قبضهم لالتقاطه ليجعله عدوًّا لهم وحزنًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قَرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ يعني إن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بني اسرائيل فشرعت آسية بنت مزاحم ، تخاصم عنه وتحببه إلى فرعون فقالت : ﴿ قَرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ فقال فرعون أمّا لك فنعم ، وأمّا لي فلا ؛ فكان كذلك ، وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه .

وقوله تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ فهذاها الله به وأسكنها الجنة ، ﴿ أَوْ نَتَّخِذْهُ وَلَدًا ﴾ أي أرادت أن تتخذ ولدًا وتبناه إذ لم يكن لها ولد منه . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه ، من الحكمة العظيمة البالغة ، والحجة القاطعة .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۚ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ (١٣)

يخبر تعالى عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغاً أي من كل شيء إلا من موسى ^(١) وقوله تعالى : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي تظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن ثبتها الله .

(١) قلت : ولكنني أفهم من قوله تعالى « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً » أنه فرغ حتى من موسى نفسه لاطمئنانها وثقتها بالله الذي شول حفظه ورده إليها ، فإن كان هذا صواباً فمن الله أو خطأ فمن نفسي .

قال تعالى : ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴾ . وقالت لأخته قصيه ﴿ أي اتبعني أثره وخذي خبره فخرجت لذلك ﴾ فبصرت به عن جنب ﴿ أي جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده ، ولما أحبته امرأة فرعون ، واستنقذته منه عرضوا عليه المراضع فلم يقبل منها ثدياً فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون مرضعة تصلح له فلما رآته أخته ، بأيديهم عرفته ، ولم تظهر ذلك . قال الله تعالى : ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ أي تحريماً قدرياً ، وذلك لكرامته عند الله وجعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه ، وهي آمنة بعدما كانت خائفة ، فلما رأته حائرين فيمن يرضعه ﴿ قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ فوثقوا منها بعد أن شكوا وذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا جداً وبشروا امرأة فرعون فاستدعت أم موسى وأحسن إليها وأعطاها عطاءً جزيلاً ، وتجهل أنها أمه حقيقة ، وسألته أن تقيم عندها فترضعه ، فأبت عليها وقالت : إن لي بعلاً وأولاداً فلا أستطيع المقام عندك ، وإن شئت أَرْضَعْتُهُ عِنْدِي فَقَبِلْتُ ... وأجرت عليها النفقة والصلوات والكساوي والإحسان الجزيل ، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبلها الله بعد خوفها أمناً في عز وجه ورزق كريم . ولهذا جاء في الحديث : ٤٠٦ [مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعة الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها] فسبحان من بيده الأمر ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن الذي يجعل لمن أتقاه بعد كل هم فرجاً ، وبعد كل ضيق غرجاً ولهذا قال تعالى : ﴿ فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ﴾ أي به ﴿ ولا تحزن ﴾ أي عليه ﴿ ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ أي فيما وعدها من رده إليها وجعله من المرسلين ، فحيث تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته في تربيته ما ينبغي له شرعاً وطبعاً .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة ، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر . كما قال تعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ

فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

ذكر تعالى أنه لما بلغ موسى أشده واستوى آتاه الله حكماً وعِلْماً قال مجاهد : يعني النبوة ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما قدره له من النبوة والتكليم في قضية قتله ذلك القبطي الذي تسبب في خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين فقال تعالى : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾ وقيل كان ذلك بين المغرب والعشاء وقيل نصف النهار ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته ﴾ أي إسرائيلي ﴿ وهذا من عدوه ﴾ أي قبطي فاستغاث ^(١) الاسرائيلي موسى عليه السلام ، فوجد موسى فرصة وهي غفلة الناس فعمد إلى القبطي ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ أي طعنه بجمع كفه فقتله ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت عليّ ﴾ بما جعلت من الجاه والعز والنعمة ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ أي معيناً للكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

﴿ فَاصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٨) فَلَمَّا

(١) استغاث الاسرائيلي بموسى عليه السلام محتج بها جهال زماننا عل جواز الاستغاثَة بغير الله مع علمهم بأن استغاثَة الاسرائيلي بموسى عليه السلام هي استغاثَة مخلوق بمخلوق في أمر يقدر عليه المستغاث به . أي اغاثته من القبطي ، وقد فعل ... فكيف يقيسونه على استغاثَة مخلوق بمخلوق في أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى ...؟ وشتان بين الاستغاثتين ... لأن الأولى عادة يمكن أن يفعلها من يستطيع من الناس أما الثانية كالمنفرة وتفريج الكروب والرزق وما إلى ذلك ... فهي عبادة لله تعالى ؛ فدن صرفها لغير الله تعالى فقد وجه عبادة لغيره وهذا هو الشرك الأكبر؛ والبيّاذ بالله تعالى فإذا فهم هذا ... تبين الفارق بين الاستغاثتين ولا قياس مع الفارق كما هو معلوم والله الموفق للصواب .

أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ
تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا
فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ • (١٩)

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام بعد أن قتل القبطي أصبح ﴿ في المدينة خائفاً يترقب ﴾ أي يتلفت خائفاً من فعلته وما يكون منها ، إذ يصادف الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس على القبطي يقاتل قبطياً آخر واستصرخه عليه فقال له موسى : ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ أي ظاهر الغواية شرير ، ثم عزم على البطش بالقبطي فظن الإسرائيلي من جنبه أن موسى يريد قتله فقال يدفع عن نفسه ﴿ يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ فلما سمع القبطي ذلك لقفها من فمه ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده ، فعلم فرعون بذلك ، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى فطلبوه ، وبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى
إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ
النَّاصِحِينَ • (٢٠) ﴾

قال تعالى : ﴿ وجاء رجل ﴾ وسلك طريقاً أقرب من الطريق الذي بعثوا وراءه منه فسبق إلى موسى فقال له : ﴿ إن الملائكة يأتَمرون بك ﴾ أي يتشاورون فيك ﴿ ليقتلوك فخرج ﴾ أي من البلد ﴿ إنني لك من الناصحين ﴾ .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ • (٢١) ﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي
سَوَاءَ السَّبِيلِ • (٢٢) ﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ

النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا
قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ • (٢٣) فَسَقَى
لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ
فَقِيرٌ • (٢٤)

لما أخبر موسى ذلك الرجل بمؤامرة فرعون وجماعته عليه غادر مصر وحده ، ولم يَأْلَفْ ذلك قبلاً بل كان في نعمة ورياسة ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ أي يتلفت ﴿ قال رب نجني من القوم الظالمين ﴾ أي من فرعون وملئه ﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ أي أخذ طريقاً سالكاً فرح بذلك ﴿ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ أي الطريق الأقوم . فاستجاب الله دعوته فجعله هادياً مهدياً ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ أي بثراً ﴿ وجد عليه أمة من الناس يمسقون ﴾ أي جماعة يسقون ﴿ ووجد من دونهم امْرأتين تَذُودَانِ ﴾ أي تكفكفان غنمهما أن تردّ مع غنم أولئك الرعاء لثلاثاً يؤذيان فرقاً لهما موسى . ﴿ قال ما خطبُكُمَا ﴾ ما يمنعهما أن تردا مع هؤلاء ؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ أي إلا بعد فراغهم ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ قال تعالى : ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾ قال أبو بكر بن أبي شيبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ... فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال فأتى موسى الحجر فرفعه ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويبت الغنم . إسناده صحيح . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أي جلس إلى ظل شجرة ، وكان قد خرج من مصر حافياً فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع وإنه محتاج إلى شق تمره . ولما قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أسمع المرأة .

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَهَضَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ • (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ • (٢٦) قَالَ

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما ، استغرب هذه السرعة على غير العادة فقصصنا عليه ما فعل موسى عليه السلام ، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها. فقال تعالى : ﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ﴾ أي قائلة بثوبها على وجهها حييةً مسترة ﴿ قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ هذا تأدب في العبارة أي ليشبك على سقيك غنمنا ﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص ﴾ أي ذكر له الأسباب التي أدت به إلى خروجه من مصر ﴿ قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ أي طب نفساً واطمئن فقد خرجت من حكمهم ونجوت من مظالمهم .

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو ... ؟ قيل إنه شعيب النبي عليه السلام وقيل هو ابن أخيه ثيرون والمشهور عند كثير من العلماء القول الأول فقد روى الطبراني عن سلمة بن سعد الغزي أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له : ٤٠٧ [مرحباً بقوم شعيب وأختان موسى هديت] .

وقوله تعالى : ﴿ قالت إحداهما يا أبتِ استأجره إن خيرَ من استأجرتَ القوي الأمين ﴾ قال لها أبوها وما علمك بذلك ؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التي لا يطبق حملها إلا عشرة رجال وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي : كوني من ورائي ، فإذا اختلف عليّ الطريق فاحذني لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه . ﴿ قال إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ أي طلب هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ثمانى سنين وجعل أجره تزويجه إحدى ابنتيه فإن تبرّع بزيادة سنتين فهو إليك وإلا ففي الثمان كفاية . وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال : بعتك أحد هذين العبدین بمئة ، فقال اشتريت ، صح البيع والله أعلم كما استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية ﴿ وما أريد أن أشقّ

عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴿ أي لا أشاقك ولا أؤذيك ولا أماريك ﴾ قال ﴿ موسى ﴿ ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ والله على ما نقول وكيل ﴾ أي الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين فإن اتهمت عشرًا فمن عندي فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط ، ولهذا قال : ﴿ أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ ﴾ .

روى البخاري : عن سعيد بن جبير قال قال سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت على ابن عباس رضي الله عنه فسألته ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل . وهناك أحاديث مراسيل عديدة وضعيفة مرفوعة مجمعة على أن موسى عليه السلام كان قضى أبرَّ الأجلين وأتمهما وأوفاهما ولا شك أن هذا هو الأليق برسول من رسل الله تعالى وكما قال ابن عباس : إن رسول الله إذا قال فعل . ثم لما أتم موسى الأجلين سألت زوجته أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به . وقد روى ابن جرير عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما دعا نبي الله موسى عليه السلام صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها ، فلك ولدها .



﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٢٩) فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ (٣١) أَسْلُكُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٣٢)

وقوله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ أي الأكل منهما ﴿ وسار بأهله ﴾ وما وكان معه من الغنم التي وهبها له أبو زوجته فسلك الطريق في ليلة مظلمة مطيرة باردة فتزل متزلاً فجعل كلما أورد زنده لا يضيء شيئاً ، فتعجب من ذلك فينما هو كذلك : ﴿ آنس من جانب الطور نارا ﴾ تضيء على بعده ﴿ فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا ﴾ أي حتى أذهب إليها ﴿ لعلني آتيكم منها بخبر ﴾ لأنه قد ضل الطريق ﴿ أو جدوة من النار ﴾ أي قطعة منها ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ أي تستدفئون بها من البرد ﴿ فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن ﴾ أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب كما قال تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ وجد النار تضطرم في شجرة خضراء في لحف الجبل مما يلي الوادي ، فوقف باهتاً في أمرها ، فناداه ربه ﴿ من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ أي الذي يخاطبك هو رب العالمين الفعال لما يشاء لا إله إلا هو ولا رب سواه تعالى وتقدس عن ماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله .

وقوله تعالى : ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ أي التي في يدك ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ أي تضطرب ﴿ كأنها جان ولي مذبذب ﴾ أي في حركتها السريعة مع عظم خلقتها وقواثمها ، واتساع فمها واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعها ، تنحدر في فيها تتقعقع كأنها حادة في واد . فعند ذلك ﴿ ولي مذبذباً ولم يعقب ﴾ أي ولم يلتفت لأن طبع البشرية ينفر من ذلك . فلما قال الله تعالى : ﴿ يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول ، ثم قال تعالى : ﴿ أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ أي إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فأنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر ، في لمعان البرق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ من غير سوء ﴾ أي من غير برص ، فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء كن فيكون . وقوله تعالى : ﴿ واضم إليك جناحك من الرهب ﴾ قال مجاهد : من الفزع والمراد أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهو يده فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف ، وربما فعل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده فإنه يزول ما يجده ، أو يخف أن شاء الله تعالى وقد نزع تعالى ما كان في قلب موسى عليه السلام من الخوف من فرعون ، وجعله في قلب فرعون إذا رأى موسى . وقوله تعالى : ﴿ فذانك برهانان من ربك ﴾ يعني إلقاء العصا وجعلها حية تسمى ، وإدخاله اليد

في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ، دليلان قاطعان واضحان على قدرة الله تعالى ، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه . ولهذا قال تعالى : ﴿ إلى فرعون وملته ﴾ أي قومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ أي خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ (٣٣)
 وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَمُا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمِمَّنِ اتَّبَعَتْكُمْ
 الْغَالِيُونَ ﴿ (٣٥) ﴾

تقدم أن موسى عليه السلام خرج من مصر فراراً من فرعون ، فلما أمره الله تعالى بالذهاب إليه ﴿ قال رب إنني قتلْتُ منهم نفساً ﴾ يعني القبطي ﴿ فأخاف أن يقتلوني ﴾ أي إذا رأوني ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ﴾ إذ كان في لسان موسى لغةٌ بسبب تناوله الجمرّة حين خُير بينها وبين التمرّة أو الدرة فتناول الجمرّة فوضعها على لسانه ، فحصل فيه شدّةٌ في التعبير ولهذا قال : ﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾ . واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أوزري وأشركه في أمري ﴿ للقيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتجبر العنيد . ولهذا قال : ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رِدْءاً ﴾ أي وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمري وقال محمد بن اسحق : ﴿ رِدْءٌ يصدقني ﴾ أي بين لهم عني ما أكلّمهم به ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أي سنقوّي أمرَكَ ونعز جانبك بأخيك وأجينا سؤالك بأن جعلناه نبياً معك كما قال تعالى : ﴿ قد أوتيت سؤالك يا موسى ﴾ ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم منةً على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام ، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملته ولهذا قال تعالى في حق موسى : ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ونجعل لكم سلطاناً ﴾ أي حجةً قاهرةً ﴿ فلا يصلون إليكما بآياتنا ﴾

أي لا وصول لهم بأذا كما بسبب إبلاغكما آيات الله . كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك - إلى قوله - والله يعصمك من الناس ﴾ ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولن اتبعهما في الدنيا والآخرة فقال تعالى : ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ .

﴿ فَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣٧)

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملته ، وعرضهما ما آتاها الله من المعجزات الباهرة ، والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره ، فلما أيقن فرعون وقومه بصدق ما جاآ به من عند الله تعالى عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمكابرة استكباراً عن اتباع الحق : ﴿ قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ﴾ أي مفتعل مصنوع وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما استطاعوا .

وقوله تعالى أخبراً عنهم ﴿ وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ أي ما سمعوا بعبادة الله وحده لا شريك له، وما عبد آبائهم إلا آلهة أخرى فأجابهم موسى عليه السلام : ﴿ ربّي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ﴾ يعني مني ومنكم ، وسيفصل بيني وبينكم ولهذا قال : ﴿ ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ أي من النصر والظفر والتأييد ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي المشركون بالله عز وجل .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣٨) وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ

وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ • (٤٠)
وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ • (٤١)
وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ • (٤٢) ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافتراءه في دعوى الإلهية لنفسه القبيحة لعنه الله فاعترف قومه له بذلك لقلّة عقولهم وسخافة أذهانهم . ولهذا قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ أي نادى فيهم بصوته العالي مصرحاً بذلك . فأجابوه : سامعين مطيعين ولهذا انتقم الله تعالى منه فجعله عبرةً لغيره في الدنيا والآخرة وحتى أنه واجه موسى الكليم بذلك حينما قال له : ﴿ لئن اتخذتُ إلهاً غيري لأجملنك من المسجونين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْقَدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أُطْلَعَ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى ﴾ أي أمر هامان أن يتخذ له آجراً لبناء الصرح العالي فبناه فلم ير في الدنيا بناءً أعلى منه ، وإنما أراد أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون . ولهذا قال : ﴿ وَإِنِّي لأظنه من الكاذبين ﴾ في قوله إن هناك رباً غير فرعون . وقوله تعالى : ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ أي طغوا وأفسدوا وأنكروا القيامة ولهذا قال تعالى : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ﴾ أي أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين • وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ أي لمن أخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل ، وتعطيل الصانع • ﴿ ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ أي فاجتمع عليهم خزي الدارين ﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ﴾ أي جعلهم ملعونين على ألسنة المؤمنين في الدنيا ﴿ ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ أي أيضاً ملعونون يوم القيامة ^(١) .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ • (٤٣) ﴾ ﴿٤٤﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد إهلاك فرعون وملئه . وقوله تعالى : ﴿ من بعد ما

أهلكنا القرون الأولى ﴿ يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة ، بل أمر المؤمنين ان يقاتلوا أعداء الله من المشركين . روى ابن جرير عن أبي سعيد الخدري رفعه إلى النبي ﷺ قال : ٤٠٨ [ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى] ثم قرأ : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ الآية « وقوله تعالى : ﴿ بصائر للناس وهدى ورحمة ﴾ أي من العمى والغي ، وهدى إلى الحق ورحمة أي إرشاداً إلى العمل الصالح ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَالِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿ (٤٦) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ (٤٧)

يَنْبَغِي تَعَالَى عَلَى بَرهَانِ نُبُوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَيْثُ أَخْبَرَ بِغُيُوبِ الْأَخْبَارِ الْمَاضِيَةِ كَأَنَّهُ سَامِعٌ وَشَهِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مَعَهُ أَنَّهُ رَجُلٌ أَمِيٌّ لَا يَقْرَأُ شَيْئاً مِنَ الْكُتُبِ ، وَنَشَأَ بَيْنَ قَوْمٍ أَمِينٍ أَيْضاً وَكَذَلِكَ لَمَّا أَخْبَرَ عَنْ كُلِّ مَنْ سَلَفَ مِنْ سِيرَةِ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ طه : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ وَقَالَ هَا هُنَا بَعْدَمَا أَخْبَرَ عَنْ قِصَّةِ مُوسَى مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا ، وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ إِجَاءِ اللَّهِ إِلَيْهِ وَتَكْلِيمُهُ لَهُ : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ يَعْنِي مَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ بِجَانِبِ الْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي هِيَ شَرْقِيَّةٌ عَلَى شَاطِئِ الْوَادِي ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ لِذَلِكَ . وَلَكِنْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْحَى إِلَيْكَ ذَلِكَ ، لِيَكُونَ حُجَّةٌ

وبرهاناً على قرون تطاول عهدهما ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين وقوله تعالى : ﴿ وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ﴾ أي ما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما كان له مع قومه ﴿ ولكننا كنا مرسلين ﴾ ولكن نحن أوحينا إليك ذلك وأرسلناك إلى الناس رسولا . ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ قال ابو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه في تفسير هذه الآية قال : نودوا أن يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني وأجبتكم قبل أن تدعوني . وعن ابن عمرو بن جرير أنه قال ذلك من كلامه والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ أي ما كنت شاهداً لشيء من ذلك ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به رحمةً منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم ﴿ لتنذر قوماً ﴾ ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴿ لعلهم يهتدون بما جثتهم به من الله عز وجل ﴾ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ﴿ أي وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ، ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم ، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير . كما قال تعالى : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ الآية ... والآيات في هذا كثيرة .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ٤٨ ﴾ ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٤٩ ﴾ ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥٠ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥١ ﴾

يخبر تعالى عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم ، لاحتجوا بأنهم لم

يأتهم رسول . ولما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعتن والعناد والكفر : ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ الآية ... من المعجزات مثل العصا واليد والطفوان والجراد وغير ذلك من معجزاته الباهرة وحججه القاهرة التي أجراها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام حجة وبرهاناً على فرعون وملئه ومع ذلك لم ينجع معهم شيء بل كفروا بموسى وأخيه هارون . كما قال تعالى : ﴿ فكذبوهما فكانوا من المهلكين ﴾ . ولهذا قال ههنا : ﴿ أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ أي أو لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿ قالوا سحران تظاهرا ﴾ يعنون التوراة والقرآن ﴿ وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ أي بكل منها كافرون أي بالتوراة والقرآن وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كما في قوله تعالى : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس - إلى أن قال - وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ وقد علم بالضرورة لذوي الأبواب ان الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ وهو القرآن ، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله الله ﷻ على موسى بن عمران عليه السلام ، أي التوراة ولهذا قال تعالى : فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴿ فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل . قال الله تعالى : ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ أي إن لم يتبعوا الحق ، ﴿ فاعلم إنما يتبعون أهواءهم ﴾ بلا دليل ولا حجة ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ أي بغير حجة من كتاب الله ﴿ ان الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ أي أخبرنا قريشاً بمن مضى وكيف صنعنا بهم ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ .

﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَفُونَ بِالْحَسَنَةِ ۚ أَلَسَيِّئَةٌ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ

لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى - إِلَى قَوْلِهِ - فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال سعيد بن جبیر : نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم : ﴿يَسَّ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا ، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ يعني من قبل هذا القرآن كنا مسلمين موحدين مخلصين لله مستجيبين له . قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ولهذا قال عز من قائل : ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي على اتباع الحق وقد ورد في الصحيح من حديث عامر الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٠٩ [ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة ، فأدبها فأحسن تأديبها ، ثم اعتقها فتزوجها ^(١)] وقوله تعالى : ﴿وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي في الزكاة المفروضة ، والمستحبة من الصدقات والقربات ، وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي لا يخاطبون أهله ولا يعاشرهم ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي إذا سفه عليهم سفهه ، وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه ، أعرضوا عنه ، ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب .

قال محمد بن اسحق بعد أن ذكر مجيء وفد النجاشي إلى رسول الله ﷺ وخبر إسلامهم قال : فلما قاموا - من مجلس الرسول - اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم : خيكم الله من ركب ، بعثكم أهل دينكم لتأوهم بخبر الرجل ... فلم تطمئن بحالكم حتى فارقم دينكم وصدقتموه فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أتم عليه لم نأل أنفسنا خيراً .

(١) تمام الحديث : [... فله أجران] أخرجه .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (٥٦) وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبِّئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ وَرِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ (٥٧) ﴿

يقول تعالى لرسوله ﷺ : إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أي ليس لك ذلك إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة . كما قال تعالى : ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ وقال هنا : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية فمن يستحق الغواية وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ وكان يحوطه وينصره ويقوم في صفته ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شريعياً فلما حضرته الوفاة وحن أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه واختطف من يده فاستمر على ما كان عليه من الكفر . والله الحكمة التامة . قال الزهري : حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه وهو المسيب ابن حزن المخزومي رضي الله عنه قال : ٤١٠ [لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال رسول الله ﷺ « يا عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب ، وأبي أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ « والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ وأنزل في أبي طالب ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أخرجاه من حديث الزهري وهكذا رواه مسلم في صحيحه .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين ، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا فأجابهم تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل لأن الله تعالى قد جعلهم في بلد أمين وحرم معظم

آمن منذ أن وضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق . وقوله تعالى : ﴿ يَجِيْٓ اِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي من سائر الثمار كذلك المتاجر والأمتعة ﴿ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا ﴾ أي من عندنا ﴿ وَلٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فِتْلِكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبِيعَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ (٥٩)

يعترض الله بأهل مكة في قوله جل وعلا : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي طغت وكفرت نعمة الله فيما أنعم عليهم من الأرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمَ اللَّهُ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ - إِلَى قَوْلِهِ - فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فِتْلِكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ أي رجعت خراباً ليس فيها أحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبِيعَ فِي أُمَمٍ ﴾ أي عاصمتها ﴿ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ يقيم الحجة عليهم بما نزل عليه من الحق . وقيل في قوله تعالى : ﴿ ... حَتَّىٰ يَبِيعَ فِي أُمَمٍ ﴾ أي في مكة وقوله تعالى : ﴿ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ فيه دلالة على أن نبينا محمداً رسول إلى جميع القرى من عرب وعجم وتمام الدليل بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فجعل بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى أي البلاد وفي الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : ٤١١ [بعثت إلى الأحمر والأسود] ولهذا ختم به النبوة والرسالة فلا نبي بعده ولا رسول ، بل شرعه باقٍ إلى يوم القيامة .

﴿ وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُخْضَرِينَ ﴿ (٦١) ﴾

يخبر تعالى عن حقارة الدنيا وما فيها من البهرج الزائف بالنسبة إلى ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم المقيم . كما قال تعالى : ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ وقال رسول الله ﷺ : ٤١٢ [والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم ، فليُنظر ماذا يرجع إليه] .

وقوله تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي ألا تعقلون فتقدمون الآخرة على الدنيا؟ وقوله تعالى : ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لآقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المخضرين ﴾ أي أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب كمن هو كافر مكذب بقاء الله ووعدده ووعدده فهو ممتع في الحياة الدنيا أياماً قلائل . ﴿ ثم هو يوم القيامة من المخضرين ﴾ أي من المعذبين .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿ (٦٣) وَقِيلَ أَذْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿ (٦٧) ﴾

يخبر تعالى عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة يناديهم فيقول سبحانه : ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ يعني أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من الأصنام والأنداد هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقرير والتهديد. كما قال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قال الذين حقّ عليهم القول ﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿ ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ فشهدوا أنهم أغووههم فاتبعوهم ثم تبرأوا من عبادتهم ، كقوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزّاً كلاًّ سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم ﴾ أي ليخلصوكم مما أنتم فيه ، كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿ فدعّوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب ﴾ أي تيقنوا أنهم صابرون إلى النار لا محالة .

وقوله تعالى : ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ أي تمنوا حين رأوا العذاب أنهم لو كانوا مهتدين. وقوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ وهذا كما يسأل العبد في قبره : من ربك ، ومن نبيك وما دينك فأما المؤمن فينطق بالشهادتين وأما الكافر فيجيب لا أدري ولهذا لا جواب له يوم القيامة إلا السكوت لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ولهذا قال تعالى : ﴿ فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾ قال مجاهد : فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب . وقوله تعالى : ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ أي في الدنيا ﴿ فعسى أن يكون من المفّلحين ﴾ أي يوم القيامة ، وعسى من الله موجبة فإن هذا واقع بفضل الله ومنّته لا محالة .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٧٠)

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْخَلْقِ وَالْإِخْتِيَارِ ، لَا مَنَازِعَ لَهُ وَلَا مَعْقِبَ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ أَيُّ مَا يَشَاءُ مِنَ الْأُمُورِ خَيْرٌهَا وَشَرُّهَا وَمَرْجِعُهَا إِلَيْهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أَيُّ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَخْلُقُ وَلَا تَخْتَارُ شَيْئًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أَيُّ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ الصُّمَاتُ وَالسَّرَائِرُ وَمَا تُبْدِيهِ الظُّوَاهِرُ مِنْ سَائِرِ الْخَلْقِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الْمُنْفَرِدُ بِالْأُلُوهِيَّةِ فَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ ، كَمَا لَا رَبَّ غَيْرُهُ ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ أَيُّ فِي جَمِيعٍ مَا يَفْعَلُ هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهِ بَعْدُله وَحُكْمُهُ ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ أَيُّ الَّذِي لَا مَعْقِبَ لَهُ لِقَهْرِهِ وَغَلْبَتِهِ وَحُكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ﴾ جَمِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ فِي سَائِرِ الْأَعْمَالِ .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ ﴾ (٧١) ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَآ تَبْصُرُونَ ﴾ (٧٢) ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٣)

يَمُنُّ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ بِمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ اللَّذَيْنِ لَا قِوَامَ لَهُمَا بَدُونَهُمَا ، وَيَبَيِّنُ أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ اللَّيْلَ دَائِمًا لِأَضْرَهُمْ وَسَمِيحًا وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾ تَبْصُرُونَ بِهِ وَتَسْتَأْنِسُونَ ﴿ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ ﴾ وَكَذَلِكَ لَوْ جَعَلَ النَّهَارَ دَائِمًا لِأَضْرَهُمْ وَتَعَبُوا مِنَ الْحَرَكَةِ وَالْعَمَلِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أَيُّ تَسْرِيحُونَ مِنْ حَرَكَاتِكُمْ وَأَشْغَالِكُمْ ﴿ أَوْ لَآ تَبْصُرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ بِكُمْ ﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أَيُّ خَلَقَ هَذَا وَهَذَا ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أَيُّ فِي اللَّيْلِ ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أَيُّ فِي النَّهَارِ ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيُّ تَشْكُرُونَ اللَّهَ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَمِنْ فَائِدَةٍ شَيْءٍ فِي أَحَدِهِمَا اسْتَدْرَكَهُ فِي الْآخَرِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي

جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴿ والآيات في هذا كثيرة .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٧٤) ﴿ وَتَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٧٥) ﴿

وهذا نداء ثان منه تعالى على سبيل التوبيخ لمن عبد مع الله غيره يناديهم سبحانه علناً فيقول جل وعلا : ﴿ اين شركائي الذي كنتم تزعمون ﴾ في الدنيا ﴿ ونزعنا من كل أمة شهيداً ﴾ أي رسولاً ﴿ فقلنا هاتوا برهانكم ﴾ على صحة دعواكم بالشرك ﴿ فعلموا أن الحق لله ﴾ أي لا إله غيره فلم ينطقوا ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهبوا فلم يفهمهم .



﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ (٧٦) ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٧٧) ﴿

وقوله تعالى : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى ﴾ أي ابن عمه وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾ أي الأموال ﴿ ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أُولي القوة ﴾ لكثرتها وثقل حملها .

وقوله تعالى : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ أي الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم . وقوله تعالى : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أي مما أباح الله من المآكل والمشارب والملابس والمناكح والمساكن ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، ولزورك عليك حقاً فات كل ذي حق حقه ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ أي أحسن

إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿ ولا تبغ الفساد في الأرض ﴾ أي لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض وتسيء إلى خلق الله ﴿ إن الله لا يحب المفسدين ﴾

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٧٨)

يخبر تعالى عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ أي أنا لا أفتقر إلى ما تقولون ، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأنني أستحقه ولحمته لي ، فتقديره إنما أعطيتُهُ لعلم الله فيّ أنني أهل له . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وإذا مسَّ الإنسان ضرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أي على علم من الله بي ولقد ردَّ الله عليه فيما ادَّعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أي قد كان مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ مَالًا وما كان ذلك عن محبة منّا له . وقد أهلكهم مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي لكثرة ذنوبهم .

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٧٩)
وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ (٨٠)

خرج قارون يوماً في زينته ، وأبهته الباهرة ، فلما رآه محبُّو الدنيا ، تمنّوا لو كان لهم مثله ﴿ قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظٍ عظيم ﴾ أي وافر . فأجابهم العالمون المتّقون ﴿ ويلكم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ أي الجنة ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقوله تعالى : ﴿ وما يلقاها إلا الصّابرون ﴾ أي عن محبة الدنيا ، والراغبون في الآخرة .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ
يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ (٨١) وَأَصْبَحَ
الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئُهُ
لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٢)

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم عقب ذلك بأن
خسف به الأرض وبداره كما ثبت في صحيح البخاري عن سالم أن أباه حدثه أن رسول
الله ﷺ قال ٤١٣ [بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به ... فهو يتجلجل في الأرض
إلى يوم القيامة] . وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبي الله عليه السلام
واختلف في سببه فعن ابن عباس والسدي أن قارون أعطى بغياً مالا على أن تتهم موسى
عليه السلام بنفسها ففعلت فأرعد موسى من الفرق ثم أقبل عليها بعد أن صلى ركعتين
وناشدها الله أن تقول الحق فقالت إن قارون حملها على ذلك وقالت استغفر الله وأتوب
إليه فخر موسى ساجداً لله وسأل الله في قارون فأوحى الله إليه أن قد أمرت الأرض أن
تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك ﴿ فما كان له من فئة
ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ أي ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه
ولا حشمه ولا دفعوا عنه نعمة الله وعذابه ونكاله ولا كان هو منتصراً لنفسه ، فلا ناصر
له من نفسه ولا من غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس ﴾ أي الذين رأوه في زينته
يقولون ﴿ يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ فلما خسف به أصبحوا يقولون
﴿ ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ﴾ أي ليس المال بديل على رضا
الله عن صاحبه ، هذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود ٤١٤ [إن الله قسم بينكم
أخلاقكم كما قسم أرزاقكم وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان
إلا لمن يحب] وقوله تعالى : ﴿ هو لأن من الله علينا لخسف بنا ﴾ كما خسف بقارون
لأننا ودنا أن نكون مثله ﴿ ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ يعنون أنه كان كافراً ولا يفلح
الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة واختلف النحاة في معنى قوله تعالى ﴿ ويكأن ﴾
ففيها أقوال ، أقواها قول قتادة أي : (ألم تر أن) قاله ابن جرير .

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٨٣) ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٨٤) ﴿

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَنَعِيمَهَا الْمَقِيمَ جَعَلَهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ، أَي تَرْفَعًا عَلَى الْخَلْقِ وَتَعَظُّمًا وَتَجَبُّرًا، وَلَا فَسَادًا فِيهِمْ أَي عَمَلًا بِالْمَعَاصِي . وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ٤١٥ ﴿ إِنَّهُ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يُبَغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ﴾ [وَأَمَّا إِذَا أَحَبَّ ذَلِكَ لِمَجْرَدِ التَّجَمُّلِ ، فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ . فَقَدْ ثَبَتَ ٤١٦ ﴿ أَنْ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَحِبُّ أَنْ يَكُونَ رِدَائِي حَسَنًا وَنَعْلِي حَسَنَةً أَفَمِنْ الْكِبَرِ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ « لَا ، إِنْ اللَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ »] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ أَي ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ حَسَنَةِ الْعَبْدِ فَكَيْفَ وَاللَّهُ يَضَاعِفُهُ اضْعَافًا كَثِيرَةً ، وَهَذَا مَقَامُ الْفَضْلِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وَهَذَا مَقَامُ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ .

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٨٦) وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَذْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٨٨) ﴿

يقول تعالى أمراً رسولوه صلوات الله عليه وسلامه عليه ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه مسن أعباء النبوة ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾

قال البخاري في التفسير من صحيحه عن ابن عباس ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي لَرَادُّكَ إلى مكة وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه ، وابن جرير ، وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي لَرَادُّكَ إلى مكة كما أخرجك منها .

وقد روى ابن أبي حاتم عن نعيم القاري أنه قال في قوله : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ قال إلى بيت المقدس . وهذا - والله أعلم - يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمفسر والله الموفق للصواب . ووجه الجمع بين الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ : كما فسر ابن عباس سورة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إلى آخر السورة أنه أجل رسول الله ﷺ . نعي إليه وتارة فسر بها ابن عباس بيوم القيامة وتارة بالجنة وكله متقارب ويلتقي بيوم القيامة الذي هو المعاد .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مِنْ جَاءِ الْهَدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار . ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أي ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أنه سينزل عليك ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي إنما كان إنزال الوحي عليك رحمة من الله بك وبالعباد بسببك فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ، ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهْرًا ﴾ أي معيناً ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ولكن فارقمهم وناذبهم وخالفهم ﴿ وَلَا يَصْدَنُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أي لا تتأثر بصددهم الناس عن طريقك فلا تبال فإن الله معل كلمتك ، ومؤيد دينك ومظهره على سائر الأديان ولهذا قال تعالى : ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي إلى عبادته وحده لا شريك له ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا تليق الألوهية إلا له وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ إخباراً بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي لا يموت فعبء بالوجه عن الذات أي كل شيء هالك إلا إياه ، وكل الذوات فانية وزائلة

٤٠٨ (٢٨- القصص - ج ٢٠): هو الأول والآخر ، وله الملك والتصرف ، وهو المعبود وحده

إلاّ ذاته تعالى وتقدس فإنه الأول والآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء وقوله تعالى : ﴿ له الحكم ﴾ أي الملك والتصرف ولا معقّب لحكمه ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم معادكم فيجزىكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر . آخر اختصار تفسير سورة القصص والله الحمد والمنة .

١٣٩٠ / ٤ / ١٥

١٩٧٠ / ٦ / ١٩

(٢٩) سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ مَكِّيَّةٌ وَأَيُّهَا النَّاسُ اسْمِعُوا وَسَمِعُونُ

إِلَّا مِنْ آيَةِ ١ - ١١ فمَدَنِيَّةٌ نَزَلَتْ بَعْدَ الرُّومِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴿٥﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة وقوله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ استفهام انكار ومعناه : إن الله سبحانه وتعالى لا بد وأن يختبر عباده المؤمنين بحسب إيمانهم وقد صح الحديث : ٤١٧ [أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل يبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء] وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ

الله الذین جاهدوا منكم ویعلم الصابرين ﴿ ولهذا قال ههنا ﴾ ولقد فتنا الذین من قبلهم فلیعلمن الله الذین صدقوا ولیعلمن الکاذبین ﴿ أي الذین صدقوا فی دعوی الإیمان من هو کاذب فی قوله ودعواه والله سبحانه وتعالی یعلم ما کان وما یکون ، وما لم یکن لو کان کیف یکون وهذا مجمع علیه عند أئمة السنة والجماعة . وقوله تعالی : ﴿ أم حسب الذین یعملون السیئات أن یسبقونا ساء ما یحکمون ﴾ فإن من ورائهم عقوبة ونکالا أغلظ . أم حسبوا أنهم سیفلتون من ذلك ؟ بشئ ما یظنون وقوله تعالی : ﴿ من کان یرجو لقاء الله ﴾ أي الدار الآخرة ورجاء ثواب الله فسیحقق رجاءه ویوفیه عمله کاملاً فإن ذلك کائن لا محالة ولهذا قال : ﴿ فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ﴾ سميع الدعاء علیم بما یکون .

وقوله تعالی : ﴿ ومن جاهد فإنما یجاهد لنفسه ﴾ کتوله تعالی : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ أي یعود لها فإن الله غنی عن أفعال العباد ولو کانوا علی أتقى قلب رجل منهم ما زاد فی ملکه شیء ولهذا قال : ﴿ إن الله لغنی عن العالمین ﴾ قال الحسن البصري : إن الرجل لیجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسیف ثم قال تعالی : ﴿ والذین آمنوا وعملوا الصالحات لنکفرن عنهم سیئاتهم ولنجزینهم أحسن الذی کانوا یعملون ﴾ أي مع ان الله غنی عن العالمین یجازي المؤمنین الصالحین أحسن الجزاء ویکفر عنهم أسوأ ما عملوا بأحسن أعمالهم فیقبل القلیل من الحسنات ویشب علیها حتی الی سبعمائة ضعف ویجزی السیئة بمثلها أو یعفو ویصفح .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿ (٩) ﴾

یأمر تعالی عباده بالإحسان إلی الوالدین بعد الحث علی التمسک بتوحيده ، فإن الوالدین همما سبب وجود الإنسان ولهما علیه غاية الإحسان فالوالد بالإتفاق والوالدة بالإشفاق ومع هذه الوصية بالإحسان إليهما قال تعالی : ﴿ وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ أي وإن حرصا علی متابعتك لهما علی دينهما الشرکي فلا تطعهما فإن

مرجعكم إلى يوم القيامة فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب أي حباً دينياً، ولهذا قال جل وعلا : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾

قال الترمذي عن سماك بن حرب يقول : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه قال : نزلت في أربع آيات فذكر قصته وقال : قالت أم سعد : أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شرباً حتى أموت أو تكفر ، قال فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهاً ، فنزلت : ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ الآية وهذا الحديث رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي فقال حسن صحيح .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾

يخبر تعالى عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بأستهم ولم يثبت في قلوبهم ، بأنهم إذا أصابتهم مصيبة اعتقدوا أن هذا انتقام منه تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ كقوله تعالى : ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه - الى قوله - ذلك هو الضلال البعيد ثم قال تعالى : ﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي ولئن جاءك يا محمد فتح أو مغنم ليقولون نحن اخوانكم في الدين ملتقاسموهم مغانمكم. ﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ أي إنه يعلم ما يكتنه الناس أجمعين فكيف هؤلاء...؟

وقوله تعالى : ﴿وليعلمَنَّ الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ أي ليتبينهم بالسراء والضراء ليتميز هؤلاء من هؤلاء كما قال تعالى : ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ وقد امتحن الله هؤلاء وهؤلاء فقال بعد وقعة أحد وما

٤١٢ (٢٩ - العنكبوت - ج ٢٠) : الْمُضِلُّونَ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ وَأَوْزَارَ مَنْ أَضَلَّوهُمْ

كان فيها من الاختبار : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ الآية .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (١٣)

يخبر تعالى عن كفار قريش قالوا لمن آمن منهم : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا ، واتبعوا سبيلنا ﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ أي كما يقول القائل : إفعل هذا وخطيتك في رقبتي ، فقال تعالى تكذيباً لهم : ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾ فانه لا يحمل أحد وزر أحد . وقوله تعالى : ﴿ وليحملن أثقألهن وأثقالاً مع أثقألهن ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ الآية .

وفي الصحيح ٤١٨ [من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير ان ينقص من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير ان ينقص من آثامهم شيئاً] وفي الصحيح ٤١٩ [ما قتلت نفس ظمأ إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل] .^(١) وقوله تعالى : ﴿ وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ أي يكذبون ويختلقون البهتان .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١٥)

(١) أي قابيل الذي قتل أخاه هابيل .

(٢٩- العنكبوت -ج ٢٠) : نوح وإبراهيم يدعو كل إلى عبادة المتفرد بالخلق والرزق ٤١٣

يَسْلَى اللهُ تَعَالَى عِبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِأَخْبَارِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّهُ مَكَثَ فِي قَوْمِهِ هَذِهِ الْمُدَّةَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى دَوْمًا فَمَا زَادَهُمْ إِلَّا فِرَارًا وَإِعْرَاضًا عَنِ الْحَقِّ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أي بعد هذه المدّة الطويلة ما نجّج فيهم البلاغ والإنذار ، فلا تأسف يا محمد على من كفر من قومك ولا تحزن عليهم فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وسينصرك الله ويذل عدوك ويجعلهم في الأسفلين .

وقوله تعالى : ﴿ فَانجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ أي الذين آمنوا مع نوح عليه السلام وتقدم ذكر ذلك في سورة هود بما أغنى عن إعادته . ^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي جعلناها باقيةً إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي أو نوعها جعله للناس تذكرةً لنعمة الله على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لَنُجْعِلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَأَعْيَةٌ ﴾ وهذا تدريج من عين سفينة نوح إلى نوع السفن عامة .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (١٨)

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليفه إبراهيم إمام الحنفاء ، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أي أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي إن فعلتم يحصل لكم خيرا الدنيا والآخرة ويندفع عنكم شرهما ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ أي أنتم الذين اختلقتم لها أسماء

فسيتموها آلهة ، وإنما هي مخلوقة مثلكم فتصنعونها أصناماً وتعبدونها، وهي لا تملك لكم رزقاً ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ أي فاطلبوا عند الله الرزق، لا عند غيره الذي لا يملك شيئاً. ﴿ واعبدوه واشكروا له ﴾ على ما أنعم به عليكم ﴿ إليه ترجعون ﴾ فيجازي كل عامل بعمله . وقوله تعالى : ﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ﴾ أي قبلكم ما حلّ بهم من العذاب في مخالفة الرسل ﴿ وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين ﴾ يعني إنما على الرسول أن يبلغكم أوامر الله تعالى وهو الهادي لمن يشاء والمضل لمن يشاء فاحرصوا أن تكونوا من السعداء .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (١٩) ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٠) ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ (٢١) ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٢٢) ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٣)

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه الصلاة والسلام، أنه اثبت لهم المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، فالذي بدأ الخلق من العدم قادر على إعادته وهو يسير لديه ، وبالاعتبار من خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات وما بينهما الدالة على وجود الصانع الفاعل المطلق، يقول للشيء كن فيكون. ولهذا قال جل وعلا : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ﴾ ولا يشاء إلا العدل فلا يظلم مثقال ذرة ، لأن الظلم حرمه

على نفسه وجعله بيننا محرماً . ﴿ وإليه تqlبون ﴾ أي ترجعون يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾ أي لا يعجزه أحد في السماء ولا في الأرض وكل شيء مقهور له ، خائف منه ، فقير إليه وهو الغني عما سواه . ﴿ ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير والذين كفروا بآيات الله ولقائه ﴾ أي جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿ أولئك يشوا من رحمتي ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿ وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ أي موجه شديد في الدارين .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٤)
وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (٢٥)

يقول تعالى مخبراً عن قوم ابراهيم أنهم لم يكن جوابهم بعد مقالته المشتملة على الهدى والبيان : ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ وذلك لتوجه الحجة عليهم. فعدلوا عنها إلى استعمالهم قوة الملك ، فحشدوا أخطاباً عظيمة وأوقدوها ، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم قذفوا ابراهيم فيها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً بعدما مكث فيها أياماً ، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً ، فانه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيغان . ولهذا اجتمع على محبته أهل الأديان . وقوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ بأن جعلها برداً وسلاماً كما قال تعالى : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يقول لقومه موبخاً لهم على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان ، إنما اتخذتم هذءآلهة لتجتمع إلفتكم بينكم عليها في الحياة الدنيا. ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ترجع المودة بغضاً ثم ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ أي تتجاهدون ما كان بينكم ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ أي يلعن الأتباع المتبوعين وبالعكس كما قال تعالى : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي ومصيركم إلى النار

٤١٦ (٢٩-العنكبوت-ج ٢٠): أَقْرَأَ اللَّهُ عَيْنَ إِبْرَاهِيمَ بَوْلِدٍ، وَوَلِدٍ وَلِدٍ، كُلُّ صَالِحٍ وَنَبِيٍّ

﴿وما لكم من ناصرين﴾ ينصرونكم أو ينقذونكم منها : هذا حال الكافرين وأما المؤمنون أهل التوحيد يعفو بعضهم عن بعض بعد أن يخاطبهم المنادي : يا أهل التوحيد ليغف بعضكم عن بعض ، وعلى الله الثواب . كما جاء في الحديث ...

﴿فَأَمِّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٦) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٧)

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه آمن له لوط ، ويقال أنه ابن أخيه إبراهيم ، يقولون هو : لوط بن هاران بن آزر ، ولم يؤمن به من قومه سواه وسارة امرأة إبراهيم الخليل ، لكن يقال كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد في الصحيح إن إبراهيم حين مر على ذلك الجبار فسأل إبراهيم عن سارة ما هي منه ، فقال : أختي ، ثم جاء إليها فقال لها : إني قد قلت له إنك أختي فلا تكذبيني ، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، فأنت أختي في الدين . وكأن المراد من هذا - والله أعلم - أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك ^(١) ، فإن لوطاً عليه السلام آمن به من قومه وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم واقليمها وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي .

وقوله تعالى : ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي﴾ أي من بين أظهر المشركين قومه وابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك ولهذا قال : ﴿إنه هو العزيز الحكيم﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ، الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية .

وقوله تعالى : ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ كقوله تعالى : ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ووهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً﴾ أي أنه لما فارق قومه ، أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي ، وولده ولد صالح نبي في حياة جده ، ومما لا شك فيه أنه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم قد نصّ على ذلك القرآن والسنة وقوله تعالى : ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً ،

(١) قلت : ولعالمها أرض الجبار التي كانا فيها . والرواية التاريخية على أنها أرض مصر ، والجبار هو فرعون مصر الذي حال الله بينه وبين سارة زوجة إبراهيم .

(٢٩ - العنكبوت - ج ٢٠) : جعل الله في ذريته النبوة فما من نبي إلا من سلالة ٤١٧

وجعله للناس إماماً. وذلك أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالة، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم حتى كان آخرهم عيسى عليه السلام الذي قام في بني إسرائيل مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، الذي اصطفاه الله من صميم العرب من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام .

وقوله تعالى : ﴿وَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني ، والمنزل الرحب . والمورد العذب . والزوجة الحسنة الصالحة . والثناء الجميل والذكر الحسن وكل أحد يحبه ويتولاه . مع القيام بكامل وتمام طاعته تعالى . كما قال عز وجل : ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ أي قام بجميع الأوامر والطاعات . ولهذا قال تعالى : ﴿وَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

﴿وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَآتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨) أَتَيْتُكُمْ لَنَآتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَنْتَ بَعْدَآبِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عن نبيه لوط عليه السلام أنه أنكر على قومه صنيعهم وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران من دون النساء ، ولم يسبقهم الى هذه الفعلة أحد من العالمين قبلهم . وكانوا مع هذا يكفرون بالله تعالى ويكذبون رسوله ويخالفونه ويقطعون الطريق على الناس ويقتلونهم ويسلبونهم أموالهم . ﴿وتأتون في ناديكُم المنكر﴾ أي يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم ولا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك : ففعل يفعلون فعلتهم القبيحة جهاراً وقيل يتضارطون ويتضاحكون ، وقيل كانوا يناطحون بين الكباش أو يناقرون بين الديكة . روى الإمام أحمد عن أم هانئ قالت : ٤٢٠ : [سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿وتأتون في ناديكُم المنكر﴾ قال «يحذفون أهل الطريق

ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه . » [ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وحسنه الترمذي . وقوله تعالى : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال : ﴿ رب انصرني على القوم المفسدين ﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلِكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣٥)

لما استنصر لوط ربه عز وجل ، بعث لنصرته ملائكة فمرّوا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف فلما قدّم لهم ما ينبغي للأضياف لم يأكلوا ... أوجس منهم خيفة ، فأنسوه وبشروه بولادة ولد له صالح من امرأته سارة وكانت حاضرة ، فتعجبت من ذلك كما تقدم بيانه في سورتي هود والحجر ثم أخبروه بأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط ، فاستمهل لعل الله يهديهم . ﴿ قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . أي من المالكين ، لأنها كانت تماثلهم على كفرهم . وبغيهم ، ثم ساروا إلى لوط في صورة شبان حسان ، فلما رأهم كذلك : ﴿ سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ﴾ أي خاف عليهم من قومه وإن لم يصفهم خشي عليهم منهم ، وما يدري من أمرهم شيئاً ﴿ وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ﴾ . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون . وذلك أن جبريل عليه السلام

(٢٩-العنكبوت-ج ٢٠): حلّ بقوم لوط عذاب عظيم-وانتقم الله من قوم شعيب ٤١٩

اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضودة مسومة عند ربك ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة ﴾ أي واضحة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْبُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿ (٣٧)

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام ، أنه أمر قومه بعبادة الله وحده لا شريك له ، وخوفهم نقمته في الدارين فقال : ﴿ يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ﴾ أي اخشوا اليوم الآخر أي عذاب الله في الآخرة ، وقوله : ﴿ ولا تعثوا في الأرض ﴾ أي لا تفسدوا في الأرض وتبغوا على أهلها بإنقاص المكيال والميزان ، وقطع الطريق ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله فأهلكهم الله بالرجفة المروعة التي زلزلت بلادهم ، والصيحة التي أخرجت القلوب من حناجرها ، وعذاب يوم الظلة العظيم وتقدم ذكر ذلك في سورة الأعراف وهود والشعراء ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ ميتين .

﴿ وَعَادًا وَثُمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَائِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ (٣٨)
وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا
فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ
مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ
خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿ (٤٠)

ينحبر تعالى عن الأمم الغابرة المكذبة للرسول كيف أبادهم ونوع عذابهم ، وانتقم منهم فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف بالقرب من حضرموت . واثمود قوم صالح عليه السلام كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى ، وكانت العرب تعرف مساكنهم جداً وتمر عليها كثيراً ، وقارون صاحب الكنوز الخزيلة ، وفرعون ملك مصر زمن موسى عليه السلام ووزيره هامان القبطيان الكافران ﴿ فكللاً اخذنا بذنبه ﴾ أي كانت عقوبته تناسبه ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ﴾ وهم عاد فجاءتهم ريح صرصر تحمل حصباء الأرض فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض الى عنان السماء ثم تنكسه على أم رأسه فيبقى بدنأً بلا رأس ﴿ ومنهم من أخذته الصيحة ﴾ وهم ثمود الذين عقروا ناقة الله بكفرهم فجاءتهم الصيحة فأخمدت أنفاسهم ﴿ ومنهم من خسفنا به الأرض ﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى وعصى الرب . ومشى مرحاً . وفرح وتاه بنفسه واختال في مشيته ، فخسف به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة . ﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما فأغرقوا في صيحة واحدة فلم ينجُ منهم مخبر . ﴿ وما كان الله ليظلمهم ﴾ أي فيما فعل بهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي إنما فعل بهم ذلك جزاءً مضافاً بما كسبت أيديهم .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٤٣)

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ويرجونهم في الرزق والنصر والشدائد ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت فمثل من يعتمد على غير الله كمن يتمسك ببيت العنكبوت الواهن الضعيف الذي لا يجدي عنه شيئاً وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع ، والتمسك به لقوته وثباته . ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به ، إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الشرك وما يشركون به من الأنداد وسيجزئهم وصفهم ، إنه حكيم عليم . ثم قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها

(٢٩ - العنكبوت - ج ٢٠) : ذكر الله إياكم أكبر وأعظم من ذكركم إياه ٤٢١

للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴿٤٤﴾ اي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتصلعون منه .

﴿٤٤﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ
إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٥﴾

يخبر تعالى عن قدرته العظيمة أنه خلق السموات والأرض بالحق يعني لا على وجه العبث واللعب .

وقوله تعالى : ﴿٤٤﴾ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴿٤٤﴾ أي لدلالة واضحة على أنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير والإلهية ، ثم أمر رسوله ﷺ والمؤمنين بتلاوة القرآن أي قراءته وتبليغه للناس ﴿٤٤﴾ وأقم الصلاة ﴿٤٤﴾ إقامة تامة في خشوعها وأركانها وتدبر ما تقرأ من القرآن فيها ، ﴿٤٤﴾ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿٤٤﴾ أي إن الصلاة ذات الوصف المتقدم من الحشية والخضوع واداء الأركان والتدبر بصدق وإخلاص ، هذه الصلاة لها الأثر الفعال في الانتهاء عن الفواحش والمنكرات فالصلاة بهذا الحضور في كل ما ذكر ، هي ذكر خالص لله تعالى يشترك فيه القلب واللسان وتتأثر به الجوارح عامة ﴿٤٤﴾ ولذكر الله أكبر ﴿٤٤﴾ أي إن ما ذكرت الله به في الصلاة بإخلاص وحضور نية وقصد ، يقابله من الله ذكر عبده في الملأ الأعلى . كما قال تعالى ﴿٤٤﴾ فاذكروني أذكركم ﴿٤٤﴾ ولا شك أن ذكر الله وتذكره دائماً في كل قول وعمل ، سبب في ذكر الله لعبده الذي هو أعظم من ذكر العبد له . والمعنى أنه يجازيه على فعله بأعظم منه وأكبر ، فإذا ذكر العبد ربه ذكر الرب عبده ﴿٤٤﴾ ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴿٤٤﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم ونواياكم ويميزكم عنها بما تستحقون .

روى الحافظ أبو بكر البزار عن جابر أو عن رجل قال للنبي ﷺ : ٤٢١ [ان فلانا يصلّي بالليل ، فإذا أصبح سرق . قال « سينهاه ما تقول »] روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿٤٤﴾ ولذكر الله أكبر ﴿٤٤﴾ قال لها وجهان : قال ذكر الله عند ما حرّمه ، قال وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه .

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦)

قال قتادة هذه الآية منسوخة بآية السيف ... وقال آخرون بل هي باقية محكمة لمن اراد الاستبصار منهم في الدين فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى : ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ وهذا القول اختاره ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي الذين لم ينفع معهم الجدل ، فيؤمرون بالجزية وإلا فقد صاروا أهل حرب فحينئذ ينتقل من الجدل إلى الجلاء ويقاثلون بما يمنعهم ويردعهم ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ - إِلَى قَوْلِهِ - إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا نقدم على تكذيبه فقد يكون حقاً ، ولا تصديقه فقد يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملًا معلقاً على شرط ، وهو أن يكون منزلاً لا مبدلاً ولا مؤولاً .

روى البخاري رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : [٤٢٢ وكان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون »]

وليُعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل ، وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدة كثير منه ، لو كان صحيحاً .

قال ابن جرير عن ابن مسعود قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل . وقال ابن عباس : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث ، تقرأونه محضاً لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن

مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي انزل عليكم . رواه البخاري .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ (٤٧) ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٤٨) ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ (٤٩) ﴿

يقول ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل كذلك أنزلنا هذا الكتاب . وهذا الذي قاله حسن جيد . وقوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي الذين أخذوه فتلوه حتى تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء ، كعبدالله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أي العرب من قريش وغيرهم ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ أي ما يكذب بها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغطي ضوء الشمس بالوصلات وهيهات .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن ينزل الله عليك هذا القرآن عمراً لا تقرأ ولا تكتب ، وهكذا صفتهم في الكتب المتقدمة كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين لا يخط ولا سطرأ واحداً ولا حرفاً واحداً بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم . ولا صحة لكل ما قيل من أنه تعلم آخر عمره فلا أصل له ألبتة . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو ﴾ أي تقرأ ﴿ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ﴾ لتأكيد النفي ﴿ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ أي ما كتبت شيئاً ، لأنه تعالى لم يعلمه لا القراءة ولا الكتابة . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي لو كنت تحسن القراءة والكتابة لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقولون ، إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم انه أمي ﴿ وَقَالُوا أَطُورِ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ فرد الله تعالى عليهم ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وقال هاهنا : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أي هذا

القرآن آيات بينات واضحة في الدلالة على الحق أمراً ونهياً وخبراً يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوةً وتفسيراً . وقوله تعالى : ﴿ وما يحسد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ، كما قال تعالى : ﴿ ان الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٥٢)

يخبر تعالى عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات ، ترشدهم الى ان محمداً رسول الله كما أتى صالح بناته . قال الله تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إنما الآيات عند الله ﴾ أي إنما أمر ذلك إلى الله تعالى ، ولو أنهم سيهتدون لأجابه فهدى يسير عليه ، ولكنه يعلم منهم التعنت فلا يجيبهم إلى ذلك كقوله تعالى : ﴿ وآتيناهم الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ وقوله : ﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ أي إنما بعثت نذيراً لكم فما عليّ إلا إبلاغكم رسالة الله تعالى و ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ ثم قال تعالى مبيناً جهلهم وسخافتهم لطلبهم آيات على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي هو أعظم معجزة ، فقد عجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل وعن معارضة سورة منه فقال تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ أي ألم تكفهم هذه المعجزة الكبرى وهي القرآن الذي أنزلناه عليك الذي فيه خبر ما قبلهم ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب فجنتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب فيما اختلفوا فيه كما قال تعالى : ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٢٣ [ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه

البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة] أخرجاه وقولهُ تعالى : ﴿ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ أي بياناً للحق وإزاحةً للباطل وهذا هو الرحمة ، وفيه ذكرى ما حل من النقم بالأُمم الخالية مما يُتَعَطُّ به ويزيد المؤمنين إيماناً .

ثم قال تعالى : ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾ لما تكذبوني به من الأقوال التي أقولها لكم بأنني رسول الله إليكم فلو كنت كاذباً لانتقم مني كما قال سبحانه : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات . ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ﴾ أي ولا تخفى عليه خافية ﴿ والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾ أي سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم الرسل وكفرهم بالله وإيمانهم بالطواغيت وسيصلون سعيراً وساءت مصيراً .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥٣) ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (٥٤) ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥٥)

يخبر تعالى عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم . كما قال تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ وقال هاهنا : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾ أي لولا ما قدر الله من تأخير العذاب لجاءهم سريعاً ﴿ وليأتينهم بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴿ أي يستعجلونك بالعذاب وهو واقع بهم لا محالة .

ثم قال عز وجل ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ أي تغشاهم النار من سائر جهاتهم ﴿ ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوي - أي إخبار به قبل وقوعه حسيّاً ، وتهديد به وسيلقونه فعلاً . ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقره . إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ
فَاعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿ (٥٧)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّتَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (٥٨) وَالَّذِينَ
صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ
رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦٠)

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرّون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ولهذا قال عز وجل : ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أَرْضِي واسعة فإيَّاي فاعبدون ﴾ ولما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين هناك : أصحمة النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى فأواهم وأيَّدهم بنصره ، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ ، والصحابه الباقيون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة .

ثم قال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثُمَّ إِلَيْنَا تَرْجَعُونَ ﴾ أي أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا في طاعة الله خير لكم فإن الموت لا بد منه وإلى الله المرجع فمن أطاع الله جازاه أفضل الجزاء وأتم الثواب ولهذا قال سبحانه ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لَنُبَوِّتَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي لنسكنهم منازل عالية في الجنة تجري الأنهار من تحتها ماءٌ وخمرٌ وعسلٌ ولبنٌ على اختلاف أصنافها ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ماكثين فيها أبداً لا ييغون عنها حولا ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ أي نعمت هذه الغرف أجرٌ على أعمال المؤمنين ﴿ الذين صبروا ﴾ على دينهم وهاجروا إلى الله وناذبوا الأعداء ابتغاء وجهه تعالى ورجاء ما عنده . روى ابن أبي حاتم عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ حدثه ٤٢٤ [أن في الجنة غُرَفًا يُرَى ظاهرها من باطنها وباطنُها من ظاهرها ، أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام ، وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام ، وقام بالليل والناس نيام] ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم ، ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة بل عام ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا ، أكثر

وأوسع وأطيب فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار. ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أي لا تطيق جمعه وتحصيله ، ولا تدخر شيئاً لغد ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا إِيَّاكُمْ ﴾ أي الله يفيض لها رزقها على ضعفها ، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض ، والطير في الهواء ، والحيتان في الماء قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٦١) اللَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَشَاءَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمٌ ﴿ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٣)

يقرر الله تعالى أن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وأنه الرازق لعباده المقدر آجالهم ، العليم بما يصلح كلا منهم ومقررون بأنه المستقل بخلق الأشياء المنفرد بتدبيرها .

فإذا كان الأمر كذلك . فلم يعبد غيره ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته ، فالاعتراف بتوحيد الربوبية لا يكفي إذا لم يعترف أيضاً بتوحيد الألوهية ومن أجل ذلك أي الاعتراف بتوحيد الألوهية بالإضافة الى توحيد الربوبية بعث أفضل الخلق محمد ﷺ ، وبعث الرسل والأنبياء من قبله عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي

أَلْفَلْكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * (٦٦)

يخبر تعالى عن حقارة الدنيا ، وزوالها وانقضائها ، وغاية ما فيها هو ولعب ، وإن الدار الآخرة هي الحيوان ﴿ أي الحياة الدائمة التي لا زوال لها وقوله تعالى : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لآثروا ما يبقى على ما يفنى ؛ ثم أخبر أن المشركين عند الاضطراب يدعونه وحده لا شريك له ، فهلاً يكون هذا منهم دائماً ﴿ فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ واذا مستكم الضّرّ في البحر ضل من تدعون إلاّ إياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم ﴾ وقال تعالى ها هنا ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ ليكفروا بما آتيناكم وليتمتعوا فسوف يعلمون ﴾ تهديد ما سيرونه وسيلقونه من العذاب الذي يكافئ ما قدموا في الدنيا من شرك وكفر والعياذ بالله تعالى .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِالنِّعْمَةِ اللَّهُ يَكْفُرُونَ ﴾ * (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ * (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ * (٦٩)

يتمنّى الله تعالى على قريش فيما أحلّهم من حرّمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والبادي ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم ، والأعراب حولهم ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً كما قال تعالى : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ إلى آخر السورة ... وقوله تعالى :

(١) قلت : كان مشركو العرب يشركون في الرخاء ويوحّدون في الشدة أما مشركو زماننا فهم يشركون في الحالين وتشهد عليهم أقوالهم التي منها : / عند الضيق ناد عبد القادر ... / وعبد القادر بريء ما يشركون .

﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ قبلًا من ان يشكروه تعالى على نعمة الأمن وغيرها بالاقرار بألوهيته وافراذه بالعبادة ... قابلو شكر النعمة بالكفر بها وبموليها جل وعلا وعبدوا غيره . ولذا سلبهم ما أنعم عليهم به ، وقتل من قتل بيدر: ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ففتح الله على رسوله مكة ، وأرغم آتافهم وأذل رقابهم ثم قال تعالى : ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه﴾ أي لا أحد أشد عقوبة من كذب على الله ، فقال : ان الله أوحى إليه ولم يوح إليه بشيء . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة من كذب بالحق لما جاءه . فالأول مفترٍ والثاني : مكذب ، ولهذا قال تعالى : ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ ثم قال تعالى : ﴿والذين جاهدوا فينا﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه واتباعه الى يوم الدين ﴿لنهديَنَّهُم سبُلَنَا﴾ أي طرقتنا في الدنيا والآخرة . قال ابن أبي حاتم عن عباس الهمداني أبي أحمد من أهل عكا في قوله تعالى : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهديَنَّهُم سبُلَنَا﴾ إن الله لمع المحسنين ﴿ قال : الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون . وقال ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام انما الاحسان ان تحسن الى من اساء اليك ، ليس الاحسان ان تحسن لمن أحسن إليك والله أعلم .

آخر اختصار سورة العنكبوت والله الحمد والمنة

١٣٩٠ / ٤ / ٢١

١٩٧٠ / ٦ / ٢٥

(٣٠) سُورَةُ الرُّومِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّانَهَا سَبْعُونَ

إِلَّا الْآيَةَ / ١٧- / فمدنية نزلت بعد سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



﴿أَلَمْ﴾ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ • (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ
مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ • (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ
وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ • (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ
يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ • (٥) وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ • (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ • (٧) ﴿﴾

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد
الجزيرة وأقاصي بلاد الروم ، فاضطرَّ هرقل ملك الروم حتى أُلجأه إلى القسطنطينية ،
وحاصره فيها مدةً طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي ، روى الإمام أحمد عن
ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾ قال :
غُلِبَتِ وَغُلِبَتْ ، قال : ٤٢٥] كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم
أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ؛
فذكر ذلك لأبي بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ « أما
إنهم سيغلبون » فذكره أبو بكر لهم فقالوا : إجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا
كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهروا ،

فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : « ألا جعلتها إلى دون- أراه قال : العشر » قال سعيد بن جبير : البضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعد ، قال فذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ غُيِّبْتُ الرُّومَ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى - وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [

وقد ورد في رواية ابن أبي حاتم عن البراء في جملة الحديث وبعد أن كسب أبو بكر الرهان من المشركين بغلبة الروم على فارس - ... ٤٢٦ [فلم تمض تلك السنين ^(١)] حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن ... فجاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال : هذا السحت ، قال : « تصدق به » [كما ورد في رواية الترمذي ... فقال الناس من قرئش لأبي بكر فذاك بيننا وبينكم ، زعم صاحبكم ان الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال بلى ، - وذلك قبل تحريم الرهان ... - قيل ان انتصار الروم على فارس عام انتصار المسلمين على المشركين ببدر ، وقيل بل كان ذلك عام الحديبية . ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفروه الله بكسرى ليمشين من حمص إلى أيلياء وهو بيت المقدس ، شكراً لله تعالى ففعل فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ الذي بعثه مع دحية بن خليفة ، فأعطاه دحية لعظيم بصري فدفعه عظيم بصري إلى قيصر فلما وصل إليه ، سأل : من بالشام من عرب الحجاز ، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموي في جماعة من قرئش ... فاستدلوا بهذا على ان نصر الروم على فارس كان عام الحديبية لأن قيصر إنما وفى في نذره بعد الحديبية والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ لِّلّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ ﴾ أي من قبل ذلك ومن بعده ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ أي للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى وهم المجوس فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به ، وقوله تعالى : ﴿ ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ العزيز في انتصاره وانتقامه من أعدائه ، الرحيم بعباده المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أي هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أننا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق وخبر صدق لا يخلف ، ولا بد من كونه ووقوعه ، لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق ويجعل لها

٤٣٢ (٣٠-الروم-ج ٢١): سَبَّحُوا فِي الْأَرْضِ ، وَانظُرُوا عَاقِبَةَ مَنْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً

العاقبة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي بحكم الله في كونه ، وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل .

وقوله تعالى : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ أي أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وشؤونها ، وهم غافلون في أمور الدين وما ينفعهم في الدار الآخرة كأن أحدهم لا ذهن له ولا فكرة . قال الحسن البصري : والله ليلعب من أحدهم بدنياء أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيُخْبِرُكَ بوزنه وما يحسن أن يُصلي . قال ابن عباس : يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَافُوا السَّوْءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (١٠)

ينبه تعالى على التفكير في مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها وأنه لا إله إلا هو ولا ربَّ سواه فقال جل ثناؤه : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ يعني ألم ينظروا ويتدبروا ويتأملوا في خلق الله للعالم جميعاً وما فيها من المخلوقات فإنها ما خلقت سدى ولا باطلاً بل بالحق ، وأنها مؤجلة الى يوم القيامة . ولهذا قال سبحانه : ﴿ وإن كثيراً من الناس بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه ، وما أيدهم به من المعجزات ، وأهلك من كفر بهم وأنجى من صدقهم . فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي أنهم كانوا أقوى من العرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ وأكثر أموالاً وأولاداً وأعماراً وإعماراً واستغلالاً ولما كفروا برسولهم

التي جاءتهم بالبينات أخذهم الله بعذابه الشديد ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ، ولا حالت بينهم وبين بأس الله وعذابه ، وما كان الله ظالماً لهم . ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ وهم الذين اردوا مهالكها بذنوبهم وتكذيبهم للرسل ولهذا قال عز من قائل : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ أي كانت السوأى عاقبتهم لأنهم كذبوا واستهزأوا بآيات الله .

﴿ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١١)
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ
شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ
السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿ (١٦) ﴿

يقول تعالى : ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أي كما هو قادر على بداءته فهو قادر كذلك على إعادته ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة فيجازي كلّا بعمله وقوله تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾ أي يبهت المجرمون ويأسون ويكتئبون ﴿ ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ﴾ أي خانهم شفعاءهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله وهم أحوج ما كانوا إليهم وتبرأ شفعاءهم منهم ومن كفرهم ثم قال جل وعلا ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ فيرتفع هذا إلى عليين وينخفض هذا إلى أسفل سافلين فتلك الفرقة التي لا اجتماع بعدها ولهذا قال عز من قائل : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون ﴾ = أي ينعمون بما أفاء الله عليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقوله تعالى : ﴿ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ﴾ لما وصف الله تعالى حال المؤمنين من الرضا والحبور في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، جزاء ما أسلفوا من الطاعات والأعمال الصالحة ، ذكر تعالى حال الكفار الذين كذبوا بما نزل الله تعالى من آيات هذا القرآن العظيم وبالبعث والجنة والنار ﴿ فأولئك في العذاب محضرون ﴾ أي مجموعون يوم القيامة في نار جهنم مقيمون

فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون . (١) =

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (١٧)
 وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿ (١٨)
 يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ
 بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿ (١٩) ﴾

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته ، ففي المساء وهو اقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار بضياؤه ، ثم اعترض بحمده مناسبة - للتسبيح فقال تعالى : ﴿ وله الحمد في السموات والأرض ﴾ أي هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض ثم قال سبحانه : ﴿ وعشيًّا وتحين تظهرون ﴾ فالعشاء وهو شدة الظلام ، والإظهار قوة الضياء فسبحان خالق هذا وهذا (وقيل المراد بالتسبيح هنا الصلوات الخمس ، فقوله حين تسمون صلاة المغرب والعشاء وقوله حين تصبحون صلاة الفجر وقوله وعشيًّا صلاة العصر وقوله وحين تظهرون صلاة الظهر) (٢) وقوله تعالى : ﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة وازدواجها ، ليدل على كمال قدرته فمن ذلك إخراج النبات من الحب والحب من النبات ، والبيض من الدجاج والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وقوله تعالى : ﴿ ويحيي الأرض بعد موتها ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج - الى قوله - وإن الله يبعث من في القبور ﴾ ولهذا قال هاهنا ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ أي تبعثون .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ
 تَنْتَشِرُونَ ﴾ (٢٠) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا

(١) الكلام الذي ما بين المساويين من هذه الصفحة هو من كلامي فإن المفسر رحمه الله تعالى لم يفسر الآيتين ١٥ و ١٦ فوضحت معناهما إتماماً للفائدة والله الموفق . (٢) ما بين القوسين قاله الضحاك وسعيد بن جبير ولم يذكره المفسر .

لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى : ﴿ومن آياته﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق أباكم آدم من تراب ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين ، ثم تسلسل : علقه ثم مضغة ثم عظاما فكسيت لحماً ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج صغيراً ضعيفاً ثم تكاملت قواه إلى أن بنى المداين والحصون وجال في أقطار الأرض براً وبحراً للكسب. وله مدارك ورأي وعلم في أمور الدنيا والآخرة ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وصرّفهم في فنون المعاش ، وفاوت بينهم في الخلق والعلم ، واليسر والعسر ، وقال الإمام أحمد عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ ٤٢٧ [إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والحبيث والطيب ، والسهل والحزن وبين ذلك] ورواه أبو داود والترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح :

وقوله تعالى : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي من جنسكم إنثاءً أزواجاً ﴿لتسكنوا إليها﴾ أي ليحصل الائتلاف بينهم إذ لو كان من غير جنسهم لحصل النفرة ، فمن رحمته أن جعلهم جميعاً من جنس واحد ذكوراً وإنثاءً فحصلت المودة والرحمة والرافة ولهذا قال : ﴿وجعل بينكم مودةً ورحمةً﴾ لتبقى أسباب الترابط قائمة ، ويبقى التناسل مستمراً ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى : ﴿ومن آياته﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿خلق السموات والأرض﴾ أي خلق السموات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من المخلوقات وكذلك الأرض بما فيها

ومن فيها وعليها ﴿ واختلاف ألسنتكم ﴾ يعني اختلاف لغات البشر من عرب وعجم الى غير ذلك ﴿ وألوانكم ﴾ أي السمات الخاصة بكل انسان التي تختلف عن السمات في الإنسان الآخر وليس يشبه واحد منهم الآخر فلا بد من المقارنة في السمات والهيئة والكلام فلكل منهم أسلوب خاص يختلف عن الآخر ﴿ إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله ﴿ أي ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم الذي تحصل فيه الراحة والسكون ، وجعل لكم الانتشار والسعي في أسباب الرزق والأسفار في النهار ﴾ ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ أي يعون فينتفعون من معرفته هذه الآيات فتدلهم على موجدها .

روى الطبراني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : ٤٢٨] أصابني أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « قل اللهم غارت النجوم وهدأت العيون وانت حي قيوم يا حي يا قيوم أتم عيني وأهدى ليلي » فقلتها فذهب عني [

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢٤) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ (٢٥) ﴿

يقول تعالى ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته أنه : ﴿ يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ أي تارة تخافون صواعقه وتارة ترجون مطره وغيثه. ولهذا قال تعالى : ﴿ وينزل من السماء ماءً فيخرج به الأرض بعد موتها ﴾ أي بعد أن كانت هامدة لا نبات فيها ولما جاءها الماء ﴿ اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد .

ولهذا قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ أي يوم تبدل الأرض غير الأرض وخرجت الأموات من قبورها أحياءً بأمره تعالى ودعائه إياهم ولهذا قال جل وعلا : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ أي من الأرض كما قال تعالى : ﴿ فلنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ • (٢٦)
 وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ
 الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ • (٢٧) ﴿﴾

يقول تعالى ﴿وله من في السموات والأرض﴾ أي ملكه وعبده ﴿كل له قانتون﴾ أي خاضعون خاشعون طوعاً وكرها . وقوله تعالى : ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ أي كل عليه هين ، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٢٩ [يقول الله تعالى كذّبي ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقله لن يعيدني كما بدّاني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ، وأما شتمه إياي فقله : اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد]

وقوله تعالى : ﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض﴾ قال ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ قال قتادة : مثله أنه لا إله إلا هو ولا ربّ غيره ﴿وهو العزيز﴾ الذي لا يغالب ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله شرعاً وقدرأ .

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ
 كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ • (٢٨)
 بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْهَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ
 اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ • (٢٩) ﴿﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به ، وهم مع ذلك معترفون بأن شركاءه من الأنداد عبيد له كما كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ضرب الله مثلاً من أنفسكم﴾ أي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء﴾ أي أيرضي أحدكم

ان يكون عبدهُ شريكاً له في ماله فهو والعبد سواء في المال ... ؟ ﴿ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾ أي تخافون أن يقاسموكم الأموال ، والمعنى أن أحدكم يأنف ان يكون شريكاً له فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ؟ وهذا كقوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ أي ينسبون لله ما يكرهونه ولا يرضونه لأنفسهم ، فهذا أغلظ الكفر . ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأولى والأحرى . قال تعالى : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ ثم قال تعالى مبيناً ان المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً ﴿ بل اتبع الذين ظلموا ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم باقترافهم جريمة الشرك اتبعوا ﴿ أهواءهم ﴾ في عبادتهم الأنداد بغير علم ﴿ فمن يهدي من أضلَّ الله ﴾ أي فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ أي ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير ولا محيد لهم عنه ، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٣٢)

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمرَّ على دينك ملَّة إبراهيم الحنيفة ، التي هداك الله لها ، وأكملها لك غاية الكمال ، وانت مع ذلك ، لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ وفي الحديث : ٤٣٠ [إني خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالهم الشياطين عن دينهم] . وسنذكر في الأحاديث أنه تعالى فطر خلقه على الإسلام ، ثم طرأ على بعضهم اليهودية والنصرانية والمجوسية .

وقوله تعالى : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ أي لدين الله أي لا تبديل لدين الإسلام الذي فطر الناس عليه . روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٣١ [ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل

لخلق الله ذلك الدين القيم» [ورواه مسلم .

روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع التيمي قال : ٤٣٢ [أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه فأصب ظفراً . فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا ولدان ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟ فقال رجل يا رسول الله أما هم أبناء المشركين ؟ فقال : « لا إنما خياركم أبناء المشركين — ثم قال — لا تقتلوا ذرية ، لا تقتلوا ذرية — وقال — كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها » [وقوله تعالى : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي التمسك بالشرعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي لا يعرفونه ، كقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ منيبين إليه ﴾ أي راجعين إليه ﴿ واتقوه ﴾ أي خافوه وراقبوه ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ وهي الطاعة العظيمة ﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ بل وحدوه وأخلصوا العبادة له ولا تريدوا بها إلا وجهه تعالى . قال ابن جرير عن يزيد بن أبي مریم قال : مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمعاذ ابن جبل فقال له عمر : ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات : الإخلاص وهي الفطرة ، فطرة الله التي فطر الناس عليها . والصلاة هي الملة ، والطاعة وهي العصمة ، فقال عمر : صدقت .

وقوله تعالى : ﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً أي بدّلوه وغيروه ، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض فكانوا فرقا وأحزاباً ... وهذه الأمة اختلفوا فيما بينهم كما اختلف أهل الأديان قبلهم هذا فقد اختلفت هذه الأمة على نحل كلها ضلالة إلا واحدة : وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين من قديم الدهر وحديثه كما رواه الحاكم في مستدركه أنه : ٤٣٣ [سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم . قال : من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي]

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ

بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن الناس أنهم في حال الضراء يدعون الله وحده لا شريك له . وانه إذا أسبغ عليهم نعمة إذا فريق منهم يشركون بالله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ من النعم . ثم توعدهم بقوله تعالى : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ قال بعضهم : والله لو توعدني حارس درب لحفت منه ، فكيف والمتوعد ههنا هو الذي يقول للشيء كن فيكون ؟ ثم أنكر تعالى على المشركين عبادتهم غيره بلا حجة ولا برهان ، فقال سبحانه : ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ أي حجة ﴿ فهو يتكلم ﴾ أي ينطق ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾ أي لم يكن لهم شيء من ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ هذا إنكار على النوع الإنساني إلا من عصمه الله ووفقه فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر . كما ثبت في الصحيح : ٤٣٤ [عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له .] وقوله تعالى : ﴿ أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله فيوسع على قوم ، ويضيّق على قوم آخرين . ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون ﴾

﴿ قَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

(٣٠-الروم-ج ٢١): الله يخلق ويرزق ويحي ويميت، هل من شركائهم من يفعل ذلك؟ ٤٤١

يأمر تعالى أمراً بإعطاء ﴿ ذي القربى حقّه ﴾ أي من البر والصلة ﴿ والمسكين ﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق منه ، ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المحتاج الى نفقة سفره ، ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله ﴾ أي الغاية القصوى من نعيم الجنة وهي النظر إليه تعالى ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ في الدنيا والآخرة ، ثم قال تعالى : ﴿ وما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله ﴾ أي من أعطى عطيته يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله . قال ابن عباس وغيره وقال الضحاك : وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه ، إلا أنه قد نهي عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قال تعالى : ﴿ ولا تمن تستكثر ﴾ أي لا تعط العطاء تزيد أكثر منه .

وإنما الثواب عند الله تعالى في الزكاة ولهذا قال سبحانه : ﴿ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ أي الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء كما جاء في الصحيح : ٤٣٥ [وما تصدق أحدٌ بعدلٍ بتمرةٍ من كسب طيب إلاّ أخذها الرحمن بيمينه فيريها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد]

وقوله عز وجل : ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ﴾ أي هو الخالق الرازق روى الإمام أحمد عن حبة وسواء ابني خالد، قالوا : ٤٣٦ [دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً فأعنتاه فقال « لا تياسا من الرزق ما تهزرت رؤوسكما ، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يرزقه الله عز وجل »] .

وقوله تعالى : ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ أي يميتكم بعد هذه الحياة ثم يحييكم يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ هل من شركائكم ﴾ أي الذين تعبدونهم من دون الله ﴿ من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ هل يفعلون كما يفعل الله من الخلق والرزق والحياة والموت والبعث ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ أي تنزه الله وتعالى وتقدس وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ أو ولد أو والده ، بل هو لأحد الفرد والصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي

الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

قال تعالى : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴾ أي بان النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي وقال أبو العالية : من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض . لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود : ٤٣٧ [لقد يقام في الأرض أحب إلي أهلها من أن يُمطروا أربعين صباحاً]

والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت إنكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات ، وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض ولهذا إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت، من قتل الخنزير، وكسر الصليب، ووضع الجزية، وهو تركها . فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج ، قيل للأرض أخرجي بركتك ، فيأكل من الرمانة الفئام من الناس ويستظلون بقحفها ، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس ، وما ذاك إلا بركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير . ولهذا ثبت في الصحيحين : ٤٣٨ [ان الفاجر إذا مات يسريخ منه العباد والبلاد والشجر والدواب] .

وقوله تعالى : ﴿ ليذيقهم بعض الذي عملوا ﴾ أي يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختباراً منه لهم ومجازاة على صنيعهم ﴿ لعلمهم يرجعون ﴾ أي عن المعاصي كما قال تعالى : ﴿ وبلونا هم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ﴾ أي الذين من قبلكم ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ أي فانظر ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدٍّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصْدُّعُونَ ﴾ (٤٣) ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ (٤٤) ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤٥)

(٣٠-الروم-ج ٢١): لا تياسن يا محمد، فكما كذبتك قومك، كذب المرسلين أقوامهم ٤٤٣

يأمر تعالى عباده بالاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له . ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُ الْعَوْنُ ﴾ أي يتفرقون ، ففريق في الجنة وفريق في السعير ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ ﴾ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴿ أي يجازيهم مجازاة الفضل ، الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى ما يشاء الله ﴾ إنه لا يحب الكافرين ﴿ ومع هذا ، فانه العادل فيهم الذي لا يجور .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٧)

يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرسال الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها ، ولهذا قال : ﴿ وليذيقكم من رحمته ﴾ أي المطر الذي ينزل فيحيي به العباد والبلاد ، ﴿ ولتجري الفلك بأمره ﴾ أي في البحر وإنما سيرها بالرياح ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي بالتجارات والمعاش والسير من إقليم إلى إقليم ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي تشكرون الله تعالى على نعمه الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى . ثم قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلًا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا ﴾ هذه تسليية لرسول الله ﷺ بأنه وإن كذبه قومه فقد كُذِّبَ المرسلون قبله مع ما معهم من الدلائل الواضحة ، فانتقم الله من المكذبين ، وأنجي المؤمنين برسله ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ أي حق أحقه على نفسه الكريمة تكراً منه وتفضلاً كقوله تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ

بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

يبيّن الله تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء فقال تعالى : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ من تبخرات البحر ومن تبخرات ما يشاء سبحانه ﴿ فيسطه في السماء كيف يشاء ﴾ أي يمدّه فيكثره وينمّيه حتى يملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقلاً مملوءاً ، كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت ﴾ - إلى قوله - ﴿ كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ وكذلك قال هاهنا : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً ﴾ أي قطعاً سوداء ثقيلة قريبة من الأرض . وقوله تعالى : ﴿ فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ أي ترى المطر ينهمر من السحاب ﴿ فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ أي لحاجتهم إليه وبتزوله ووصوله إليهم . وقوله تعالى : ﴿ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾ أي كانوا قانطين فلما جاءهم المطر جاءهم على فاقة ، فوقع منهم موقعاً عظيماً بعد أن انتظروه وقتاً بعد وقت ، فترقبوه في أثنائه ، فتأخروا ثم مضت مدة فترقبوه فتأخروا ثم جاءهم فجأة بعد الإياس منه فربت ارضهم بعد الهمود وأنبئت من كل زوج بهيج ولهذا قال تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله ﴾ يعني المطر ﴿ كيف يحيي الأرض بعد موتها ﴾ ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفريقها فقال تعالى : ﴿ إن ذلك لمحبي الموتى ﴾ أي إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الموتى ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرة لظلوا من بعده يكفرون ﴾ يقول تعالى : ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً ﴾ يابسة على الزرع الذي زرعه وشب واستوى على سوقه فرأوه مصفرة وشرع في الفساد لظلوا من بعده يحجدون ما تقدم إليهم من النعم ، كقوله تعالى : ﴿ أفرايتم ما تحرثون ﴾ إلى قوله ﴿ بل نحن محرومون ﴾ .

والرياح ثمانية : أربعة منها رحمة ، وأربعة عذاب . فأما الرحمة : فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات . وأما العذاب : فالعقيم والصرصر وهما في البر ، والعاصف والقاصف وهما في البحر . فإن شاء الله جعلها رحمة وبشرى، أو شاء فجعلها عذاباً أليماً .

والرياح مختلفة في مهابتها : صبا ، ودبور ، وجنوب ، وشمال. وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف ، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان ، وأخرى تجففه ، وأخرى تسيّره وتصلبه ، وأخرى توهنه وتضعفه .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الْأَدْعَاءَ إِذَا وُلُّوا مُذِرِينَ ﴾ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيَّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ ﴿ (٥٣)

يقول تعالى : كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجدائها ، ولا تبليغ كلامك الصمّ الذي لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم بل ذلك إلى الله تعالى، فإنه عز وجل بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه. ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ ﴾ أي خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ على توهيم عبدالله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قلب بدر بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم حتى قال له عمر : [٤٣٩] يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جئفوا ، فقال « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » وتأولته عائشة على انه قال « أنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » [وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقيحاً وتوييحاً ونقمة^(١)]

(١) قلت : لقد جاء في الطبعة البيروتية / طبعة دار الأندلس / لتفسير ابن كثير زيادات على نسخة تفسير ابن كثير الأميرية مشبته في النسخة المكية ، وهذه الزيادات تشتمل على حديثين واهيين وعلى بعض روايات عن غير المصنوع . جاء فيها بعض الطامات ، التي كانت وأمثالها من الخرافات . . . سبباً في توهين جسم هذه الأمة التي =



﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤)

بنيه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار خلقه ، فأصله من تراب ، ثم من نقطة ثم من علقه ثم من مضغة ، ثم يصير عظاماً ثم تكسى لحماً ، ثم ينفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه واهن القوى ، ثم يشب قليلاً حتى يكون صغيراً ، ثم حديثاً ، ثم مراهماً ثم شايئاً ، وهو القوة بعد الضعف ثم يشرع في النقص فيكتهل ثم يشيخ فيهرم ، وهو الضعف بعد القوة ، فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللثة ، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبةً بخلق ما يشاء﴾ أي يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد ﴿وهو العليم القدير﴾

= شأها الله أن تكون غير أمةٍ أخرجت للناس ، شريطة أن تتخذ الإسلام الصحيح منهجاً لها وصراطاً مستقيماً إنما غلبت عصور التأخر وما حملت في طياتها من كيدٍ للإسلام وأهله فدخلت مثل هذه الطامات التي تعدل بالمسلمين عن منهجهم الهادي وطريقهم القويم .

لقد جاء في هذا التفسير (بل أدخل عليه ادخالاً ودس عليه دساً) أن الأموات يسمعون ويعقلون وتعرض عليهم أعمال الأحياء ! ثم قال أحد الرواة لهذه الطامات أنه رأى أهل القبور خارجين من قبورهم وجالسين عليها ويتكلمون مع هذا الراوي ونادوه بسمه ، ثم ذكرت بعض حكايات مستندة إلى مثامات تؤيد سماع الأموات لكلام الأحياء ولسلاماتهم ، مما يخالف مخالفةً صريحةً لما جاء في الكتاب الكريم ، من أن الأموات لا يسمعون كقوله تعالى : «فإنك لا تسمع الموتى» وقوله تعالى : «وما أنت بمسمع من في القبور» وكقوله تعالى «والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير» وأمثال ذلك في القرآن كثيره وإذا كان أهل القلب يبدر . خاطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن أحد الرواة قال : [أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته توبيحاً وتقريعاً ونقمة.] فلما رد الله إليهم أسماعهم سمعوا مقالة النبي صلى الله عليه وسلم فليكون ذلك أبلغ في عذابهم على أن أعداء الإسلام يحبون أن يدسوا سمومهم هذه ، ليسهل عليهم أن يدسوا وراءها عقائد شركية ، تحجج دعوة غير الله ، والاستغاثة بهم ، والذبح والنذر لهم ، وأمثال هذه الشريكيات التي دسها أعداء الاسلام ، حتى ينالوا ما يريدون وما ينفون من الكيد للاسلام والمسلمين ، وإننا نعتقد اعتقاداً جازماً أن أمثال هذه الطامات الخبيثات ؛ مدسوسة على تفسير ابن كثير رحمه الله الذي يعد من أجل التفسير بل هو أجلها وأهداها ... ولذا فقد ضربنا صفحاً عن ادخال هذه المنكرات في هذا المختصر الذي نحرص على أن يكون منزهاً عن كل ما يشين سمعة هذا الدين الكريم ، وفقاً لعقيدتنا السلفية الهادية المهدية وسوف نفرّد - إن شاء الله - رداً خاصاً على هذه الترهات . والله الموفق .

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا عبدوا الأوثان وفي الآخرة أقسموا بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا غير ساعة ، ومقصدهم عدم قيام الحجة عليهم وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم ، قال الله تعالى : ﴿ كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث ﴾ أي فإرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا فيقولون لهم حين حلفوا أنهم ما لبثوا غير ساعة : ﴿ لقد لبثتم في كتاب الله ﴾ أي في كتاب الأعمال : ﴿ إلى يوم البعث ﴾ أي من يوم خلقتم إلى يوم بعثتم ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فيومئذ ﴾ أي يوم القيامة : ﴿ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ وعمّا فعلوا ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي ولا هم يرجعون الى الدنيا كما قال تعالى : ﴿ وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي قد بينا لهم الحق ووضحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتبعوه ﴿ ولئن جئتهم بآية ليقولنَّ الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ أي مهما رأوا من آيات سواء كانت بافراحهم أو

غيره لا يؤمنون بها . كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ ولهذا قال هاهنا : ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . فاصبر إن وعد الله حق ﴾ أي اصبر على عنادهم ، ومخالفتهم فإن الله وعدك بالنصر عليهم أنت ومن معك في الدنيا والآخرة ﴿ ولا يستخفّنك الذين لا يوقنون ﴾ أي بل واثبت على ما بعثك الله به فإنه الحق الذي لا مرية فيه ، ولا تعدل عنه ، وليس فيما سواه هدي يتبع بل الحق كله منحصر فيه .

قال سعيد عن قتادة : نادى رجل من الخوارج علياً رضي الله عنه وهو في صلاة الغداة فقال : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ فأنصت له عليّ حتى فهم ما قال ، فأجابه وهو في الصلاة : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفّنك الذين لا يوقنون ﴾

آخر اختصار تفسير سورة الروم ، والله الحمد والمنة وتدعوه تعالى

أن ييسر الاختصار الى نهايته انه سميع قريب مجيب الدعاء

وسيلها اختصار تفسير سورة لقمان والحمد لله رب العالمين ٢٦ / ٤ / ١٣٩٠

٣٠ / ٦ / ١٩٧٠

(٣١) سُورَةُ لُقْمَانَ مَكِّيَّةٌ وَأَيُّهَا الزَّجَّاجُ وَتِلَاوَتُونَ

إلا الآيات : ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ فمدنية نزلت بعد الصفات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى
وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

تقدم في أول سورة البقرة ، عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة وهو أنه سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاءً ورحمةً للمحسنين وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا أرحامهم ، وقرابتهم ، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك فمن فعل فهو من الذين قال الله تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي على بصيرة وبيّنة ومنهج واضح جلي ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

﴿١﴾ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

مُهَيِّنٌ • (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا
كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ • (٧)

لما ذكر حال السعداء وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه . كما قال تعالى :
﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم
وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع
كلام الله وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب كما قال ابن مسعود :
في قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشترى لهُوا الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ﴾ قال : هو
والله الغناء وكذلك قال ابن عباس وجابر وعكرمة وغيرهم ... قال الضحاك يعني الشرك ،
واختاره ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله . وقوله تعالى :
﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ أي إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله . وقوله تعالى :
﴿ ويتخذها هزواً ﴾ أي يستهزئ بها . وقوله تعالى : ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي كما
استهانوا بآيات الله أهينوا يوم القيامة في العذاب المستمر . ثم قال تعالى : ﴿ وإذا تلى عليه
آياتنا ولَّىٰ مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً ﴾ أي هذا المقبل على اللهو واللعب
والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولَّىٰ عنها وأعرض ، وتصامم وما به من صمم
لأنه يتأذى بسماعها ولا أرب له فيها . ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ أي يوم القيامة ، يؤله
كما تألم بسماع كتاب الله وآياته . ولا شك فإن هذا كان جزاءً وفاقاً من نوع العمل ولا
يظلم ربك أحداً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ
النَّعِيمِ • (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ • (٩) ﴾

هذا ذكر خاتمة الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وعملوا الصالحات على مراد الله
﴿ لهم جنات النعيم ﴾ أي يتمتعون فيها بأنواع الملاذ التي لا تخطر ببال أحد مقيمون فيها
لا ييغون عنها حولاً . وقوله تعالى : ﴿ وعد الله حقاً ﴾ أي لا محالة كائن والله لا يخلف
الميعاد لأنه الكريم المنان ، الفعال لما يشاء القادر على كل شيء . ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي قهر
كل شيء ، ودان له . ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (١٠) 'هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ' ﴿ (١١) ﴾

يبيّن سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، فقال تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ﴾ مرثية أو غير مرثية وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول سورة الرعد بما أغنى عن إعادته ^(١) ﴿ وألقى في الأرض رواسي ﴾ يعني الجبال أرست الأرض لئلا تضطرب بأهلها ولهذا قال جل وعلا: ﴿ أن تميد بكم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ أي بثّ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلاّ الذي خلقها ، وقد نبّه سبحانه على أنه الرازي بقوله جل وعلا : ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً فأنبثنا فيها من كل زوج كريم ﴾ أي من كل زوج من النبات وقوله تعالى ﴿ هذا خلق الله ﴾ أي صادر عن خلق الله وفعله وتقديره وحده لا شريك له في ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ أي بما تعبدونه وتدعونه من دون الله من الأصنام والأنداد؟! ﴿ بل الظالمون ﴾ يعني المشركين بالله ، العابدين غيره معه ﴿ في ضلال ﴾ أي جهل وعمى ﴿ مبين ﴾ أي واضح ظاهر .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (١٢) ﴾

اختلف السلف في لقمان : هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة...؟ على قولين ، الأكثرون على الثاني . وعن ابن عباس أنه كان عبداً حبشياً نجاراً . وعن جابر بن عبد الله قال : كان قصيراً أفتس الأنف من النوبة . وعن سعيد بن المسيب قال كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة . وقال ابن جرير : كان لقمان عبداً

حبشياً نجاراً فقال له مولاه اذبح لنا هذه الشاة فذبحها قال : أخرج أطيب مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب ، ثم مكث ما شاء الله ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة ، فذبحها ، فقال أخرج أخبث مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما فقال لقمان : انه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا . وقد أتى رجل اليه وسأله : ما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث ، والصمت عما لا يعنيني : وما تقدم يتضح أنه كان عبداً قد مسّه الرق ، والرق ينافي كونه نبياً . لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها ولذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً . وسئل أيضاً عن أسباب ما وصل إليه فقال : يا ابن أخي إن صغيت إلى ما أقول لك ، كنت كذلك قال لقمان : غَضِي بصري ، وكَفَيْ لساني . وعِفْ طعمتي ، وحَفْظي فرجي ، وقُولي بصدق ، ووَفائي بعهدي ، وتُكْرمتي ضيفي . وحَفْظي جاري . وتركِي ما لا يعنيني ، فذاك الذي صيرني إلى ما ترى .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ أي الفهم والعلم والتعبير والفقه في الإسلام ولم يكن نبياً ولم يوح إليه . ﴿ ان اشكر لله ﴾ أي أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه من الفضل الذي خصه به عن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه ، ثم قال تعالى : ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ أي إنما يعود النفع على الشاكرين ، لقوله تعالى : ﴿ ومن كفر فإن الله غني حميد ﴾ أي غني عن العباد لا يتضرر بذلك ، ولو كفر أهل الأرض جميعاً فإنه الغني عما سواه ، فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٥)

يخبر تعالى عن وصية لقمان لابنه . ولقمان هو ابن عنقاء بن سدون . واسم ابنه تاران في قول حكاه السهيلي . أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده لا شريك له ثم قال محذراً له ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي هو أظلم الظلم . روى البخاري عن عبدالله قال : ٤٤٠ [لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ : وقالوا أيتنا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « انه ليس بذلك ألا تسمع الى قول لقمان : ﴿يَا بَنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ » . ورواه مسلم من حديث الأعمش به . ثم قرن بوصية ابنه بعبادة الله وحده ، البر بالوالدين وقال ههنا : ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن﴾ أي ضعفاً على ضعف ، وقوله : ﴿وفصاله في عامين﴾ أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين كما قال تعالى : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ ومن ههنا استنبط ابن عباس : أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأنه قال في الآية الأخرى : ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً ، ليدكر الولد بإحسانها المتقدم إليه ولهذا قال تعالى : ﴿أن اشكركم لي ولوالديك إلي المصير﴾ أي فإني سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء .

وقوله تعالى : ﴿وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ أي في متابعتها على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنع أن تحسن إليهما ﴿واتبع سبيلاً من أناب إلي﴾ يعني المؤمنين ﴿ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ .

وروى الطبراني في كتاب العشرة بالسند الى سعد بن مالك قال : أنزلت في هذه الآية : ﴿وإن جاهدك...﴾ الآية قال كنت رجلاً برأ بأمي فلما أسلمت ، قالت : يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت ، لتدع دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيرني ، فيقال : يا قاتل أمه ، فقلت لا تفعل يا أمه ، فإني لا ادع ديني هذا لشيء ، فمكثت يوماً وليلة ولم تأكل فأصبحت وقد جهدت ، فمكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي ، فأكلت .

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي

صَخْرَةً أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم ليمثلها الناس ويقتدوا بها ، فقال : ﴿ يا بني إنما إن تك مثقال حبة من خردل ﴾ أي إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل ﴿ يأت بها الله ﴾ أي يحضرها يوم القيامة ، ويجازي عليهما إن خيراً فخير أو شراً فشر . كقوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ومهما كانت الذرة خافية أي غائبة في أرجاء السموات والأرض ، يأت بها من لا تخفى عليه خافية فيها . ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ أي لطيف العلم بالأشياء مهما تضاءل أودق . وخبير بكل شيء حتى بدبيب النمل في الليل البهيم ، وكل مخلوق يرى وما لا يرى .

﴿ يا بني أقم الصلاة ﴾ أي بفروضها وحدودها وأركانها وأوقاتها ﴿ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ﴾ بحسب استطاعتك ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ أي لأن الداعي إلى الله تعالى لا بد أن يناله الأذى ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ أي إن الصبر على أذى الناس من العزائم التي يوهبها الله لأهل دعوته . وقوله : ﴿ ولا تصعّر خدك للناس ﴾ وأصل الصعّر : داء يأخذ الإبل في أعناقها حتى تفلت عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر الذي يعرض بوجهه عن الناس إذا كلمهم أو كلموه احتقاراً منه إليهم ، واستكباراً عليهم وإن الله ينهى عن ذلك ، وقوله : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ أي خيلاء متكبراً ، لا تفعل ذلك يبغضك الله ولهذا قال سبحانه : ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ أي معجب في نفسه ، فخور على غيره . كقوله تعالى : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ روى الحافظ الطبراني بسنده إلى ثابت بن قيس بن شماس قال : ٤٤١ ذكر الكبير عند رسول الله ﷺ فشدد فيه فقال : ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾

(٣١-لقمان ج ٢١): اقتصد في مُشيك أخفض صوتك الحكمة أجلس المساكين مجالس الملوك ٤٥٥

فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله لاني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها ، ويعجبني شراك نعلي ، وعلاقة سوطي ؛ فقال « ليس ذلك الكبير ، إنما الكبير أن تسفه الحق وتغمط الناس » [

وقوله تعالى : ﴿ واقصد في مشيك ﴾ أي لا بطيئاً ولا مسرعاً إنما مقتصد بين بين وقوله تعالى : ﴿ واغضض من صوتك ﴾ أي لا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ولهذا قال : ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ أي أقبح الأصوات أي غايته من رفع صوته أن يشبه بالحمير في علوه ورفعته ومع هذا هو بغض إلى الله تعالى ، والتشبيه بالحمير يقتضي تجريمه وذمه غاية الذم لأن رسول الله ﷺ قال : ٤٤٢ [ليس لنا مثل السوء ... العائد في هبته كالكلب بقيء ثم يعود في قيئه] وروى النسائي عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ٤٤٣ [إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيئ الحمير ، فتعوزوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا] وأخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه .

فهذه وصايا نافعة من قصص القرآن الكريم عن لقمان الحكيم . وقد روي عنه من الحكم والمواعظ اشياء كثيرة . منها ما روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : اخبرنا رسول الله ﷺ قال : ٤٤٤ [إن لقمان الحكيم كان يقول : ان الله إذا استودع شيئاً حفظه]

وعن ابن أبي حاتم عن القاسم بن مخيمرة ان رسول الله ﷺ قال : ٤٤٥ [قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : يا بني إياك والتقمع ، فإنه مخوفة بالليل مذمة بالنهار]

« من أقواله لابنه »

— يا بني ان الحكمة أجلس المساكين مجالس الملوك .

— يا بني إذا أتيت نادي قوم ، فارمهم بسهم الإسلام يعني السلام ، ثم اجلس في ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم وإن أفاضوا في غير ذلك ، فتحول عنهم إلى غيرهم .

« في التواضع »

أحاديث تتعلق بوصية لقمان الحكيم لابنه «

• عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٤٤٦ [رُبَّ اشعث ذي طمرين يصفع عن أبواب الناس إذا أقسم ، على الله لأبره]

٤٥٦ (٣١-لقمان-ج ٢١): أجر حسن الخلق كأجر الجهاد والتمكبر المختال لا ينظر الله إليه.

• وعن أنس رضي الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ : ٤٤٧ [طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يُعرفوا ، وإذا غابوا لم يُفتقدوا ، أولئك مصابيح مجرّدون من كل فتنة غبراء مشتتة] .

• وعن معاذ بن جبل قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ سمعته يقول : ٤٤٨ [ان اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأتقياء الأثرياء الذين إذا غابوا لم يُفتقدوا ، وإذا حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة] .

« في الشهرة ... »

• عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٤٤٩ [حسب امرئ من الشر إلاّ من عصم الله ، أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم] فيه ابن لهيعة ضعيف لسوء حفظه بعد أن احترقت كتبه .

— قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : ما صدق الله من أحب الشهرة .

— قال سليم بن حفظة : بينا نحن حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال : إنها مذلة للتابع وفتنة للمتبوع .

— قال إبراهيم النخعي : لا تلبس من الثياب ما يشهر في الفقهاء ولا ما يزدرىك السفهاء .

« في حسن الخلق »

• عن أنس رضي الله عنه : ٤٥٠ [كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً]

• وعن ابن عمر رضي الله عنه : ٤٥١ [قيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضل ؟] قال أحسنهم أخلاقاً [

• وعن عائشة مرفوعاً ٤٥٢ [ان العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار]

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه : ٤٥٣ [سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال : « تقوى الله وحسن الخلق »] ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال : « الأجوفان : الفم والفرج » [وعن أنس مرفوعاً : ٤٥٤] ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة [

* عن الحسن بن علي قال : قال رسول الله ﷺ ٤٥٥ [ان الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه الأجر ويروح [

* وعن أبي هريرة مرفوعاً : ٤٥٦ [إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسطٌ وجوه وحسنُ خلق] .

« في ذم الكبر »

* عن ابن مسعود رفعه : ٤٥٧ [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان]

عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً : ٤٥٨ [من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر أكبه الله على وجهه في النار]

قال محمد بن الحسين بن علي - من ولد علي رضي الله عنه - ما دخل قلب رجل من شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك .

* في الاختيال - : عن بريدة مرفوعاً : ٤٥٩ [من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه]

* وعن أبي هريرة مرفوعاً ٤٦٠ [لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ لازاره وبينما رجل يتبختر في بردية أعجبت نفسه ، خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة] (١) .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ

فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ * (٢١)

ينبه تعالى خلقه على نعمه بأن سخر لهم كل ما في السموات والأرض ليستعينوا بها في معاشهم في الدنيا فتكون معينة لهم على عبادتهم لله تعالى كما أمر ، وأفاض عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل. ومع كل هذا ما آمن من الناس إلا قليل ، وأكثرهم يجادل في توحيد الله وإرساله الرسل ولكن بغير علم ولا حجة من كتاب من الله مبين مضيء. وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الشرائع المطهرة قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا أي ليس لهم أي حجة سوى اتباع الآباء الأقدمين. فما ظنكم أيها المفتونون بآبائكم إذا كانوا على ضلالة وأنتم خلفهم في ذلك؟ ولهذا قال : ﴿أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾ - وهكذا حال من يهجر سبيل الله المستقيم ، ويتبع كل شيطان من الحينة والناس ليقذفوا بهم في قرار الجحيم .



وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * (٢٣) نَمْتَعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ * (٢٤)

يخبر تعالى عمن أسلم وجهه لله أي أخلص له العمل وانقاد لأمره واتباع شرعه ولهذا قال تعالى : ﴿وهو محسن﴾ أي في عمله باتباع ما أمر به وترك ما زجر عنه ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي فقد أخذ موثقاً متيناً من الله انه لا يغذبه ﴿وإلى الله عاقبة الأمور ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾ أي لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله وبما جئت به ، وإلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا أي فيجزئهم عليه ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ فلا تخفى عليه خافية ثم قال تعالى : ﴿نمتعهم قليلاً﴾ أي في الدنيا ﴿ثم نضطرهم﴾ أي لنجهم ﴿إلى عذاب غليظ﴾ أي فطبع صعب مشقّ على النفوس .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ۖ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٥) ﴿ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٢٦) ﴿

يخبر تعالى عن هؤلاء المشركين أنهم يعترفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لا شريك له ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ، ﴿ قل الحمد لله ﴾ إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لله ما في السموات والأرض ﴾ أي هو خلقه وملكه ﴿ إن الله هو الغني الحميد ﴾ أي الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه ، الحميد في جميع ما خلق ، له الحمد في السموات على ما خلق وما شرع وهو المحمود في الأمور كلها .

﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُهُ ۖ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٧) ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنَسٍ وَاحِدَةٍ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٢٨) ﴿

يخبر سبحانه عن عظمتهم وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلى وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد ولا يحصيها كما قال سيد البشر : ﴿ ٤٦١ ... لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك ﴾ فقال تعالى : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً وجعل البحر مداداً وأمه سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمتهم وصفاته وجلاله ، لتكسرت الأقلام ونفدت ماء البحار ولو جاء أمثالها مدداً إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول . قال قتادة إنها نزلت لما قال المشركون : إنما هذا الكلام يوشك أن ينفد فقال الله تعالى : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ... ﴾ الآية .

وروي عن ابن عباس ٤٦٢ ﴿ أنها نزلت جواباً لليهود فإن أحبارهم قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة : يا محمد أرأيت قولك : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ إيانا تريد أم

قومك ؟ فقال رسول الله ﷺ « كلا كما » قالوا ألسنت تتلو فيما جاءك أننا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ « إنها في علم الله قليل وعندكم من ذلك ما يكفيكم ، وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ الآية] وهذا يقتضي أن الآية مدنية لامكية والمشهور أنها مكية والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ أي عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه ، حكيم في جميع شؤونه ، وقوله تعالى : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ أي ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كخلق نفس واحدة . وقوله تعالى : ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ أي سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (٣٠)

ينجر تعالى أنه ﴿ يولج الليل في النهار ﴾ يعني يأخذ منه في النهار فيطول ذاك ويقصر هذا ، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار وهذا يكون في الشتاء ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى ﴾ أي إلى غاية محدودة كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٤٦٣ [يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه الشمس] قلت : الله ورسوله أعلم قال : فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال ارجعي ممن حيث جئت]

وقوله تعالى : ﴿ وإن الله بما تعملون خبير ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ﴾ أي إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أي الموجود الحق ، الإله الحق وإن كل ما سواه باطل والجميع خلقه وعبيده ولو اجتمع كل المخلوقات لا يقدر على تحريك ذرة إلا بإذنه ولعجزوا أن يخلقوا ذباباً. ولذا قال سبحانه : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾

أي العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء .

﴿لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ * (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ * (٣٢)

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره أي بلفظه وتسخيره ، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ، ولهذا قال عز من قائل : ﴿ليرىكم من آياته﴾ أي من قدرته ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي صبار في الضراء شكور في الرخاء. ثم قال تعالى : ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل﴾ أي كالجبال والغمام ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ ^(١) ثم قال جل وعلا : ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾ قال مجاهد : أي كافر كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد ولهذا قال سبحانه : ﴿وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾ فالختار هو الغدار وهو الذي كلما عاهد نقض عهده . والختار أتم الغدر وأبلغه ، قال عمر بن معد يكره :

وانك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدري وختري

وقوله تعالى : ﴿كفور﴾ أي جحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ * (٣٣)

يُنذِر الله الناس يومَ المعاد ، ويأمرهم بتقواه والخوف منه والخشية من يوم القيامة حيث : ﴿لا يجزي والد على ولده﴾ أي لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه ، وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه . ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله تعالى : ﴿فلا

(١) أي موحدين تمام التوحيد لا يشركون به أحدا

تغرّنكم الحياة الدنيا ﴿ أي لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴾ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴿ الغرور هو الشيطان فانه يغري ابن آدم ويعدّه ويمنّيه وليس من ذلك من شيء بل كان كما قال تعالى : ﴿ يعدهم ويمنّيههم وما يعدهم الشيطان إلاَّ غروراً ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٣٤)

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بالعلم بها فلا يعلمها أحدٌ إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب. ﴿ لا يجليها لوقتها إلاّ هو ﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلاَّ الله ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ، ولا يعلم ما في الأرحام من ذكر أو أنثى أو شقياً أو سعيداً إلا الله ثم يعلم الله الملائكة الموكلين بذلك ، وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخرها وكذلك ما تدري نفس في أي بلد أو غير من بلدان الله ستقبض ولا يدري أحد بذلك ولا يعلمه .

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ﴾ وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب .

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ٤٦٤ [مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلاَّ الله ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾] إنفرد بإخراجه البخاري .

روى الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ٤٦٥ [من حدثك أنه ^(١) يعلم ما في غدٍ فقد كذب ثم قرأت : ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾] .

وقوله تعالى : ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن ، فلم يطلع عليهن ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا. ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ فلا

(٣١ - لقمان - ج ٢١) : إذا أراد الله قبض عبدٍ بأرضٍ ، جعل له إليها حاجة ٤٦٣

يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة أو في أي شهر أو ليل أو نهار ﴿ وينزل الغيث ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلاً أو نهاراً. ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام ذكراً أم أنثى ، أحمر أم أسود وما هو ... ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ أخير أم شر ، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت لعلك الميث غداً ، لعلك المصاب غداً ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ أي ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض ، أفي بحر أو بر أو سهل أو جبل وقد جاء في الحديث : ٤٦٦ [إذا أراد الله قبض عبدٍ بأرضٍ ، جعل له إليها حاجة .]

آخر اختصار تفسير سورة لقمان والحمد لله رب العالمين

١٣٩٠ / ٤ / ٢٨

١٩٧٠ / ٧ / ٢

(٣٢) سُورَةُ السَّجْدَةِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّانَهَا ثَلَاثُونَ

إِلَّا الْآيَاتِ ١٦ - ٢٠ فَمَدَنِيَّةٌ نَزَلَتْ بَعْدَ الْمُؤْمِنِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لَتَنْذِرَنَّهُمْ
قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٣)

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا .
وقوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ أي اختلقه من عند نفسه ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لَتَنْذِرَنَّهُمْ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أي يتبعون الحق الذي جاء به .

وقد روى البخاري في كتاب الجمعة عن أبي هريرة قال : ٤٦٧ [كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿ آلم . تنزيل ... ﴾ السجدة و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾]
ورواه مسلم من حديث سفيان الثوري به . روى الإمام أحمد عن جابر قال : ٤٦٨ [كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ : ﴿ آلم . تنزيل ﴾ السجدة ، و ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ ،
تفرد به أحمد .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ

أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ .
 أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ
 إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ يَمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَالَمُ
 الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه خلق الأشياء فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم
 استوى على العرش - استواءً يليق بجلاله بلا تكليف ولا تشبيه ولا تجسيم ولا تأويل ولا
 تعطيل - ﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ أي بل هو المالك لأزمة الأمور ، الخالق
 المدبر لكل شيء ، والقادر على كل شيء فلا وليَّ لخلقهِ سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه
 ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ يعني أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه ، تعالى وتقدس
 وتتره أن يكون له نظير أو شريك أو وزير أو نديد أو عدل لا إله الا هو ولا رب سواه .
 وقوله تعالى : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ أي ينتزل أمره من
 أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة كما قال تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع
 سموات ومن الأرض مثلهن ينتزل الأمر بينهن ﴾ الآية وترفع الأعمال إليه تعالى ﴿ في
 يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ ولكن الملك يقطعها بطرفة عين ﴿ ذلك عالم
 الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ أي إن الله تعالى هو شهيد على أعمال عباده ترفع إليه
 جميعاً جليلها وحقيقها وصغيرها وكبيرها . هو العزيز سبحانه الذي عز كل شيء فقهره
 وغلبه ، والرحيم بعباده المؤمنين ، فهو عزيز في رحمته ، رحيم في عزته وهذا هو الكمال ،
 العزة مع الرحمة ، والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل .

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ
 طِينٍ ﴾ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ
 سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
 قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها . ثم لما ذكر خلق

السموات والأرض ، شرع في ذكر خلق الإنسان فقال تعالى : ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ يعني خلق أبا البشر آدم عليه السلام من طين ﴿ ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ﴾ أي يتناسلون كذلك من نقطة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ﴿ ثم سواه ﴾ يعني آدم لما خلقه من تراب ، خلقه سوياً مستقيماً ﴿ ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ يعني العقول ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي بهذه القوى التي رزقكموها الله عز وجل فالسعيد من استعملها في طاعته عز وجل .

﴿ وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ءَأِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (١١)



يخبر تعالى عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا : ﴿ إذا ضللنا في الأرض ﴾ أي تمزقت أجسادنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿ أننا لفي خلق جديد ﴾ أي أنعود بعد تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة ، لا إلى الذي يقول للشيء كن فيكون ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم ﴾ الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة كما هو المتبادر من حديث براء المتقدم ذكره في سورة ابراهيم ، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل^(١) وهو المشهور قاله قتادة وغير واحد ، وله أعوان ، وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت . قال مجاهد : حويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء ورواه زهير بن محمد عن النبي ﷺ بنحوه مرسلًا وقوله تعالى : ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أي يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

(١) لم تصح تسمية ملك الموت بعزرائيل ، فنكتفي ونقف عند التسمية التي سماه الله تعالى : (ملك الموت)

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ
'هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة ، وقالم حين عاينوا البعث وقاموا بين
يدي الله عز وجل ، حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم ، من الحياء والحجل يقولون :
﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أي الآن نسمع ونطيع أمرك وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة
إذا دخلوا النار بقولهم : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ وهكذا
هؤلاء يقولون ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا ﴾ إلى دار الدنيا ﴿ نعمل صالحاً إِنَّا
موقنون ﴾ أي قد أيقنا أن وعدك حق ولقاءك حق ، ويعلم الله أنه لو أعادهم الى الدنيا
لكانوا كفاراً يكذبون بآيات الله ويخالفون رسله ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن
حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ = أي لو أردنا لأجبرنا كل نفس
على أن تهدي بأمرنا إلى الخير إجباراً وإننا لقادرون على ذلك ولكن حق منا القول ان
تختار النفوس طريقها إلى الخير أو الشر اختياراً منهم لأنه سبق أن علموا مني ما هي خاتمة
الطائعين لأوامري وما هي خاتمة العاصين من الجن والإنس فلأملأن جهنم منهم أجمعين
أما الذين أطاعوا واتبعوا سبل السلام فلأجعلنهم في دار السلام ، والنعيم المقيم ^(١) =

نعوذ بالله من حال أهل النار فإنه يقال لهم على سبيل التقرير والتوبيخ : ﴿ فذوقوا
بما نسيتم لقاء يومكم هذا إِنَّا نسيناكم ﴾ أي سنعاملكم معاملة الناسي من باب المقابلة
وإلا فإن الله تعالى لا ينسى شيئاً ولا يفضل عنه شيء كما قال تعالى : ﴿ فاليوم ننساكم
كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾
أي بسبب كفركم ، وتكذيبكم . كقوله تعالى : ﴿ فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا
وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ
عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ﴿ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ
جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ (١٧) ﴾



يقول تعالى : ﴿ إنما يؤمن بآياتنا ﴾ أي يصدقها ﴿ الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً ﴾ أي استمعوا لها وأطاعوها قولاً وعملاً ﴿ وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴾ أي عن اتباعها والانقياد لها كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة . قال الله تعالى : ﴿ ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعني بذلك قيام الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيفة . قال مجاهد والحسن في قوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعني بذلك قيام الليل وقيل الصلاة بين العشاءين وعن أنس : هو انتظار صلاة العتمة . ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ أي خوفاً من وبال عقابه ، وطمعاً في جزيل ثوابه . ﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ كما قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه :

وفينا رسول الله يتلو كتابه
إذا انشقَّ معروف من الصبح ساطعُ
أراننا الهدى بعد العمى ، فقلوبنا
به موقنات أنَّ ما قال واقع
بيت يحافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : ٤٦٩ [عجب ربنا من رجلين رجل ثار من وطائه ولحافه من بين حبه وأهله الى صلاته رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي ، ورجل غزا في سبيل الله تعالى فأنهزموا ، فعلم ما عليه من الفرار وماله في الرجوع فرجع حتى أهرق دمه رغبة فيما عندي ، وشفقةً مما عندي فيقول الله عز وجل للملائكة انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي ، ورهبة مما عندي .. حتى أهرق دمه]

روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال : ٤٧٠ [كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحتُ يوماً قريباً منه ونحن نسير فقلت : يا نبيَّ الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال : « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت - ثم قال - ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل - ثم قرأ - ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ ...جزاء بما كانوا يعملون ﴾ ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ فقلت : بلى يا رسول الله فقال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله - ثم قال - ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ فقلت : بلى يا نبيَّ الله ، فأخذ بلسانه ثم قال « كفَّ عليك هذا » فقلت : يا رسول الله وإنا لمؤأخذون بما نتكلم به ؛

فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ وهل يُكَبُّ الناس في النار على وجوههم أو قال : على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » [ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم من طرق عن معمر به وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ الآية أي فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد لما أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب ، جزاءً وفاقاً فإن الجزاء من جنس العمل ، قال الحسن البصري : أخفى قوم عملهم ، فأخفى الله لهم ما لم ترعين ولم يخطر على قلب بشر ؛ رواه ابن أبي حاتم .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ٤٧١ قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر أخرجاه في الصحيحين بدون زيادة قال أبو هريرة : إقرأوا إن شئتم ...

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ (١٨)
أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿ (٢٠) وَلَنَذِيقَنَّهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿ (٢٢) ﴿

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أن لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله بمن كان فاسقاً أي خارجاً عن طاعة ربه، مكذباً بآيات رسل الله إليه ، كما قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات

سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴿ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستويون ﴾ أي عند الله يوم القيامة ، ذكر عطاء بن يسار السدي وغيرهما أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط ولهذا فصل حكمهم فقال تعالى : ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها وهي الصالحات ﴿ فلهم جنات المأوى ﴾ التي فيها المساكن والغرف العالية ﴿ نزلاً ﴾ أي ضيافة وكرامة ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ وأما الذين فسقوا ﴿ أي خرجوا عن طاعة الله ﴾ فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴿ قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعهم ﴾ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴿ أي يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً .

وقوله تعالى : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ قال ابن عباس : يعني مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتهما وما يحل بأهلها مما يبتي الله به عباده ليتوبوا إليه . وروى البخاري عن ابن مسعود : ما أصابهم من القتل أو السبي يوم بدر ، وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم قال السدي وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غرموا ، ومنهم من جمع له الأمران . وقوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ أي لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها ، كأنه لا يعرفها . ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك ﴿ إننا من المجرمين منتقمون ﴾ أي سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٢٣) ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٢٤) ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٢٥) ﴿

يخبر تعالى عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه آتاه الكتاب وهو التوراة . وقوله تعالى : ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ أي من لقاء موسى ربه عز وجل ﴿ وجعلناه ﴾ أي الكتاب الذي آتيناه وهو التوراة ، ﴿ هدى لبني اسرائيل ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وآتيناه موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل أن لا تتخذوا من دوني وكيلاً ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ أي لما كانوا صابرين على أوامره تعالى وترك زواجه ، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوهم به كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمره ويدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ثم لما بدّلوا وحرفوا وأولّوا سلّبوا ذلك المقام وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه فلا عمل صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً. ولهذا قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب ﴾ أي لما أخذوا برأس الأمر وصاروا رؤوساً وقوله تعالى : ﴿ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي من الاعتقادات والأعمال .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢٧)

يقول تعالى : أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ المكذبين بالرسول ، ما أهلك قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ، ومخالفتهم إياهم فيما جاءوهم به من قويم السبل فلم يبقَ منهم باقية ولا عين ولا أثر . ﴿ هل تحسّ منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزا ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ أي وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين ، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ، ذهبوا منها ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي عبرٌ ومواعظ ودلائل متناظرة بين من كذب وما آلت إليه حاله وبين من آمن وما آلت إليه حاله ﴿ أفلا يسمعون ﴾ أخبار من تقدم كيف كان أمرهم .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ ﴾ يبيّن تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء إمّا من السماء أو من ما تحمله الأنهار ويتحدّر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته. ولهذا قال تعالى : ﴿ إلى الأرض الجرّز ﴾ وهي التي لا نبات فيها ﴿ فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم و أنفسهم أفلا يبصرون ﴾ وليس المراد أرض مصر فقط ، بل هي بعض المقصود فانها في نفسها أرض رخوة فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتحمّله من الزيادة الحاصلة من امطار الحبشة وفيه طين أحمر فيغشي أرض

مصر وهي أرض سبخة مرملية محتاجة الى ذلك الماء وذلك الطين ايضاً لينبت الزرع فيه فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطر من غير بلادهم وطين جديد من غير أرضهم فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبداً . ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ أَفَلَا يَبْصُرُونَ ﴾ ويدخل في ذلك كل أرض جرز وهي التي لا نبات فيها. وهذا كقوله تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾ الآيتين

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٨) قُلْ
يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿ (٢٩)
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ ﴿ (٣٠) ۞

ينجر تعالى عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم وحلول غضبه ونقمته عليهم تكذيباً واستبعاداً وعناداً ﴿ ويقولون متى هذا الفتح ﴾ أي متى تُنصَرُ علينا يا محمد ؟ كما تزعم ، ما نراك أنت وأصحابك إلاّ محققين خائفين ذليلين . قال الله تعالى : ﴿ قل يوم الفتح ﴾ أي إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا والآخرة ﴿ لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ ومن زعم ان المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة وأخطأ فأفحش ، فإن يوم فتح مكة من قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء وقد كانوا قريباً من ألفين ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى : ﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ وانما المراد : الفتح يوم القضاء والفصل كقوله تعالى : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ أي أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل اليك من ربك وانتظر فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك وسينصرك على مخالفتك إنه لا يخلف الميعاد . وقوله تعالى : ﴿ إنهم منتظرون ﴾ أي أنت منتظر وهم منتظرون ويتربصون

(١) قلت : ويوم الفتح هذا كما قال المفسر رحمه الله تعالى يوم الفصل والقضاء أي يوم القيامة يوم يفصل الله فيما بين الخلائق ويقضي بحكمه لهم أو عليهم وذلك بدليل قوله تعالى « قل لا تأسألون عما أجرنا ولا نسأل عما تعمّلون . قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق ... »

(٣٢ - السجدة - ج ٢١) : سترى ما أعدّ لك من النعم ، وسيرون ما أعدّ لهم من النقم ٧٣٣

بكم الدوائر ، وسترى عاقبة صبرك عليهم وسيجدون مغبة كفرهم من وبيل عقاب الله لهم وحلول عذابه بهم وحسبنا الله ونعم الوكيل .

آخر اختصار تفسير سورة السجدة والله الحمد والمنة .

١٣٩٠ / ٥ / ١

١٩٧٠ / ٧ / ٤

(٣٣) سِوْرَةُ الْأَحْزَابِ مَدَنِيَّةٌ وَأَيَّانَهَا ثَلَاثُ وَسَبْعُونَ

نزلت بعد آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ * (١) وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا * (٣)

روى الإمام حمد عن زر قال : ٤٧٢ [قال لي أبيُّ بنُ كعب : كأني تقرأ سورة الأحزاب أو كأني تعدُّها ؟ قال : قلت ثلاثاً وسبعين آية فقال : قط لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم] ورواه النسائي من وجه آخر ، وهذا يقتضي أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلا يُؤتمَر مَنْ دونهُ بذلك بطريق الأولى والأخرى . وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي لا تسمع منهم ولا تستشرهم ، وإن الله كان عليماً حكيماً ، أي فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه فإنه عليم بعراقب الأمور ، حكيم في أقواله وأفعاله . ولهذا قال تعالى : ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي من قرآن وسنة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي لا تخفى عليه خافية ، ﴿وتوكل على الله﴾ في جميع أمورك وأحوالك . ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأتاب إليه .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ
أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ
أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي
السَّبِيلَ ﴾ (٤) أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا
أَبَاءَهُمْ فَاخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا
أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴾ (٥)

يقول تعالى موثقاً قبل المقصود المعنوي أمراً معروفاً حسياً ، وهو أنه كما لا يكون
للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله : أنت عليّ
كظهر أمي أمّاً له ، كذلك لا يصير الدعيّ ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له ، فقال
تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن
أمهاتكم ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ هذا هو
المقصود بالنفي ، فإنها نزلت بشأن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى النبي ﷺ . كان
النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال له زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى أن يقطع
هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ كما قال تعالى
في أثناء السورة : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين
وكان الله بكل شيء عليم ﴾ وقال تعالى ههنا : ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ يعني تبنيكم
لهم قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً ، فانه مخلوق من صلب رجل آخر فكما لا يمكن
أن يكون للبشر الواحد قلبان كذلك لا يمكن أن يكون له أبان ﴿ والله يقول الحق
وهو يهدي السبيل ﴾ قال سعيد بن جبير ﴿ يقول الحق ﴾ أي العدل ، وقال قتادة ﴿ وهو
يهدي السبيل ﴾ أي الصراط المستقيم .

وقال عبد الرزاق اخبرنا معمر عن الزهري في قوله تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل
من قلبين في جوفه ﴾ قال : بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ضرب له مثل : يقول

٤٧٦ (٣٣-الأحزاب-ج ٢١): نسخ الإسلام جواز ادعاء الأبناء الأجانب وأمر بردهم إلى آبائهم

ليس ابن رجل آخر ابنك . وقوله تعالى : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ هذا أمرٌ ناسخٌ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب وهم الأدعياء فأمر تبارك وتعالى بردهم إلى آبائهم في الحقيقة وإن هذا هو العدل والقسط والبر .

روى البخاري عن عبدالله بن عمر قال : ٤٧٣ [إن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾] وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي من طرق عن موسى بن عقبة به . ولهذا لما نسخ هذا الحكم ، أباح تبارك وتعالى زوجه الدعي ، وتزوج رسول الله ﷺ بزَيْنَب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة رضي الله عنه وقال تبارك وتعالى في آية التحريم : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ احترازاً عن زوجه الدعي فإنه ليس من الصلب وقوله تعالى : ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ في شأن زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان .

وقوله عز وجل : ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ أمر تعالى بردهم إلى آبائهم إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، أي عوضاً عما فاتهم من النسب . ثم قال تعالى : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ أي إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع ، فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع أثمه كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : ٤٧٤ [قال الله عز وجل : قد فعلتُ] وفي الحديث : ٤٧٥ [ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر] وفي القرآن المنسوخ « فانه كفر بكم إن ترغبوا عن آبائكم »

روى الإمام أحمد عن عمر رضي الله عنه انه قال ٤٧٦ [إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل معه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ثم قال قد كنا نقرأ : « ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم . »]

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ

في الكتاب مسطوراً ﴿٦﴾

قد علم الله تعالى شفقة رسوله على أمته ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم كان مقدماً على اختيارهم لأنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ وفي الصحيح ٤٧٧ [والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين] ولهذا قال تعالى : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٤٧٨ [ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرأوا إن شئتم : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فإيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاہ] تفرد به البخاري .

وقوله تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ أي في الحرمة والاحترام والإعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع .

وقوله تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ أي في حكم الله ﴿ من المؤمنين والمهاجرين ﴾ أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار . وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحليف والمؤاخاة التي كانت بينهم . كما قال ابن عباس : كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ وكذا قال غير واحد من السلف والخلف . روى ابن أبي حاتم عن الزبير بن العوام فقال : أنزل الله عز وجل فينا خاصة معشر قريش والأنصار : ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة ، قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فواخيناهم ووارثناهم ، فأخى أبو بكر رضي الله عنه خارجة بن زيد ، وأخى عمر رضي الله عنه فلاناً ، وأخى عثمان رضي الله عنه رجلاً من بني زريق ابن سعد الزرقى ، ويقول بعض الناس غيره ، قال الزبير رضي الله عنه : وواخيت أنا كعب بن مالك فبجته فابتعلته ، فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى ، فوالله يا بُني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة فرجعنا إلى موارثنا . وقوله تعالى : ﴿ إلا أن تفعلوا إلى

أوليائكم معروفاً ﴿ أي ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية .
وقوله تعالى : ﴿ كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾ أي هذا الحكم مقدر مكتوب في الكتاب
الأول الذي لا يبدل ولا يغير أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض : وإن كان تعالى قد
شرع خلافه في وقت... لما له في ذلك من الحكمة البالغة . وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو
جار في قدره الأول وقضائه القدري الشرعي ، والله أعلم .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ
وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ (٧)
لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (٨)

يخبر تعالى عن أولي العزم الخمسة وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة
دين الله تعالى ، وإبلاغ رسالته والتعاون والتناصر والاتفاق . كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ
الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن
به ولتنصرنّه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم
من الشاهدين ﴾ فأخذ عليهم هذا الميثاق والعهد بعد إرسالهم ، وكذلك هذا : ونص من
بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم وهو من باب عطف الخاص على العام وقد صرح
بذكرهم في هذه الآية وفي محل آخر من القرآن فبدأ في هذه الآية بالخاص لشرفه صلوات
الله عليه ، ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم وسلامه .

وقوله تعالى : ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ قال مجاهد : المبلغين المؤدّين عن
الرسل وقوله تعالى : ﴿ وأعدّ للكافرين ﴾ أي من أمهم ﴿ عذاباً أليماً ﴾ أي موجعاً فنحن
نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين
الواضح الجلي وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والماعدين والمارقين فما جاءت به الرسل
هو الحق ومن خالفهم فهو على الضلال ، كما يقول أهل الجنة : ﴿ لقد جاءت رسل ربنا
بالحق ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ
جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرًا * (٩) إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونًا * (١٠) ﴿١٠﴾

يخبر تعالى عن نعمته وفضله ، وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم عام تألبوا عليهم وتحزّبوا وذلك عام الخندق في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور . وسبب هذه الغزوة ان أشرافاً من يهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة إلى خيبر منهم سلام بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم ، وكنانه بن الربيع اجتمعوا بأشراف قريش وألبوهم على حرب النبي ﷺ فأجابوهم إلى ذلك ، ثم خرجوا إلى غطفان فاستجابوا لهم أيضاً . وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب . وعلى غطفان عيمنة بن حصن بن بدر الجميع قريب من عشرة آلاف ، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم . أمر المسلمين بحفر الخندق مما يلي الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه فحفروه . ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر . وجاء المشركون فترلوا شرقي المدينة قريباً من أحد ، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين وهم نحو من ثلاثة آلاف ، وقيل سبعمائة فاسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم نحو العدو . والخندق حفر ليس فيه ماء يحجب الحيلة والرجالة أن تصل إليهم ، وجعل النساء والذراري في أطام المدينة . وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة ، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة وهم قريب من ثمانماية مقاتل ، فذهب إليهم حُيَّ بن أخطب النضري ، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ، ومالوا الأحزاب على رسول الله ﷺ فعظم الخطب ، واشتد الأمر وضاق الحال . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ هُنَاكَ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ ومكث المسلمون محاصرين قريباً من شهر . إلا أنهم لا يصلون إليهم ولم يقع بينهم قتال ، إلا أن عمر بن عبد ودّ العامري - وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية ، ركب ومعه فوارس ، فافتحموا الخندق وخلصوا إلى ناحية المسلمين ، فأمر رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه فخرج إليه فتجاولا ساعة ثم قتله علي رضي الله عنه فكان علامة

النصر . ثم ارسل الله سبحانه على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ولمْ تُوقدْ لهم نار ولمْ يُقر لهم قرار . حتى ارتحلوا خائبين خاسرين . كما قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ وهي الصبا وفي الحديث : ٤٧٩ [نصرت بالصبا ، وأهلك عاد بالدهبور]

وقوله تعالى : ﴿ وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ هم الملائكة زلزلتهم ، وألقت في قلوبهم الرعب والخوف . وقد روى مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : ٤٨٠ [كنا عند حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فقال له رجل : لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت فقال له حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقرّ . فقال رسول الله ﷺ « ألا رجل يأتي بخبر القوم يكون معي يوم القيامة » فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ثم الثالثة مثله ثم قال ﷺ : « يا حذيفة قم فأتنا بخبر من القوم » فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال : « إئتني بخبر القوم ولا تدعهم علي » قال فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم ، فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار . فوضعتُ سهماً في كبدي قوسي وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ : لا تدعهم علي . ولو رميته لأصبته . قال فرجعت كأنما أمشي في حمام ، فأتيت رسول الله ﷺ . ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت ، فأخبرت رسول الله ﷺ ، وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها ، فلم أزل نائماً حتى الصبح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ « قم يا نومان » [وجاء فيما رواه يونس بن بكير عن زيد بن أسلم فذكر نحوه إلى أن قال : ٤٨١] .. وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً ، فوالله أني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم ، الريح تضربهم بها ثم خرجت نحو النبي ﷺ فلما انتصفت الطريق أو نحواً من ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين ، فقالوا : أخبر صاحبك ان الله تعالى كفاه القوم . فرجعت إلى رسول الله ﷺ ... فأخبرته خبر القوم وأخبرته أني تركتهم يرتحلون ، وانزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [وأخرج أبو داود في سننه منه : ٤٨٢] كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلى . [من حديث عكرمة بن عمار به .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ أي الأحزاب ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ تقدم عن حذيفة رضي الله عنه أنهم بنو قريظة ﴿ وَإِذَا زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ

الحناجر ﴿ أي من شدة الخوف ﴾ وتظنون بالله الظنونا ﴿ ظنون مختلفة فكل ظن ، وظهر النفاق وظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد رضي عنه قال : ٤٨٣ [قلنا يوم الحندق : يا رسول الله هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال ﷺ : نعم : قولوا : اللهم استر عوراتنا وآمن روعتنا قال فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح] ، وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبي عامر العقدي .

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿ (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿ (١٣)

يخبر تعالى عن حال المسلمين حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، وهم في غاية الجهد والضيق ورسول الله ﷺ بين أظهرهم أنهم اختبروا وزلزلوا زلزالاً شديداً ، فظهر النفاق وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ فالمنافق نجم نفاقه والذي عنده شبهة أو حسكة ضعف حاله وضاق صدره لضعف إيمانه ، وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى : ﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب ﴾ يعني المدينة وقوله تعالى : ﴿ لا مقام لكم ﴾ أي المراقبة مع رسول الله ﷺ ﴿ فارجعوا ﴾ أي إلى بيوتكم ومنازلكم . ﴿ ويستأذن فريق منهم النبي ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السراق يعني اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة أي ليس دونها ما يحجبها عن العدو ، ﴿ وما هي بعورة ﴾ أي ليست كما يزعمون ﴿ إن يريدون إلا فراراً ﴾ أي هرباً من الزحف ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَا تَوْهَا ﴾

وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

يُخبر تعالى عن هؤلاء الذين : ﴿ يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾ انهم لو دخل عليهم الأعداء من جانب ، ثم سئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً ، وهم لا يستمسكون بالإيمان مع أدنى خوف ، وهذا ذم لهم في غاية الذم . ثم قال تعالى يذكرهم بما عاهدوا الله من قبل هذا الخوف ان لا يولّوا الأدبار ﴿ وكان عهد الله مسئولا ﴾ أي وان الله سيسألهم عن ذلك العهد ولا بد ، ثم أخبرهم أن فرارهم لا يؤخر آجالهم ولا يقدمها بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ واذا لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي بعد فراركم ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل من ذا الذي يعصمكم من الله ﴾ أي يمنعكم ﴿ إن اراد بكم سوءاً أو اراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ أي ليس لهم من دون الله مجير ولا مغيث .



﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم من شهود الحرب والقائلين لآخوانهم أي أصحابهم ﴿ هلم إلينا ﴾ أي إلى الضلال والثمار . وهم مع ذلك ﴿ ولا يأتون اليأس إلا قليلاً ﴾ أشحة عليكم ﴿ أي بخلاء بالمودة ، والشفقة عليكم ﴾ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ﴿ أي من شدة خوفه وجزعه وجبهه من القتال ﴾ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴿ أي استقبلوكم بكلام بليغ ، وادعوا لأنفسهم الشجاعة والنجدة ، وهم كاذبون ثم يطلبون من الغنيمة ، بدعوى أنهم شهدوا معكم وهم مع ذلك ﴾ أشحة على الخير ﴿ أي ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير . ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك لم يؤمنوا فأحيط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ أي سهلاً هيناً عنده .

﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتُلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٢٠)

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ أي قريبون منهم وسيعودون ﴿ وإن يأت الأحزاب يودُّوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ﴾ أي ويودُّون إذا جاءت الأحزاب ألا يكونوا حاضرين معكم في المدينة بل في البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً ﴾ لكثرة جبنهم وضعف يقينهم والله سبحانه العالم بهم .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (٢٢)

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في مصابرة ومجاهدته وانتظار الفرج من الله عز وجل صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، ولهذا قال

للذين تزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ أي هلاً اقتديتم به وتأسستم بشمائله ﷺ ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بوعدته : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ﴾ أي هذا ما وعدنا الله من الابتلاء والاختبار الذي يعقبه النصر القريب ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم ، كما قال جمهور الأئمة : إنه يزيد وينقص ، وقد قررنا ذلك في أول شرح البخاري ، والله الحمد والمنة ^(١) ومعنى قوله جلّت عظمته ﴿ وما زادهم ﴾ أي ذلك الحال والضيق والشدة ﴿ إلا إيماناً ﴾ بالله ﴿ وتسليماً ﴾ أي انقياداً لأوامره وطاعة له تعالى ولرسوله ﷺ .

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (٢٣)
لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (٢٤)

لما ذكر تعالى المنافقين وكيف نقضوا العهد وولوا الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و ﴿ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ أي أجله ﴿ ومنهم مَنْ يَنْتَظِرُ وما بدلوا تبديلاً ﴾ أي وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدلوه .

روى البخاري عن زيد بن ثابت قال : [٤٨٤] لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمه بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ [تفرد به البخاري دون مسلم وأخرجه أحمد والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حسن صحيح .

(١) قلت : أن للمفسر الحافظ ابن كثير رحمه الله شرحاً على البخاري ولكن لم يكمله كما جاء في ترجمته في المجلد الأول صفحة / ي / من هذا المختصر .

روى البخاري أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ٤٨٥ [نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ انفرد به البخاري] وروى أحمد عن أنس بن مالك قال : (عمي أنس ابن النضر رضي الله عنه سميت به ، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ... لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ، ليرينَّ الله عز وجل ما أصنع . قال فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد ، فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال له أنس رضي الله عنه : يا أبا عمرو أين واهما لريح الجنة إني أجده دون أحد قال : فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه ، قال فوجد في جسده بضع وثمانون بين طعنة وضربة ورمية ، فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر فما عرفت أخي إلا بينانه قال : فترلت هذه الآية : ﴿ من المؤمنين رجال... ﴾ إلى قوله - ﴿ وما بدلوا تبديلاً ﴾ قال فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه رضي الله عنهم] ورواه مسلم والترمذي والنسائي .

وروى ابن جرير عن موسى بن طلحة قال : ٤٨٦ [دخلت على معاوية رضي الله عنه ، فلما خرجت دعاني فقال : ألا أضع عندك يا ابن أخي حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ؟ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن قضى نحبه »]

وقوله تعالى : ﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ أي أجله على الصدق والوفاء ﴿ ومنهم من ينتظر ﴾ يوماً فيه القتال ، فيصدق في اللقاء ﴿ وما بدلوا تبديلاً ﴾ أي ما غيروا بل استمروا على عهدهم لله وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ إن بيوتنا عورة ... ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ﴾ أي إنما يختبر عباده بالخوف والزلال، ليميز الخبيث من الطيب مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه . ولكن لا يعذب الله الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ فهذا علم بالشيء بعد كونه وإن كان العلم السابق حاصلًا به قبل وجوده . وقوله تعالى : ﴿ بصدقهم ﴾ أي بصبرهم على عهدهم وقيامهم به ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ وهم الناقضون لعهد الله فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه . وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى التزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل به . ولما كانت رحمته غالبية لغضبه فقال تعالى : ﴿ إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (٢٥)

وهكذا نصر الله المؤمنين بالريح والجنود الإلهية ، لقد سلط عليهم الهواء ففرق شملهم : فكما كان الهوى سبب اجتماعهم وهم أخلاط من قبائل شتى احزاب وآراء فناسب ان يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم وردَّهم خائبين خاسرين بغیظهم وحققهم ، لم ينالوا خيراً في الدنيا مما كان في ظنهم من الظفر والمغم ، ولا في الآخرة ، بما تحمّلوه من الآثام في مبارزة الرسول ﷺ بالعداوة وهمتهم بقتله واستئصال جيشه ، ومن هم بشيء وصدق همُّه بفعله فهو في الحقيقة كفاعله .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ أي لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده وأعز جنده ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : ٤٨٧ [لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده] أخرجاه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : ٤٨٨ [دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، أهزم الأحزاب ، اللهم أهزمهم وزلزلهم »] روى محمد بن اسحق : لما انصرف أهل الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا : ٤٨٩ [لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم] روى الإمام احمد عن سليمان بن صرد قال قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : ٤٩٠ [الآن تغزوه ولا يغزوننا] وهكذا رواه البخاري في صحيحه .

وقوله تعالى : ﴿ وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ أي بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيراً وأعز الله الإسلام وأهله وصدق وعده ونصر رسوله وعبده فله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ (٢٦)

وَأَوْزَنَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ
 اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

تقدم أن بني قريظة نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ وكان ذلك بتأثير من حُيَيِّ بن أخطب النضري لعنه الله ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جداً، فلما أئدهُ الله تعالى بنصره وردَّهم خائبين ورجع رسول الله ﷺ مؤيداً منصوراً ٤٩١] فبينما هو يقتسل من وعاء تلك المراقبة في بيت أم سلمة رضي الله عنها إذ تبدَّى له جبريل عليه الصلاة والسلام معجراً بعمامة من استبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله قال ﷺ « نعم » قال لكنَّ الملائكة لم تضع أسلحتها وهذا الآن رجوعي من طلب القوم ، ثم قال : ان الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض الى بني قريظة فإن الله تعالى أمرني أن أزلزل عليهم فنهض رسول الله ﷺ من فوره وأمر الناس بالمسير الى بني قريظة ، وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر وقال ﷺ « لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة » فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق فصلى بعضهم في الطريق و قالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا في بني قريظة فلم يعنّف أحداً من الفريقين وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه ، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه . ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلةً ، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيّد الأوس رضي الله عنه ، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية ، واعتقدوا أن يحسب إليهم في ذلك كما فعل عبد الله بن أبي ابن سلول في مواليه بني قينقاع حين استطلقهم من رسول الله ﷺ ، فعند ذلك استدعى رسول الله ﷺ سعداً من المدينة ليحكم فيهم وكان مريضاً فيها من أثر نبل أصيب به في أكحلّة أيسام الأحزاب ، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه فجعل الأوس يرققونه عليهم ، فلما أكثروا عليه قال رضي الله عنه : لقد آن لسعد ان لا تأخذه في الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » فأنزلوه قال رسول الله ﷺ « احكم فيهم » قال سعد رضي الله عنه : إني أحكم : أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبي ذراريهم ، وتقسّم أموالهم ؛ فتمال رسول الله ﷺ « لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى وحكم رسول الله ﷺ » وفي رواية : « لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة » ثم أمر رسول الله

ﷺ بالأخاديد فخذت في الأرض ، وجيء بهم مكتفين ، فضرب أعناقهم وكانوا بين السبعمائة الى الثمانمائة وسبى من لم ينبت منهم ، مع النساء ، وأموالهم . [

ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾ أي عاونوهم يوم الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ من أهل الكتاب ﴾ يعني بني قريظة من بعض أسباط بني اسرائيل كان قد نزل أبائهم الحجاز قديماً طمعاً في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ فعليهم لعنة الله .

وقوله تعالى : ﴿ من صياصيهم ﴾ يعني حصونهم ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ وهو الخوف لأنهم كانوا مالأوا المشركين على حرب النبي ﷺ وليس من يعلم كمن لا يعلم وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم فانعكس عليهم الحال . وأرادوا استئصال المسلمين فاستوصلوا مع شقاوة الآخرة فصارت صفقتهم هي الخسارة ولهذا قال تعالى : ﴿ فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾ . فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصغر والنساء .

وقوله تعالى : ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴾ أي جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وأرضاً لم تطأوها ﴾ قيل خيبر وقيل مكة وقيل فارس والروم ويجوز ان يكون الجميع مراداً ﴿ وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ (٢٨)

وإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴿ (٢٩) ﴾

هذا أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن إن كن يرذن الحياة الدنيا وزينتها وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله الثواب الجزيل فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

روى البخاري : ٤٩٢ [عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ ان رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه ، قالت : فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال : «إني

(٣٣- الأحزاب -ج ٢٢): إن كان يمكن للرسول أن يشرك ، فيمكن لزوجته أن تزني ٤٨٩

ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمرني أبويك » وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه ، قالت : ثم قال « إن الله تعالى قال : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك ﴾ . إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففي أي هذا أستأمر أبوي ، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة] .

وفي رواية لابن جرير زيادة : ٤٩٣ [ثم استقرأ الحَجَرَ ^(١) فقال : إن عائشة رضي الله عنها قالت : كذا وكذا » فقلن : ونحن نقول مثل ما قالت عائشة رضي الله عنهن كلهن] .

وكان تحته وقتئذ تسع نسوة : خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضي الله عنهن ، وكانت تحته ﷺ : صفية بنت حيي النضيرية وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت (الحارث) المصطلقية رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين .



﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿ (٣١)

يعظ تعالى نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة . قال ابن عباس رضي الله عنهما : وهي الشوز وسوء الخلق وعلى كل تقدير فهو شرط ، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ فلما كانت محلتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع ولهذا قال تعالى : ﴿ من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ يعني في الدنيا والآخرة قاله زيد بن اسلم ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ أي سهلاً هيناً ، ثم ذكر عدله وفضله في قوله تعالى : ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله ﴾ أي يطع الله ورسوله ويستجب ﴿ نُؤْتِهَا أَجْرَهَا

(١) قلت : أي حجر الزوجات رضي الله عنهن وأرضاهن ، أي سائر الزوجات .

٤٩٠ (٣٣- الأحزاب -ج٢٢): يطمع الذي في قلبه مرض، أنما قلبها معصوم من (المرض..)

مرتين واعتدنا لها رزقاً كريماً ﴿ أي في الجنة فانهم في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين ، فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة الى العرش .

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ (٣٢) وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلوة وأتين الزكوة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴿ (٣٣) وأذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴿ (٣٤)

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك ، فقال مخاطباً لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن فانه لا يشبههن احد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمترلة ثم قال ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ يعني بذلك ترقيق الكلام اذا خاطبن الرجال ولهذا قال تعالى : ﴿ فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ أي خيانة وفساد ... ﴿ وقلن قولاً معروفاً ﴾ اي قولاً حسناً معروفاً في الخير ليس فيه ترخيم كما تخاطب زوجها .

وقوله تعالى : ﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ أي لا تخرجن لغير حاجة إلا حاجة شرعية كالذهاب الى المسجد بشرط كما قال رسول الله ﷺ : ٤٩٤ [لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن ثفلات] وفي رواية : « وبيوتهن خير لهن » [وروى ابو داود عن النبي ﷺ قال : ٤٩٥] صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها ، وصلاحها في بيتها أفضل من صلاحها في حجرتها [وهذا اسناد جيد .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ أي إذا خرجن من بيوتهن كانت لهن مشية وتكسر وتغنج والتبرج أنها تلقي الحمار على رأسها، ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كله منها، وذلك هو التبرج : ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج .

والجاهلية الأولى هي ما بين إدريس ونوح عليهما السلام وكانت ألف سنة وهي أول تبرج النساء للرجال والرجال للنساء يستمعون إلى إبليس الذي اتخذ شيئاً مثل الذي يزمر فيه الرعاة فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله وكان إبليس يتمثل في صورة غلام ويزمر في زمماره فكان سبباً لحضور النساء والرجال للاستماع إليه وسبباً في تبرج النساء والرجال لبعضهم حتى ظهرت فيهم الفاحشة فهو قول الله تعالى ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ مختصراً عن قول لابن عباس .

وقوله تعالى : ﴿ وأقم الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ﴾ نهان أولاً عن الشر ^(١) ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين ﴿ وأطعن الله ورسوله ﴾ وأطعن الله ورسوله وهذا من باب عطف العام على الخاص - أي عطف طاعة الله ورسوله وهي أمر عام على الأمر الذي هو الصلاة والزكاة -

وقوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا ، لأنهم سبب نزول هذه الآية ، وسبب التزول داخل فيه قولاً واحداً إما وحده على قول ، أو مع غيره على الصحيح .

وروى ابن جرير عن عكرمة ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنها نزلت خاصة في نساء النبي ﷺ خاصة وقال عكرمة : ومن شاء باهلهن إنها نزلت في شأن نساء النبي ﷺ ، فان كان المراد أنهن كن سبب التزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففي هذا نظر ، فانه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك .

روى مسلم في صحيحه عن يزيد بن حيان قال : ٤٩٦ [انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن سلمة إلى زيد بن أرقم رضي الله عنه ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يازيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه ، لقد لقيت يازيد خيراً كثيراً ، حدثنا يازيد ما سمعت من رسول الله ﷺ قال : يا ابن أخي والله قد كبرت سنّي ، وقدم عهدي ، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ فما حدثتكم فاقبلوا ، وما لا فلا تكلّفوا فيه ، ثم قال : قام فينا رسول الله ﷺ

(١) قلت : وهذه قاعدة جلية في الدعوة إلى الله تعالى وهي ان النهي عن الشر مقدم على الأمر بالخير ومنه قوله تعالى : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » فقدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ، حتى ينتزع من القلب ما وقر فيه من مانع الإيمان .

يوماً خطيباً بماء يدعى خمأ - بين مكة والمدينة ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه . ووعظ وذكر ثم قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله تعالى ، فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه ، ثم قال : « وأهل بيتي اذكركم الله في أهل بيتي ، اذكركم الله في أهل بيتي » ثلاثاً فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضي الله عنهم ، قال : كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ؟ قال : نعم]

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ٤٩٧ [ان رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : الصلاة يا أهل البيت ﴿ انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾] ورواه الترمذي عن عبد بن حميد عن عفان به وقال : حسن غريب .

روى ابن جرير عن أبي هريرة عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : ٤٩٨ [جاءت فاطمة رضي الله عنها الى رسول الله ﷺ بيرمة لها قد صنعت فيها عصيدة تحملها على طبق ، فوضعتها بين يديه ﷺ فقال : أين ابن عمك وابناك ؟ » فقالت رضي الله عنها : في البيت فقال ﷺ : « ادعهم » فجاءت إلى علي رضي الله عنه فقالت : أجب رسول الله ﷺ أنت وابناك ، قالت أم سلمة رضي الله عنها : فلما رأهم مقبلين. مد ﷺ يده إلى كساء كان على المنامة ، فمده وبسطه ، وأجلسهم عليه ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله ، فضمه فوق رؤوسهم ، وأومأ بيده اليمنى إلى ربه فقال « اللهم هؤلاء أهل بيتي ، فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً »]

والذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى : ﴿ انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ فإن سياق الكلام معهن ، ولهذا قال تعالى : بعد هذا كله : ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ اي واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس ، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس ، وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما أولاهن وأحظاهن بهذه النعمة ، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه . قال بعض العلماء رحمهم الله : لأنه لم يتزوج بكرراً سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه ﷺ ورضي

الله عنها فناسب ان تخصص بهذه المزية ، وان تفرد بهذه المرتبة العليا ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته ، فقرابته أحق بهذه التسمية كما جاء في الحديث : ٤٩٩ [وأهل بيتي أحق] رضي الله عن أزواجه وقرباته فهم أهل بيته أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ ان الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ أي ذا لطف بكن ، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة وهي السنة ، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً وقيل يمتن عليهم بذلك . رواه ابن جرير .

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُنَّ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُنَّ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (٣٥)

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي شيبة قال : ٥٠٠ [سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ تقول : قلت للنبي ﷺ مالنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر قالت : وأنا اسرح شعري ، فلففت شعري ثم خرجت الى حجرة بيتي ، فجعلت سمعي عند الجريد ، فإذا هو يقول على المنبر : يا أيها الناس ان الله تعالى يقول : ﴿ ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ إلى آخر الآية] وهكذا رواه النسائي وابن جرير من حديث عبد الواحد بن زياد به مثله .

روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ٥٠١ [قال النساء للنبي ﷺ : ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ فقوله تعالى : ﴿ ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام ، وهو أخص منه في لقوله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ وفي الصحيحين : ٥٠٢ [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن] فيسلبه الإيمان ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين ، فدل على أن الإيمان أخص منه . وقوله تعالى : ﴿ والقانتين والقانتات ﴾ القنوت هو الطاعة في سكون ، كما قال تعالى : ﴿ أمّنٌ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر

الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴿ فالإسلام بعده مرتبة ١ يرتقي إليها وهو الإيمان ، ثم القنوت ناشئ عنهما . ﴾ والصادقين والصادقات ﴿ هذا في الأقوال ، فان الصدق خصلة محمودة وهو علامة الإيمان ، كما أن الكذب أمانة النفاق ، ومن صدق نجا ، وفي الحديث : ٥٠٣ [عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة . وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار . ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عنه الله كذاباً] ﴾ والصابرين والصابرات ﴿ هذه سجية الأتبات ، وهي الصبر على المصائب ، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ، أي أصعبه في أول وهلة ، ثم ما بعده أسهل منه ﴾ والخاشعين والخاشعات ﴿ الخشوع : السكون والطمأنينة . والتؤدة والوقار والتواضع ، والحامل عليه خوف الله تعالى ومراقبته . كما في الحديث : ٥٠٤ [أعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك] .

﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ الصدقة هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، يعطون من فضول الأموال طاعة لله تعالى وإحساناً إلى خلقه . وقد ثبت في الصحيحين : ٥٠٥ [سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله - فذكر منهم - ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه] ﴿ والصائمين والصائمات ﴾ في الحديث الذي رواه ابن ماجه : الصوم زكاة البدن أي يزكيه وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً. وقوله تعالى : ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ جاءت بعد قوله تعالى : ﴿ والصائمين والصائمات ﴾ لأن الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة كما جاء في الحديث : ٥٠٦ [... ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء] فناسب أن يذكر بعده ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ أي عن المحارم والمآثم إلا عن المباح كالزوجة وملك اليمين . وقوله تعالى : ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : ٥٠٧ [إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات] وقد رواه ابو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الأعمش .

روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٠٨ [ما عمل آدمي عملاً قط أنجي له من عذاب الله تعالى من ذكر الله عز وجل] . وقوله تعالى : ﴿ أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم أي

(٣٣ - الأحزاب - ج ٢٢) : ليس المؤمن مختاراً في تنفيذ أوامر الله ورسوله ، بل ملزماً ٤٩٥

أن الله تعالى قد أعدّ لهم أي هيا لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجرأ عظيماً وهو الجنة . - اللهم أغفر لنا وادخلنا جنتك التي وعدت المتقين - (١)

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (٣٦)

قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ الآية وذلك [٥٠٩] أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها ، فقالت : لست بناكحته ؛ فقال رسول الله ﷺ « بلى فانكحيه » قالت يا رسول الله أؤمرُ في نفسي ؟ فبينما هما يتحدثن أنزل الله تعالى هذه الآية على رسول الله ﷺ قالت قد رضيت لي يا رسول الله منكحاً ؟ قال رسول الله ﷺ « نعم » قالت إذاً لا أعصى رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي [وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان أنها نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه .

وقيل نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها وهي أول امرأة هاجرت بعد صلح الحديبية ، فوهبت نفسها للنبي ﷺ فقال قد قبلت ، فزوجها زيد بن حارثة رضي الله عنه يعني - والله أعلم - بعد فراقه زينب .

وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب ان البخارية التي خطبها رسول الله ﷺ من أبيها أبي برزة الأسلمي بلحبيب رضي الله عنه لما قالت في خدرها : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟ نزلت هذه الآية : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾

وقال ابن جريج عن طاووس إنه سأل : ابن عباس عن ركعتين بعد العصر ، فنهاه ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ... ﴾ الآية .

فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك انه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ، ولا رأي ولا قول ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾ تشديداً على من خالف ذلك وهو كقوله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ - اللهم قنا عذابك واجعلنا طائعين لأمرك وأمر رسولك ، ونعوذ بك من الخذلان وسوء المنقلب ^(١) -

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٣٧) ﴿﴾

يخبر تعالى عن نبيه ﷺ انه قال لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه وهو الذي أنعم الله عليه بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ ﴿ وأنعمت عليه ﴾ أي بالعتق من الرق ، وكان سيداً كبير الشأن جليل القدر حبيباً إلى رسول الله ﷺ يقال له الحبُّ ويقال لابنه أسامة : الحبُّ ابنُ الحبِّ ، قالت عائشة رضي الله عنها : ما بعثه رسولُ الله ﷺ في سرية إلا أمره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه ، رواه الامام أحمد .

وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب ، وأصدقها عشرة دنانير وستين درهماً ، وخماراً ، وملحفةً ودرعاً ، وخمسين مدّاً من طعام ، وعشرة أمدادٍ من تمر . قاله مقاتل بن حيان . فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها ، ثم وقع بينهما... فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقول له ﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾

روى ابن أبي حاتم عن علي بن زيد بن جدعان [سألني علي بن الحسين رضي الله عنهما ما يقول الحسن في قوله تعالى: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ فذكرت له فقال: «ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد رضي الله عنه ليشكوها إليه قال «اتق الله وأمسك عليك زوجك فقال: قد أخبرتك أنني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه». وهكذا روي عن السدي.

قال ابن جرير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لو كنتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكنتم: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾

وقوله تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها﴾ الوطر: هو الحاجة والأرب أي لما فرغ منها وفارقها زوجناكها وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله عز وجل بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر.

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال: ٥١٠ [لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة «اذهب فاذكرها علي» فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجبتها قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما استطع أن أنظر إليها، وأقول ان رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أمر ربي عز وجل، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ وأطعنا عليها الخبز واللحم. فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته، فجعل ﷺ يتبع حُجَرَ نساءه يسلم عليهن ويقولن: يا رسول الله كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر، فانطلق حتى دخل البيت فذهبت ادخل معه فألقى السر بيني وبينه ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا به: ﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾ الآية كلها]. ورواه مسلم والنسائي من طرق عن سليمان بن المغيرة به. وقد سبق في سورة النور تفاخر عائشة وزينب^(١) رضي الله عنهما

روى ابن جرير عن الشعبي قال: كانت زينب رضي الله عنها تقول للنبي ﷺ إني لأدلُّ عليك بثلاث إما من نسائك إما امرأة تدلُّ بهن: إن جدي وجدك واحد، وإني

(١) قلت: عند تفسير الآية رقم ١١/ من سورة النور عند قوله تعالى: «لا تحبوه شرّاً لكم بل هو خير لكم».

أنکحنيك الله عز وجل من السماء ، وإن السفير جبريل عليه الصلاة والسلام .
 وقوله تعالى : ﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهم وطراً ﴾ أي أبجنا لك تزويجها ، وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزوج المطلقات الأدعياء ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبني زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فكان يقال له زيد بن محمد ، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ - إلى قوله تعالى - أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ ثم زاد ذلك بياناً وتأكيذاً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش رضي الله عنها لما طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه ، ولهذا قال تعالى في آية التحريم : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ ليحترز من الابن الدعی فإن ذلك كان كثيراً فيهم وقوله تعالى : ﴿ وكان أمر الله مفعولاً ﴾ أي وكان هذا الأمر الذي وقع كائناً لا محالة ، بأن زينب رضي الله عنها في علم الله ستصير من أزواجه ﷺ .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ (٣٨)

يقول تعالى : ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ﴾ أي فيما أحل له وأمره به من تزوج زينب رضي الله عنها التي طلقها دعیه زيد بن حارثة رضي الله عنه وقوله تعالى : ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج ، وهذا رد على من توهّم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه ﴾ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾ أي وكان أمر الله الذي يقدره كائناً لا محالة وواقعاً لا محيداً عنه ولا معدلاً ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿ (٤٠)

يمدح تبارك وتعالى : ﴿الذين يبلغون رسالات الله﴾ أي إلى خلقه ، ويؤدونها بأماناتها ﴿ويخشونه﴾ أي يخافونه ، ولا يخافون أحداً سواه ، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي ناصراً ومعيناً ، وسيد الناس في هذا المقام وفي كل مقام محمد ﷺ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشرق والمغرب إلى جميع أبناء آدم وأظهر الله دينه على جميع الأديان فإنه قد كان النبي قبله إنما يُبعث إلى قومه خاصة ، وأما هو ﷺ فإنه بُعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ ثم ورث مقام البلاغ عنه ، أمته من بعده فكان أعلى من قام بها بعده ، أصحابه رضي الله عنهم ، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، في ليله ونهاره ، وحضره وسفره ، وسره وعلايته ، فرضي الله عنهم وأرضاهم ، ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فينورهم يقتدي المهندون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون ^(١) ، فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلائفهم .

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
 ٥١١ [لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقوله ، فيقول الله ما يمنحك أن تقول منه ؟ فيقول : رب خشيت الناس ، فيقول : فأنا أحق أن يُخشى] ورواه أيضاً عبد الرزاق ، وابن ماجه .

وقوله تعالى : ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾ نهي أن يقال بعد هذا زيد بن محمد ، أي لم يكن أباه وإن كان قد تبناه فإنه ﷺ لم يُعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضي الله عنها فماتوا صغاراً ، وولد له ﷺ ابراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضاً رضيعاً ، وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات زينب ورقية وأم كلثوم ، وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين ، فمات في حياته ﷺ ثلاث وتأخرت فاطمة رضي الله عنها حتى أصيبت به ﷺ ثم ماتت بعده بستة أشهر .

وقوله تعالى : ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾ فهذه تنص في أنه لا نبي بعده ، ومن باب أولى ألا يكون رسول بعده لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا عكس ، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ثبت منها ما يلي :

(١) قلت : لكن في عصرنا هذا.. هجر حكام المسلمين هذا المنهج وسلوكوا نهج الكفرة ! اللهم ردهم إلى دينك رداً جميلاً .
 ووجد شملهم واجمع كلمتهم على الحق في دولة واحدة تحكم بما أنزلت من قرآنك وسنة نبيك .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
 [٥١٢] « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي » قال : فشق ذلك على
 الناس ، فقال : « ولكن المبشرات » قالوا : يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال : « رؤيا
 الرجل المسلم ، وهي جزء من أجزاء النبوة . » [وهكذا رواه الترمذي وقال : صحيح
 غريب من حديث المختار بن فلفل .

روى أبو داود الطيالسي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله
 ﷺ : [٥١٣] مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فكان
 من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة ؛ فأنا موضع اللبنة ختم
 به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام] . ورواه البخاري ومسلم والترمذي .

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [٥١٤] فضلت
 على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ،
 وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون]
 ورواه الترمذي وابن ماجة .

روى الزهري عن جبير بن مطعم عن أبيه رضي الله عنه قال : سمعت رسول
 الله ﷺ يقول : [٥١٥] إن لي أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو
 الله تعالى به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس
 بعده نبي] أخرجاه في الصحيحين .

وهكذا فلقد أخبر تعالى في كتابه ، ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه : أنه لا نبي بعده
 ليعلم الثقلان أن كل من ادّعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ، ولو
 تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم فكلها محال وضلال عند أولي الأبواب ، كما
 أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسي باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة من
 الأحوال الفاسدة ، والأقوال الباردة ما عليم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما كذابان
 ضالان لعنهما الله ، وكذلك كل مدّعٍ لذلك إلى يوم القيامة ^(١) حتى يختموا بالمسيح الدجال

(١) قلت : ومن هؤلاء الكذابين الأفاكين رجل زنديق كافر مشرك ادعى النبوة بالهند في قرية / قاديان / اسمه :
 مرزا غلام أحمد القادياني لعنه الله لعنات متابعات إلى يوم القيامة ، فقد زعم النبوة وإن له قرآناً يزعم
 أن الله قد أنزله عليه ومن جملة أقواله فيه : (يا أحمد أنت بمنزلة ولدي أنت بمنزلة توحيدي وتفريدي)
 وقد هلك هذا الكافر الخبيث ، فخلقه ابنه . ولهذه الدعوة الضالة جماعات في بعض البلدان ، وهي صنيعة الأنكليز
 في الهند . ومن جملة وصايا هذا الخبيث الكافر / مرزا غلام أحمد / أنه إذا وقعت الواقعة بين المسلمين والأنكليز =

(٣٣ - الأحزاب - ج ٢٢) : الذكر الحقيقي قربة إلى الله ، والذكر البدعي بعد عنه ٥٠١

قال الله تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أثيم ﴾ وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة ، والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به ، وينهون عنه مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

بأمر تعالى عباده المؤمنين بذكره تعالى لنعمه الجزيلة ومنه العظيمة ولهم في ذلك جزيل الثواب وجميل المآب .

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الحمصي قال : سمعت أبا هريرة يقول : دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدعُه : ٥١٦ [اللهم اجعلني أعظم شُكرك ، وأتبع نصيحتك ، وأكثر ذكرك ^(١) ، وأحفظ وصيتك] ورواه الترمذي .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : [ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه إلاّ رأوه حسرة يوم القيامة]

وقال تعالى : ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلًا ﴾ فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته

= فعل أتباعه القاديانيين ان يكونوا من أنصار الأنكليز...!! ولهم جماعة في دمشق قليلون جداً؛ وحاولوا أن ينفثوا سموهم بحلب فأرسلوا أحد دعاةهم : /غلام أحمد/ فنشطت دعوتنا السلفية له واستطاعت بفضل الله وحده ، ثم بمعونة بعض طلاب العلم ومعونة الحكومة عام ١٣٧١ هـ ١٩٥١ م أن تقف الدعوة السلفية تجاه هذا الداعية الخبيث الكافر ، وقفة صامدة . فلاحقته في كل مكان وسدت عليه كل منافذ دعوته الكافرة الفاجرة حتى قبض الله لنا النصر فطرده من حلب طردة لا رجعة له بعدها إن شاء الله وطهرت الشبهة من رجس دعوته القاديانية الخبيثة الكافرة . اللهم تقبل غفلتنا لوجهك الكريم وأثب من أعاننا من عبادك .

(١) قلت : وليس الذكر هو الرقص والتواجد وما يفعله بعض أهل الطرق والتصوف إنما الذكر هو الموسوم بالسكينة والخشوع وجل القلوب وفيض الدموع من خشية الله .

أي سبحانه عند الصباح والمساء ، كقوله عز وجل : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾ وهذا تهيج إلى الذكر ، أي أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم . كقوله تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ . وقال النبي ﷺ : ٥١٧ [يقول الله تعالى : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه] .

والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند الملائكة ، حكاها البخاري عن أبي العالية ، وقال غيره : الصلاة من الله عز وجل الرحمة . وقد يقال : لا منافاة بين القولين والله أعلم .

وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الاستغفار والدعاء للناس ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ﴾ وقوله تعالى ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ أي يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم ، وبصرهم الطريق الذي ضل وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة ، وأتباعهم من الطعام ، وأما رحمته بهم في الآخرة فأمنهم من الفزع الأكبر وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار وما ذاك إلا لمحبتهم لهم ورأفته بهم .

وفي صحيح البخاري عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ٥١٨ [ان رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبياً لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته ، فقال رسول الله ﷺ : « أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك » ؟ قالوا : لا . قال رسول الله ﷺ : « فوالله لأرحم بعباده من هذه بولدها » [وقوله تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ الظاهر أن المراد - والله أعلم - تحيتهم أي من الله تعالى يوم يلقونه سلام أي يوم يسلم عليهم ، كما قال عز وجل : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وأعدّ لهم أجراً كريماً ﴾ يعني الجنة وما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ (٤٥)
 وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴿ (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ
 اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴿ (٤٧) وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ
 وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿ (٤٨) ﴾

روى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي
 الله عنهما فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ، قال : أجل والله إنه
 لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً
 وَنَذِيراً ﴾ وحرزاً للإميين ، انت عدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا
 غليظ ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ويغفر .
 ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعينا عمياً
 وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، وقد رواه البخاري ، ورواه ابن أبي حاتم .

قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا
 أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ وقد كان أمر علياً ومعاذا رضي الله عنهما أن يسيرا إلى
 اليمن فقال : ٥١٩ [انطلقا فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، إنه قد أنزل علي ﴿ يَا أَيُّهَا
 النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾] فقلوه تعالى : ﴿ شَاهِداً ﴾ أي الله بالوحداية
 وأنه لا إله غيره ، وشاهداً على الناس بأعمالهم يوم القيامة وقوله عز وجل : ﴿ وَمُبَشِّراً
 وَنَذِيراً ﴾ أي مبشراً للمؤمنين بجزيل الثواب ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب . وقوله
 جلّت عظمته : ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه ﴾ أي داعياً للخلق إلى عبادة ربه عن أمره لك
 بذلك ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ أي وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في
 إشرافها وإضاءتها لا يحجدها إلا معاند . وقوله جل وعلا ﴿ وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ
 وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ أي لا تطعمهم وتسمع منهم في الذي يقولونه ﴿ ودع أذاهم ﴾ أي اصفح
 وتجاوز عنهم ، وكل أمرهم إلى الله تعالى ، فإن فيه كفاية لهم . ولهذا قال تعالى جل جلاله :
 ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٤٩)

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة منها إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها . وقد اختلفوا في النكاح ، هل هو حقيقة في العقد وحده ، أو في الوطء أو فيهما ؟ واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده إلا في هذه الآية . فإنه استعمل في العقد وحده ، لقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ وفيها إباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها . وقوله تعالى : ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ خرج مخرج الغالب إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من السلف على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ، لأن الله تعالى قال : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ فعقَّب النكاح بالطلاق ، فدلَّ على أنه لا يصح ولا يقع قبله وهذا مذهب الشافعي وأحمد ، وطائفة من السلف والخلف كثيرة . وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال : إن تزوجت فلانة فهي طالق . واختلفا فيما إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق فقال مالك : لا تطلق حتى يعين المرأة ، وقال أبو حنيفة رحمه الله : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه . والجمهور على عدم وقوع الطلاق مستدلين بهذه الآية ... وبالحديث الذي رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٢٠ [لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك] رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه . وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب . وهكذا روى ابن ماجه عن علي والمصور بن مخزوم رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٥٢١ [لا طلاق قبل النكاح] .

وقوله عز وجل : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا ﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء ، أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عِدَّةَ عليها ، فتذهب فتتزوج من فورها من شاءت ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها . قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفْ

ما فرضتم ﴿ وقال عز وجل : ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا
لهن فريضة ومتعهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾
وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد وأبي أسيد رضي الله عنهما قالا : ٥٢٢ [إن رسول
الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها فكأنها
كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين] ، قال علي بن طلحة
طلحة رضي الله عنهما ، إن كان سمى لها صداقاً فليس لها إلا النصف وإن لم يكن سمى لها
صداقاً أمتعتها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ
أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ
وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ
مَعَكَ وَأَمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ
أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا
عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ
حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿ ٥٠ ﴾

يخاطب تعالى نبيه ﷺ بأنه قد أحلَّ له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن أجورهن
أي مهورهن وقد كان مهره لسنائه اثنتي عشرة أوقية ونشر . وهو نصف أوقية ، فالجميع
خمسائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فانه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى
أربعمائة دينار وإلا صفية بنت حيي فانه اصطفاها من سبي خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها
صداقها ، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدَّى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن
شماس وتزوجها رضي الله عنهن أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ﴾ أي وأباح لك التسرّي مما أخذت
من المغانم وكما تقدم فقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما ، وملك ربحانة بنت
شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليهما السلام وكانتا من السراري رضي الله
عنهما .

وقوله تعالى : ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ﴾ هذا عدل وسط بين إفراط النصارى الذين لا يتزوجون المرأة إلا بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً وتفريط اليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه أو بنت أخته وهذا شنيع فظيع .. وقوله تعالى : ﴿ اللاتي هاجرن معك ﴾ أي إلى المدينة . وقوله تعالى : ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك ﴾ أي ويحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . قال ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم بن الأوقص من بني سليم ، وكانت امرأة صالحة . وقد قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس : لم يكن عند النبي ﷺ امرأة وهبت نفسها بينما اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير أي انه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له وإن ذلك مباحاً له ومخصوصاً به لأنه مردود إلى مشيئته كما قال تعالى : ﴿ إن أراد النبي أن يستنكحها ﴾ أي إن اختار ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ قال عكرمة أي لا تحل الموهوبة لغيرك ولو ان امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما أي أنها إذا فوضت المرأة نفسها الى رجل فانه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها ، كما حكم به رسول الله ﷺ في تزويج بنت واشق لما فوضت ، بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها . والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ ، فأما هو عليه الصلاة والسلام فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها ، لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود ، كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها .

وقوله تعالى : ﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم ﴾ أي من حصرهم في أربع نسوة حرائر ، وما شاعوا من الإماء واشترط الولي والمهر والشهود عليهم ، وهم الأمة وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه ﴿ لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً ﴾

﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾



وَكَانَ اللَّهُ عَلِيًّا حَلِيمًا * (٥١) ﴿٥٠﴾

قوله تعالى ﴿ترجي من تشاء منهمن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ اختار ابن جرير ان هذه الآية عامة في الواهبات أنفسهن له ﷺ وفي أزواجه ﷺ اي النساء واللائي عنده انه نخير فيهن إن شاء قسم وان شاء لم يقسم، وهو جمع بين الأحاديث الواردة عن عائشة تارة في الواهبات أي من شئت قبلتها ومن شئت رددتها. ومن رددتها فأنت فيها بالخيار بعد ذلك، إن شئت عدت فيها فأويتها. ولهذا قال : ﴿ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ تارة أخرى يرد الحديث عن معاذ عن عائشة أيضاً : ٥٢٣ [ان رسول الله ﷺ كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن نزلت الآية : ﴿ترجي من تشاء منهمن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ فقلت لها ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : ان كان ذلك إلي فإني لا أريد يا رسول الله أن أوتر عليك أحداً] . فهذا الحديث عنها يدل على ان المراد من ذلك عدم وجود القسم ، وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات ومن ههنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده أنه نخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم ، وهذا الذي اختاره ابن جرير جيد وقوي وقد جمع بين الأحاديث . ولهذا قال تعالى : ﴿ذلك أدنى أن تقرأ أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آتيتهن كلهن﴾ أي إذا علمن أن الله تعالى قد وضع عنك الحرج في القسم فإن شئت قسمت وان شئت لم تقسم ، ثم مع هذا أن تقسم لهن اختياراً منك ، فرحنَ بذلك واستبشرنَ به واعترفنَ بحميلك ومثلك عليهن في قسمتك ، وتسويتك بينهن . وإنصافك لهنَّ وعدلك فيهنَّ .

وقوله تعالى : ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ أي من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه كما روى الإمام أحمد عن عائشة قالت . ٥٢٤ [كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك »] يعني القلب ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى ﴿وكان الله عليماً﴾ أي بضمائير السرائر ﴿حليماً﴾ أي يحلم ويغفر

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ

أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى

كُلُّ شَيْءٍ رَقِيبًا • (٥٢)

ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس وغيره أن هذه الآية نزلت مكافأة لأزواجه ﷺ على حسن صنيعهم في اختيارهم الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهم رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية فكان جزاؤهم أن قصره الله تعالى عليهن وحرّم عليهن أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجهن ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراري فلا حرج عليه فيهن ثم إنه رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج ، لتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن .

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : ٥٢٥ [ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له النساء] ورواه الترمذي والنسائي .

روى ابن أبي حاتم عن أم سلمة أنها قالت : ٥٢٦ [لم يمّت رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلاّ ذات محرم] ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ الآية .. فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآتي عدة الوفاة في البقرة ، الأولى ناسخة للتي بعدها ، والله أعلم .

وروى ابن جرير أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها ، وعزم على فراق سودة حتى وهبت يومها لعائشة ، ثم قال بأن هذا كان قبل نزول قوله تعالى : ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج﴾ الآية ، وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح ، ولكن لا يحتاج إلى ذلك فإن الآية إنما دلّت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته وأنه لا يستبدل بهن غيرهن ، ولا يدل على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾ فنهاه عن الزيادة عليهنّ إن طلق واحدة منهن واستبدال غيرها بها ، إلاّ ما ملكت يمينه ^(١) .

(١) قلت : هذا هو التفسير اللفظي للآية إنما إذا صح تفسير المفسر رحمه الله من أن آية «ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء» أنها ناسخة لما بعدها : «لا يحل لك النساء من بعد» فيكون للرسول الخيرة في الزوج أو عدمه لا سيما إذا صح أيضاً الحديثان حديثا عائشة وأم سلمة فيكون النسخ واقعاً حتماً ، فيتغير حكم تفسير الآية المتأخرة من المنع إلى الإباحة وإن كان لم يقع فعل الإباحة منه صلى الله عليه وسلم أي لم يتزوج بعد ذلك أبداً لتكون له صلى الله عليه وسلم المنة على أزواجه «ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتن كلهن ...»

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تُبْذُوا شَيْنًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

هذه آية الحجاب وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه انه قال : ٥٢٧ [وافقت ربي عز وجل في ثلاث ، قلت : يا رسول الله : لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتن ، فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة : ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ﴾ فنزلت كذلك] وفي رواية لمسلم ذكر اسارى بدر وهي قضية رابعة . وقد روى البخاري عن أنس بن مالك قال ٥٢٨ [قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب] وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش التي تولّى الله تعالى تزويجها بنفسه ، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة والله أعلم .

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ٥٢٩ [لما تزوج رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو يتهياً للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام ، قام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم أنهم قاموا فانطلقوا ، فبحثت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه ، فأنزل الله تعالى :

٥١٠ (٣٣- الأحزاب - ج ٢٢) : حرام : دخول بيوته ﷺ ، بدون إذنه ، وتزوّج نسائه من بعده

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ [ورواه مسلم والنسائي .

فقوله تعالى : ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي ﴾ حظر على المؤمنين ان يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن ، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في الجاهلية وابتداء الإسلام في بيوتهم . حتى غار الله تعالى لهذه الأمة فأمرهم بذلك ، إكراماً لهم . ولهذا قال رسول الله ﷺ : ٥٣٠ [إياكم والدخول على النساء] ثم إن الله تعالى استثنى من ذلك فقال عز وجل : ﴿ إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ قال مجاهد وغيره : أي غير متحينين فضجه واستواءه حتى إذا قارب ذلك تعرضتم للدخول ، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفيل وهو الذي تسميه العرب الضيفن . ثم قال تعالى : ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ : ٥٣١ [لو دعيتم إلى ذراع الأُجْبَت ، ولو أهدي إلى كراع لقبلت فإذا فرغتم من الذي دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل ، وانتشروا في الأرض] ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا مستأنسين لحديث ﴾ أي كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين نسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ . كما قال تعالى : ﴿ إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم ﴾ وقيل إن الدخول بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به ولكن كان يكره ان ينهأهم لشدة حيائه عليه الصلاة والسلام حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ والله لا يستحيي من الحق ﴾ أي ولهذا نهاكم وزجركم عنه .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا سألتهم من متاعاً فاسألوهمن من وراء حجاب ﴾ أي لا ينظر إليهن ولا يسألن حاجة إلا من وراء حجاب . ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ أي هذا الذي شرعته لكم وأمرتكم به من الحجاب أطهر وأطيب . وقوله تعالى : ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾ لهذا أجمع العلماء قاطبةً على أنه يحرم على أي كان أن يتزوّج أباً من أزواج النبي ﷺ من بعده لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وهن أمهات المؤمنين كما تقدم . وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدّد فيه وتوعدّ عليه بقوله تعالى : ﴿ إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً ﴾ أي يعلم كل شيء ولا تخفي عليه خافية .

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا
أَبْنَاؤَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُنَّ وَآتَيْنَ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ • (٥٥) ﴿﴾

لقد استثنى الله تعالى هؤلاء الأقارب فلا يجب الاحتجاب منهم كما ورد ذلك في سورة
النور عند قوله تعالى : ﴿ولا يبدن زينتهن الا لبعولتهن - إلى قوله تعالى - على عورات
النساء﴾ الآية / ٣١ / وقد سأل بعضُ السلف فقال : لم لم يذكر العم والخال في هاتين
الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما لم يذكرأ لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما . وقوله
تعالى : ﴿ولا نسائهن﴾ يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات ، وقوله تعالى :
﴿وما ملكت أيمانهن﴾ يعني به أرقاءهن من الذكور والإناث ، كما تقدم التنبيه عليه
وايراد الحديث فيه ^(١) وقوله تعالى : ﴿واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾
أي واخشينه في الخلوة والعلاية ، فانه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية فراقبن
الرقب سبحانه وتعالى .

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ • (٥٦) ﴿﴾

قال البخاري : قال أبو العالية : صلاة الله تعالى : ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة
الملائكة الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون يركون ، وقال أبو عيسى الترمذي : وروي
عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم ، قالوا : صلاة الرب الرحمة ، وصلاة
الملائكة الاستغفار . وقوله تعالى : ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ أي ان الله تعالى
أخبر عباده بتمتلة عبده وبنبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقرين وان
الملائكة تصلي عليه ، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجمع الثناء عليه
من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً .

(١) قلت : عند قوله تعالى : «أو ما ملكت أيمانهن» في سورة النور : الآية رقم ٣١ / وقوله (ص) لفاطمة
(انه ليس عليك بأس ، انما هو أبوك وغلارك)

وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ ... هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ﴾ الآية ... وفي الحديث : ٥٣٢ [إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف] وقال : ٥٣٣ [اللهم صل على آل أبي أوفى] وقد سأله امرأة جابر أن يصلي عليها وعلى زوجها فقال : ٥٣٤ [صلى الله عليك وعلى زوجك] وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ، ونحن نذكر منها أن شاء الله تعالى ما تيسر والله المستعان .

* روى البخاري عن كعب بن عجرة قال : قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة ؟ قال : ٥٣٥ [قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد]

* روى ابن أبي حاتم عن كعب بن عجرة قال : لما نزلت : ٥٣٦ [إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً] قال : [قلنا يا رسول الله قد علمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد »] ومعنى قوله أما السلام عليك فقد عرفناه هو الذي في التشهد الذي كان يعلمهم إياه كما يعلمهم السورة من القرآن ، وفيه السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته .

* روى مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال : ٥٣٧ [أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عباد ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله ، فكيف نصلي عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ، والسلام كما قد علمتم »] وقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير من حديث مالك به وقال الترمذي : حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد عن أبي مسعود البصري أنهم قالوا : ٥٣٨ [يا رسول الله أما السلام فقد عرفناه ، فكيف نصلي عليك إذا نحن صائنا في صلاتنا ؟ فقال : قولوا « اللهم صل على

محمد وعلى آل محمد] وذكره ورواه الشافعي رحمه الله في مسنده عن أبي هريرة بمثله ؛ ومن ههنا ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير فإن تركه لم تصح صلاته . والقول بالوجوب مؤيد بظاهر الآية ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود ، وأبو مسعود البصري وجابر بن عبد الله ومن التابعين : الشعبي ، وأبو جعفر الباقر ومقاتل بن حيان وإليه ذهب الشافعي لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً وإليه ذهب أحمد أخيراً . والصحيح أنه وجه على أن الجمهور على خلافه والقول بوجوبه ، ظواهر الحديث والله أعلم وإن الشافعي رحمه الله يقول بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة سلفاً وخلفاً والله الحمد والمنة فلا إجماع على خلافه في هذه المسألة لا قديماً ولا حديثاً . ومما يؤيد ذلك ، الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما من رواية حيوة بن شريح بسنده عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : ٥٣٩ [سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجّد الله ولم يصل على النبي فقال رسول الله ﷺ عجل هذا ثم دعا فقال له أو لغيره : « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد الله عز وجل والثناء عليه ، ثم ليصل على النبي ﷺ ثم ليدع بعد بما شاء . »]

* روى ابن جرير عن يونس بن خباب قال : ٥٤٠ [خطبنا بفارس فقال : أنبأني من سمع ابن عباس يقول : هكذا أنزل ، فقلنا : أو قالوا يا رسول الله علمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . وارحم محمد وآل محمد كما رحمت آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد »] فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ كما هو قول الجمهور ؛ ويعضده حديث الأعرابي الذي قال : ٥٤١ [اللهم ارحمني ومحمدا ، ولا ترحم معنا أحداً ؛ فقال رسول الله ﷺ « لقد حجرت واسعاً »]

* روى أبو عيسى الترمذي عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : ٥٤٢ [أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة] تفرد به الترمذي ثم قال هذا حديث حسن غريب .

روى اسماعيل القاضي عن أبي بن كعب عن أبيه قال : ٥٤٣ [كان رسول الله ﷺ يخرج في جوف الليل فيقول : « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه فقال أبي : يا رسول الله إنني أصلي من الليل ، أفأجعل لك ثلث صلاتي قال رسول الله ﷺ « الشطر »

٥١٤ (٣٣-الأحزاب-ج٢٢): كل صلاة عليه ﷺ بعشر من الله، البخيل من لم يصل عليه

قال : أفأجعل لك شطر صلاتي ؟ قال رسول الله ﷺ « الثلثان » قال : أفأجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : « اذن يغفر لك الله ذنبك كله » [

• روى الإمام أحمد عن الطفيل بن أبي عن أبيه : ٥٤٤] قال رجل يا رسول الله أرأيت ان جعلت صلاتي كلها عليك ؟ قال : « اذن يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك » [

• روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٤٥ [من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشراً .] وقال الترمذي حسن صحيح .

• روى الإمام أحمد عن أبي طلحة الأنصاري قال : ٥٤٦ [أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس يرى في وجهه البشرى ، قالوا : يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى في وجهك البشرى ؟ قال : [« أجل أتاني آت من ربي عز وجل فقال : من صلى عليك من أمتك صلاة » ، كتب الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، وردَّ عليه مثلاً »] وهذا إسناد جيد ولم يخرجوه .

• روى الإمام أحمد عن علي بن الحسين عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : ٥٤٧ [البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل عليّ] ورواه الترمذي .

• روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ٥٤٨ [قال رسول الله ﷺ « رغم أنف رجل ذكرته عنده فلم يصل علي ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبير فلم يدخلا الجنة »] ثم قال حسن غريب ورواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه . وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ كلما ذكر ، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والخلعي . وذهب آخرون إلى وجوب الصلاة عليه في المجلس مرة واحدة ، وتستحب في بقية ذلك المجلس . ويتأيد هذا القول بالحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ٥٤٩ [ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة يوم القيامة ، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم] وحكى عن بعضهم أنه انما تجب الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - في العمر مرة واحدة امتثالاً لأمر الآية ثم هي مستحبة في كل حال (قلت) وهذا قول غريب فانه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة .

• فمنه بعد النداء للصلاة الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص

يقول : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ٥٥٠ [إذا سمعتم مؤذناً يقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا لي الله الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبده من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة] وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث كعب بن علقمة .

* ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه للحديث الذي رواه الإمام أحمد عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت : ٥٥١ [كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى عليّ محمد وسلم ثم قال : اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج صلى عليّ محمد وسلم ثم قال : اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك .]

ومن ذلك الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنازة فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وفي الثانية أن يصلي على النبي ﷺ وفي الثالثة يدعو للميت ، وفي الرابعة يقول اللهم لا تحرمنّا أجره ، ولا تفتنّا بعده .

ومن ذلك الصلاة على النبي ﷺ بين تكبيرات العيد في صلاة العيد ، وختم الدعاء ودعاء القنوت كما رواه النسائي في سننه ، ومن ذلك الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة ومن ذلك حين زيارة قبره ﷺ . وان الصلاة والسلام عليه يُبلغها لقوله ﷺ : ٥٥٢ [ان لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام] رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود وهكذا رواه النسائي وقالوا : ويستحب الصلاة على النبي ﷺ مع ذكر الله عند الذبح ، واستأنسوا بقوله تعالى : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ قال بعض المفسرين : يقول الله تعالى : لا أذكر إلاّ وذكّرت معي ، وخالفهم في ذلك الجمهور وقالوا : هذا موطن يفرد فيه ذكر الله تعالى كما عند الأكل والدخول والوقاع وغير ذلك مما لم ترد به السنة بالصلاة على النبي ﷺ .

ويجوز الصلاة على غير الأنبياء بالتبعية كما جاء في الحديث : ٥٥٣ [اللهم صل على محمد وآله وأزواجه وذريته] ويؤيده قوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم ﴾ وقوله ﷺ : ٥٥٤ [اللهم صل على آل أبي أوفى] أخرجاه في الصحيحين .

قال الجمهور من العلماء لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا فلا يلحق بهم غير ؛ فلا يقال : قال أبو بكر صلى الله عليه ، أو ، قال علي صلى الله عليه وان كان المعنى صحيحاً ، كما لا يقال محمد عز وجل وإن كان عزيزاً وجليلاً لأن هذا من شعار ذكر الله عز وجل وحملوا ما ورد في الكتاب والسنة

على الدعاء لهم ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى ولا لجابر وامرأته . وهذا مسلك حسن .
وأما لإفراد السلام على غير الأنبياء قال : الشيخ محمد الجويني من أصحابنا هو في معنى الصلاة فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به لغير الأنبياء فلا يقال علي عليه السلام وسواء في هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخاطب به فيقال : سلام عليك وسلام عليكم أو السلام عليك أو عليكم وهذا مجمع عليه . (قلت) وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب أن يفرد علياً رضي الله عنه يقال عليه السلام من دون سائر الصحابة أو كرم الله وجهه وهذا وإن كان معناه صحيحاً ، لكن ينبغي أن يسوّى بين الصحابة في ذلك فإن هذا من باب التعظيم والتكريم فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه رضي الله عنهم أجمعين .

قال النووي : إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول : صلى الله عليه فقط ولا عليه السلام فقط وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ فالأولى أن يقال : صلى الله عليه وسلم تسليماً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾ (٥٨)

يقول تعالى متهدداً متوعداً من آذاه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك وإيذاء رسوله ﷺ بعبث أو بنقص — عياداً بالله من ذلك — قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله ﴾ نزلت في المصّورين . وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٥٥ [يقول الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر أقلب ليلة ونهاره] أي إن الجاهلية كانوا يقولون يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا فيستندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله عز وجل فنهى عن ذلك هكذا قرره الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما وقيل أنها نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت خُيٍّ بن أخطب والظاهر أن الآية علمة في كل من آذاه بشيء ومن آذاه فقد آذى الله ، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله . كما روى الإمام أحمد

عن عبد الله بن المغفل المزني قال : قال رسول الله ﷺ ٥٥٦ الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه [وقد رواه الترمذي .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ﴾ ينسبون إليهم ما هم برءاء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ﴿ فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ وهذا هو البُهت الكبير ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد ، الكفرة بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله تعالى عنهم فإن الله عز وجل قد أخبر أنه قد رضي عنهم وهم المهاجرون والأنصار ومدحهم ، وهؤلاء الجهالة الأغبياء يسبونهم وينتقصونهم ويتهمونهم بما لم يفعلوا ، فهم في الحقيقة منكسو القلوب يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين . وروى أبو داود عن أبي هريرة ٥٥٧ [انه قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال « ذكر ك أخاك بما يكره » قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » [وهكذا رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

وقد روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه ٥٥٨ [أي الربا أربى عند الله ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال : « أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم » ثم قرأ : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ [

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (٥٩) لئن لم يفتنه المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لتغريبتك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً (٦٠) ملعونين أين ما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً (٦١) سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً (٦٢)



يأمر الله تعالى رسوله ﷺ تعليماً ، أن يأمر النساء المؤمنات — خاصة أزواجه وبناته لشرفهن — بأن يدين عليهن من جلابيهن ليمتدّن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإمام ، والجلباب هو الرداء فوق الخمار ؛ قاله ابن مسعود وعبيدة وقتادة وغيرهم وهو بمترلة الإزار اليوم قال الجوهري الجلاب الملحفة . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويدين عينا واحدة ، وقال محمد بن سيرين سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل ﴿ يَدِينُ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى وقال عكرمة : تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدينه عليها وقال ابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت لما نزلت هذه الآية ... خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها . وسئل الزهري عن الوليدة قال عليها الخمار دون الجلاب وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يَعْرِفْنَ فَلََا يُوْذِينَ ﴾ قال مجاهد يتجلببن فيعلم أنهن حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى أو ريبة . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أي لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك . ثم توعّد الله المنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر : ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ هم الزناة ﴿ وَالْمَرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ أي الذين يقولون جاء الأعداء وجاءت الحروب وهو كذب وافتراء لأن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ أي لنسلطنك عليهم ﴿ ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكَ فِيهَا ﴾ أي في المدينة ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مَّلْعُونِينَ ﴾ مطرودين مبعدين ﴿ أَيْنَمَا ثَقَفُوا ﴾ أي وجدوا ﴿ أَخَذُوا ﴾ لذلتهم وقتلتهم ﴿ وَقَتَّلُوا قَتِيلًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ سَنَةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ ﴾ أي هذه سنته في المنافقين إذا تمرّدوا على نفاقهم وكفرهم فإن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أي وستة الله قهر المنافقين لا تبدل ولا تغير .

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُذَرِّكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿ (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلْيًا وَلَا نَصِيرًا ﴿ (٦٥) يَوْمَ ثُغِّلَ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا

وَكُذِّبْنَا فَأَظْلَمْنَا الْبَصِيرَةَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا أَتَيْنَا مِنْكَ الْيَاسِينَ ﴿٦٨﴾ وَالْعَنَّا كَبِيرًا ﴿٦٩﴾

يخبر تعالى رسوله ﷺ أنه إن سأل الناس عن الساعة ، أرشده تعالى ان يرد علمها إلى الله عز وجل. كما قال تعالى في سورة الأعراف وهي مكية ، وهذه مدنية فاستمر الحال في رد علمها إلى الذي يقيمها لكن أخبره أنها قريبة. بقوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ . ثم قال تعالى ﴿ ان الله لعن الكافرين ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ وأعد لهم سعيراً ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ أي ما كثرين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ﴿ لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ أي ليس لهم من ينقذهم مما هم فيه ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسل ﴾ أي يسحبون في النار على وجوههم وتلوى على جهنم ، يقولون وهم كذلك ، ليتنا كنا في الدنيا ممن اطاعوا الله والرسل ، كقوله تعالى : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه يتمنون لو كانوا من المؤمنين ﴿ وقالوا ربنا أظعننا ساداتنا وكبراءنا فأظلونا السبيل ﴾ قال طاووس : ساداتنا يعني الأشراف ، وكبراءنا يعني العلماء رواه ابن أبي حاتم أي اتبعنا أمراءنا ، واتبعنا علماء السوء وخالفنا الرسل ، فإذا هم ليسوا على شيء ﴿ ربنا آتهم ضعف من العذاب ﴾ أي بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿ والعنهم لعناً كبيراً ﴾ قرأ بعض القراء : ﴿ كبيراً ﴾ وقرأ البعض الآخر ﴿ كثيراً ﴾ وكلاهما بمعنى صحيح ، والأولى أن القارئ مخير بين القراءتين ، لا أن يجمع بينهما أي أن يقول مثلاً : كبيراً كثيراً .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ ﴿٦٩﴾

روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ٥٥٩ [ان موسى عليه السلام كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه فأذاه من آذاه من بني اسرائيل فقالوا ما يتستر هذا التستر إلا من عيب في جلده إما برص وأما أذرة وإما آفة وان الله عز وجل أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى عليه السلام فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على

٥٢٠ (٣٣ - الأحزاب - ج ٢٢) : من يتق الله ويقل الحق يصلح عمله ويغفر ذنبه

حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعضاه فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً - قال - فذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾ [وهذا الحديث من افراد البخاري دون مسلم .

روى الإمام أحمد عن عبدالله - ابن مسعود - قال ٥٦٠ [قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله ؛ قال : فقلت يا عدو الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فاحمر وجهه ثم قال « رحمة الله على موسى لقد أؤذي بأكثر من هذا فصبر » [أخرجاه في الصحيحين .

وقوله تعالى : ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ أي له وجهة وجاء عند الله عز وجل وقال جماعة من السلف : لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ولكن منع من الرؤية لما يشاء عز وجل ، وقال بعضهم من وجاهته العظيمة عند الله تعالى انه شفع في أخيه هارون ان يرسله معه فأجاب الله سؤله فقال تعالى : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴾ (٧٠)

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴿ (٧١)

يأمر تعالى عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه وأن يقولوا ﴿ قولاً سديداً ﴾ أي مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف ووعدهم أنهم اذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم أي يوفقهم للأعمال الصالحة وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها ثم قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ وذلك أنه يجاز من نار جهنم ويصير إلى النعيم المقيم . روى ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال : ٥٦١ [صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أوماً إلينا بيده فجلسنا فقال « إن الله تعالى أمرني ان آمركم أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً » ثم أتى النساء فقال : « ان الله أمرني أن آمركن ان تتقين الله وتقلن قسولاً سديداً » [.

قال عكرمة : القول السديد : لا إله الا الله ، وقال غيره : السديد الصدق ، وقال غيره : هو الصدق ، والكل حق .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ (٧٣)

روى العوفي عن ابن عباس : يعني بالأمانة الطاعة ؛ عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها ، فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ يعني غراً بأمر الله .

روى ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ... فما كان إلا مقدار ما بين العصر الى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة . وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصري وغير واحد : ان الأمانة هي الفرائض ، وقال آخرون : هي الطاعة . وقيل : هي الدين والفرائض والحدود ، وقيل الغسل من الجنابة ، وقيل الصلاة والصوم والاعتسال من الجنابة ، وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ... وهو أنه ان قام بذلك أثيب وان تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله إلا من وفق الله ، والله المستعان .

روى ابن جرير عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ٥٦٢ [القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها - أو قال - يكفر كل شيء إلا الأمانة ، يؤتى بصاحب الأمانة ، فيقال له : أد أمانتك ، فيقول أنتي يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له أد أمانتك ، فيقول أنتي يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له أد أمانتك ، فيقول أنتي يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول اذهبوا به إلى أمه الهاوية ، فيذهب به إلى الهاوية ، فيهي فيها حتى يتهي إلى قمرها فيجدها هنالك كهيتها ، فيحملها فيضعها على عاتقه ،

فيصعد بها إلى شقير جهنم ، حتى إذا رأى أنه خرج ، زلت قدمه فهوى في أثرها أبد الآبدين » قال : والأمانة في الصلاة ، والأمانة في الصوم ، والأمانة في الوضوء ، والأمانة في الحديث ، وأشد ذلك الودائع ، فلقيت البراء فقلت : ألا تسمع ما يقول أخوك عبد الله فقال صدق]

ومما يتعلق بالأمانة ، الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن حذيفة رضي الله عنه قال : ٥٦٣ [حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : « ينাম الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجمل ^(١) كجمر دحرجته على رجلك ، تراه متبرأ وليس فيه شيء - قال : ثم أخذ حصي فدحرجه على رجله قال - فيصبح الناس يتبايعون ^(٢) لا يكاد أحد يؤدّي الأمانة . حتى يقال إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل ما أجلده وأظرفه وأعقله وما في قلبه حبة خردل من إيمان ، ولقد أتني علي زمان وما أبالي أياكم بايعت ، ان كان مسلماً ليردّنه عليّ دينه ، وان كان نصرانياً أو يهودياً ليردّنه عليّ ساعيه فأما اليوم فما كنت أباع منكم إلا فلاناً وفلاناً »] وأخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش به وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة حديث مرفوع . روى أبو داود عن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٥٦٤ [من حلف بالأمانة فليس منا] تفرد به ، وقوله تعالى : ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ أي إنما حمل بني آدم وهي التكاليف ، ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهلهم ويبطنون الكفر متابعة لأهلهم . ﴿ والمشركون والمشركات ﴾ وهم الذين ظاهراً وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسوله ﷺ . ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ آخر اختصار تفسير سورة الأحزاب والله الحمد والمنة

١٣٩٠ / ٥ / ٢٣

١٩٧٠ / ٧ / ٢٦

(٣٤) سُورَةُ سَبَأٍ مَكِّيَّةٌ وَأَسْمَانُهَا اِزْبِجُ وَخَمْسُونَ

إِلَّا الْآيَةَ / ٦ / فَمَدْنِيَّةٌ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ لُقْمَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ • (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ
فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا
وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ • (٢)

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة وهو المنعم على
أهلها فهو الحاكم المتصرف وحده لا شريك له ، والجميع ملكه وعبيده وتحب تصرفه
وقهره ، فلا رب غيره ولا معبود سواه . وهو الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ،
والخبير بخلقه لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء . ولهذا قال سبحانه ﴿ يعلم ما يلج
في الأرض وما يخرج منها ﴾ أي يعلم ما يدخل في الأرض من الحب والبذور الكامن فيها
ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته وصفاته ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ من قطر أو رزق
وما يعرج فيها من الأعمال الصالحة ﴿ وهو الرحيم ﴾ بعباده ﴿ الغفور ﴾ عن ذنوب
التائبين إليه المتوكلين عليه .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي
لَتَأْتِيََنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَغْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا
فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي

كِتَابٍ مُبِينٍ * (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا
مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ * (٥) وَيَرَى الَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * (٦)

هذه إحدى الآيات الثلاث التي أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع
المعاد ، لما أنكره من أنكره فإحداهن في سورة يونس ، وهي : ﴿ ويستبشرونك أحق هو
قل إي وربّي إنه لحق ... ﴾ والثانية هذه : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى
وربّي لتأتينكم ﴾ والثالثة في سورة التغابن وهي : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل
بلى وربّي لتبعثن ... ﴾ ولما قال تعالى ها هنا ﴿ قل بلى وربّي لتأتينكم ﴾ عقب بما يؤكد
ذلك ويقرره فقال عزّ من قائل : ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا
في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ أي لا يغيب عنه وجميع مخلوقاته
تحت علمه لا يخفى عليه شيء . فالعظام وإن تلاشت ، فهو جل جلاله عالم أين استقرت
ذراتها ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم ، ثم بيّن حكمته من البعث فقال
تعالى : ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم والذين
سعوا في آياتنا معاجزين ﴾ أي صدّوا عن سبيله تعالى وكذبوا رسله ﴿ أولئك لهم عذاب
من رجز أليم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة
هم الفائزون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ وهذه
حكمة أخرى مضافة إلى ما قبلها ، وهي أن المؤمنين لما يشاهدون قيام الساعة وإثابة الأبرار
وعقوبة الفجار ، كما وعد الله تماماً ، يروّون ذلك عين اليقين . كما قال تعالى : ﴿ هذا ما وعد
الرحمن وصدق المرسلون ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾ أي إن هذا القرآن هو الحق في
كافة ما أخبر ويهدي إلى طريق ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يغالب ﴿ الحميد ﴾ في جميع أقواله
وأفعاله وشرعه وقدره والمحمود في ذلك كله جل جلاله .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مُّزِقٌ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٧) افترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴿ (٨) أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ (٩)

يستبعد المشركون قيام الساعة ويستهزئون بالرسول ﷺ في إخباره بذلك : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق ﴾ أي تفتتت ذرات أجسادكم ﴿ إنكم ﴾ أي بعد هذه الحال ﴿ لفي خلق جديد ﴾ أي تعودون أحياء ترزقون ! ولا يخلو هذا الإخبار من قسمين : إما أن يكون قد تعود الافتراء على الله بأنه أوحى إليه ذلك ، أو أن الرجل به جنون. ولهذا قالوا : ﴿ افترى على الله كذباً أم به جنة ﴾ فردّ تعالى عليهم : ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الأمين ، الذي جاء بالحق ، وهم الكذبة الأغبياء ﴿ في العذاب ﴾ أي في الكفر المفضي إلى العذاب ﴿ والضلال البعيد ﴾ من الحق في الدنيا. ثم قال تعالى : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ أي ألا يرون قدرة الله تعالى بإيجاد هذه المخلوقات العظيمة فما الذي يوجب أن يستبعدوا بعث الأجساد مرة ثانية وأرسل لهم رسولاً ينقذهم ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ﴾ أي لو شئنا لعاقبناهم على تكذيبهم بأن نخسف بهم الأرض أو نرجمهم من السماء بعذاب غليظ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا ﴿ إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ أي إن في هذا الحلم والعفو عند القدرة العظيمة لدلالة على أن ما يقوله الله ورسوله هو الحق ، ودافع إلى الرجوع عن الباطل إلى الحق والتوبة النصوح ، وهذا حصن على التوبة والإيمان والتصديق والتسليم .



وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ
وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ * (١٠) أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ
وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * (١١)

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل
المبين وجمع له النبوة والملك المتمكن ، والجند ذوي العدد والعدد ، وما أعطاه من
الصوت الرخيم العظيم الذي كان إذا سبَّح به ، تسبَّح معه الجبال ، وتقف له الطير السارحات ،
وتجاوبه بأنواع اللغات .

وفي الصحيح: ٥٦٥ [أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله
عنه يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته ثم قال ﷺ : « لقد أوتي هذا زميراً من
مزامير آل داود »]

وقوله تعالى ﴿ أَوِّبِي ﴾ أي رجعتي مسبحة معه فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه
بأصواتها .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ قال الحسن البصري وغيره : كان لا يحتاج أن
يدخل الحديد النار ولا يضربه بمطرقة بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ولهذا قال تعالى :
﴿ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ ﴾ وهي الدروع ، وهو أول من عملها من الخلق وإنما كانت قبل
ذلك صفائح ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ أي لا تدق المسمار فيقلق في الحلقة ، ولا تغلظه
فيقصمها واجعله بقدر . والسرد حلق الحديد يقال : درع مسرودة إذا كانت مسمورة
الحلقت ، وكان يستغني بثمر الدروع التي يصنعها عن الراتب من بيت مال المسلمين . فقل
أنه كان يبيع الدرع بأربعة آلاف درهم ، يتصدق بثلاثها ويشتري بثلاثها ما يكفيه وعياله ،
وأمسك الثلث يتصدق به يومياً إلى أن يعمل غيرها . وإن الله تعالى أعطاه شيئاً لم يعطه غيره
من حسن الصوت فكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما أعطي سبعين زمزماً في حلقه .

وقوله تعالى : ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ أي في الذي أعطاكم الله تعالى من النعم ﴿ إِنِّي
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم لا يخفى عليّ من ذلك
شيء .

وَلِسْلَيْمَنْ الرِّيحَ غَدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسْلَنَّا لَهُ

عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له ، تحمل بساطه غدوها شهر ، ورواحها شهر . وقوله تعالى : ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من التابعين : القطر : النحاس . وقال قتادة وكانت باليمن فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه﴾ أي سخر له الجن فدانوا له يسخرهم بإذن الله لما يشاء من عمل البنيات . والجن ولد إبليس ، كما أن الإنس من ولد آدم ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون ، وهم شركاء في الثواب والعقاب ، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي الله تعالى ، ومن كان من هؤلاء وكافراً فهو شيطان . وقوله تعالى : ﴿ومن يزغ منهم عن أمرنا﴾ أي ومن يعدل من الجن عن أمرنا له ويخرج منهم عن الطاعة ﴿نذقه من عذاب السعير﴾ وهو الحريق . ﴿يعملون له ما يشاء من محارِبٍ وتماثِيلٍ﴾ أما المحارِب قال الضحاك : هي المساجد^(١) وأما التماثيل فهي الصور وكانت من نحاس وقيل من طين وزجاج وقوله تعالى : ﴿وجفان كالجواب وقدر راسيات﴾ الجواب هي الأحواض ، والقدر الراسيات أي الثابتات لا تتحرك لعظمتها وأثافها منها . وقوله تعالى : ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ قال أبو عبد الرحمن السلمي : الصلاة شكر والصيام شكر ، وكل خير عمله لله عز وجل شكر وأفضل الشكر الحمد قال : الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل ، وكان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشكره تعالى قولاً وعملاً . قال ابن أبي حاتم عن ثابت البناني قال : كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل أو النهار إلا وانسان من آل داود قائم يصلي فغمرتهم هذه الآية : ﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾ وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال :

(١) نعم .. المحراب هو المسجد كله ، وليس هو الفجوة التي يقف فيها الإمام فإنها مأخوذة عن مذابح

٥٦٦ [إن أحب الصلاة إلى الله تعالى : صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود ، كان يصوم يوماً ، ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى] .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (١٤)

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام ، وكيف عمى الله موته على الجن المسخرين له في الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئاً على عصاه وهي منسأته مدةً طويلة نحواً من سنة^(١) فلما أكلتها دابة الأرض، وهي الأرضة ، ضعفت وسقط إلى الأرض وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك . فذلك قوله تعالى : ﴿ فلما خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ فأيقن الناس عند ذلك ان الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم يطلعون على الغيب ، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له وذلك قول الله تعالى : ﴿ ما دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ قال أصبغ : بلغني انها قامت سنه تأكل منها قبل ان يخرَّ ، وذكر غير واحد من السلف نحو هذا ، والله أعلم .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (١٥)
﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ (١٧)

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان عليه السلام من جملةهم وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشتهم واتساع أرزاقهم وزروعهم

(٣٤ - سبأ - ج ٢٢) : سبأ رجل تولد منه عشر قبائل ، هُنَّ أصول عرب اليمن ٥٢٩

وثمارهم وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه ، بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ، ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرّق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر . كما سيأتي إن شاء الله تفصيله وبيانه قريباً وبه الثقة .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس يقول : [إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ... أرجل أم امرأة أم أرض ؟ فقال ﷺ : « بل هو رجل ولد له عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، والشام منهم اربعة . فأما اليمانيون فمدحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير . وأما الشامية : فلخم وجذام وعاملة وغسان »] وهو حديث حسن لما له من الشواهد فقوّي وحسّن قال علماء النسب - منهم محمد بن اسحق - إسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ (١) - فقد ذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم ، وقال في ذلك شعراً جاء فيه :

... ويملك بعد قحطان نبيُّ
تقيّ محبت خير الأنعام
يسمى أحمداً يا ليت أني
أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصري
بكل مدحج وبكل رام
مى يظهر فكونوا ناصريه
ومن يلقاه يبلّغه سلامي

ذكر ذلك الحمذاني في كتاب - الأكليل - وهكذا نسباً هذا كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن لا أنهم ولدوا من صلبه . بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر .

فجاءتهم الرسل تأمرهم بتوحيد الله تعالى فكانوا لذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال سيل العرم . فمنهم من أقام ببلادهم ومنهم من نزع إلى غيرها . وكان من أمر السدان الماء كان يأتيهم من بين جبلين ، وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقدام . فبنوا بينهما سداً عظيماً محكمّاً . حتى ارتفع الماء وحكم على حافات دينك الجبلين . فغرسوا الأشجار واستغلّوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن . كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة ان المرأة كانت تمشي تحت الأشجار . وعلى رأسها مكبل أو زنبيل وهو الذي تغترف فيه الثمار . فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير كلفة ولا قطاف لكثرتة ونضجه واستوائه . وكان

(١) قلت : وأسبأ في القاموس يعني خبت الى الله ولعله رجع عن وثنيته الى عبادة الله وحده كما هو ظاهر من شعره أعلاه .

٥٣٠ (٣٤-سبأ-ج٢٢): بَدَّلَ اللهُ ثَمَارَهُمْ وظَلَّاهُمْ بالأشْوَكَ والبَلَّاقِعَ ، وجعلهم شذر مذر

هذا السد بمأرب ، بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ويعرف بسد مأرب . وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شيء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وهذا كله فضل من الله وعنايته بهم ليوحِّدوه ويعبدوه . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ﴾ ثم فسرها بقوله عز وجل : ﴿ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أي من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴾ أي غفور لكم إن استمررتم على التوحيد .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أي عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم . وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله كما قال الهدهد لسليمان عليه السلام : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ - إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ - وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سِيلَ الْعَرَمِ ﴾ المراد بالعرم : المياه . قال قتادة وغيره : ضعف السد ووهى وجاءت أيام السيول فصدم الماء البناء فسقط ... فانساب الماء في أسفل الوادي وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال فبيست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة كما قال تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ قال ابن عباس وهو الأراك وأكلة البربر ﴿ وَأَثَلٌ ﴾ قال ابن عباس : هو الطرفاء وقيل هو السمر والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَشَيْءٌ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ وهو أجود هذه الأشجار المبدل بها . فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة . والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة ، والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل ، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله تعالى . وتكذيبهم الحق وعدوهم عنه إلى الباطل . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور وقال ابن أبي حاتم عن ابن خيرة وكان من أصحاب علي رضي الله عنه قال : جزاء المعصية : الوهن في العبادة ، والضيق في المعيشة ، والتعسر في اللذة ؛ قيل : وما التعسر في اللذة قال : لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من ينغصته إياها .

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً
وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا
رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ
كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة : والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث أن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماءً وثمرًا ، وقيل في قرية وببيت في أخرى ، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم. ولهذا قال سبحانه : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها ﴾ أي كانوا يسرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة ، وقيل هي قرى بصنعاء ﴿ قرى ظاهرة ﴾ أي واضحة يقبلون في واحدة ويبيتون في أخرى ولهذا قال تعالى : ﴿ وقدرنا فيها السير ﴾ أي جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿ سيروا فيها ليلالي وأياماً آمنين ﴾ أي كان أمنهم دائماً ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾ وذلك أنهم بطروا هذه النعمة ، وأحبوا مفاوز وصحارى يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل ، والسير في الحرور والمخاوف. كما قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ وقال هؤلاء : ﴿ ربنا باعد بين أسفارنا ... ﴾ ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ أي جعلناهم حديثاً للناس وسمرًا يتحدثون به من خبرهم وكيف مكر الله بهم وفرّق شملهم بعد الاجتماع والإلفة والعيش الهنيء. تفرقوا في البلاد ههنا وههنا حتى صاروا مضرب المثل ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : تفرقوا أيدي سبأ ... وهكذا فقد تفرقوا ... فمنهم من خرج إلى عُمان ، وخرجت غشّان إلى بصرى ، وخرجت الأوس والخزرج إلى يثرب ذات نخل، فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان : هذا مكان صالح لا نبغي به بدلاً فأقاموا فيه فسموا لذلك خزاعة لأنهم انخرعوا من أصحابهم ، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة ، ونزلت ازد السراة السراة . ونزلت ازد عمان عمان ، ثم أرسل الله تعالى على السد فهدمه . وفي ذلك أنزل الله تعالى هذه الآيات . قال الأعشى أعشى بني قيس بن ثعلبة واسمه ميمون بن قيس :

وفي ذاك للمؤتسي اسوة*
ومأرب قفى عليها العرم*
رجام بنته لهم حمير
إذا جاء مأوهم لم يرم*
فأروى الزروع وأعنا بها
على سعة مأوهم إذ قُسم*
فصاروا أيادي ما يقدرون
منه على شرب طفل فُطم*

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي أن في هذا الذي حلَّ بهؤلاء من النعمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبهوه من الكفر والآثام ، لعبرة ودلالة لكل عبد صَبَّارٍ على المصائب ، شكور على النعم . وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً ٥٦٧ [عجبا للمؤمن لا يقضي الله تعالى له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ؛ وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن] كان مطرف يقول : نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٢١﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى . فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ كقوله : ﴿ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنُؤَخِّرَنَّهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَلا تَحْتَكِنَ ﴾ ذريته إلا قليلاً ﴿ وقال ﴾ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴿ وقوله تعالى : ﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾ أي من حجة ، قال الحسن البصري : والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها فأجابوه . وقوله عز وجل : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ أي إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء ، فيحسن عبادة ربه عز وجل في الدنيا ، ممن هو منها في شك (وربك على كل شيء حفيظ) أي ومع حفظه ضل من ضل وسلم من سلم

﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿ (٢٣) ﴾

بيّن تبارك وتعالى أنه لا إله إلا هو الأحد الفرد الصمد ، الذي لا نظير له ولا شريك له ، بل هو مستقلٌّ بالأمر وحده فقال جل وعلا : ﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي من الآلهة التي عبدت من دونه : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ كما قال سبحانه ؛ ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ ﴾ أي لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشراكة ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ أي وليس لله من هذه الأنداد من يظهر يستظهر به في الأمور أي يساعده ، بل الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أي لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجتري أحد أن يشفع عنده إلاّ بإذنه . كما قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين قال : (... فأسجد لله تعالى فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ويفتح عليّ بمحامد لا أحصيها الآن ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل تسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ...) (١) وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ ﴾ وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة ، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه ، أَرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي ، قال ابن عباس وغيره في تفسير هذه الآية : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ... ﴾ أي خلّتي عن قلوبهم وزال الفرع عنها سأل بعضهم بعضاً : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا ولهذا قال تعالى : ﴿ قَالُوا الْحَقُّ ﴾ أي أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وهو العلي الكبير ﴾ .

روى البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله

(١) راجع آية الكرسي رقم / ٢٥٥ من سورة البقرة عند قوله تعالى : « من ذا الذي يشفع ... »

عنه يقول : إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ ٥٦٨ [إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاعاً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ، قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترق السمع . ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء] انفرد باخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه ، وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة به والله أعلم .



﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢٦) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ (٢٧) ﴾

يقرر تعالى أنه منفرد بالخلق والرزق والألوهية فكما أنهم أقروا بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض إلا الله ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له أي لا معبود سواه . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق ، لا بد من ذلك . ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد فدلّ على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيدهِ وإفراد العبادة له ، فإن أجبتُم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتُم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا . كما قال تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ أي يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي يحكم بيننا بالعدل فيجزئ كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أي الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور . وقوله

تبارك وتعالى : ﴿ قل أروني الذين ألحقتم به شركاء ﴾ أي أين الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً وصيرتموها له عدلاً ﴿ كلاً ﴾ أي ليس له شريك ولا عديل . ولهذا قال تعالى : ﴿ بل هو الله ﴾ أي الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿ العزيز الحكيم ﴾ أي ذو العزة الذي قد قهر بها كل شيء وغلبت كل شيء الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، تبارك وتعالى وتقدس عما يقولون علواً كبيراً .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿ (٣٠)

يقول الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليماً : ﴿ وما أرسلك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ أي إلى جميع الخلائق من المكلفين كقوله تبارك وتعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ أي تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار . ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ كقوله عز وجل ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقد ثبت في الصحيحين رفعه عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٥٦٩ [أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فإني من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس عامة] وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال ٥٧٠ [بعثت إلى الأسود والأحمر] قال مجاهد : يعني الجن والإنس . ثم أخبر تعالى عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾ الآية ثم قال تعالى : ﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ أي لكم ميعاد مؤجل محدود لا يؤخر ولا يقدم . كما قال تعالى : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ .

﴿...﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ
بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ
اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ
مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ
مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا
وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ
كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴿...﴾

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم وما
أخبر به من أمر المعاد، ولهذا قال عز من قائل : ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن
ولا بالذي بين يديه ﴾ فتوعدهم الله تعالى ، وأخبر عن مواقفهم الدليلة بين يديه في حال
تخاصمهم وتحاجهم ﴿ يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا ﴾ وهم
الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم ﴿ لولا أنتم لكنّا مؤمنين ﴾ أي
لولا أنتم تصدونا لكنّا اتبعنا الرسل وآمنّا بما جاؤونا به. فقال لهم القادة والسادة وهم الذين
استكبروا : ﴿ أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ﴾ أي نحن ما فعلنا بكم أكثر
من أنّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل وتركتم حجج الرسل لشهوتكم واختياركم
لذلك ... ولهذا قالوا : ﴿ بل كنتم مجرمين ﴾ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا
بل مكر الليل والنهار ﴿ بل كنتم تغرون وتمنونا وتمكرون ليلاً ونهاراً وتقنعونا أنّا على
هدى ، فإذا كل ذلك باطل وكذب . ﴿ إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴾
أي نظراء وآله معه ، وتقيموا لنا شياً وأشياء تضلونا بها ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا
العذاب ﴾ أي كل من التابعين والمتبوعين ندموا على ما سلف منهم ﴿ وجعلنا الأغلال
في أعناق الذين كفروا ﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿ هل يجزون إلّا
ما كانوا يعملون ﴾ أي إنّما نجازيكم بأعمالكم كلّ بحسبه وبقدر ما يستحقّ . كقوله

تعالى : ﴿ لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

قال ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٧١ [إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقاهم لها ، ثم لفتحهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿ (٣٥) قُلْ إِنْ رَبِّي يَنْصُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلَتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴾ (٣٨) قُلْ إِنْ رَبِّي يَنْصُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٣٩) ﴿

يسلّي الله نبيه ورسوله محمدًا ﷺ : بأن ما أنت فيه من تكذيب المترفين من قومك لك ، إنما هذا حصل مع كل نبي قبلك ، فما من نبي إلا كذبه المترفون واتبعه الضعفاء ، كما قال قوم نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأذولون ﴾ وقال جل وعلا ها هنا : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير ﴾ أي رسول ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة ، قال قتادة : هم جبابرهم وقادتهم ورؤوس الشر فيهم : ﴿ إنّا بما أرسلتم به كافرون ﴾ أي لا تؤمن به ولا نتبعه .

روى ابن أبي حاتم عن أبي رزين قال ٥٧٢ [كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر ، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله : ما فعل ... ؟ فكتب إليه : أنه لم يتبعه أحد من قريش ، إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم . قال فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلّني عليه ، قال : وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب ،

قال فأُتِيَ النبي ﷺ فقال : إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى كذا وكذا ... » قال : أشهد أنك رسول الله . قال ﷺ « وما علمك بذلك ؟ » قال : إنه لم يبعث نبي إلا أتبعه أراذل الناس ومساكينهم ، قال : فتزلت هذه الآية : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ الآية قال فأرسل إليه النبي ﷺ : « إن الله عز وجل قد أنزل تصديق ما قلت » [

ويخبر تعالى عن المترفين المكذبين : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذه الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة ، ولكن هيهات لهم ذلك . قال الله تعالى : ﴿ أحسبون أننا نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وقال ها هنا : ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة القاطعة الدامغة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى ﴾ أي ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ولا اعتنائنا بكم .

قال الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ٥٧٣ [إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم] ورواه مسلم وابن ماجه ولهذا قال تعالى : ﴿ إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾ أي إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح : ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ أي تضاعف لهم الحسنه بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿ وهم في الغرفات آمنون ﴾ أي في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى . ﴿ والذين يسعون في آياتنا معاجزين ﴾ أي يسعون في الصّدّ عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته ﴿ أولئك في العذاب محضرون ﴾ أي جميعهم محزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

وقوله تعالى : ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ أي بحسب ما له في ذلك من الحكمة ، يبسط على هذا ، ويقتر على هذا وحكمته لا يدركها غيره وكما هم متفاوتون في الدنيا فكذلك هم في الآخرة، هذا في الغرفات في أعلى الدرجات ، وهذا في الغمرات في أسفل الدركات . وأطيب الناس في الدنيا كما قال ﷺ : ٥٧٤ [قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه] رواه مسلم . وقوله تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ أي مهما أنفقتم مما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم

في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب وفي الحديث ٥٧٥ [ان ملكين يُصبحان كل يوم يقول أحدهما : اللهم أعط ممسكاً تلفاً، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقاً خلفاً] قال سفيان الثوري : عن مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه الآية : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ إن كان عند أحدكم ما يقيمه ، فليقصد فيه فإن الرزق مقسوم .

﴿ وَيَوْمَ يَخْشَرُفُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ لَكُمْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (٤٢)

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقرّبوهم إلى الله زلفى ، فيقول للملائكة : ﴿ أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ أي أنتم أمرتموهم بذلك؟ كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ مَا هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ أي تنزهت وتقدست عن ان يكون معك إله ﴿ أَنْتَ وَلَيْنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أي نبرأ إليك من هؤلاء ونحن عبيدك ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعنون الشياطين لأنهم هم الذين أضلوهم وزينوا لهم عبادة الأوثان ﴿ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ أي تبرأ الملائكة من عابديهم بغير حق . قال الله عز وجل : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً ﴾ أي لا ينفعكم ما كنتم ترجون نفعه ، وادخرتم عبادتهم لمثل هذا اليوم ، ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي أنفسهم بعبادة غير الله ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي هذا جزاء من عبد غير الله تعالى وكذب بعذابه ولقائه .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَغُ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ

مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ
قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا
مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

يخبر تعالى عن استحقاق الكفار للعذاب عندما يسمعون آيات الله من لسان رسوله ﷺ ﴿ قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ يعنون أن دين آباؤهم هو الحق ، ودين محمد هو الباطل عليهم وعلى من كفر من آباؤهم لعائن الله تعالى ﴿ وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ يعنون القرآن ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ — أي إنهم وصفوا القرآن بأنه سحر واضح. ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن وما أرسَل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ ^(١) . وقد كانوا يودون أن يبعث فيهم نبيّ فلما منَّ الله عليهم به كذبوه .

ثم قال تعالى : ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ أي من القوة في الدنيا فجحداً بآيات الله فدمرهم الله وزلزل بلادهم ولهذا قال

(١) قلت : أي ما أنزل الله على العرب بعد إبراهيم صحفاً إلا القرآن ولا نبياً بعد اسماعيل إلا محمداً عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام فقد كان العرب منذ زمن اسماعيل عليه السلام إلى زمن عمرو بن لحي ملك العرب على التوحيد وعلى دين إبراهيم واسماعيل وما دخل الشرك وعبادة الأوثان إلا في زمن عمرو بن لحي وقد رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم في جهنم يتعثر في أفتابه جزاء إدخاله الشرك على جزيرة العرب وعبادة الأوثان فيها وبناء على هذا فإن العرب كانوا مكلفين بدين إبراهيم الذي بدّلوه وغيروه كما فعل اليهود والنصارى بدين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، ولم يكن بين عمرو بن لحي وبين محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من أربعماية سنة تقريباً تدرّج خلالها الشرك شيئاً فشيئاً في أحياء العرب ، إنما لم يخلُ زمان خلال هذه المدة من يلهمه الله تعالى فيذكر بدين إبراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام وكان العرب يزعمون أنهم ما يزالون على دين أبيهم إبراهيم صلى الله عليه وسلم ولكن كان أولئك الذين ألهموا بتذكير الناس لا يفوتهم موسم ولا سوق من أسواق العرب الا ويقفون خطباء يبينون للناس أنهم على دين غير دين إبراهيم أمثال : قس بن ساعدة الأيادي ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل وغيرهم كثيرون... وكانوا يسمّون بالحنفاء . فهؤلاء ولا شك قامت بهم الحجّة على كل من سمعهم من أهل زمانهم ... حتى أن أمية بن أبي الصلت كان يبشر ويدعو إلى نبي سيأتي قريباً ، وكان يظن أنه سيكون ذلك النبي فلما منَّ الله على الثقلين ببشارة محمد صلى الله عليه وسلم كثر أمية به لأن النبوة لم تأتْ ؟؟؟! والخلاصة ان العرب كانوا مكلفين بدين إبراهيم فكل من اتبعه فهو موحد ناج ، وكل من تركه فهو مشرك في النار والأحاديث الصحيحة تنطق بذلك فليعد إليها من شاء وصلى الله على محمد وآله وصحبه والحمد لله رب العالمين .

(٣٤- سبأ- ج ٢٢): أيها المشركون نجرّدوا عن هواكم واحكموا: هل محمد به جنة؟! ٥٤١

تعالى : ﴿ فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ﴾ أي فانظروا واتعظوا كيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي .



﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفِرَادَىٰ ۖ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ ۖ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (٤٦)

يقول تبارك وتعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين بأنك مجنون ﴿ إنما أعظكم بواحدة ﴾ وهي ﴿ أن تقوموا لله مشنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾ أي قفوا موقفاً خالصاً لوجه الله تعالى من غير هوى ولا عصبية ، واسألوا بعضكم بعضاً ثم اجيبوا بإخلاص : هل محمد به جنون ؟ ثم انصحوا بعضكم بعضاً بالحق اي بالاعتراف بأن محمداً عاقل ما به قط من جنة ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال ٥٧٦ [صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : مالك ؟ فقال : « أرايتم لو أخبرتكم أن العدو يصبّحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني » قالوا : بلى قال ﷺ « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب ، تبّاً لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ تبّ يدا أبي لهب وتب ﴾] وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربين ﴾ (١)

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٤٧) ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلامُ الْغُيُوبِ ﴾ (٤٨) ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ (٤٩) ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ (٥٠)

يأمر تعالى نبيّه محمداً ﷺ أن يقول للمشركين ﴿ ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ أي لا أريد منكم أجراً على أداء رسالة الله عز وجل إليكم وأمركم بعبادة الله ﴿ ان

أجري إلّا على الله وهو على كل شيء شهيد ﴿ أي عالم بجميع الأمور وما أنا عليه من تبليغ دينه إليكم ، وما أنتم عليه من العمل . وقوله عز وجل : ﴿ قل إنّ ربي يقذف بالحق علام الغيوب ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ من أهل الأرض بالرسالة وهو علام الغيوب فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء . وقوله تعالى : ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ أي جاء الحق والشرع العظيم من الله تعالى واضمحل الباطل . ولهذا : ٥٧٧ [لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبةً حول الكعبة ، جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه ويقول : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً ﴾ ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾] رواه البخاري ومسلم والترمذي .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قل إنّ ضللت فإنما أضلّ على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي ﴾ أي الخبير كله من عند الله وما أنزل الله فيه من الهدى والبيان والرشاد ومن ضلّ فإنما يضلّ من تلقاء نفسه ، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، لما سئل عن تلك المسألة في « المفوضة » أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريثان منه . وقوله تعالى : ﴿ انه سميع قريب ﴾ أي سميع لأقوال عباده ، قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۖ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ۖ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولو ترى ﴾ يا محمد ﴿ إذ فزعوا ﴾ أي هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿ فلا قوت ﴾ أي فلا مفر لهم ولا ملجأ ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ أي أخذوا من أول وهلة حين خرجوا من قبورهم يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ﴿ وقالوا آمنا به ﴾ أي يوم القيامة يقولون آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسوله . كما قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا فعملنا صالحاً إنا موقنون ﴾ ولهذا

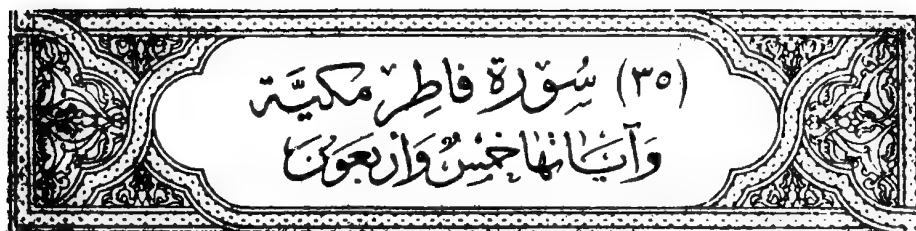
(٣٤ - سبأ - ج ٢٢) : لا ينفع الإيمان عند معاينة العذاب ، لانتهاه وقت الإيمان ٥٤٣

قال تعالى ﴿ وأنتى لهم التناوش من مكانٍ بعيد ﴾ أي لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد . وقوله تعالى : ﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ أي كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسل ﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ كما قال تعالى : ﴿ رجماً بالغيب ﴾ فتارة يقولون شاعر وتارة يقولون كاهن ، وتارة يقولون ساحر ، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ويكذبون بالبعث والتشور والمعاد ﴿ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ أي بالبعث ولا بالجنة ولا بالنار . وقوله تعالى : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ من الإيمان والتوبة . ولكن أنتى لهم ذلك وليس وقتهم ذلك بوقت إيمان أو توبة إن لم يكونوا قد آمنوا من قبل . وقوله تعالى : ﴿ كما فعل بأشياءهم من قبل ﴾ أي كما جرى للأمم الماضية المكذبة من قبل بالرسول لما جاءهم بأسنا ، تمنوا لو أنهم آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلّت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا في شكٍ مريب ﴾ فلهذا لم يتقبل إيمانهم عند معاينة العذاب ؛ قال قتادة :

إياكم والشك والريبة ، فإن من مات على شكٍ بُعِثَ عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

آخر اختصار تفسير سورة سبأ والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

١٣٩٠ / ٥ / ٣٠



نزلت بعد الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكُوتِ
رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنْ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)

قوله تعالى : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ أي مبدعهما من العدم ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ أي بينه وبين أنبيائه ﴿ أولي أجنحة ﴾ أي يطرون بها ليلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أي منهم من له جناحان ، ومنهم له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء في الحديث : ٥٧٨ [أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الاسراء وله ستائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب] ولهذا قال جل وعلا : ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ان الله على كل شيء قدير ﴾ قال السدي . يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء .

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ
فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢)

يخبر تعالى أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وانه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، روى الإمام أحمد عن ورّاد مولي المغيرة بن شعبة قال : ٥٧٩ [إن معاوية كتب إلى

(٣٥- فاطر - ج ٢٢) : إن أراد الله مسك بضري ، أو أراد كشفه ، فلا رادّ لذلك ٥٤٥

المغيرة بن شعبة ، أكتب لي بما سمعت من رسول الله ﷺ فدعاني المغيرة فكتبت إليه :
إني سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة : لا إله إلا الله وحده لا شريك
له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما
لمنا منعت ولا ينفع ذا الجند منك الجند وسمعته ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة
المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات [. وأخرجاه وقال الإمام
مالك رحمه الله عليه : كان أبو هريرة رضي الله عنه إذا مطروا يقول : مطروا بنوء
الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا
مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ
غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ
تُفَكِّرُونَ ﴾ (٣) وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ
تَرْجِعُ الْأُمُورُ • (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ • (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ
عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ
السَّعِيرِ • (٦) ﴿

ينبّه تعالى عباده ، ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له ، كما أنه
المستقل بالخلق والرزق ، فكذلك فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد
والأوثان ، ولهذا قال تعالى ﴿ لا إله إلا هو فأتى تفكركون ﴾ أي فكيف تُكذِّبون بعد هذا
البيان ووضوح هذا البرهان وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان والله أعلم .

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ وإن يكذبوك ﴾ يا محمد ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد
فلك أسوة بمن سلفك من الرسل ، فكذلك كذبهم أقوامهم بما جاءوا به من البينات ﴿ وإلى
الله ترجع الأمور ﴾ وسوف يخازيهم بما يستحقون . ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن وعد
الله حق ﴾ أي المعاد كائن لا محالة ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ أي فلا تلهوا بزهرة

الدنيا الفانية ، عن الحياة الخالدة الهائلة الباقية . ﴿ ولا يغفرنكم بالله الغرور ﴾ أي لا يفتننكم الشيطان بغروره . ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته ، والغرور هو الشيطان . ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال جل وعلا : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ أي عادوه أشد العداوة وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به . ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ إنما يقصد أن يضلنكم حتى تدخلوا معه عذاب جهنم نسأله تعالى ان يجعلنا أعداء الشيطان ، وان يرزقنا اتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ انه سميع مجيب .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٨)

لما ذكر تعالى أن اتباع إبليس مصيرهم الى السعير ، ذكر بعد ذلك أن للكافرين عذاباً شديداً لإطاعتهم الشيطان وعصيانهم الرحمن . وان الذين آمنوا بالله ورسله ﴿ وعملوا الصالحات لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ على أعمالهم الصالحة . ثم قال عز من قائل : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ كالكفار الذين يسيئون ، ويعتقدون أنهم يحسنون صنعا فمثل هؤلاء ليس لك حيلة فيه ﴿ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ أي بقدره كان ذلك ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ أي لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره إنما يضل ويهدي من يشاء لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ولهذا قال تعالى : ﴿ ان الله عليم بما يصنعون ﴾ له أي علم بذلك وما سيكون منهم قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْفُشُورُ ﴾ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ

الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ
نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ
وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ
عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

كثيراً ما يتدلُّ عبادهُ على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، كما في سورة الحج
ينبّه عبادةً أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتةً هامة لا نبات فيها ، فإذا
أرسل إليها السحاب تحمل الماء ، وأنزله عليها ﴿ اهترت وربت وأنبتت من كل زوج
بهيج ﴾ كذلك الأجساد إذا أراد الله بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطراً يعم
الأرض جميعاً ، ونبتت الأجساد من قبورها كما تنبت الحبة في الأرض ، ولهذا جاء في
الصحيح : ٥٨٠ [كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ، منه خلق ومنه يركب] ولهذا قال
تعالى : ﴿ كذلك النشور ﴾ وتقدم في سورة الحج حديث أبي رزين ٥٨١ [قلت : يا
رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال ﷺ : « يا أبا رزين أما
مررتُ بوادي قومك ممحلاً ثم مررت به يهتز خضراً » قلت : بلى قال ﷺ : « فكذلك
يحيي الله الموتى »]

وقوله تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ أي من يحب أن يكون عزيزاً
في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى ، فإنه يحصل له مقصوده . لأن الله تعالى مالك الدنيا
والآخرة ، وله العزة جميعاً . كما قال تعالى : ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون
المؤمنين إيتنغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ وقال جل جلاله : ﴿ والله العزة
ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ فليتعزز المؤمنُ بطاعة الله عز وجل .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ يعني الذكر والتلاوة والدعاء قاله
غير واحد من السلف ، وقوله تعالى : ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ قال مجاهد : العمل
الصالح يرفع الكلام الطيب . وقال ، إياس القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام ،
وقال الحسن وقتادة : لا يقبل قول بلا عمل .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ هم المرءون بأعمالهم أي يوهمون أنهم

٥٤٨ هـ (٣٥ - فاطر - ج ٢٢) : يعلم الله ما تحمل الأنثى وما تضع ، والأعمار في كتاب عنده

في طاعة الله تعالى وهم بغضاء إلى الله عز وجل يراءون بأعمالهم . ويدخل في ذلك المشركون وغيرهم ... والمشركون داخلون بطريق الأولى. ولهذا قال تعالى : ﴿ لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ أي يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهي ، فإنه ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وكساه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير أو شراً فشر . فالمرائي لا يروج أمره ولا يستمر إلا على غيبي أما المؤمنون المتفرسون فلا يروّج ذلك عليهم ، بل ينكشف لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ﴾ أي ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثم جعلكم أزواجاً ﴾ أي ذكراً وأنثى ، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها ، وقوله عز وجل : ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ أي هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء بل : ﴿ ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ أي ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول ﴿ وما ينقص من عمره ﴾ الضمير عائد على الجنس لا على العين لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس. وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ إن ذلك على الله يسير ﴿ يقول : ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له وإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة بباليغ العمر ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له فذلك قوله تعالى : ﴿ ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ إن ذلك على الله يسير ﴿ يقول كل ذلك في كتاب عنده وهكذا قال الضحاك . وقال النسائي عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٥٨٢ « من سره أن يبسط له في رزقه وينسأله في أثره فليصل رحمه » [وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود . روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : ٥٨٣ « ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : « إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يبرز قؤها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر » [وقوله عز وجل : ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أي سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك

وبتفصيله في جميع مخلوقاته فان علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها .

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ
وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ
حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

ينبه تعالى على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة ، خلق البحرين العذب الزلال وهو الأنهار السارحة العذبة السائغة الشراب ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي مرّ وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار وانما تكون مالحه مرة ثم قال تعالى : ﴿ ومن كل تأكلون لحماً طرياً ﴾ يعني السمك ﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ وترى الفلك فيه موابر ﴾ أي تمخره وتشقه بمقدمها المسّم . وقوله جل وعلا : ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ أي بأسفاركم بالتجارة من قطر الى آخر ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم وتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم . ولا يمتنع عليكم شيء منه بل بقدرته تعالى قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، الجميع من فضله ورحمته .

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ
تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه ، والنهار بضياءه ، ويطول كل منهما ويقصر بحسب الفصول ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ والنجوم السيارات والثوابت الثاقبات ، الجميع يسرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقن محرر ، تقديرًا من عزيز عليم ﴿ كل يجري لأجل مسمى ﴾ أي إلى يوم القيامة ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾

أي الذي فعل هذا هو الرب العظيم لا إله غيره ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ أي من الملائكة والصالحين الذين صورت أصنامهم على صورهم أي ﴿ ما يملكون من قطمير ﴾ هؤلاء الذين تدعونهم من الملائكة المقربين والأولياء والصالحين ما يملكون من السموات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير - وهو اللقافة الرقيقة التي تكون على نواة التمرة - ثم قال تعالى : ﴿ ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ يعني هذه الآلهة التي اتخذتموها من دون الله لا تسمع دعاءكم لأنهم ميتون وتمثيلهم كذلك جماد لا أرواح فيها ﴿ ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ أي وعلى افتراض المستحيل انه وقع وسمعوا ... فإنهم لا يستطيعون الإجابة على ما تطلبون منهم إذ لا يقدر على ذلك أحد الا الله تعالى وحده لا شريك له. كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا ينشئك مثل خبير ﴾ ولا يخبرك بحقائق الأمور وظواهرها وخفاياها ، وعواقبها ومآلها ، مثل ما يخبرك بها خبير بصير ، وهل هو إلا الله تبارك وتعالى ، فانه أخبر بالواقع لا بحالة .



يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِلْهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى بقوله عز من قائل : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ﴾ أي أنتم المحتاجون إليه في جميع الحركات وهو تعالى الغني عنكم بالذات ، ولهذا قال عز وجل ﴿ والله هو الغني الحميد ﴾ أي المنفرد بالغي وحده لا شريك له وهو الحميد في جميع أقواله وأفعاله قدراً وشرعاً وقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي لو شاء لأذهبكم وأتى بغيركم وما ذلك عليه صعب أو ممتنع. ولهذا قال تعالى : ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وإن تدعُ مثقلة إلى

حملها ﴿ أي وان تدع نفس مثقلة بأوزارها لتساعد على حمل ولو بعض شيء منه ﴾ لا يُحمل منه شيء ولو كان ذا قربي ﴿ أي حتى ولو كان أباهاً أو ابنها أو أخاهاً أو زوجها أو جارها تتعلق به ليحمل عنها شيئاً من حملها فيقول ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل خوفك فلا أستطيع ان أعطيك شيئاً وتطلب من جميع من ذكر فيكون الجواب هو هو فذلك قوله تعالى : ﴿ لا يُحمل منه شيء ولو كان ذا قربي ﴾ . فيقوله تعالى : ﴿ يوم يفزع المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ﴾ أي إنما يتعظ بما جئت به أولاً البصائر والنهي ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ﴿ ومن تركني فإني ما يتزكى لنفسه ﴾ أي ومن عمل صالحاً فإني ما يعود نفعه على نفسه ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي إليه المآب وسيجزي كلاً بما يستحق .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا

النُّورُ ﴿ (٢٠) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴾ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿ (٢٢) إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿ (٢٦)

يقول تعالى : كما لا تستوي الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات ، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين الذين مثلهم بالأحياء ، والكافرين الذين مثلهم بالأموات ، فلا يستوون . فالؤمن بصير يمشي في نور على صراط مستقيم في الدارين ، حتى ينتهي الى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى أصم يمشي في ظلمات لا خروج له منها ، تائه في غيه وضلاله في الدارين حتى يفضي به ذلك الى الحرور والسموم والحميم ، وظل من يحوم لا بارد ولا

كريم . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿وما أنت بمسمعٍ من في القبور﴾ أي كما لا ينتفع الموتى بعد موتهم وهم كفاراً بالهداية والدعوة إليها ، كذلك المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم ^(١) ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ أي بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ﴿وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير﴾ أي وما من أمة خلت من بني آدم إلاّ وقد بعث الله تعالى إليهم النذر وأزاح عنهم العلل . كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي المعجزات الباهرات ﴿وَبِالْزُبُرِ﴾ وهي الكتب ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي الواضح البين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالعقاب والنكال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً . والله تعالى أعلم .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَايِبُ سُودٌ﴾ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

ينبه تعالى على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد ، وهو الماء الذي ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفة الألوان من أصفر وأحمر وأخضر

(١) قلت : لما كان الأموات لا يسمعون لأن حاسة السمع وسائر حواسهم قد تعطلت وفنيت بسبب الموت ، كذلك فإن حال الكفار الذين اختاروا الكفر على الإيمان ، صموا آذانهم عن كل حجة... فلم يسمعوها مهما كرر الداعي حججه وبراهينه... فنبه الله حالهم التي هم عليها ، كحال الأموات الذين لا يسمعون. فكما أن الأموات لا يسمعون الدعوة مهما كررت عليهم ، كذلك هؤلاء الكفار صار حالهم كحال الأموات من حيث عدم السماع. ولو أن الأموات يسمعون لما صح التشبيه بهم. ولكن لما شبه الله الكافرين بالأموات علم قطعاً أن الأموات لا يسمعون ؛ لا سيما وإن الله تعالى يقول : ﴿وما أنت بمسمعٍ من في القبور﴾ والله أصدق القائلين .

وأبيض الى غير ذلك من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون ﴾

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة فمن الجبال ما هو ابيض وأحمر ، ﴿ وغرايب سود ﴾ قال عكرمة : الغرايب الجبال الطوال السود ؛ وقوله تعالى : ﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ﴾ أي كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب والأنعام هي مختلفة أيضاً فالناس منهم بربر وحبوش وطماطم في غاية السواد وصقالبه وروم في غاية البياض والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك ، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ واختلاف ألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد منهم يختلف الألوان بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون ومن هذا اللون فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة بالعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ، أتم ... والعلم به أكمل ... كانت الخشية له أكبر وأعظم وأكثر . وقال الحسن البصري : العالم من خشي الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه ثم تلا الحسن : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾

﴿ إِنَّا الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ • (٢٩) لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ • (٣٠)

يخبر تعالى عن المؤمنين الذين يتلون كتابه ويعملون بما فيه من اقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً ﴿ سرّاً وعلانية ﴾ يرجون تجارة لن

تبور ﴿ أي يرجون ثواباً لا بد من حصوله من عند الله تعالى لأن القرآن يقول لصاحبه : ان كل تاجر من وراء تجارته ، وانك اليوم من وراء كل تجارة . ولهذا قال تعالى : ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ أي ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿ انه غفور ﴾ أي لذنوبهم ﴿ شكور ﴾ للقليل من أعمالهم . وقال قتادة : كان مطرّف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (٣١)

يقول تعالى : ﴿ والذي أوحينا اليك ﴾ يا محمد ﴿ من الكتاب ﴾ وهو القرآن . ﴿ هو الحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ من الكتب المتقدمة يصدقها كما شهدت له بالتنويه ، وأنه منزل من ربّ العالمين ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ أي خير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه ، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (٣٢)

يقول تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ أي هذه الأمة فقد أورثها هذا القرآن العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ وهو المفرط يفعل بعض الواجبات ويرتكب بعض المحرمات ﴿ ومنهم مقتصد ﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات ، ﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات .

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ﴿ فمنهم ظالم

لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﷻ قال: قال رسول الله ﷺ : ٥٨٤ [كلهم من هذه الأمة] .

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٥٨٥ [قال الله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ فاما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب واما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً ، واما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحسبون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون : ﴿ الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾]

قال بعضهم ان الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، والصحيح ان الظالم لنفسه من هذه الأمة وهذا اختيار ابن جرير ، كما هو ظاهر الآية وكما تقدمت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً واكتفينا بإيراد ما تيسر ... فاذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة وأولى الناس بهذه الرحمة ٥٨٦ [... وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر] (١) .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ • (٢٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ • (٢٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ • (٢٥) ﴿

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ، مأواهم جنات عدن يدخلونها يوم قدومهم على الله عز وجل ﴿ يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٥٨٧ [تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء .] ﴿ ولباسهم

فيها حرير ﴿ ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « ٥٨٨ [من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة] وقال الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٨٩ [ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور ، وكأنني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون : ﴿ الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن ، ان ربنا لغفور شكور ﴾] قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات ﴿ الذي أحلنا دار المقامة من فضله ﴾ يقولون أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومنه ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك . كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ٥٩٠ [لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة] قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « لا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمته منة وفضل ﴾ لا يمسن فيها نصب ولا يمسن فيها لغوب ﴿ أي لا يمسن فيها عناء ولا إعياء ، أي لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم ، وصاروا في راحة دائمة مستمرة ﴾ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴿

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ ﴿ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُبْدِكُمْ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ ﴿ (٣٧)

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء ، شرع في بيان ما للأشقياء ، فقال جل وعلا : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضي عليهم فيموتوا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ وثبت في صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : ٥٩١ [« أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون] فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل الى ذلك ثم قال تعالى : ﴿ كذلك نجزي كل كفور ﴾ أي هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق . وقوله جلت عظمته : ﴿ وهم يصرخون فيها ﴾ أي ينادون فيها يجأرون الى الله عز وجل بأصواتهم : ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي

كنا نعمل ﴿ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردّهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم. ولهذا قال تعالى : ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾ أو ما عشم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لا تنفعتم به في مدة عمركم ؟ وقد اختلف المفسرون في مقدار المراد هنا ف قيل سبع عشرة سنة ، وعشرين سنة ، وأربعون سنة وستون سنة . والصحيح انه ستون . روى البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٥٩٢ [اعذر الله عز وجل إلى امرئ آخر عمره حتى بلغ ستين سنة] ورواه أحمد والنسائي والبخاري .

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده ويزيح به عنهم العلل كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة كما ورد بذلك الحديث ، روى الحسن بن عرفة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ٥٩٣ [اعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك] . وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه عن الحسن بن عرفة به وأبو بكر بن أبي الدنيا من وجه آخر وطريق أخرى .

وقوله تعالى : ﴿ وجاءكم النذير ﴾ روى عن ابن عباس وغيره : يعني الشيب قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعني به رسول الله ﷺ وقرأ ابن زيد ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ وهذا هو الصحيح عن قتادة قال : احتج عليهم بالعمر والرسول وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر. لقوله تعالى : ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ما كنون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ أي لقد بينا لكم الحق على السنة الرسل فأبيتم وخالفتم. وقوله تعالى : ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ أي فذوقوا عذاب النار جزاءً على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعماركم ، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩)

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السموات والأرض وأنه يعلم ما تخفيه السرائر ، وسيجازي كلَّ عامل بعمله ثم قال تعالى : ﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ أي يخلف قوم آخرين قبلهم ، كما قال تعالى : ﴿ ويجعلكم خلائف الأرض فمن كفر فعليه كفره ﴾ أي فانما يعود وبال ذلك عليه ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ﴾ كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمرهم حسن عملهم : وارتفعت درجاتهم ومنزلهم في الجنة وزاد أجرهم وأحبهم خالقهم وبارئهم رب العالمين

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤١)



يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ هذا تحدي من الله للذين يعبدون سواه وإعجاز لهم بأنه هو خالق السموات والأرض ، وكل شيء ، فماذا خلق الذين من دونه حتى يعبدوهم ؟ والجواب ليس للأنداد والمعبودين معه أي ملك ، وكيف وإنهم هم المملوكون المربوبون لله تعالى ، أنهم ما يملكون من قطير ﴿ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر ؟ الجواب ليس : الأمر كذلك ﴿ بَلْ إِنَّ يَعِدِ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ أي بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وما هي إلا غرور وباطل وزور . ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السموات والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما . فقال جل وعلا : ﴿ ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ أي تضطربا عن أماكنهما كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴿ أي لا يقدر على دوامهما وباقائهما إلا هو

(٣٥- فاطر-ج ٢٢): أَقْسَمْتُ قَرِيشَ لئنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَتَّبِعُنَّهُ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَزْدَادُوا كُفْرًا ٥٥٩

ومع ذلك حلیم غفور، أي يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم فيؤخر .
وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستر آخرين ويغفر. ولهذا قال تعالى ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٤٢ ﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ٤٣ ﴾

ينحبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم كقوله تعالى ﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ لَوْ أَنْ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ فَكُفُّوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ﴿ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أي ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم . ثم بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ عن اتباع آيات الله ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ أي مكروا بالناس في صدهم بإيائهم عن سبيل الله ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أي لا تغير ولا تبدل بل هي جارية كذلك في كل مكذب، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أي ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ

شَيْءٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا * (٤٤)
وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ
وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِعِبَادِهِ بَصِيرًا * (٤٥)

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بك وبرسالتك ، سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة مكذبي الرسل ، كيف دمرهم الله ، فخلت منهم منازلهم وسلبوا نعيمهم برغم كثرة الأولاد والأموال والعدد والعدد فما أغنى كل ذلك شيئاً ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء ﴿ إنه كان عليماً قديرًا ﴾ عليهم بكل الكائنات قدير على مجموعها . ثم قال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك أهل الأرض وما يملكونه من دواب وأرزاق قال سعيد بن جبير والسدي في قوله تعالى ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب ، ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ ولكن يؤجلهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ ويثيب أو يعاقب كلاً بما يستحق . ولهذا قال تعالى : ﴿ فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ أي يعطي كل ذي حق حقه .

آخر اختصار تفسير سورة فاطر والله الحمد والمنة وهو الموفق وعليه التكلان

(٣٦) سُورَةُ يَسَّ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّانَهَا ثَلَاثُ وَمِائَتُونَ

إِلَّا الْآيَةَ / ٤٥ / فمدنية نزلت بعد سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسَّ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ
الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾
لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

قد تقدم الكلام على الأحرف المقطعة في أول سورة البقرة . ﴿والقرآن الحكيم﴾ أي المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إنك﴾ يا محمد ﴿لمن المرسلين﴾ على صراط مستقيم ﴿أي على منهج ودين قويم وشرع مستقيم﴾ ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ أي هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به تنزيل من رب العالمين رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى : ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ . وقوله تعالى : ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آبائهم فهم غافلون﴾ يعني بهم العرب فإنه ما أتاهم من نذير قبله ^(١) وقوله تعالى : ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿فهم لا يؤمنون﴾ بالله ، ولا يصدقون رسله ^(٢) .

(١) راجع التعليق . سورة سبأ الآية / ٤٤ /

(٢) ليس في هذه الآية الكريمة مفهوماً جبرياً قط وسيحان الله عن ذلك . أما الحتم الوارد في كلام ابن جرير المعزى إلى الله سبحانه وتعالى فالمقصود منه ان الله تعالى حتم عليهم أنهم لا يؤمنون . لأنه علم تعالى =

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَفِي إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ (٨)
 وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا
 يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا
 يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ
 بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى
 وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرُهمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ
 مُبِينٍ ﴿١٢﴾

يقول تعالى : إِنَّا جَعَلْنَا نَسْبَةَ هَؤُلَاءِ الْمُحْتَرَمِ عَلَيْهِمُ بِالشَّقَاءِ كَنَسْبَةِ مَنْ جُعِلَ فِي عُنْقِهِ
 غُلٌّ ، فَجُمِعَ يَدِيهِ مَعَ عُنْقِهِ تَحْتَ ذَقْنِهِ فَارْتَفَعَ رَأْسُهُ فَصَارَ مُقْمَحًا وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿فَهُمْ
 مُقْمَحُونَ﴾ وَالْمَقْمَحُ هُوَ الرَّافِعُ رَأْسَهُ ، كَمَا قَالَتْ أُمُّ زُرْعٍ فِي كَلَامِهَا : وَأَشْرَبَ فَأَتَقْمَحُ ،
 أَيِ أَشْرَبَ فَأَرَوَى وَأَرَفَعَ رَأْسِي تَهْنِئًا وَتَرْوِيًّا . كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً
 إِلَى عُنُقِكَ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّ أَيْدِيَهُمْ مُوثَقَةٌ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْطُطُوا بِخَيْرٍ .
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ عَنِ الْحَقِّ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ عَنِ الْحَقِّ
 أَيْضًا ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أَيِ أَغْشَيْنَا أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْحَقِّ فَلَا يَنْتَفِعُونَ بِخَيْرٍ وَلَا
 يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ أَيِ إِلَى الْإِسْلَامِ . قَالَ عِكْرَمَةُ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ : لَنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا لَأَفْعَلَنَّ
 وَلَا فَعَلَنَّ فَأَنْزَلَتْ : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ قَالَ :
 وَكَانُوا يَقُولُونَ لَهُ : هَذَا مُحَمَّدٌ ، يَقُولُ : أَيْنَ هُوَ أَيْنَ هُوَ ؟ لَا يُبْصِرُهُ . رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ أي قد
 ختم عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الإنذار، ولا يتأثرون به وقد تقدم نظيرها في أول سورة
 البقرة .

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِإِنْذَارِكَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّبِعُونَ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

= منهم أنه ستعرض عليهم دعوة الحق، وسيختارون الكفر على الإيمان، بعد قيام الحجة عليهم من قبل الرسل؛
 أو من سيكونون على قدم الرسل في الحياة الدنيا... أجل علم الله تعالى منهم كل ذلك... وأنهم سيختارون
 الكفر وأنه سيقع منهم فعلا في الحياة الدنيا... فكتب عليهم ما سيفعلونه وقدره . وذلك قبل أن يخلق
 السموات والأرض بخمسين ألف عام، فكل من علم الله منه ذلك وكتبه وقدره عليه، فلا بد فاعله في الدنيا .

﴿ وخشي الرحمن بالغيب ﴾ أي من حيث لا يراه أحد إلا الله تبارك وتعالى ، ويعلم أن الله مطلع عليه ﴿ فبشره بمغفرة ﴾ أي لذنوبه ﴿ وأجر كريم ﴾ أي كبير . كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ ثم قال عز وجل : ﴿ إننا نحن نحيي الموتى ﴾ أي يوم القيامة ، ﴿ ونكتب ما قدموا ﴾ أي من الأعمال . وفي قوله تعالى : ﴿ وآثارهم ﴾ قولان :

الأول : نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التي تركوها من بعدهم : كقوله ﷺ : [من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً] رواه مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي مرفوعاً وفيه قصة : مجتأبي النمار المضربين ، ورواه ابن أبي حاتم عن جرير رضي الله عنه مرفوعاً .

الثاني : أن المراد بذلك : آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية وقد وردت أحاديث في هذا المعنى نورد منها ما تيسر : قال الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك ؛ فقال رسول الله ﷺ : [يا بني سلمة ، دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم] . وهكذا رواه مسلم عن جابر ^(١) .

ولا تنافي بين القولين بل في القول الثاني تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولي والأخرى فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ أي وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ ، والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب . أما كتاب الأعمال فهو الذي تحصى فيه أعمال المكلفين من خير أو شر وهو المعنى في قوله تعالى : ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾

(١) يعني : التزموا دياركم فإن آثار خطاكم إلى المسجد تكتب لكم بعددها حسنات ، وتخط عنكم بعددها سيئات . وفي رواية الترمذي : فلم ينتقلوا ...

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣)
 إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُمُ
 مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ
 شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَهُكُمُ
 لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾

يقول تعالى: ﴿واضرب لهم﴾ أي لقومك الذين كذبوك ﴿مثلاً﴾ أصحاب القرية إذ
 جاءها المرسلون ﴿يقال﴾ إنها مدينة انطاكية وكان بها ملك يعبد الأصنام اسمه انطيوخس ،
 فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل فكذبهم وقد استشكل بعض الأئمة كونها انطاكية
 بما سنذكره بعد تمام القصة ان شاء الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿اذ أرسلنا إليهم اثنين
 فكذبوهما﴾ أي بادروهما بالتكذيب ﴿فعرزنا بثالث﴾ أي شددنا أزرهما برسول ثالث
 ﴿فقالوا﴾ أي لأهل تلك القرية ﴿إنا إليكم مرسلون﴾ أي من ربكم الذي خلقكم بأمركم
 بعبادته وحده لا شريك له. ﴿قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ أي فكيف أوحى إليكم وأنتم
 بشر مثلنا ؟! ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة ، وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة . كما
 أخبر تعالى عنهم : ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا﴾ ؟! أي
 استعجبوا من ذلك ، وفي ذلك آيات عديدة ولذا قال هؤلاء: ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا وما
 أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون﴾ أي
 أجابهم الرسل الثلاثة : الله يعلم أننا رسله إليكم ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام
 ولكنه سينصرنا عليكم. ﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ أي ما علينا إلا إبلاغكم ما أرسلنا
 به إليكم فإن أطعتم فلكم سعادة الدارين وإن عصيتم فعليكم مغبة ذلك .

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ
 مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ
 أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

عندها قال لهم أهل القرية ﴿إنا تطيّرنا بكم﴾ أي تشاء منا بكم فإن أصابنا شر فمن

أجلكم ﴿لئن لم تنتهوا لرجمنكم﴾ بالحجارة ﴿وليمسنكم منا عذاب أليم﴾ أي عقوبة شديدة فقالت لهم رسلهم ﴿طائركم معكم﴾ أي مردود عليكم ﴿أئن ذكركم﴾ أي من أجل أنا ذكرناكم بالحق قابلتمونا بالتهديد والوعيد ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمُ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾﴾

قال ابن اسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن أهل القرية هموا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة ساعياً لينصرهم من قومه ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ أي يحضركم على اتباع رسلهم ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً﴾ أي على إبلاغكم رسالة الله ﴿وهم مهتدون﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾ أي ما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقتني وحده لا شريك له ﴿وإليه ترجعون﴾ أي يوم المعاد ليجزي كلاً بعمله ﴿أأأخذ من دونه آلهة﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿إن يردني الرحمن بضرٍ لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون﴾ أي هذه الآلهة التي تعبدونها لا يملكون من الأمر شيئاً ، فلو أرادني الله تعالى بسوء لاستطيع هذه الآلهة النقاذه ﴿إني إذا لفي ضلالٍ مبين﴾ أي إن أخذتها آلهة من دون الله تعالى . ﴿إني آمنت بربكم﴾ أي يخاطب الرسل : إني آمنت بربكم الذي أرسلكم ﴿فاسمعون﴾ أي اسمعوا ما أقول لتشهدوا لي بما آمنت به من توحيد الله تعالى ، وما اتبعتم عليه من الحق . فلما قال ذلك للرسل عليهم الصلاة والسلام وثب عليه قومه فقتلوه ولم يكن أحد له يمنع عنه . وقال قتادة : جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون فلم يزل يقولها حتى لفظ أنفاسه رضي الله عنه وأرضاه . ﴿قيل﴾ أي قال الله له ﴿أدخل الجنة﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها ، فلما رأى ثوابه ﴿قال يا ليت قومي يعلمون﴾

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٦)
 بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى
 قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ (٢٨) إِنْ
 كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ (٢٩)

قيل « أي قال الله تعالى له : ﴿ ادخل الجنة ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها فلما رأى ما من الله عليه من الثواب العظيم : ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون ﴾ قال ابن عباس : نصح قومه في حياته بقوله : ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ وبعد مماته في قوله : ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ . ومراده : أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من النعم المقيم ، والثواب العظيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحمه الله ورضي عنه كم كان حريصاً على هداية قومه .

روى ابن أبي حاتم عن ابن عمير قال : قال عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه للنبي ﷺ : ٥٩٦ [ابغني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام] فقال رسول الله ﷺ : « إني أخاف أن يقتلوك » فقال : لو وجدوني نائماً لما أيقظوني . فقال له رسول الله ﷺ : « انطلق فانطلق ، فمر على اللات والعزى ، فقال : لأصبحنك غداً بما يسوءك فغضبت ثقيف فقال : يا معشر ثقيف إن اللات لا لات ، وإن العزى لا عزى وأسلموا تسلموا ، يا معشر الأحلاف إن العزى لا عزى وإن اللات لا لات أسلموا تسلموا ، فقال ذلك ثلاث مرات ، فرماه رجل فأصاب أكحله ^(١) فقتله فبلغ رسول الله ﷺ فقال : « هذا مثله كمثل صاحب يس » ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ [

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ﴾ يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضباً منه تبارك وتعالى عليهم ، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه ، ويذكر عز وجل أنه ما أنزل عليهم من أجل إهلاكهم جنداً من الملائكة بل الأمر كان أيسر من ذلك ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ أي فصاح عليهم صائح - قيل جبريل عليه السلام - صيحة واحدة ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ عن آخرهم لم يبق بهم روح تردد في جسد .

(١) الأكحل عرق في الذراع .

قيل ان الرسل الثلاثة رسل المسيح عليه السلام الى بلدة انطاكية وهذا غير صحيح من وجوه :

- ١ - لو كانوا رسلاً للمسيح عليه السلام لقالوا عبارة تناسب انهم مرسلون من قبله .
- ٢ - المعلوم أن أهل انطاكية آمنوا برسل المسيح وهي أول مدينة آمنت بالمسيح بينما ذكر الله أن أهل هذه القرية كذبوا رسله وأنه أهلكتهم بصيحة واحدة أخذتهم
- ٣ - ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وغير واحد من السلف أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين فعلى هذا يتعين أن هذه القرية غير انطاكية كما أطلق ذلك غير واحد من السلف فإن انطاكية لم يعرف أنها أهلكت « في النصرانية ولا قبل ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم .

يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ • (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ • (٣١) وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ • (٣٢)

قال الله تعالى : ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ أي يا حسرتهم على أنفسهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب كيف ضيعوا أمر الله تعالى وفرطوا في جنبه ولكن لا تنفعهم إذ ذاك الحسرات فسوف يلقون العذاب الأليم لأنهم : ﴿ ما يأتيتهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ أي يكذبونه ويسخرون منه ويحسدون ما أرسل به من الحق . ثم قال تعالى : ﴿ ألم يروا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي ألم يتعظوا بمن أهلك قبلهم من المكذبين بالرسل كيف لم يكن لهم إلى الدنيا كرة ولا رجعة . كما قال الله عنهم : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحْيى ﴾ وهم القائلون بالدور من الدهرية وبعودتهم الى الدنيا ثانية فذكرهم بمن خلا من قبلهم هل عادوا ؟ ... فكيف هم يعودون ... ؟ ! ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها . والقيامة هي هذه ليس قبلها قيامة وعودة

إلى الدنيا (١).

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ (٣٤) ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٥) ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦)

يقول تبارك وتعالى : ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ﴾ أي دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿الارض الميتة﴾ أي إذا كانت هامة لا نبات فيها فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء أنبت كل ما فيها. ولهذا قال تعالى : ﴿أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي جعلناه رزقاً لهم ولأنعامهم ﴿وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيون﴾ أي جعلنا فيها أنهاراً سارحةً في أمكنة يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره. وقوله جل وعلا : ﴿وما عملته أيدِيهم﴾ أي غرسوه ونصبوه، وإلاّ ففي الحقيقة ما كان إلاّ رحمة الله تعالى بهم، لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوتهم، ولهذا قال تعالى : ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي فهلاًّ يشكرونه على ما أنعم عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض﴾ أي من زروع وثمار ونبات ﴿ومن أنفسهم﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ﴿ومما لا يعلمون﴾ أي من مخلوقات شتى لا يعرفونها كما قال جلّت عظمتة : ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾

(١) قلت : إن فكرة العودة إلى الدنيا مرة ثانية مع أنها عقيدة الكافرين الأول... ما يزال بين المسلمين من يقول بهذه العودة إلى الدنيا ويجعلون هذا لأوليائهم عندما ينادونهم ويستغيثون بهم لتفريج الكرب !! أفيعتقدون أنهم يحضرون حالاً لنجدتهم في هيات مختلفة ويدعون أنهم يرونهم ويكلمونهم فتأمل يا أخي المسلم كم هو أثر إبليس اللعين في نفوسهم إلى درجة جعلهم يعتقدون بعقيدة الكفار السابقين وهم يظنون أنهم ما يزالون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويقولون : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يقولونها ترداداً من غير فهم بدليل أنهم ينقضونها وهم لا يشعرون وذلك بدعائهم واستغاثتهم بغير الله في أمور لا يكشفها عنهم إلا الله تعالى وإن ما يرونه من الخيالات ما هي إلا الشيطان تمثّل لهم بمن ينادون ليزيدهم طغياناً وتثبيتاً في الشرك نموذجاً بالله من الخذلان وسوء المنقلب اللهم ثبتنا على : «إياك نعبد وإياك نستعين» .

﴿وَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ﴾ (٢٧)
وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿ (٣٨)
وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿ (٣٩) لَا
الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي
فَلَكَ يَسْبَحُونَ ﴿ (٤٠)﴾

يقول تعالى ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة ، خلق الليل والنهار يتعاقبان بالظلام والضياء والمجيء والذهاب . كما قال تعالى : ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ أي نقتطعه منه فيذهب فيقبل الليل ﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ كما جاء في الحديث : ٥٩٧ [إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم] وقوله جل جلاله : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ المراد مستقرها المكاني ، وهو تحت العرش .

روى البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه قال : ٥٩٨ [كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال ﷺ « يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس » قلت : الله ورسوله أعلم قال ﷺ « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش . فذلك قوله تعالى : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾] وقيل : المراد بمستقرها هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف وهو أوجها ثم غاية انخفاضها في الشتاء وهو الخضيض ثم قال جل وعلا : ﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ أي جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضيّ الشهور كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار . كما قال عز وجل : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ وقال تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ فجعل الشمس لها ضوء يخصصها ، والقمر له نور يخصصه ، وفاوت بين سير هذه وهذا فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد ، ولكن تنتقل في مطالعها ومغارها صيفاً وشتاءً ، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار وجعل سلطانها بالنهار فهي كوكب نهاري . وأما القمر فقدرة منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور ، ثم يزداد نورا في الليلة الثانية ويرتفع مترلة . ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً وان كان مقتبساً

من الشمس حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم أي كعنتق التمر اليابس المنحني • ثم بعد هذا يديه الله تعالى جديداً في أول الشهر الآخر وهكذا ... وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ قال المجاهد : لكل منهما حد لا يعده ولا يقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا .

وقوله تعالى : ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ أي لا فترة بين الليل والنهار بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ، لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ يعني الليل والنهار والشمس والقمر كلهم يسبحون أي يدورون في فلك السماء . كفلكة المغزل لا يدور المغزل إلا بها ولا تدور إلا به .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴾ (٤١)
وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿ (٤٤)

يقول تبارك وتعالى : ودلالة لهم أيضاً على قدرته تبارك وتعالى تسخيره البحر ليحمل السفن ، فمن ذلك بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ، التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام غيرهم ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ وآيَةٌ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي آباءهم ﴿ في الفلك المشحون ﴾ أي في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات التي أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين وقال الضحاك وابن زيد : وهي سفينة نوح عليه الصلاة والسلام . وقوله جل وعلا : ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ يعني بذلك الأبل فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها والأنعام جميعاً ^(١) قال ابن عباس هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح عليه السلام على مثلها. وقوله عز وجل : ﴿ وإن نشأ نغرقهم ﴾ يعني الذين في السفن ﴿ فلا

(١) وقد امتن الله تعالى على عباده بأن هداهم إلى عمل العبارات والطيارات وجميع المراكب الآلية .

صريح لهم ﴿ اي لا مغيث لهم ﴾ ولا هم يُنقذون ﴿ أي مما أصابهم ﴾ : ﴿ إلا رحمة منا ﴾ أي لا تنقذون إلا برحمة منا. ولهذا قال تعالى : ﴿ ومتاعاً إلى حين ﴾ أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم عنده عز وجل .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤٥) ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (٤٦) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ انْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٤٧) ﴿

يخبر تعالى عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم ، فقال جل وعلا : ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم ﴾ أي ما بين أيديكم من الذنوب التي تقترفونها وما تستقبلون من العذاب يوم القيامة ﴿ لعلكم ﴾ رجاء أن يغفر لكم باتقائكم ذلك ﴿ ترحمون ﴾ فتأمنون من عذابه ، ولكنهم أعرضوا عن ذلك ولهذا قال عز وجل : ﴿ وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم ﴾ على صدق الرسل بما جاؤا به من عند ربهم ، ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ أي لا يقبلونها ولا ينتفعون بها ﴿ وإذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله ﴾ أي على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿ قال الذين كفروا للذين آمنوا ﴾ من الفقراء أي قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإتفاق محاجين لهم فيما أمرهم به : ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ أي نحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم ﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ أي في أمركم لنا بالإتفاق .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ (٤٩) ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٥٠) ﴿

يخبر تعالى عن استبعاد الكفار لقيام الساعة في قولهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ قال الله عز وجل ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة ، وهذه - والله أعلم -

نفخة الفزع ، ينفخ في الصور نفخة الفزع ، والناس في اسواقهم ومعايشهم يختصمون وينشاجرون على عادتهم ، فبينما هم كذلك إذ أمر الله إسرائيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتها ورفع لينا وهي صفحة العتق يتسمع الصوت من قبل السماء ، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم ولهذا قال تعالى : ﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ أي على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ من أعمالهم وأسواقهم ، ثم يكون بعد هذه النفخة الصعق التي تموت فيها المخلوق ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .



﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلُّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

هذه هي النفخة الثالثة وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث ولهذا قال تعالى : ﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ والنسلان هو المشي السريع كما قال تعالى : ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ قالوا يا ويلنا من بعثنا من من مرقدنا ؟ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم : ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد فيقول المؤمنون منهم مجيبين : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ وقيل تجيئهم الملائكة . وقوله تعالى : ﴿ ان كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ فانما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ أي انما تأمرهم أمراً واحداً ، فإذا الجميع محضرون ﴿ فالיום لا تظلم نفس شيئاً ﴾ أي من عملها ﴿ ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴾ (٥٥) هُمْ

وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ • (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ
وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ • (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ • (٥٨)

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات ، فترلوا في روضات الجنات . ﴿ في شغل فاكهون ﴾ بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم . ﴿ هم وأزواجهم ﴾ أي حلائلهم ﴿ في ظلال ﴾ أي ظلال الأشجار ﴿ على الأرائك ﴾ متكئون ﴿ الأرائك هي السرر في الحجال ^(١) وقوله عز وجل ﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ أي من جميع أنواعها ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ أي فيها كل ما يطلبون من جميع الملاذ . روى ابن أبي حاتم عن أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ﷺ : ٥٩٩ [ألا هل مشمر الى الجنة ؟ فان الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور كلها يتلأأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ونهر مطرد ، وثمره نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سلامة ، وفاكهة خضرة ، وخير ونعمة ، في محلة عالية بهية] قالوا نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها قال ﷺ « قولوا إن شاء الله » فقال القوم : إن شاء الله [

وقوله تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ فان الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة وقيل أنه تعالى وتقدس يحييهم بالسلام .



وَأَمَّا تَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ • (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ
إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ • (٦٠)
وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ • (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ
جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ • (٦٢)

يخبر تعالى عما يؤول إليه الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا أي يفترقوا عن المؤمنين في موقفهم كقوله عز وجل : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يفترقون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ هذا

(١) الحجال جمع حجلة محركة وهي موضع يزين بالثياب والستور للعروس (القاموس) .

تقرير من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتي وهذا هو الصراط المستقيم فخالفتهم أمري وأطعتم الشيطان ولهذا قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا ﴾ أي خلقاً كثيراً ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفما كان لكم عقل لما خالفتم ربكم وعبدتم معه غيره وأطعتم الشيطان وهو عدوكم الظاهر العداوة .

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٦٣) ﴿ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٦٤) ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٦٥) ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَى يُبْصِرُونَ ﴾ (٦٦) ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٦٧) ﴿

يقال للكفار توبيخاً : هذه جهنم التي كنتم تكذبون الرسل بوجودها ، والتي كنتم بها توعدون ذوقوا عذابها وحريقها جزاء كفركم وتكذيبكم ، كيف رأيتم عذابها بل كما وُصِفَتْ لكم ، ﴿ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴿ هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا ويخلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت .

روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ٦٠٠ [كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال ﷺ : « أتدرون مما أضحك » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم قال ﷺ : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : رب ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجزى عليّ إلا شاهداً من نفسي ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه انطقي فتنطق بعمله ، ثم يخلّي بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعداً لكُنْ وسحقاً فعنك كنت أناضل »] . ورواه مسلم والنسائي .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَى

يَصْرُونَ ﴿٦٨﴾ يقول ابن عباس : ولو نشاء لأضللنهم عن الهدى فكيف يهتدون ﴿٦٩﴾ ولو نشاء لمسخنهم على مكانتهم ﴿٧٠﴾ قال ابن عباس : لأهلكناهم وقال الحسن البصري : لأقعدهم على أرجلهم ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿٧١﴾ فما استطاعوا مضياً ﴿٧٢﴾ إلى الأمام ﴿٧٣﴾ ولا يرجعون ﴿٧٤﴾ إلى الوراء بل يلزمون حالاً واحداً لا يتقدمون ولا يتأخرون .

﴿٦٨﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقِّ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رُدَّ إلى الضعف بعد القوة ، والعجز بعد النشاط ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿٧٢﴾ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبةً يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴿٧٣﴾ وقال عز وجل : ﴿٧٤﴾ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴿٧٥﴾ والمراد من هذه - والله أعلم - الأخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار . ولهذا قال عز وجل : ﴿٧٦﴾ أفلا يعقلون ﴿٧٧﴾ أي يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ، ثم صبرورثهم إلى سن الشيبة ، ثم إلى الشيخوخة ، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها وهي الدار الآخرة .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿٧٨﴾ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴿٧٩﴾ يقول عز وجل مخبراً عن نبيه محمد ﷺ أنه ما علمه الشعر ﴿٨٠﴾ وما ينبغي له ﴿٨١﴾ أي ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته . ولهذا أورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم ، بل إن أنشده زحفه أو لم يتمه .

روى البيهقي في الدلائل : ٦٠١ [ان رسول الله ﷺ قال للعباس بن مرداس رضي الله عنه : أنت القاتل : - « أتجعل نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة - » فقال إنما هو بين عيينة والأقرع فقال ﷺ : « الكل سواء »] يعني في المعنى . صلوات الله وسلامه عليه والله أعلم . وروى الأموي في مغازيه : ٦٠٢ [ان رسول الله ﷺ جعل يمشي بين القتل يوم بدر وهو يقول « نفلق هاماً » فيقول الصديق رضي الله عنه متمماً للبيت ، ...

من رجال أعزة * علينا وهم كانوا أعتق وأظلماء] وهذا لبعض شعراء العرب في قصيدة له وهي في الحماسة .

وروى سعيد بن أبي عروبة عن قتادة : ٦٠٣ [قيل لعائشة رضي الله عنها : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت رضي الله عنها : كان أبغض الحديث إليه غير أنه ﷺ كان يتمثل ببيت أخي بني قيس ، فيجعل أوله آخره وآخره أوله . فقال أبو بكر رضي الله عنه : ليس هذا هكذا يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ « إني والله ما أنا بشاعر وما ينبغي لي »] رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وهذا لفظه .

ووقع معه اتفاقاً وبلا قصد قوله يوم حنين وهو راكب بغلته يقدم بها في نخور العدو :

٦٠٤ [« أنا النبي لا كـُـذِبْ أنا ابن عبد المطلب »]

وكذلك ما ثبت في الصحيحين عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : ٦٠٥ [كنّا مع رسول الله ﷺ في غار فنكبت أصبعه فقال ﷺ :

هل أنت إلاّ أصبع دमित وفي سبيل الله ما لقيت]

لكن قالوا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن الشعر وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعراً وما ينبغي له فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ﴿ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة قريش ، ولا كهانة ولا مفتعل ولا سحر يؤثر .

روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : ٦٠٩ [لأن يمتلىء جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً] انفرد به في هذا الوجه وإسناده على شرط الشيخين ولم يخرجاه . على أن الشعر فيه ما هو مشروع وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة وأمثالهم رضي الله عنهم أجمعين ومنه ما فيه حكم ومواعظ ، وآداب كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية ، ومنهم امية ابن أبي الصلت الذي قال فيه رسول الله ﷺ : ٦٠٧ [آمن شعره وكفر قلبه]

وقد روى ابو داود من حديث أبي كعب وبريدة بن الحبيب وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : ٦٠٨ [إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة] ولهذا قال تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ أي وما يصلح له ﴿ إن هو إلاّ

(٣٦- يس -ج ٢٣) : القرآن رحمة للمؤمنين ، وحجة على الكافرين وأنزل للأحياء وللأموات ٥٧٧

ذكر وقرآن مبین ﴿ أي ما هذا الذي علمناه ﴾ ﴿ إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ أي يتن واضح لمن تأمله وتدبره ولهذا قال تعالى : ﴿ لينذر من كان حياً ﴾ ^(١) ﴿ أي لينذر هذا القرآن كل حي ﴾ على وجه الأرض ، كقوله تعالى : ﴿ لأنذرکم به ومن بلغ ﴾ وإنما يتنفع بنذارته من هو حي القلب مستنير البصيرة ﴿ ويحق القول على الكافرين ﴾ أي هو رحمة للمؤمنين وحجة على الكافرين .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ (٧١) ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ (٧٢) ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٧٣) ﴿

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿ فهم لها مالكون ﴾ أي ذليلة لا تمنع منهم ولو كان القطار مائة بعير لسار الجميع بقيادة صغير من بني آدم ﴿ فمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أي منها ما يركبون في الأسفار ويحملون عليه الانتقال إلى سائر الجهات ﴿ ومنها يأكلون ﴾ إذا شاء نَحَرُوا ﴿ ولهم فيها منافع ﴾ أي من أصوافها ، وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴿ ومشارب ﴾ أي من ألبانها ، وأبوا لها لمن يتداوى ونحو ذلك ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره ولا يشركون به غيره ؟

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ (٧٤) ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ ﴾ (٧٥) ﴿ فَلَا يَخْزُوكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٧٦) ﴿

ينكر الله تعالى على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله يتنغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى ، قال الله تعالى : ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ أي لا تقدر الآلهة على نصر عابديها ، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحق وأدحر ، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل .

(١) ليعلم الذين يقرأون القرآن للاموات ، أنه نزل نذارة للأحياء ، وليحيي النفوس الموات .

٥٧٨ هـ (٣٦- يس -ج ٢٣) : أقر الكافر أن الله خلقه من العدم ، وكفر بمعادته من الرمم

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ يعني عند الحساب يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة عند حساب عابديها ، ليكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة عليهم ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ أي تكذيبهم وكفرهم بالله ﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أي نحن نعلم جميع ما هم فيه ، وسنجزئهم وصفهم ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ولا صغيراً ولا كبيراً بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَتَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿ (٨٠) ﴿

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة : ٦٠٩ [جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويندوه في الهواء وهو يقول : يا محمد أترعم ان الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : « نعم يميتك الله تعالى ، ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار] ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ... ﴾ إلى آخرهن

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن العاصي بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ... وذكر الحديث وسواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أو العاصي بن وائل أو فيهما فهي عامة في كل من أنكر البعث ﴿ أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ أي أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة فإن الله ابتداء خلق الإنسان من سلاله من ماء مهين . كما قال عز وجل ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم ﴾ فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته .

وقال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض للأجساد والعظام

الرميمة ، ونسي نفسه ، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحدته ولهذا قال عز وجل : ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ أي يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت .

روى الامام أحمد عن عقبه بن عمرو قال لحذيفة رضي الله عنهما : ٦١٠ [« ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعته ﷺ يقول : « ان رجلاً حضره الموت فلما آيس من الحياة أوصى أهله إذا أنامت فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلاً ، ثم أوقدوا فيه ناراً حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحنشت ، فخذوها فذوقوها فذروها في اليم ففعلوا فجمعه الله تعالى إليه ثم قال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك ، فغفر الله عز وجل له » فقال عمرو : وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك وكان نباشاً] وقد أخرجاه في الصحيحين .

وقوله تعالى : ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وينع ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء قادر على ما يريد لا يمنعه شيء .

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِيرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٨٣)

يخبر تعالى وبنه على قدرته في خلق السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن جميعاً وما بينهما ويرشد إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة كقوله تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقال عز وجل ههنا : ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ أي مثل البشر فيعيدهم كما بدأهم ﴿ بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ أي إنما يأمر بالشيء أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرار أو تأكيد . وروى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : ان رسول الله ﷺ قال : ٦١١ [ان الله تعالى يقول : « يا عبدي

كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستغفروني اغفر لكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ،
إني جواد ما جد واجد أفعل ما أشاء عطائي كلام وعذابي كلام إذا أردت شيئاً فأنمأ أقول
له كن فيكون » [

وقوله تعالى : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ أي تنزيهه
وتقديسه وتبرئته من سوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض وإليه يرجع
الأمر كله ، وله الخلق والأمر وإليه ترجع العباد يوم المعاد فيجازي كل عامل بعمله وهو
العاقل المنعم المتفضل .

ومعنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ ، كقوله عز
وجل ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾
والملك والملكوت واحد في المعنى ، كرحمة ورحموت ، ورهة ورهبوت وجبر
وجبروت ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح
والصحيح الأول ، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

قال أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : ٦١٢ [قمت مع
رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ولا يمر بآية
عذاب إلا وقف وتعوذ قال : ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه : « سبحان ذي الجبروت
والملكوت والكبرياء والعظمة » ثم سجد بقدر قيامه ثم قال في سجوده مثل ذلك ، ثم قام
فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة سورة [ورواه الترمذي في الشمائل والنسائي من حديث
معاوية بن صالح به .

آخر اختصار تفسير سورة يس والله الحمد والمنة والشكر

انتهى المجلد الثالث ويليه المجلد الرابع

فهرس محتويات المجلد الثالث

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة الصفحة

- ١٧ سورة الإسراء مكية نزلت بعد سورة القصص
- ٤ الإسراء والمعراج تكريم الله لعبده ورسوله محمد ، لم ينله رسول قبله
- ٥ إرتقاؤه ﷺ سماء فسماء واجتماعه بالأنبياء ﷺ
- ٦ فرضت الصلاة خمسين ثم خففت إلى خمس
- ٧ لم ير محمد ﷺ ربّه ، والذي دنا فتدلى هو جبريل ﷺ
- ٨ رفع الله لمحمد ﷺ المسجد الأقصى ، وبدأ يصفه لقريش
- ٩ كان المعراج حقيقةً بدناً وروحاً ، بقظة لا مناماً
- ١٠ أدلة الكتاب على أن الاسراء والمعراج وقعا حقيقةً
- ١١ تواتر خبر الإسراء والمعراج
- ١٢ فسد بنو اسرائيل ، فسلط الله عليهم الذل والأسر
- ١٣ القرآن يهدي لأقوم الطرق ، وأوضح السبل ويبشر المؤمنين
- ١٤ إمتنان الله تعالى على عباده بخلق الليل والنهار
- ١٥ يجمع عمل الإنسان في كتاب يكون عليه حسياً
- ١٦ لا يعذب الله أحداً قبل إنذاره برسول ... «إقرأ التعليق»
- ١٧ أحكام في أطفال المشركين والأصم والأحمق والهرم وأهل الفترة

- ١٨ أصبح الأقوال في هؤلاء أنهم مؤجلون إلى الموقف
- ١٩ كذب المشركون أشرف الرسل ، فصاروا أولى ممن سبقهم بالعقوبة
- ٢٠ التفاوت بين درجات أهل الجنة ، وكذلك بين أهل النار
- ٢١ قرن الله عبادته ببرّ الوالدين ، ليعرّف عباده بحقهما الكبير
- ٢٢ يوصي الرسول بالأب مرة ، وبالأُم ثلاثاً لعظم حقها
- ٢٣ لا تبذّر ، وصل الأقرب فالأقرب ، وعِدْ خيراً من لم تُعطه
- ٢٤ من العباد من لا يصلح لهم إلاّ الفقر ، ومنهم من لا يصلحه إلاّ الغنى
- ٢٥ لا تقتل ولدك خشية إطعامه ، ولا تقرب الزنى ولا دواعيه
- ٢٦ لا تقتل النفس ، لا تقرب مال اليتيم ، أوف بالعهد ، والكيل
- ٢٧ لا تتكلم بما لا تعلم ، لا تتبختر بمشيتك ، تواضع لله
- ٢٨ كل السيئات عند الله تعالى مكروهة ، فلا تفعلوا ما يكره
- ٢٩ ما من شيء - حتى الجملادات - إلاّ ويستبح بحمد الله ، حقيقة
- ٣٠ حال الله بينهم وبين فهم القرآن ، جزاء كفرهم جزاءً وفاقاً
- ٣١ ما كفر الكافرون بمحمد ﷺ إلاّ عناداً وحسداً
- ٣٢ لو استحال رفاتكم إلى حجارة أو حديد ، فالله قادر على إعادتكم
- ٣٣ لا يشير المسلم بسلاحه إلى أخيه المسلم
- ٣٤ إذا دلّ الدليل على شيء وجب اتباعه
- ٣٥ الذين تعبدونهم عبدوا الله ، أفلا تعبدون ما يعبدون ؟
- ٣٦ لو أن الصفا صارت ذهباً ولم يؤمنوا ... لاستأصلهم الله
- ٣٧ من اتبع الشيطان فإنه معه في النار
- ٣٨ لو سمى المؤمن عند الجماع ، وقدّر له ولد ، لا يضره الشيطان
- ٣٩ إن كان لا ينفع في البحر غيره ، كذلك لا ينفع في البرّ غيره
- ٤٠ صالحو ذرية آدم أفضل من سائر المخلوقات
- ٤١ الإمام : هو كتاب الأعمال الذي يعطاه العبد يوم القيامة
- ٤٢ عصمة الرسول ﷺ وتثبيته ونصره ، وتمكينه من رقاب أعدائه
- ٤٣ أوقات الصلوات الخمس ، وفضل صلاتي العصر والفجر
- ٤٤ المقام المحمود هو الشفاعة العظمى وهو للرسول الأعظم
- ٤٥ كل الرسل يقولون نفسي نفسي إلاّ الرسول الأعظم فيقول : أمّي

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

- ٤٦ إن الله ليمنع بالسلطان عن الذنوب ما لا يمنع ذلك بالقرآن
- ٤٧ القرآن شفاء للقلوب من الشك والشرك والنفاق والزيف
- ٤٨ استأثر الله بعلمه بماهية الروح
- ٤٩ الإنس والجن لا يطيقون الإتيان بمثل القرآن
- ٥٠ ما جاء به ﷺ ليس للملك أو المال أو الشرف ، إنما هي الرسالة
- ٥١ كلما دعا الرسول قريشاً كلما ازدادوا عناداً وكفراً وصدوداً
- ٥٢ من رحمته تعالى أن بعث في كل قوم رسولاً منهم
- ٥٣ سيحشر الكفار على وجوههم عُماً بكمأ صُماً وماوهم جهنم
- ٥٤ ما شأن بعث الأجساد إلى جانب خلق السموات والأرض ؟!!!
- ٥٥ الآيات والمعجزات من الله خلقاً ويجريها على يد رسوله تأييداً
- ٥٦ نزل القرآن بالحق ، محفوظاً لا زيد فيه ، ولا نقص منه
- ٥٧ ادعوا الله بأي اسم من اسمائه فله الأسماء الحسنى
- ٥٨ ليس لله ولد ولا شريك ولا معين تعالى عن ذلك علواً كبيراً
- ١٨ سورة الكهف مكية نزلت بعد الغاشية
- ٥٩ العشر آيات من أول أواخر الكهف عصمة من الدجال
- ٦٠ القرآن نذارة للكافرين وبشارة للمؤمنين العاملين
- ٦١ يا محمد : لا تأسف على عدم إيمانهم ، بل تابع دعوتك
- ٦٢ ليس أمر أصحاب الكهف عجباً بالنسبة لقدرته تعالى
- ٦٣ الشباب أقبل للحق من الشيوخ الذين انغمسوا في الباطل
- ٦٤ تعارف أصحاب الكهف بالإيمان الذي جمع قلوبهم على الهدى
- ٦٥ لا تشرع العزلة إلا عند وقوع الفتن بين الناس
- ٦٦ ناموا مفتحة أعينهم ، من رآهم يتلى منهم رعباً
- ٦٧ رقدة أهل الكهف دامت (٣٠٩/ سنة قمرية أو / ٣٠٠ / شمسية والله تعالى أعلم
- ٦٨ قصة أهل الكهف دليل على البعث والنشور
- ٦٩ حذر الرسول ﷺ من اتخاذ القبور مساجد ولعن فاعل ذلك
- ٧٠ إذا نسيت أن تقول إن شاء الله فقلها متى تذكرت
- ٧١ أمر الله نبيه ﷺ أن يجلس مع الضعفاء ودينهم منه
- ٧٢ لا تطع الكافرين في طرد المسلمين الضعفاء من مجلسك

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

٧٣	يغاث الكافرون بالمهل ، ويرفل المؤمنون في حلل السندس
٧٤	إذا استدرج الله الكافر بكثرة الرزق فلا يظن هذا كرامة له ؟!!!
٧٥	مردود حسن ظن المؤمن بربه تعالى ، خير من المال والولد
٧٦	إذا وقع العذاب يستوي المؤمن والكافر في مولاة الله
٧٧	التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير هن الباقيات الصالحات
٧٨	تُجمع الذنوب على الرجل يوم القيامة كما تجمع ركام الخطب
٧٩	ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين وإنه لأصل الجن
٨٠	يفرق الله بين المشركين وآلهم يوم القيامة
٨١	توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه ، عذاب ناجز
٨٢	جزاء الإعراض عن الحق ، الحيلولة دون تفهمه جزاءً وفاقاً
٨٣	مشروعية السفر المتعب لطلب العلم
٨٤	عتب الله على موسى لأنه لم يرد العلم إليه سبحانه
٨٥	ثبت أن موسى الخضر هو موسى صاحب بني اسرائيل
٨٦	وعد موسى الخضر أن يصبر عليه لا يعصي له أمراً
٨٧	لم يصبر موسى على كل ما فعله الخضر فحصلت المفارقة
٨٨	تفسير الخضر لموسى الأمور التي لم يستطع عليها صبراً
٨٩	الخضر نبي ﷺ وتوفاه الله في حينه ، وأخبار حياته موضوعة !
٩٠	ذو القرنين ملك مؤمن موحد أوتي ملكاً عظيماً
٩١	دعا ذو القرنين إلى الله تعالى في فتوحاته الغربية
٩٢	ودعا إلى الله وتوحيده تعالى في فتوحاته الشرقية
٩٣	ثم بنى سدّاً عظيماً بين يأجوج ومأجوج وبلاد الترك
٩٤	لانتقم إسرائيل الصور ، وحنى جبهته ، واستمع متى يؤمر ؟
٩٥	الضالون هم الأخسرون أعمالاً ويحسبون أنهم على حق
٩٦	كلام الله أجل وأعلى وأمنع من أن يحصى
٩٧	من كان يؤمن بالآخرة فليعمل لها ، ولا يشرك به أحداً
٩٨	١٩ سورة مريم مكية نزلت بعد سورة فاطر
٩٩	دعا زكريا ربه أن يهبه ولداً رضيعاً وارثاً نبياً
١٠٠	من خلقك من العدم، قادر أن يهلك مولوداً رغم الهرم

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

- ١٠١ يوصي الله يحيى بالتوراة ، وبرّ والديه ، ويلقي عليه أماناً منه .
- ١٠٢ وجود الرزق عند مريم لإثبات لوجود الكرامات .
- ١٠٣ هبّ على الله تعالى أن يخلق مولوداً من غير أب .
- ١٠٤ مدة حمل مريم بعيسى تسعة أشهر كالمعتاد .
- ١٠٥ هزّت مريم جذع النخلة اليابس فأفرغ وتساقط عليها رطباً جنيّاً .
- ١٠٦ تكلم عيسى في المهد ، أثبت عبوديته ، وبرأ أمّه مريم العذراء .
- ١٠٧ ليس عيسى الله ، ولا ابنه ، ولا ثالث ثلاثة . بل عبده ورسوله .
- ١٠٨ مات الموت فالحياة خالدة في الجنة والنار .
- ١٠٩ نهي إبراهيم أباه عن عبادة الأصنام .
- ١١٠ صدود أبي إبراهيم عن الحق الذي دعاه إليه .
- ١١١ إعتزال إبراهيم أباه وقومه — شفع موسى بها روى فكان نبياً .
- ١١٢ كان إسماعيل صادق الوعد آمراً أهله بالصلاة والزكاة .
- ١١٣ الأنبياء قدوة البشر في جميع أعمالهم .
- ١١٤ من أضاع الصلاة فهو لسواها أضيع . ومن إضاعته إضاعة مواقيتها .
- ١١٥ من تاب وأتاب فله الجنة ولا يظلم شيئاً .
- ١١٦ الجنة منازل الأتقياء . سلام ونور ، ونعيم خالد .
- ١١٧ من خلق الخلق من عدم ، ألا يعيده من وجود ؟ ! وهو أهون عليه .
- ١١٨ تدخل الخلائق النار ، فتكون برّداً على المؤمنين وجحيماً على الكافرين .
- ١١٩ يخرج من النار من كان في قلبه أدنى ذرة من إيمان .
- ١٢٠ سيعلم الكافرون في الآخرة أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديّاً .
- ١٢١ كلاً . . . سنسلبه ماله وولده ويأتينا فرداً .
- ١٢٢ الكافرون المؤمنون النجاة بأهنتهم ، يُصبحون عليهم ضدّاً .
- ١٢٣ المؤمنون يحشرون إلى الجنة على ركائب من نور ، رحائلها الذهب .
- ١٢٤ الإنكار على من زعم أن لله ولداً سبحانه وتعالى .
- ١٢٥ إذا أحب الله عبداً أمر جبريل بحبه وأن ينادي الناس : أحبّوه .
- ١٢٦ يسّر الله القرآن باللسان العربي المبين .

٢٠ - سورة طه مكية نزلت بعد سورة مريم

- القرآن لا يشقى تابعه لأنه يقوده إلى الجنة ١٢٧
- السرُّ : ما أسرّته في نفسك ، والأخفى : ما لم تعلمه بعد ١٢٨
- لا إله إلا الله : أول واجب على المكلفين أن يعلموه ١٢٩
- عصا موسى عندما ألقاها انقلبت إلى ثعبان كبير هائل عظيم ١٣٠
- معجزتا العصا واليد طمانتا موسى بحقيقة لقائه مع الله ١٣١
- أجيب سؤل موسى بحل عقدة لسانه ، وإرسال هارون نبياً معه ١٣٢
- ذكر من الله على موسى ، وأولها نجاته من ذبح فرعون ١٣٣
- تحريم المراضع عليه إلا أمه وردة إليها ١٣٤
- قتله القبطي ، فراره ، زواجه ، نبوته ، دعوته لفرعون ، إيمان السحرة ١٣٥
- غرق فرعون ، الميقات ، عبادة اليهود للعجل ، قتل أنفسهم ، التيه ١٣٦
- يوصي الله الدعاة إليه : باللين والملاطفة والرفق ١٣٧
- الله فوق سبع سمواته حقيقة بلا كيف ، وهو مع خلقه بصفاته ١٣٨
- ذكر موسى فرعون بنعم ربه ، ولكنه أثر الكفر على الشكر ١٣٩
- أنكر فرعون معجزتي العصا واليد وتواعدا يوم الزينة ضحى ١٤٠
- أنذر موسى السحرة ، ألا يفترّوا على الله كذباً بسحرهم ١٤١
- ملأ السحرة الوادي حيات تسعى وعصا موسى تبتلع ما يأفكون ١٤٢
- الله أكبر !! كانوا أول النهار سحرة ، وفي آخره شهداء بررة !!! ١٤٣
- الكافر لا يموت فيها ولا يحيا ، والمؤمن له الدرجات العلى ١٤٤
- من مستقر البحار إلى قرار النار ، فبش المستقر وبش القرار ١٤٥
- أمر الرسول ﷺ بصوم عاشوراء فالمسلمون أولى بموسى ﷺ من اليهود ١٤٦
- بدلاً من أن يشكر اليهود الله على نعمه ، عبدوا العجل ... !!! ١٤٧
- تورّع اليهود عن الأمر الحقير ، واقتروا الذنب الكبير ١٤٨
- نوم موسى لهارون على ما وقع من شرك قومه ١٤٩
- أحرق موسى العجل ، ونسف ذراته في اليم ١٥٠
- من أعرض عن القرآن شقي في الدنيا ، وخالد في النار في الآخرة ١٥١
- يتبع الناس يوم القيامة الداعي مسرعين خائفين ١٥٢

- ١٥٣ الخيبة والخسران لمن يلقي الله مشركاً به ،
 ١٥٤ حذر الله آدم من إغواء الشيطان له فوق فيما حذرَّه منه .
 ١٥٥ توبة آدم وتلقيه من ربه كلمات فتاب عليه . راجع التعليق على الصفحة /٤٥/ المجلد الأول
 ١٥٦ من أعرض عن آيات الله في الدنيا ، أعرض عنه في الآخرة .
 ١٥٧ ألم يتعظ الكفار برؤيتهم مساكن الكفار قبلهم .
 ١٥٨ من تفرغ لعبادة الله ملاً صدره غنى وسد فقره .
 ١٥٩ لرسول الله ﷺ معجزات لا تحصر أعظمها هذا القرآن المبين .

٢١ - الأنبياء نزلت بعد سورة إبراهيم

- ١٦٠ القرآن محدث التنزيل ، وكونه كلام الله صفة له غير مخلوق .
 ١٦١ المشركون يتحيرّون ، يصفون القرآن سحراً ، وتارة شعراً ، وطوراً مفترى .
 ١٦٢ سلوا علماء اليهود والنصارى ، أكان أنبيأؤهم بشراً أم ملائكة ؟
 ١٦٣ التوبة تنفع قبل الموت - وسبحان الله عن الولد والصاحبة .
 ١٦٤ هل آلهتهم تحيي الموتى ، حتى جعلوها أنداداً لله ؟!!!
 ١٦٥ جميع رسالات الأنبياء دعت إلى (لا إله إلا الله)
 ١٦٦ كانت الأرض والسماوات متصلتين فانفصلتا وجعل الماء أصلاً لكل حي .
 ١٦٧ الخضر ﷺ ميت . بدليل : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد)
 ١٦٨ سبى الكافرون جزاء استهزأهم وتكذيبهم .
 ١٦٩ آلهتهم عاجزة عن حماية نفسها ، فكيف تستطيع حمايتهم .
 ١٧٠ يعترف الكافرون بظلمهم وكفرهم يوم لا ينفعهم ذلك .
 ١٧١ كلمة التوحيد ترجع في الميزان على الذنوب جميعاً .
 ١٧٢ كسب الله واحدة في مبادئها وغاياتها لأن منزلها واحد سبحانه .
 ١٦٣ أمر إبراهيم قومه بنذر الأصنام ، وعبادة الرحمن .
 ١٧٤ إبراهيم يتدرج بقومه ليعترفوا بعدم أهلية الأصنام للعبادة .
 ١٧٥ نساء الأنبياء معصومات من الزنى بعصمة الله تبعاً لأزواجهن .
 ١٧٦ صارت النار برداً وسلاماً على إبراهيم بإذن الله وأمره .
 ١٧٧ هجرة إبراهيم وسارة ثم لوط ، إلى فلسطين ونبوة لوط .
 ١٧٨ كذب قوم نوح نوحاً فأغرقهم الله أجمعين بدعائه .
 ١٧٩ صحح الله حكم داود بما أفهمه لسليمان من الحكم .

١٨٠	الآن الله الحديد لداود ، وسخر الريخ والشياطين لسليمان
١٨١	إبتلاء أيوب والأنبياء أشد الناس بلاءً
١٨٢	ذو الكفل مختلف في نبوته والظاهر أنه نبي ﷺ
١٨٣	(لن نقدر عليه) من التقدير لا من القدرة
١٨٤	دعاء يونس وإن كان له خاصة فإنه كذلك لعامة المؤمنين
١٨٥	قصة زكريا عجيبة ولكن قصة مريم أعجب
١٨٦	أيام الدجال أربعون : يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة و
١٨٧	خروج يأجوج ومأجوج قبيل يوم القيامة
١٨٨	الكفار ومعبوداتهم في النار ، إلا من عبد بدون رضا
١٨٩	من ابتداء الخلق من عدم ، أقدر على إعادته من وجود
١٩٠	تعهد الله للصالحين بوراثة الأرض في الدارين
١٩١	محمد رسول الله رحمة مهداة للعالمين
١٩٢	أعلموا الأعداء قبل البدء بالحرب بأنكم ستحاربونهم

٢٢ - سورة الحج نزلت بعد سورة النور

١٩٣	إن زلزلة الساعة تذهل الأم عن رضيعها من الفزع الأكبر
١٩٤	القيامة : أمر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق مفزع ، وحادث هائل
١٩٥	من يتولّى الشيطان بضلّ في الدنيا ، ويزديه جهنم في الآخرة
١٩٦	تطوّر خلق الإنسان والنبات دليل من الله على القدرة والبعث
١٩٧	العذاب في الدارين لمن يجادل بلا علم بل بالرأي والهوى
١٩٨	يعبد الله على حرف : إن انتفع بقي مسلماً وإلا كفر
١٩٩	من يغیظه إنتصار محمد ودينه فليأخذ حبلاً وليخنق نفسه
٢٠٠	كل مخلوق في السموات والأرض يسجد لله تعالى
٢٠١	فصّلت للكفار ثياب من نار ، والحميم يصهر رؤوسهم إلى الأقدام
٢٠٢	ولباس المؤمنين في الجنة ، سندس واستبرق وحليتهم الذهب واللؤلؤ
٢٠٣	أي عمل سيء في الحرم ، عقابه بما يناسب حرمة الحرم
٢٠٤	على إبراهيم النداء بالحج ، وعلى الله تعالى البلاغ
٢٠٥	في الحج منافع أخروية كالمغفرة ، ودنيوية كالتجارة وغيرها
٢٠٦	الأيام المعلومات والمعدودات هن : يوم النحر وثلاثة بعده

عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله !	٢٠٧
مثل المشرك كالهواوي من السماء تقطعه الطير — استسمان البُدن	٢٠٨
الأوصاف التي يجب أن تتوفر بالهدي والأصياحي	٢٠٩
المخبتون : الخائفة قلوبهم ، الصابرون المصلون المنفقون	٢١٠
تذبح البدنة أو البقرة عن سبعة ، قائمة معقولة يسراها	٢١١
تقسم الأضحية ثلاثاً : ثلث لصاحبها ، وثلث يدخره ، وثلث يتصدق به	٢١٢
النحر بعد الصلاة ، ما يجزي من الإبل والبقرة والمعز والضأن	٢١٣
لا ينصر الله ولا يدافع إلا عما ينصر دينه ويعلي كلمته	٢١٤
الإذن بالجهاد — واجب الحاكم وماله وما عليه	٢١٥
لئن كذبتك يا محمد فلقد كذب الأنبياء قبلك	٢١٦
يستعجلون بالعذاب والله تعالى يمهّل ولا يمهّل	٢١٧
العذاب المقيم للمقيمين على الكفر ، والمغفرة والرزق الكريم للذين آمنوا	٢١٨
قصة الغرائق وضعها الزنادقة تحت إشراف الشيطان الرجيم	٢١٩
الرسول معصوم من إمكانية إدخال الشيطان عليه غير كلام الله	٢٢٠
لا تأت الساعة إلا فجأة ، وفي أوج اغترار الناس بالنعمة	٢٢١
القتيل في سبيل الله ، ومن مات مهاجراً إلى الله ... سيان	٢٢٢
الله تعالى السميع البصير هو الحق ، وما يدعى سواه الباطل	٢٢٣
كيف تعبدون غيره وهو الذي خلق ورزق وأمات وأحيا !!! ؟	٢٢٤
علم الله قبل الخلق ، من سيطيع باختياره ومن سيعصى باختياره	٢٢٥
سيعذب الله المشركين ، بأعظم مما عذبوا به المؤمنين	٢٢٦
إن معبوداتكم أضعف من أن تسترجع شيئاً مما سلبها الذباب	٢٢٧
فضلت سورة الحج بسجديتين — ليس في تكاليف الدين من حرج	٢٢٨
أمة محمد تشهد للأنبياء جميعاً أنهم بلغوا رسالات ربهم !	٢٢٩

٢٣ — سورة المؤمنون مكية نزلت بعد سورة الأنبياء

كان خلقُ النبي ﷺ في الصفات الواردة في (قد أفلح المؤمنون)	٢٣٠
وراثته الفردوس : بالإيمان ، والصلاة والزكاة ، وترك اللغو وحفظ الفرج	٢٣١
فكأك كل مسلم من النار ، يهودي أو نصراني	٢٣٢
مراحل خلق الإنسان ثم موته ثم بعثه	٢٣٣

٢٣٤	خلق الله السموات والأرض ويعلم كل حركة فيهما
٢٣٥	نعمة الله على عباده بالمطر ، وبالجواري في البر والبحر والقضاء
٢٣٦	استعظم قوم نوح أن يكون الأنبياء من البشر
٢٣٧	أهله : من آمن به لا من كفر ، ولو كان ابنه
٢٣٨	قوم عاد أنكروا البعث وكذبوا الرسول
٢٣٩	كلما أرسل الله رسولا للكفار استهزأوا به وكذبوه
٢٤٠	الأنبياء في صغرهم يرعون الغنم ، وفي كبرهم يرعون الأمم
٢٤١	أيحسب الكافرون أن عطاء الله لكرامتهم عليه ؟ كلا
٢٤٢	المؤمنون الموحدون الشاكرون المنفقون الخائفون ، هم السابقون إلى الخيرات
٢٤٣	يفتخر المشركون بعمارة البيت ، ويكفرون برب البيت !!!
٢٤٤	علم الله من الكافرين أنهم لا يؤمنون
٢٤٥	أرسل الله على قريش سبعاً كسب يوسف حتى أكلوا العلهز (الوبر ممزوجاً مع الدّم)
٢٤٦	يعترفون بأن الله هو الخالق ، إنما يتوسلون بصالحهم زلفى إليه
٢٤٧	لا جوار بوجود جوار سيد القوم ، فكيف بجوار سيد العالمين
٢٤٨	إصبر يا محمد وادفع السيئة بالحسنة
٢٤٩	وليفترض أحدكم أنه احتضر ، وطلب الرجعة فأرجع ... فليعمل بطاعة الله
٢٥٠	الفلاح بالأعمال لا بالأنساب
٢٥١	لا رجعة لأحد ما بعد الموت ، مؤمناً كان أو كافراً
٢٥٢	إذا طلب الكفار الرجعة ، قال الله : إخشأوا فيها ولا تكلمون
٢٥٣	ما خلق الله الخلق عبثاً ... إنما للعبادة
٢٥٤	الدعاء هو العبادة ، فمن دعا غير الله فقد كفر وأشرك

٢٤ - سورة النور مدنيّة نزلت بعد سورة الحشر

٢٥٥	الزاني البكر جلد مئة وتغريب عام
٢٥٦	الزاني المحصن الحر البالغ العاقل ، يرحم
٢٥٧	لا تأخذكم الرأفة في الحد ولينفذ علانية بين الناس
٢٥٨	حرام على المؤمن أن ينكح زانية ، والمؤمنة أن ينكحها زان
٢٥٩	القاذف يجلد ثمانين جلدة ، وتردّ شهادته ويحكم بنفسه إلا أن يتوب
٢٦٠	كيفية اللعان ، بين الزوج والزوجة

- ٢٦١ المتلاعنان يفرق بينهما
- ٢٦٢ فتشت عائشة (رض) عن عقد أضاعته ، فقاتها العسكر
- ٢٦٣ لئلهما المنافقون بصفوان — تحقيق رسول الله ﷺ
- ٢٦٤ إن برأت نفسي لا تصدقوني. وإن اتهمتها يعلم الله ببراءتي
- ٢٦٥ برأ الله عائشة بعشر آيات من فوق سبع سمواته
- ٢٦٦ لكل امرئ ممن رمى عائشة نصيبه من الإثم
- ٢٦٧ أتخسبون الخوض في ما لا علم لكم به هيناً ... !!؟
- ٢٦٨ المؤمن أخو المؤمن لا يحب أن يشيع عنه الفاحشة
- ٢٦٩ لا تتبعوا خطوات الشيطان وخاصة برمي المحصنات الغافلات
- ٢٧٠ لا تحولوا بالخلف دون منفعة عامة من أجل إساءة خاصة
- ٢٧١ الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ملعونون في الدارين
- ٢٧٢ لو كانت عائشة خبيثة لما صلحت لرسول الله شرعاً ولا قدراً
- ٢٧٣ لا يقف المستأذن لقاء الباب ولكن يمينا أو شمالاً — ولا يقل أنا أنا
- ٢٧٤ لا يدخل البيت إذا لم يكن فيه أحد
- ٢٧٥ على المؤمن أن يغض بصره عن النساء
- ٢٧٦ وعلى المؤمنات أن يغضن أبصارهن عن الرجال
- ٢٧٧ وأن لا يتكشفن أمام الكتابيات والمشركات
- ٢٧٨ لا بأس من دخول الأطفال الخدم الذين لا شهوة لهم
- ٢٧٩ منع الله كل امرأة أن تُنبّه الرجال إلى زيتها بأية واسطة
- ٢٨٠ الأمر بالزواج والتكاثر ، وبالعفة عند فقدانه ، وبمكاتبة الرقيق
- ٢٨١ أعينوا الرقيق على التحرر بالمكاتبة ، ولا تُكروهوا الإمامة على البغاء
- ٢٨٢ الله هادي السموات والأرض ونوره هو الهدى
- ٢٨٣ نور إيمان العبد ونور عمله (نور على نور)
- ٢٨٤ مثل القلوب الشفافة بهدي الله ، كالقناديل تتلألأ في بيوت الله
- ٢٨٥ المساجد لا تُزخرف ولا يبتاع فيها ، ولا ينشد عن الضلالة
- ٢٨٦ صلاة الرجال في المساجد أفضل ، وصلاة النساء في البيوت أفضل
- ٢٨٧ الكفار القدوة ... أعمالهم كسراب جعلها الله هباءً منثورا
- ٢٨٨ أما الكفار المقلدة ... فهم ضالّون لا يدرون إلى أين يذهبون

٢٨٩	كل مخلوق في السموات والأرض وما بينهما يسبح الله تعالى
٢٩٠	قدرة الله ظاهرة في مخلوقاته المتنوعة
٢٩١	دليل الإيمان بالله ورسوله طاعتهما ، والتولي عنهما كفر ونفاق
٢٩٢	إطيعوا رسول الله تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ
٢٩٣	أنجز الله وعده للمؤمنين بالفتح والاستخلاف والتمكين
٢٩٤	على عباد الله ألا يشركوا بالله ، وعلى الله ألا يعذبهم
٢٩٥	الظائفة المنصورة هم المتبعون رسول الله ﷺ فيما أمر
٢٩٦	ليستأذنكم الأطفال والخدم ، في الفجر والظهر والعشاء
٢٩٧	إباحة الأكل من بيت الأبوين والإبن والسيد والأعمام والأخوال
٢٩٨	السلام على الأهل ، وعلى النفس عند دخول البيوت الخالية
٢٩٩	السلام عند الدخول ، والسلام عند الخروج
٣٠٠	التحذير الشديد من مخالفة أمر رسول الله ﷺ
٣٠١	يعرض على الإنسان كتاب عمله يوم القيامة

٢٥ - سورة الفرقان مكية نزلت بعد سورة يس

٣٠٢	القرآن أنزله الله نذيراً للعالمين
٣٠٣	الله خالق السموات والأرض ، واتخذ الكفار من مخلوقاته آلهة ؟ !!!
٣٠٤	يفترون على رسول الله الكذب ، ومتيقنون بأنه الصادق الأمين
٣٠٥	يريدون أن تنزل ملائكة من السماء يشهدون بصدقه
٣٠٦	أحال الأشقياء في جهنم خير ، أم حال المتقين في النعيم ؟ !!
٣٠٧	يتبرأ يوم القيامة المعبودون من العابدين
٣٠٨	كل الأنبياء والرسل بشر يأكلون ، ويمشون بين الناس
٣٠٩	أهل الجنة يقيلون مع الحور العين ، وأهل النار مع الشياطين
٣١٠	يتمنى الكفار يوم القيامة لو كانوا أتبعوا الرسل
٣١١	من يخلص باتباع الرسول لن يستطيع أحد صدّه عن ذلك
٣١٢	تنزيل القرآن منجماً حسب الوقائع تثبّت للقلوب وتمكين لها
٣١٣	ذكر أخبار الأمم الخالية للعظة والتذكر والاعتبار
٣١٤	يستخفون بالرسول ﷺ ويعلمون أنه أسماهم خلقاً وأعلاهم شرفاً
٣١٥	ذكر نعم الله تعالى وقدرته على الخلق والإيجاد

٣١٦	الامر بالجهاد بالقرآن ، ثم بالسلاح جهاداً غليظاً
٣١٧	الرسول ﷺ بشير للمؤمنين بالجنة ونذير للكافرين من النار
٣١٨	ما وافق سنته ﷺ فهو الحق ، وما خالفها فهو الباطل
٣١٩	يمجد الله وتبارك وتعالى على بديع صنعه وعظيم خلقه
٣٢٠	ذكر صفات عباد الرحمن لمعرفة الإقضاء والتخلُّق بها ، والعمل بموجبها
٣٢١	أعظم الذنوب الشرك ، ثم قتل الولد ، ثم الزني بحليلة الجار
٣٢٢	الله يقبل التوبة مهما عظمت ، ويبدل السيئات حسنات
٣٢٣	المؤمن لا يشهد مجالس الزور ، بصير بآيات ربه فهماً وتطبيقاً
٣٢٤	ويستوهب الله ذريةً أئمةً للناس في الحق والخير والهدى
٣٢٥	من كانت هذه صفاتهم يُجزَّون غرف الجنات خالدين فيها أبداً

٢٦ - سورة الشعراء مكية نزلت بعد سورة الواقعة

٣٢٦	يسلي الله نبيه بالآل يهلك نفسه حرصاً على هداهم
٣٢٧	سيحيق بالكافرين عذاب ما كانوا به يُكذِّبون
٣٢٨	أعان الله موسى بهارون وطمانهما بأنه معهما بسمعه وبصره
٣٢٩	إدعى فرعون الربوبية والألوهية فكذَّبه موسى ﷺ
٣٣٠	كفر فرعون بالمعجزتين وحشر السحرة لمبارزة موسى ﷺ
٣٣١	كفر السحرة بفرعون ، وآمنوا وسجدوا للرب العالمين
٣٣٢	فرعون يقطع أوصال السحرة ، وهم يرددون : إنا إلى ربنا لمنقلبون
٣٣٣	سرى موسى بقومه بني اسرائيل من مصر إلى حيث أمر
٣٣٤	نجاة موسى وبني اسرائيل وغرق فرعون وقومه وكذلك نهاية الظالمين
٣٣٥	قال ابراهيم ، لقومه ، إني عدوٌّ لأصنامكم ولا أخافها
٣٣٦	الله وحده يخلق ويهدي ويطمع ويمرض ويشفي ويميت ويحيي ويفقر ويغني
٣٣٧	لا يجوز الاستغفار لمن مات مشركاً ولو كان أباً أو أمّاً
٣٣٨	المجرمون المتجبرون في كل زمان هم الضالُّون المضلُّون
٣٣٩	يريد المتجبرون أن يُستبعدَ المستضعفون حتى يؤمنوا
٣٤٠	دعا نوح على قومه فاستجيب دعوته ، فأغرقوا إلا المؤمنين
٣٤١	كذبت عاد هوداً برغم نعم الله التي غمرتهم
٣٤٢	كانت عاد أعنى شيء فأرسلت عليهم ريحاً أعنى منهم

٣٤٣	النبي أو المصلح لا يسأل الناس أجراً ، إنما أجره على الله
٣٤٤	طلبوا إخراج ناقة من الصخرة فأخرجها الله فعقروها فأبادهم
٣٤٥	قوم لوط مشركون ويأتون الذكور دون النساء فأهلكهم الله
٣٤٦	قوم شعيب مشركون ، ويخسرون الكيل والميزان
٣٤٧	أهلك الله قوم شعيب بعذاب يوم الظلة
٣٤٨	القرآن عربي ، لينذر المشركين بأس الله ونقمته ، ويبشّر المؤمنين
٣٤٩	ثبت الله في قلوب المشركين التكذيب والحدود جزاءً وفاقاً
٣٥٠	الشياطين معزولون عن التدخل بالقرآن والنبي ﷺ معصوم منهم
٣٥١	لما نزلت : (وأنذر عشيرتك الأقربين) جمع قومه وبلغهم رسالة الله
٣٥٢	تنزل الشياطين على المشعوذين دعاة استطلاع علم الغيب الأفّاكين الآثمين
٣٥٣	الآية تعني الشعراء الكفار ، الذين يذكرون الحمرة والقيان والهجاء في أشعارهم
٣٥٤	استثنى الله الشعراء المؤمنين المدافعين عن الإسلام كحسان وغيره

٢٧ - سورة النمل مكية نزلت بعد سورة الشعراء

٣٥٥	القرآن هدى للمؤمنين وشفاء من الأمراض القلبية كالشرك وغيره
٣٥٦	النار تنوقد في الشجرة الخضراء ولا تزداد إلا اخضراراً
٣٥٧	المعجزة والكرامة تأتيان فجأة والدليل خوف موسى وهربه
٣٥٨	كلما رأى الكفار معجزة جحدوها استكباراً عن اتباع الحق
٣٥٩	ملك سليمان الإنس والجن وعلم منطق الطير والحيوان
٣٦٠	أنبا الهدد سليمان نبأ سبأ وملكتهم بلقيس باليمن
٣٦١	كانت بلقيس هي وقومها يعبدون الشمس ويدرون خالقها وكل شيء
٣٦٢	وصول كتاب سليمان إلى بلقيس وقومها يدعوهم فيه إلى الإسلام
٣٦٣	هادوه فأبى إلا الإسلام أو الحرب فساروا إليه مدعين
٣٦٤	قال : سليمان مَن يأتيني بعرشها ؟ قال العفريت : أنا ... وقبل قيامك
٣٦٥	فأجابه سليمان : بئنا آت به ... قبل ارتداد طرفك !! فإذا العرش مائل !
٣٦٦	دعا سليمان بلقيس وقومها إلى الإسلام فأسلمت وأسلموا
٣٦٧	قوم ثمود يتطيرون بصالح وأتباعه وينسبون السوء إليهم
٣٦٨	زوجة النبي معصومة من الزنى ولو كانت كافرة تكرمة له
٣٦٩	انفرد الله بخلقكم ورزقكم ، ثم تعبدون سواه ... ؟ !!!

- يا من* تقرّون لله بخلق السموات والأرض ... أيعبد معه غيره ؟! ٣٧٠
- أنا رسول الذي يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء ٣٧١
- إن كنتم على حق فيما تشركون فهااتوا برهانكم ٣٧٢
- كذبوا بالبعث فلينظروا آثار ما حلّ بالمكذّبين ، وكيف نجّى المؤمنين ٣٧٣
- يسخ الله نعمه على عباده ، ولا يشكره عليها إلاّ القليل ٣٧٤
- الكفار كالمتى لا يسمعون - من علامات الساعة خروج دابة تكلم الناس ٣٧٥
- يوم القيامة لا ينطق الكافر ولا يؤذن له فيعتذر ٣٧٦
- لا تقوم الساعة إلاّ على أشرار الناس لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ٣٧٧
- نفخات الصور ثلاث : نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة البعث ٣٧٨
- من يهتدي ينقذ نفسه ، ومن يضلّ يردّها النار ٣٧٩
- لو كان الله غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والحدّلة والذرة ٣٨٠

٢٨ - سورة القصص مكية نزلت بعد سورة النمل

- الحكام الظالمون يفرّقون الأمة ويجعلونها شيعاً ٣٨١
- ألهمّ الله أمّ موسى أن تلقى ابنها في اليمّ ضمن تابوت ٣٨٢
- شفعت امرأة فرعون بموسى الوليد كيلا يقتله فرعون ٣٨٣
- أرجع الله إلى أم موسى وليدها ، ترضعه وتأخذ أجره ! ٣٨٤
- لا تقيسوا استغاثة العادة على استغاثة العباداة وفرّقوا بينهما ففعلوا ٣٨٥
- أخبر موسى بقصد فرعون للقبض عليه وقتله بالقبطي الذي قتله ٣٨٦
- هرب موسى إلى مدين ، وأعان ابنتي شعيب على سقي الغنم ٣٨٧
- شعيب يزوّج موسى ابنته على أن يرعى غنمه ثماني سنوات ٣٨٨
- قضى موسى أمّ الأجلين ورعى غنم شعيب عشر سنين ٣٨٩
- خصّ الله موسى بالتكليم ، وبمعجزتي العصا واليد ٣٩٠
- شدّ الله عضدّ موسى بأخيه هارون وجعله نبياً مثله ٣٩١
- علم فرعون وقومه بصدق موسى ولكنهم كفروا عناداً واستكباراً ٣٩٢
- فرعون خالده في النار برغم « محبيه المشفقين عليه ؟!!! » ٣٩٣
- لم يهلك الله قوماً بعذاب بعد موسى سوى من مسخ ٣٩٤
- من دلائل نبوة محمد ﷺ إخباره عن أنباء الأولين ٣٩٥
- قال المشركون عن التوراة والقرآن سحران تظاهرا ٣٩٦

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة الصفحة

٣٩٧	القسيسون وفد النجاشي ، يحضرون مجلس الرسول ﷺ ويُسلمون
٣٩٨	كان آخر كلام أبي طالب : أنا على دين عبد المطلب
٣٩٩	لا عذاب قبل التبليغ ، مساكن الظالمين ما تزال عبرة للمعتبرين
٤٠٠	قدّموا الآخرة على الدنيا ، وما الدنيا إلاّ بهرج زائف زائل
٤٠١	ينادي الله تعالى في الآخرة موبّخاً : أين شركائي ... ما نراهم معكم ... ؟ !
٤٠٢	مَنْ غَيْرُ اللَّهِ تعالى يقلّب الليلَ والنّهار
٤٠٣	قارون أسوأ مثلٍ للأغنياء المفسدين
٤٠٤	ما كان الغنى وحده دليلاً على رضائه تعالى
٤٠٥	أمر الله الأرض أن تطيع موسى بقارون فأمرها فابتلعتة وداره
٤٠٦	الجنة للذين لا يريدون علواً في الأرض ، لا للمتكبرين
٤٠٧	ما كنت تعلم يا محمد أن سينزل عليك الوحي والرسالة
٤٠٨	الله هو الأوّل والآخر ، وله الملك والتصرّف وهو المعبود وحده

٢٩ - سورة العنكبوت مكّية نزلت بعد سورة الروم

٤٠٩	الله يبني عباده بحسب إيمانهم وصيرهم
٤١٠	أيظن المسيئون بأعمالهم سيفلتون من عقاب الله ؟
٤١١	وجوب طاعة الوالدين بسوى المعصية . ويل لمن يعبد الله على حرف
٤١٢	المضللون يحملون أوزارهم وأوزار من أضلّوهم
٤١٣	نوح وإبراهيم دعا كلٌّ إلى عبادة المتفرد بالخلق والرزق
٤١٤	عجيب لمن آمن بالخلق ... كيف يكفر بالمعاد ... ؟ !!!
٤١٥	أقتلوه ... حرّقه : هكذا يجيب المبطلون عندما تقمّعهم الحجّة
٤١٦	أقرّ الله عين إبراهيم بولد ، وولد ولد ، كلٌّ صالح ونبيٌّ
٤١٧	جعل الله في ذريته النبوة ، فما من نبيٍّ إلاّ من سلالة (بعده)
٤١٨	دعا لوط قومه إلى الله ، فأبوا فاستنصر الله عليهم
٤١٩	حل بقوم لوط عذاب عظيم ، وانتقم الله من قوم شعيب
٤٢٠	مثل حجج المشركين كمثل بيت العنكبوت وهناً وضعفاً
٤٢١	ذكر الله إياكم ، أكبر وأعظم من ذكركم إياه
٤٢٢	بعد إبلاغ الدعوة لأهل الكتاب ، الإسلام أو الجزية أو الحرب
٤٢٣	محمد أميٌ وبقي أمياً حتى التحق بالرفيق الأعلى

٤٢٤	القرآن أعظم معجزة أيد الله بها عبده ورسوله محمداً ﷺ
٤٢٥	التهديد بالعذاب ، عذاب معنوي قبل الحسبي
٤٢٦	الصبر في الله ، والتوكل عليه ، رأس كل نجاح
٤٢٧	عرب الجاهلية مؤمنون بالربوبية مشركون بالألوهية
٤٢٨	الجاهليون يشركون في الرثاء ، ويوحّدون في الشدة
٤٢٩	سلب الله المشركين نعمة الأمن ، جزاء تكذيبهم بالحق

٣٠ - سورة الروم مكية نزلت بعد سورة الانشقاق

٤٣٠	كان المشركون يودّون انتصار فارس ، والمسلمون يودّون انتصار الروم
٤٣١	حقّق الله وعده ، فقد نصر الروم أقرب الطائفتين إلى الحق
٤٣٢	سيحوا في الأرض وانظروا عاقبة من كانوا أشدّ منكم قوة
٤٣٣	الأنداد يوم القيامة ، يتخلّون عن عابديهم ويتبرّأون منهم
٤٣٤	إرشاد الله لعباده أن يسبحوه ويحمدوه ويصلوا له الصلوات الخمس
٤٣٥	مراحل خلق الإنسان : من ماء مهين إلى كمال القوة والقدرة
٤٣٦	إختلاف الألسنة والألوان والنوم ليلاً والسعي نهاراً والموت والبعث
٤٣٧	الكائنات خاضعة لله جميعاً حتى المشركين مقرّون بأن أربابهم عبده
٤٣٨	أتحبّون أن يقاسمكم عبيدكم أموالكم ؟ فتتريه الله عن ذلك أولى
٤٣٩	المولود على الفطرة ، حتى يعرب لسانه شاكرّاً أو كفوراً
٤٤٠	الله هو المتصرّف بحكمته وعدله ، يعطي أقواماً ويمنع آخرين
٤٤١	الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ، هل من شركائكم يفعل ذلك ؟
٤٤٢	إذا تركت المعاصي حصلت البركات من السماء والأرض
٤٤٣	لا تيأس يا محمد ، فكما كذبتك قومك ، كذب المرسلين أقوامهم
٤٤٤	يفيئ الله عباده بالمطر فجأة ، بعد قنوطهم منه
٤٤٥	الموتى لا يسمعون وليس لهم أي اتصال مع أهل الدنيا
٤٤٦	مراحل خالق الإنسان من الحياة إلى الموت
٤٤٧	كتاب الأعمال سجلٌ يحصي على الإنسان عمله ويسجله
٤٤٨	أصبر يا محمد واثبت ، فإنك على الحق

٣١ - سورة لقمان مكية نزلت بعد سورة الصافات

- ٤٤٩ من آمن وأقام الصلاة وآتى الزكاة وأيقن بالبعث فقد أفلح
- ٤٥٠ من ألماه هو الدنيا عن القرآن فله العذاب الأليم
- ٤٥١ أنا خالق السموات والأرض أروني ماذا خلق الذي تعبدون من دوني
- ٤٥٢ لقمان كان عبداً صالحاً حكيماً ولم يكن نبياً
- ٤٥٣ طاعة الوالدين واجبة إلا في الشرك فلا يجوز الطاعة فيه
- ٤٥٤ لقمان يوصي ابنه بالتوحيد والصلاة والتواضع
- ٤٥٥ اقتصد في مشيك أخفض صوتك - الحكمة أجلس المساكين مجالس الملوك
- ٤٥٦ أجر حسن الخلق كأجر الجهاد ، والمتكبر المختال لا ينظر الله إليه
- ٤٥٧ من كان في قلبه ذرة من كبر ، أكبه الله في النار
- ٤٥٨ إذا دعي الكفار إلى الإيمان ، آثروا ما كان عليه آبائهم
- ٤٥٩ المشركون موحدون بالربوبية - كلمات الله لا تنفذ
- ٤٦٠ ما خلق الكائنات ولا بعثها ، إلا كنفس واحدة
- ٤٦١ اتقوا يوماً لا يفدي الوالد ولده ، ولا الولد والده
- ٤٦٢ مفاتيح الغيب الخمسة ، لا يعلمهن أحد إلا الله تعالى وحده
- ٤٦٣ إذا أراد الله قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة

٣٢ - سورة السجدة مكية نزلت بعد سورة (المؤمنون)

- ٤٦٤ كان النبي ﷺ يقرأ في فجر الجمعة (بالسجدة) و (هل أتى)
- ٤٦٥ لا ولي لخلق الله تعالى سواه ، ولا شفيع إلا بإذنه
- ٤٦٦ استبعاد المشركين للبعث بعد الموت
- ٤٦٧ يتمنى الكافر يوم القيامة أن يعود ليعمل صالحاً ، ولكن هيهات
- ٤٦٨ الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، هم : قوام الليل
- ٤٦٩ كما أخفى المؤمنون أعمالهم الصالحة ، أخفى الله لهم ما لا عين رأت
- ٤٧٠ هل يستوي المؤمن البِرُّ والفاسق الفاجر ؟ !
- ٤٧١ ألم يعتبر المكذبون ، بما حلَّ فيمن كذبوا قبلهم ... من الهلاك والدمار
- ٤٧٢ يبرزهم الله من الثمرات ، ويحيي أرضهم المجربة ، ثم يستعجلونه بالعذاب !!!
- ٤٧٣ سترى ما أعدَّ لك من النعم ، وسيرون ما أعدَّ لهم من النقم

٣٣ - سورة الأحزاب مدنية نزلت بعد سورة آل عمران

- ٤٧٤ يأمر الله رسوله بالتقوى واتباع الوحي ، والمؤمنون بطريق الأولى
- ٤٧٥ فكما لا يكون لبشر قلبان ، لا يكون لولد أبان
- ٤٧٦ نسخ الاسلام جواز ، ادعاء الأبناء الأجانب ، وأمرهم برد نسبهم إلى آبائهم
- ٤٧٧ أزواج الرسول أمهات المؤمنين ، ولا يشمل التحريم بناتهن وأخواتهن بالإجماع
- ٤٧٨ التوارث بالأرحام ، نسخ التوارث بالمواخاة بين المهاجرين والأنصار
- ٤٧٩ حفر الخندق ، حشود الأحزاب ، اليهود ينقضون العهد (عليّ) يقتل (ابن ودّ)
- ٤٨٠ نصر الله المسلمين بالريح والملائكة
- ٤٨١ نكول المنافقين عن الجهاد ، إدعاؤهم : بيوتهم عورة ، وليست كذلك
- ٤٨٢ الفرار من الجهاد لا يؤخر الآجال ، والإقدام لا يقدّمها
- ٤٨٣ الهاربون من الجهاد ، أحبط الله أعمالهم
- ٤٨٤ الرسول أسوة في قوله وفعله للمؤمنين في الحرب وفي السلم
- ٤٨٥ الله لا يعذب عبده بعلمه بما سيعمل ... ولكن حتى يعمل
- ٤٨٦ صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده
- ٤٨٧ حكم سعد بقريظة بقتل المقاتلين وسبي الذراري والنساء وتقسيم الأموال
- ٤٨٨ إنكشف حكم سعد (رض) عن ضرب أعناق ٨٠٠ يهودي قريظي
- ٤٨٩ إن كان يمكن للرسول أن يشرك ، فيمكن لزوجته أن تزني
- ٤٩٠ يطعم الذي في قلبه مرض ، وإتما قلبها معصوم من (المرض ...)
- ٤٩١ أذهب الله الرجس عن أهل البيت وطهرهم تطهيراً
- ٤٩٢ نساء النبي من أهل بيته ، وفاطمة وعليّ والحسن والحسين كذلك
- ٤٩٣ علم الله كيف ينتقي لرسوله زوجات لانقات بشرف بيت النبوة
- ٤٩٤ الجنة : للمسلم المؤمن القانت الصادق الصابر الخاشع المتصدق الصائم العفيف الذاكر
- ٤٩٥ ليس المؤمن مختاراً في تنفيذ أمر الله ورسوله ، بل ملزماً
- ٤٩٦ لو عاش زيد بن حارثة بعد رسول الله ﷺ لاستخلفه
- ٤٩٧ لو كنتم محمد ﷺ شيئاً من القرآن لكنتم (وتخفي في نفسك ...)
- ٤٩٨ حكمة زواجه ﷺ بزَيْنَب : تشريع بخل زوجة الدعي بعد طلاقها وعدتها
- ٤٩٩ محمد ﷺ رسول الله إلى أهل الأرض كافة لإنسهم وجنّهم
- ٥٠٠ ختمت النبوات والرسالات بمحمد ﷺ وكل مدّع ذلك بعده كذاب

- الذكر الحقيقي، قربة إلى الله ، والذكر البدعي بعد عنه ٥٠١
- الله أرحم بعباده المؤمنين من الأم الرؤوم بولدها ٥٠٢
- صفته ﷺ في التوراة ، شاهداً بالوحدانية ، مبشراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين . . . ٥٠٣
- عدة المتوفى زوجها ولو قبل الدخول أربعة أشهر وعشرة أيام ٥٠٤
- لا عدة على المطلقة قبل الدخول ولها نصف المهر ٥٠٥
- لا تحلُّ الموهوبة لغير النبي ﷺ إلا بمهر ٥٠٦
- خيرهُ الله بتسريح من يشاء من نسائه ، وتزوج من يشاء ٥٠٧
- (لا يحلُّ لك النساء من بعده) منسوخة بـ (ترحي من تشاء منهن) ٥٠٨
- وافق عمرُ ربِّه في ثلاث : منها آية حجاب نساء الرسول ﷺ ٥٠٩
- حرام : دخول بيوته ﷺ بلا إذنه ، وتزوج نسائه من بعده ٥١٠
- المحارم الذي لا يجب الاحتجاب منهم ٥١١
- الصلاة من الله ، ثناء على عبده في الملأ الأعلى ٥١٢
- وجوب الصلاة على الرسول ﷺ في الصلاة، الصبيغ الواردة منها ٥١٣
- كلُّ صلاة عليه ﷺ بعشر ، البخيل من لم يصل عليه ٥١٤
- الصلاة عليه الصلاة (الشرعية) بعد الأذان جزاؤها شفاعته ﷺ ٥١٥
- لا يجوز إفراد السلام على أحد من غير الأنبياء ﷺ ٥١٦
- الأمر بالحجاب لنساء النبي ﷺ ويشمل نساء المؤمنين ٥١٧
- هدد الله المنافقين والزناة ومروجي الشائعات بالنفي والتقتيل ٥١٨
- علم الساعة عند الله - يتمنى الكافرون لو كانوا مسلمين ٥١٩
- من يتق الله ويقل الحق يصلح عمله ويغفر ذنبه ٥٢٠
- الأمانة هي التكليف وقبول الأوامر والنواهي ٥٢١
- الحلف بالأمانة حلف بغير الله ، والحلف بغير الله شرك ٥٢٢

٣٤ - سورة سبأ مكية نزلت بعد سورة لقمان

- لله الحمد المطلق على نعمائه ، فهو الخالق الرازق المعبود وحده ٥٢٣
- الحكمة من البعث ، أن يجزي تعالى كلاً بما يستحق ٥٢٤
- التفكر في خلق السموات والأرض حافز لفهم قدرته تعالى والتوبة إليه ٥٢٥
- كان داود يكفي بثمان الدروع عن الراتب من بيت المال ٥٢٦
- سخر الله لسليمان الريح ، وكذلك الجن يعملون بين يديه ٥٢٧

٥٢٨	بقاء سليمان سنة ميتاً متوكئاً عصاه ، ينفي معرفة الجن بالغيب
٥٢٩	سبأ رجله تولد منه عشر قبائل ، هن أصل عرب اليمن
٥٣٠	بدل الله ظلالهم بالأشواك والبلاقع ، وجعلهم شذر مذر
٥٣١	وهكذا تفرقت قبائل سبأ في الجزيرة والشام والعراق
٥٣٢	المؤمن إذا أصابته سرء شكر ، وإذا أصابته ضراء صبر
٥٣٣	الذين تدعونهم من دون الله لا يملكون شيئاً معه
٥٣٤	يسرق الجن الكلمة ثم يكذب معها مئة كذبة ، ويلقيها للكاهن
٥٣٥	محمد ﷺ رسول الله إلى الجن والإنس أجمعين
٥٣٦	لا حجة بالجهل وتوريط الكبراء لاتباعهم ، فالكل معذبون
٥٣٧	كل نبي كفر به المترفون ، واتبعه المستضعفون
٥٣٨	الأموال والأولاد لا تقرب إلى الله ، إنما هي الأعمال الصالحة
٥٣٩	تبرؤ الملائكة المكرمين من عابديهم
٥٤٠	المشركون يصفون القرآن بأنه مفترى ، ويعترفون بأنه فوق كلام البشر
٥٤١	تجردوا عن هواكم واحكموا : هل محمد به جنة ؟!!
٥٤٢	زلزل رسول الله ﷺ الأصنام المنصوبة حول الكعبة يوم الفتح
٥٤٣	لا ينفع الإيمان عند معاينة العذاب ، لانتهاه وقت الإيمان
٥٤٤	الملائكة أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع وأكثر من ذلك
٥٤٥	إن أراد الله مسك بضر ، أو أراد كشفه ، فلا راد لذلك
٥٤٦	الله يضل من علم منه اختيار طريق الضلال على الهدى
٥٤٧	لا يقبل الكلم الطيب ، إلا بعمل صالح يرضى الله عنه
٥٤٨	يعلم الله ما تحمل الأنثى وما تضع ، والأعمار في كتاب عنده
٥٤٩	الشكر لله على ما سخر من نعم في السموات والأرض
٥٥٠	أتدعون من لا يملك شيئاً ، وتذرون الغني الحميد ؟!!
٥٥١	يوم القيامة لا يحمل أحد وزر أحد ، ولو أقرب الأقربين
٥٥٢	الكفار كأهل القبور (وما أنت بمسمع من في القبور)
٥٥٣	العلماء أشد خشية لله من سواهم لأنهم أعلم به منهم

٣٥ - سورة فاطر مكية نزلت بعد سورة الفرقان

- ٥٥٢ ليسع المسلم جاهداً أن يكون سابقاً للخيرات
- ٥٥٥ فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب
- ٥٥٦ يتجاوز الله للمؤمن عن كثير السيئات ، وتشكر له حسناته القليلة
- ٥٥٧ الكافر لو أعاده الله بعد المعاد لكفر ثانية
- ٥٥٨ أنا خالق كل شيء أروني الذين تعبدونهم من دوني ، ماذا خلقوا
- ٥٥٩ أقسمت قريش لئن جاءهم نذير ليتبعنه فلما جاءهم ازدادوا كفرا
- ٥٦٠ ألا ترون فيمن كفر من قبلكم عظة وعبرة

٣٦ - سورة يس مكية نزلت بعد سورة الجن

- ٥٦١ (منهم غافلون) ليست الغفلة عن التوحيا عذراً مقبولاً عند الله
- ٥٦٢ لما رفض المشركون دعوة محمد ﷺ حرّم عليهم الإيمان
- ٥٦٣ والذين قبلوا دعوة محمد ﷺ ينفعهم القرآن ويورثهم الجنة والغفران
- ٥٦٤ ضرب الله مثلاً بأصحاب القرية الذين كذبوا برسلمهم الثلاثة
- ٥٦٥ صاحب يس آمن بالرسول ونصح قومه بالإيمان بهم فقتلوه
- ٥٦٦ نصح قومه في حياته ، وبعدما قتلوه تمنى أن يؤمنوا
- ٥٦٧ لا رجعة إلى الدنيا بعد الموت إنما هي قيامة واحدة
- ٥٦٨ الأيدي تغرس الحبة والله يحييها ويخرج ثمرها . فهو المستحق للشكر
- ٥٦٩ الشمس تسجد تحت العرش حتى يؤذن لها بالإشراق
- ٥٧٠ من نعمه تعالى : جريان الشمس والقمر ، والمركوبات جواً وبراً وبحراً
- ٥٧١ إذا ركبت البحر وشاء الله إغراقكم ، أنقذون إلا برحمة منه
- ٥٧٢ الكافرون بالبعث يرون حقيقة ما كانوا يكذبون به
- ٥٧٣ المؤمنون ينعمون فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت و . . .
- ٥٧٤ يحتم على أفواه الكفار ويُنطق الله أركانهم فتشهد عليهم
- ٥٧٥ أليس في بداية الانسان ونهايته عبرة للمعتبرين ؟
- ٥٧٦ ما علم الله رسوله ﷺ الشعر ، ولا يصلح له . . .
- ٥٧٧ القرآن رحمة للمؤمنين ، وحجة على الكافرين ، وأنزل للأحياء لا للأموات
- ٥٧٨ أقر الكافراً أن الله خلقه من العدم ، وكفر بمعاده من الرّمم
- ٥٧٩ الذي خلق السموات والأرض قادر على خلق البشر وإعادته
- ٥٨٠ وسبحان مالك كل شيء عما يقول المشركون وتعالى علواً كبيراً

فهرس الأحاديث للمجلد الثالث

الصفحة درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٧ - سورة الإسراء		
٥	صح م	١
٥	صح	٢
٦	صح فق	٣
٦	صح بخ	٤
٦	صح م	٥
٦	صح	٦
٧	صح م	٧
٧	صح فق	٨
٧	صح	٩
٧	صح	١٠
٨	صح م	١١
١١		١٢
١١	صح	١٣
١٤	صح	١٤
١٧	صح بخ	١٥
١٧	صح فق	١٦
١٧	صح	١٧
١٧	صح	١٨
١٧		١٩
١٧		٢٠
٥٢٢	صح فق	٢١

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٨	صح فق	يا رسول الله أرأيت من يموت صغيراً	٢٢
١٨	صح	ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم ابراهيم عليه السلام .	٢٣
١٨	صح م	لاني خلقت عبادي حنفاء - وفي رواية - مسلمين . .	٢٤
١٨		كل مولود يولد على الفطرة ، فناداه الناس	٢٥
١٨	صح	سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال : هم	٢٦
١٨	.	يا رسول الله من في الجنة ؟ قال : النبي في الجنة . . .	٢٧
١٨	صح بخ	... هذا ابراهيم عليه السلام وهؤلاء أولاد المسلمين	٢٨
٢٠		الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له	٢٩
٢٠	صح فق	إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون	٣٠
٢١		من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته	٣١
٢٢	صح	صعد المنبر ثم قال « آمين . آمين آمين » يا رسول الله .	٣٢
٢٢		... يا رسول الله هل بقي عليّ من بر أبي شيء	٣٣
٢٢	صح	... يا رسول الله أردت الغزو وجئتك استشيرك فقال :	٣٤
٢٢	صح	... ان الله يوصيكم بآبائكم ، إن الله يوصيكم بأمهاتكم	٣٥
٢٣	صح	... كان اذا رجع من سفر قال : آيئون تأبون عابدون	٣٦
٢٣	صح	... أملك وأباك ثم أدناك ثم أدناك	٣٧
٢٣	صح	من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأله في أجله	٣٨
٢٤	صح فق	مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد	٣٩
٢٤	صح فق	انفقي هكذا وهكذا ولا توعي فيوعي الله عليك	٤٠
٢٤	صح فق	ما من يوم يصبح العباد فيه إلاّ وملكان يترلان من السماء	٤١
٢٤	صح م	ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبداً انفق إلا عزاً	٤٢
٢٤		ما عال من اقتصد	٤٣
٢٤		إن من عبادي لمن لا يصلح له إلاّ الفقر ولو اغنيته لأفسدت	٤٤
٢٥	صح فق	يا رسول الله : أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً	٤٥
٢٥	صح	ان فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إئذن لي	٤٦
٢٦	صح فق	لا يحلّ دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله الا الله	٤٧
٢٦	صح	لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم	٤٨
٢٦	صح م	يا أبا ذر أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي .	٤٩

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٧	صح	من تواضع لله رفعه الله ، فهو في نفسه حقير	٥٠
٢٩		سمعت تسبيحاً في السموات العلى مع تسبيح كثير	٥١
٣٠	صح بح	كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل	٥٢
٣٠		إن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع هن تسبيح	٥٣
٣٠	صح	نهي رسول الله ﷺ عن قتل الضفادع وقال : نقيها	٥٤
٣٠		وأمر كما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء	٥٥
٣٠	صح فق	إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته	٥٦
٣٣		ليس على أهل لا إله الا الله وحشة في قبورهم	٥٧
٣٣	صح	— وفي رواية — الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن	٥٨
٣٣	صح	لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح	٥٩
٣٤	صح	لا تفضلوا بين الأنبياء	٦٠
٣٥	صح	ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً	٦١
٣٥	صح	والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألت ولو شئت لكان	٦٢
٣٨	صح فق	لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال : اللهم	٦٣
٤١		إن الملائكة قالت : يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا	٦٤
٤١		... يدعى أحدهم فيعطى يمينه ، ويمد له في جسمه	٦٥
٤٣	صح	... اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس	٦٦
٤٣	صح	فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون	٦٧
٤٣	صح فق	يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة في النهار	٦٨
٤٤	صح م	إنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ، قال صلاة الليل	٦٩
٤٤	صح بح	إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء ، كل أمة تتبع نبيها	٧٠
٤٥	صح بخ	من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة	٧١
٤٥	صح	إذا كان يوم القيامة كنتُ إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب	٧٢
٤٥	صح فق	... أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك	٧٣
٤٥	صح	أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر	٧٤
٤٦	صح	إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن	٧٥
٤٦	صح فق	دخل النبي مكة وحول البيت ستون وثلاثمئة نصب	٧٦

٤٨	صح فق	... يا محمد ما الروح ؟	٧٧
٤٨	صح	قالت قريش ليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل .	٧٨
٤٨	صح	نزلت بمكة : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً	٧٩
٥٠	صح	دعا أكابر قريش محمداً ﷺ فجاءهم سريعاً وهو يظن	٨٠
٥٣	صح فق	قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم . .	٨١
٥٧		ان رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ يقول في سجوده	٨٢
٥٧	صح فق	... إذا صلى بأصحابه رفع صوته ... فنزلت ولا تجهر	٨٣
٥٨		فلما هاجر إلى المدينة سقط ذلك ، يفعل أي ذلك شاء . .	٨٤

١٨ - سورة الكهف

٥٩	صح فق	قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة فجعلت تنفر	٨٥
٥٩	صح م	من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من	٨٦
٥٩	صح	من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف	٨٧
٥٩	صح م	من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة	٨٨
٥٩	صح	من قرأ عشر آيات من الكهف	٨٩
٥٩	صح	من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له النور ما بين	٩٠
٦١	صح	بعثت قريش النضر بن الحارث ابن أبي معيط إلى أحبار	٩١
٦٣	صح	... وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشداً . .	٩٢
٦٤	صح فق	الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف . . .	٩٣
٦٥	صح	يوشك أن يكون خير قال أحدكم غنماً يتبع بها شعف	٩٤
٦٥	صح	يا أبا بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما	٩٥
٦٦	صح	ما تركت شيئاً بقربكم إلى الجنة ، ويباعدكم من النار	٩٦
٦٦	صح	... الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب	٩٧
٦٦	حسن	... ولا صورة ولا جنب ولا كافر	٩٨
٦٩	صح	لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد .	٩٩
٧١	صح	كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون أطرد هؤلاء	١٠٠
٧١	صح	... هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم . .	١٠١
٧١		... فوجد قوماً يذكرون الله تعالى ، منهم ثائر الرأس	١٠٢

٧٥	ألا أدلتك على كنز من كنوز الجنة ، (لا حول ولا قوة)	١٠٣
٧٦	الدنيا خضرة حلوة	١٠٤
٧٧	... من توضاً وضوئي هذا ثم قام فصلتي صلاة الظهر	١٠٥
٧٧	من قام من الليل فتوضاً ومضمض فاه ثم قال : . . .	١٠٦
٧٧	... وعلمني هؤلاء الكلمات : سبحان الله والحمد لله	١٠٧
٧٨	... فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم	١٠٨
٧٩	ان الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة	١٠٩
٧٩	خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من نار و... .	١١٠
٨١	إن الكافر يرى جهنم فيظن أنها مواقعه من مسيرة أربعين	١١١
٨١	... فقال ألا تصليان ؟ فقلت يا رسول الله انما أنفسنا بيد	١١٢
٨٤	ان موسى قام خطيباً في بني اسرائيل فسئل أي الناس أعلم	١١٣
٨٧	... رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر	١١٤
٨٨	الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً	١١٥
٨٨	لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له	١١٦
٨٩	اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض	١١٧
٨٩	لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي	١١٨
٨٩	لا يبقى ممن على وجه الأرض إلى مئة سنة	١١٩
٨٩	إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هي تهتز . .	١٢٠
٩٣	إن الله تعالى يقول : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك	١٢١
٩٤	كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحتى جبهته	١٢٢
٩٥	ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله	١٢٣
٩٦	إذا سألت الله الجنة فأسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة . .	١٢٤
٩٧	... الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي لمكان الرجل	١٢٥
٩٧	أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري . .	١٢٦
٩٧	إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر	١٢٧
٩٧	من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو	١٢٨

١٩ - سورة مريم

١٢٩	... لا نورث ما تركناه وصديقة	صح	٩٩
١٣٠	ان الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته	صح	١٠٧
١٣١	من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له	صح فق	١٠٨
١٣٢	إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار نجاء بالموت	صح فق	١٠٨
١٣٣	إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل	صح م	١١٢
١٣٤	رحم الله رجلاً قام من الليل فضلى فأيقظ امرأته	صح	١١٢
١٣٥	إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين	صح	١١٢
١٣٦	التوبة تجب ما قبلها	صح	١١٥
١٣٧	التائب من الذنب كمن لا ذنب له	صح	١١٥
١٣٨	قال محمد لجبريل : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا	صح بنخ	١١٦
١٣٩	ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرمه فهو حرام	صح	١١٧
١٤٠	يقول تعالى : كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني	صح	١١٧
١٤١	اختلفنا في الورود فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن	صح	١١٨
١٤٢	يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم		١١٨
١٤٣	لا يموت لأحد المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة	صح فق	١١٨
١٤٤	كنت رجلاً قيناً وكان لي علي العاص بن وائل دين	صح فق	١٢١
١٤٥	لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله	صح	١٢٢
١٤٦	لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله	صح	١٢٢
١٤٧	ان الله إذا أحب عبداً دعا جبريل أني أحب فلاناً	صح	١٢٥
١٤٨	إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني قد أحبيت فلاناً	صح	١٢٥

٢٠ - سورة طه

١٤٩	من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها	صح	١٢٩
١٥٠	مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى	صح	١٣٣
١٥١	إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه .	صح	١٣٧
١٥٢	أن رسول الله ﷺ حضر جنازة فلماً دفن الميت أخذ	صح	١٣٩
١٥٣	إذا أخذتم - يعني الساحر - فاقتلوه ثم قرأ (ولا يفلح	صح	١٤٢
١٥٤	أقام أهل النار الذين هم أهلها فانهم لا يموتون فيها و ...	صح	١٤٤
١٥٥	الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء	صح	١٤٤
١٥٦	أن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر	صح فق	١٤٤
١٥٧	لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء	صح فق	١٤٦
١٥٨	إنه سئل عن الصور فقال : قرن ينفخ فيه	صح	١٥١
١٥٩	إنه قرن عظيم الدائرة منه بقدر السموات والأرض . .	.	١٥١
١٦٠	أتى تحت العرش وأخر ساجداً ويفتح عليّ بمحمد لا	صح فق	١٥٢
١٦١	إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة	صح	١٥٣
١٦٢	ان الله تابع الوحي على رسوله حتى كان الوحي أكثر ما	صح	١٥٣
١٦٣	اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني وزدني علماً	.	١٥٣
١٦٤	وأعوذ بالله من حال أهل النار	صح	١٥٣
١٦٥	حاج موسى آدم فقال له : أنت الذي أخرجت الناس من	صح فق	١٥٥

المعيشة الضنك الذي قال الله انه يسلم عليه تسعة وتسعين	١٥٥	
ما من رجل قرأ القرآن فأنسيه إلاّ لقي الله	١٥٦	
ان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة	١٥٦	صح
إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في	١٥٧	صح فق
يقول الله تعالى ، يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا	١٥٧	صح
يا أهل الجنة ان لكم عند الله وعداً يريد أن	١٥٧	صح
إن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ	١٥٨	صح
كان النبي اذا أصابته خصاصة نادى أهله يا أهله صلوا	١٥٨	صح
يقول الله تعالى : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي مملأاً صدرك	١٥٨	صح
رأيت الليلة كأننا في دار عقبة بن رافع وإنا أتينا برطب	١٥٨	صح
ما من نبي إلاّ وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر	١٥٩	صح فق

٢١ - سورة الانبياء

(في غفلة معرضون) قال « في الدنيا »	١٦٠	
قلت يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت	١٦٦	صح
كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان	١٧١	صح
ان الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس	١٧١	صح
وإن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث . اثنتين في	١٧٤	صح
حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار	١٧٦	صح بخ
لما ألقى إبراهيم في النار قال : اللهم أنك في السماء واحد	١٧٦	صح
دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رجلاً طويلاً فقلت :	١٧٦	صح
اذا اجتهد الحاكم فأصاب ، فله أجران	١٧٩	صح بخ
القضاة ثلاثة : قاض في الجنة وقاضيان في النار	١٧٩	صح
لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داوود	١٧٩	صح
أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون	١٨٠	صح
لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب	١٨١	صح فق
دعوة ذي النون أذ هو في بطن الحوت : ﴿ لا إله إلا أنت ﴾	١٨٤	صح
اسم الله الذي اذا دعي به أجاب	١٨٤	صح

١٨٥	صح	نحن معاشر الأنبياء أولاد علات وديننا واحد	١٩٢
١٨٦	صح	غير الدجال أخوفني عليكم . فإن يخرج وأنا فيكم فأنا	١٩٣
١٨٧		فتطردهم بالمهليل	١٩٤
١٨٧	صح	إن عيسى بن مريم يحج البيت العتيق	١٩٥
١٨٧	صح بخ	ليحجن هذا البيت وليعمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج	١٩٦
١٨٩	صح بخ	إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السموات	١٩٧
١٩٠	صح فق	إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً	١٩٨
١٩١	صح م	إني لم أبعث لعناً وإني بعثت رحمة	١٩٩
١٩١	صح	أيما رجل سببته في غضبي ، أو لعنته لعنة	٢٠٠

٢٢ - سورة الحج

١٩٣	صح	والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك	٢٠١
١٩٣	صح بخ	يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم فيقول : لبيك يا ربنا	٢٠٢
١٩٤	صح	إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاة عراة غرلاً . . .	٢٠٣
١٩٦	صح فق	إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة	٢٠٤
١٩٧		يا رسول الله أكلتنا يرى الله عز وجل يوم القيامة	٢٠٥
٢٠٠	صح فق	أتدري أين تذهب هذه الشمس ؟ قلت الله ورسوله أعلم	٢٠٦
٢٠٠	صح م	إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان	٢٠٧
٢٠١	حسن	قلت يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن	٢٠٨
٢٠١	صح	إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمه	٢٠٩
٢٠٢	صح فق	تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء	٢١٠
٢٠٢	صح	لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا	٢١١
٢٠٣	صح فق	قلت يا رسول الله أتتزل غدا في دارك بمكة ؟	٢١٢
٢٠٤	صح فق	قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد	١١٣
٢٠٥	صح بخ	ما العمل في أيام أفضل منها في هذه	٢١٤
٢٠٥	صح	ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن . . .	٢١٥
٢٠٦	صح	إن هذا هو العشر الذي أقسم الله به	٢١٦
٢٠٦	صح م	سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفه	٢١٧

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي	رقمه
٢٠٧	صح فق	ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ « قلنا بلى يا رسول الله قال :	٢١٨
٢٠٨		إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه إلى	٢١٩
٢٠٨	صح	أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن . . .	٢٢٠
٢٠٨	صح	نهى رسول الله ﷺ أن نضحى بأعضب القرن والأذن	٢٢١
٢٠٩	صح	أربع لا تجوز في الأضاحي : العوراء البين عورها ،	٢٢٢
٢٠٩	صح	اشترت كبشا أضحي به فعدا الذئب فأخذ الإلية . . .	٢٢٣
٢٠٩	صح	أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال اركبها	٢٢٤
٢٠٩	صح	قال رسول الله ﷺ اركبها بالمعروف إذا أُلحِثَ إليها	٢٢٥
٢١٠	صح	أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين فسَمَّى وكَبَّرَ	٢٢٦
٢١٠	صح	قلت يا رسول الله ما هذه الأضاحي ؟ قال سنة أبيكم	٢٢٧
٢١٠	صح	أمرنا رسول الله ﷺ أن نشرك في الأضاحي	٢٢٨
٢١١	حسن	ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله	٢٢٩
٢١١	صح	ما انفقت الورق في شيء أفضل من نخيرة في يوم عيد	٢٣٠
٢١١	صح	بسم الله والله أكبر اللهم هذا عني وعمن لم يضح . . .	٢٣١
٢١١	صح فق	لإبعثها قياماً مقيدة ، سنة أبي القاسم محمد ﷺ . . .	٢٣٢
٢١١	صح	لا تعجلوا النفوس أن ترهق	٢٣٣
٢١١	صح م	إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم	٢٣٤
٢١١	صح	ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة	٢٣٥
٢١١	صح	إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث	٢٣٦
٢١٢	صح	فكلوا وادخروا وتصدقوا	٢٣٧
٢١٢	صح	فكلوا وتصدقوا واستمتعوا بجلودها ولا تبيعوها . . .	٢٣٨
٢١٢	صح	إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي	٢٣٩
٢١٢	صح م	لا تذبخوا قبل أن يذبح الإمام	٢٤٠
٢١٢	صح	إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم	٢٤١
٢١٣		ليس في المال حق سوى الزكاة	٢٤٢
٢١٤		كما بابع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ	٢٤٣
٢١٦	صح فق	إن الله ليحلي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته	٢٤٤

٢١٧	حسن صح	يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم	٢٤٥
٢٢٥	صح م	إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض	٢٤٦
٢٢٥	صح	أول ما خلق الله القلم قال له اكتب ، قال وما أكتب ؟	٢٤٧
٢٢٦	صح	قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ،	٢٤٨
٢٢٨	صح	فضلت سورة الحج بسجدين فمن لم يسجد بهما فلا	٢٤٩
٢٢٨	صح	بعث بالحنيفية السمحة	٢٥٠
٢٢٨	صح	بشراً ولا تنفراً ، ويسترا ولا تعسراً	٢٥١
٢٢٩	صح	من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جني جهنم	٢٥٢

٢٣ - سورة المؤمنون

٢٣٠	ض	... وقال اللهم زدنا ولا تنقصنا ، واكرمنا ولا تهنا ،	٢٥٣
٢٣١	صح	... قالت : كان خلقه القرآن فقرأت (قد أفلح المؤمنون)	٢٥٤
٢٣١	صح	حبب إليّ الطيب والنساء وجعلت قرّة عيني في الصلاة	٢٥٥
٢٣١	صح	... سمعت رسول الله ﷺ يقول : قم يا بلال فأرحنا	٢٥٦
٢٣٢	صح	آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف	٢٥٧
٢٣٢	صح فق	... أي العمل أحب إلى الله ؟ قال الصلاة على وقتها ...	٢٥٨
٢٣٢	صح فق	إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس ، فإنه أعلى الجنة	٢٥٩
٢٣٢	صح	ما من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ، ومنزل . . .	٢٦٠
٢٣٢	صح ح	يحيي ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال	٢٦١
٢٣٢	صح	إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً	٢٦٢
٢٣٣	صح ح	إن الله خلق آدم من قبضة من جميع الأرض	٢٦٣
٢٣٣	صح فق	إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة	٢٦٤
٢٣٥		كلوا الزيت وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة	٢٦٥
٢٤٠	صح	إن داود كان يأكل من كسب يده	٢٦٦
٢٤٠	صح	ما من نبي إلا رعى الغنم	٢٦٧
٢٤٠	صح م	يا أيها الناس إن الله طيب ولا يقبل إلا طيباً	٢٦٨
٢٤٢		... ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله	٢٦٩
٢٤٤		إن النبي ﷺ لقي رجلاً فقال له : أسلم فقال الرجل ...	٢٧٠

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي	رقمه
٢٤٥	صح فق	... يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز ^(١) —يعني	٢٧١
٢٤٥	صح	... اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف	٢٧٢
٢٤٧	صح	شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سمواته	٢٧٣
٢٤٧	صح	ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهما وما	٢٧٤
٢٤٨	صح	وإذا أزدت بقوم فتنة فتوقني إليك غير مفتون	٢٧٥
٢٤٨	صح	... أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه	٢٧٦
٢٤٨	صح	... اللهم إني أعوذ بك من الهدم ومن الغرق	٢٧٧
٢٤٩		... فلا يزال معذباً فيها	٢٧٨
٢٥٠	صح	... بلى إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة	٢٧٩
٢٥١		تلفح وجوههم النار قال : تلفحهم لفحة تسيل لحومهم	٢٨٠
٢٥١		قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ	٢٨١
٢٥٣	صح	إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار . . .	٢٨٢
٢٥٣		بعثنا رسول الله ﷺ في سرية ، وأمرنا أن نقول ...	٢٨٣
٢٥٣		أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا السفينة باسم الله الملك .	٢٨٤
٢٥٤	صح	... فقال رسول الله ﷺ فأبهم إذا أصابك ضر فدعوته	٢٨٥
٢٥٥		٢٤ — سورة النور	
٢٥٥	صح فق	... الوليدة والغم رد عليك، وعلى ابنك مئة جلدة .	٢٨٦
٢٥٦	صح فق	... فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها	٢٨٧
٢٥٦	صح	... كنا نقرأ: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة	٢٨٨
٢٥٦	صح م	... خذوا عني فقد جعل الله لهن سبيلا ، البكر بالبكر	٢٨٩
٢٥٧		لحدّ يقام على الأرض خير لأهلها من أن يمتطروا أربعين	٢٩٠
٢٥٨	حسن	حديث أم مهزول	٢٩١
٢٥٨	صح	لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله	٢٩٢
٢٥٨		ثلاثة حرم الله عليهم الجنة . مدمن الخمر ، والعاق	٢٩٣
٢٥٨	صح	إني كنت أُمُّ بامرأة آتي منها ما حرم الله ... فأردت	٢٩٤
٢٥٨	صح فق	سئلت عن المتلاعنين أيفرق بينهما في إمارة ابن الزبير	٢٩٥
٢٦١	صح يخ	... فقال النبي ﷺ البيئنة أو حدّ في ظهرك	٢٩٦
٢٦٢	صح فق	حديث الإفك (اللفظ لمسلم)	٢٩٧

(١) قلت : يعني الوبر ممزوجاً مع الدّم .

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الحديث	رقمه
٢٦٥	حسن	قام رسول الله ... وتلا القرآن ، فلما نزل أمر برجلين	٢٩٨
٢٦٧	صح فق	إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدرى ما تبلغ	٢٩٩
٢٦٨	صح فق	إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تقل أو	٣٠٠
٢٦٩	صح	لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم . .	٣٠١
٢٧١	صح فق	اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل وما هن يا رسول الله ؟	٣٠٢
٢٧١	صح	قذف المحصنة يهدم عمل مئة سنة	٣٠٣
٢٧١	صح	إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فيجحد . . .	٣٠٤
٢٧١	صح م	فيختم على فيه ويقال لأركانه : انظقي ،	٣٠٥
٢٧٣	صح	... إذا استأذن أحدكم فلم يؤذن له فليصرف	٣٠٦
٢٧٣	صح	... أكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة وأفطر	٣٠٧
٢٧٣	صح	... إنما الاستئذان من أجل النظر	٣٠٨
٢٧٣	صح فق	لو أن أمراً اطاع عليك بغير إذن، فحذفته بحصاة ففقات...	٣٠٩
٢٧٣	صح	؟ ... من ذا ... ؟ فقلت : أنا . قال : أنا أنا ... !!!	٣١٠
٢٧٣	صح	... فقال النبي ﷺ لخادمه : اخرج إلى هذا فعلّمه	٣١١
٢٧٤		أسباب نزول الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا)	٣١٢
٢٧٥	صح م	سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصدق	٣١٣
٢٧٥	حسن صح	... يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى ، وليس	٣١٤
٢٧٥	صح	إياكم والجلوس على الطرقات	٣١٥
٢٧٥	صح	احفظ عورتك إلا من زوجتك	٣١٦
٢٧٥	صح	كتب على ابن آدم حفظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة	٣١٧
٢٧٥	صح	... أنتما عمياوان ... ؟	٣١٨
٢٧٥	صح	إن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون	٣١٩
٢٧٧	منقطع	يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى...	٣٢٠
٢٧٧	صح فق	لا تبأشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها	٣٢١
٢٧٨	صح	ان النبي ﷺ أتى فاطمة بعدد قد وهبه لها	٣٢٢
٢٧٨	صح	دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث	٣٢٣
٢٧٨	صح فق	اياكم والدخول على النساء » قيل يا رسول الله أفرأيت	٣٢٤

٢٧٩	حسن صحيح	كل عين زانية والمرأة اذا استعطرت فمرت بالمجلس .	٣٢٥
٢٨٠	صح فق	يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج . . .	٣٢٦
٢٨٠	صح	تزوجوا الولود تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة	٣٢٧
٢٨٠	صح	ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف . . .	٣٢٨
٢٨١	صح	... مهر البغي خبيث ، وكسب الحجام خبيث	٣٢٩
٢٨١	صح	رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . . .	٣٣٠
٢٨٢	صح فق	... يقول : « اللهم لك الحمد ، انت نور السموات	٣٣١
٢٨٣	.	ان الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى	٣٣٢
٢٨٣	صح	القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر . .	٣٣٣
٢٨٤	صح فق	من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله بنى	٣٣٤
٢٨٤	صح	أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور وأن . . .	٣٣٥
٢٨٥	صح	لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد . . .	٣٣٦
٢٨٥	صح	إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد ، فقولوا . . .	٣٣٧
٢٨٥	صح فق	صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته . .	٣٣٨
٢٨٥	صح	بشر المشائين إلى المساجد في الظلم ، بالنور التام يوم القيامة	٣٣٩
٢٨٥	صح م	إذا دخل أحدكم المسجد فليقل ، اللهم افتح أبواب	٣٤٠
٢٨٥	صح	يا رسول الله إني أحب الصلاة معك . قال : قد علمت	٣٤١
٢٨٦	صح فق	لا تمنعوا إماء الله عن مساجد الله	٣٤٢
٢٨٦	صح	بيوتهم خير لمن . وليخرجن تفلات	٣٤٣
٢٨٦	صح فق	لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن من	٣٤٤
٢٨٧	صح فق	أنه يقال يوم القيامة لليهود ما كنتم تعبدون ؟	٣٤٥
٢٩١	صح	من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له . . .	٣٤٦
٢٩٣	صح	... إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها .	٣٤٧
٢٩٤	.	يا رسول الله : أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ . . .	٣٤٨
٢٩٤	صح	بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة ، والدين بالنصر . . .	٣٤٩
٢٩٤	صح فق	حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . . .	٣٥٠
٢٩٥	صح فق	لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق	٣٥١

٢٩٩	صح	... أنت ومالك لأبيك	٣٥٢
٢٩٩	٢٠٤	يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك، وسلم على من لقيك	٣٥٣
٢٩٩	حسن	إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم	٣٥٤
٣٠٠	صح فق	من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ	٣٥٥
٣٠٠	صح فق	مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت . . .	٣٥٦

٢٥ - سورة الفرقان

٣٠٣	صح	إني أعطيت خمساً لم يعطهن من الأنبياء قبلي	٣٥٧
٣٠٥	.	قيل للنبي ﷺ إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض	٣٥٨
٣٠٥	.	من يقل علي ما لم أقل ، أو أدعى لغير والديه	٣٥٩
٣٠٦ ليستكروهون في النار كما يستكروه الوند في الحائط	٣٦٠
٣٠٨	صح م	... يقول الله تعالى إني مبتليك ومبتلي بك	٣٦١
٣١٠	صح	إن الله تعالى يطوي السموات بيمينه ويأخذ الأرضين . .	٣٦٢
٣١٢	صح	... يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم	٣٦٣
٣١٥	صح م	... قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال .	٣٦٤
٣١٦	صح فق	بعثت إلى الأحمر والأسود وكان النبي يبعث إلى قومه	٣٦٥
٣١٦	صح	... وقد سئل عن ماء البحر : أنتوضأ به ؟ فقال . . .	٣٦٦
٣١٨	صح	كان رسول الله ﷺ يقول سبحانك اللهم ربنا وبحمدك	٣٦٧
٣١٩	صح	إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ،	٣٦٨
٣١٩	صح	إذا أتيتم الصلاة فلا تأتون وأنتم تسعون	٣٦٩
٣٢٠	.	أما إن ملكاً بينكما يذب عنك ، كلما شتمك هذا . . .	٣٧٠
٣٢٠	.	ما أحسن القصد في الغنى ، وما أحسن القصد في الفقر .	٣٧١
٣٢١	صح فق	... أي الذنب أكبر ؟ قال « أن تجعل لله أنداداً وهو	٣٧٢
٣٢١ لا تشرکوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التي حرم	٣٧٣
٣٢١ لأن يزني الرجل بعشر نساء أسر عليه من أن يزني	٣٧٤
٣٢١	.	ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة	٣٧٥
٣٢١	.	أسباب نزول الآية (قل يا عبادي الذين أسرفوا على	٣٧٦
٣٢٢	صح م	إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار	٣٧٧

٣٧٨	إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان : اعطني صحيفةك ..	٣٢٢
٣٧٩	... قال فافعل الخيرات واترك السيئات ، فيجعلها الله لك	٣٢٢
٣٨٠	... فقال رسول الله ﷺ لقد أصبح ابن مسعود وأمسى	صح ٣٢٣
٣٨١	إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث	صح م ٣٢٤

٢٦ - سورة الشعراء

٣٨٢	قال النبي ﷺ عند الاحتضار « اللهم في الرفيق الأعلى	صح ٣٣٦
٣٨٣	... اللهم أحينا مسلمين ، وأميتنا مسلمين ، وألحقنا . .	صح ٣٣٦
٣٨٤	... يلقي إبراهيم أباه أذر يوم القيامة وعلى وجه آزر قره	صح بخ ٣٣٧
٣٨٥	... يا رسول الله : بأبي وأمي ما أنصحك ، ما رأيت	٣٤٨
٣٨٦	... لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني	صح م ٣٥١
٣٨٧	... أرأيتم لو أخبرتكم ان خيلاً بسفح الوادي تريد أن	صح فق ٣٥١
٣٨٨	... يا فاطمة بنت محمد انقذي نفسك من النار . . .	صح فق ٣٥١
٣٨٩	... لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم	صح م ٣٥١
٣٩٠	... فقال النبي ﷺ تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني	صح بخ ٣٥١
٣٩١	... لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن . .	صح ٣٥٣
٣٩٢	أن رسول الله ﷺ قال لحسان : أهجهم - أو قال . .	صح ٣٥٤
٣٩٣	إن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل . . .	صح ٣٥٤
٣٩٤	... إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة . . .	صح ٣٥٤

٢٧ - سورة النمل

٣٩٥	إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط . .	صح م ٣٥٧
٣٩٦	نحن معاشر الانبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقه .	صح ٣٥٩
٣٩٧	نهى النبي ﷺ عن قتل أربع دواب : النملة والنحلة ،	صح ٣٦١
٣٩٨	... قال : ادعوا إلى الله وحده الذي اذا مسك ضرر	صح ٣٧٠
٣٩٩	من زعم أنه يعلم - يعني النبي ﷺ - ما يكون في غد	صح ٣٧٣
٤٠٠	... لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع	صح ٣٧٥
٤٠١	... إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها .	صح ٣٧٥

٣٧٦	بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ،	٤٠٢
٣٧٧	يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين	٤٠٣
٣٧٩	إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض	٤٠٤
٣٨٠	... يا أيها الناس لا يغترّ أحدكم بالله ، فإن الله لو	٤٠٥

٢٨ - سورة القصص

٣٨٤	صح	مثل الذي يعمل ويحسب في صناعته الخير كمثل أم موسى	٤٠٦
٣٨٨	صح	مرحباً بقوم شعيب واختان موسى هدمت	٤٠٧
٣٩٤		ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا	٤٠٨
٣٩٧	صح	ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن	٤٠٩
٣٩٨	صح	لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله ﷺ	٤١٠
٣٩٩	صح فق	بعثت إلى الأحمر والأسود	٤١١
٤٠٠	صح	والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كماء يغمس أحدكم	٤١٢
٤٠٥	صح بخ	بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل	٤١٣
٤٠٥		إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم	٤١٤
٤٠٦	صح	إنه أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد	٤١٥
٤٠٦	صح	إني أحب أن يكون ردائي حسناً ... أقمّن الكبير ذلك ؟	٤١٦

٢٩ - سورة العنكبوت

٤٠٩	صح	أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل	٤١٧
٤١٢	صح	من دعا إلى هدي كان له من الأجر مثل أجور من أتبعه	٤١٨
٤١٢	صح	ما قتل نفس ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كفل	٤١٩
٤١٧	حسن	قال : يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم	٤٢٠
٤٢١	صح	إن فلاناً يصلّي بالليل ، فإذا أصبح سرق قال : « سينهاه	٤٢١
٤٢٢	صح	لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي	٤٢٢
٤٢٤	صح فق	ما من الأنبياء من نبيّ إلاّ قد أعطي من الآيات	٤٢٣
٤٢٦		ان في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من	٤٢٤

٣٠ - سورة الروم

٤٢٥	كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم .	صح	٤٣٠
٤٢٦	... فقال : هذا السم . قال : « أتصدق به » . . .	حسن	٤٣١
٤٢٧	ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض . .	حسن	٤٣٥
٤٢٨	قل : اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون وأنت حي		٤٣٦
٤٢٩	يقول تعالى كذبي ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني	صح بخ	٤٣٧
٤٣٠	إني خلقت عبادي حنفاء فاجتألتهم الشياطين عن دينهم	صح	٤٣٨
٤٣١	ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو	صح فق	٤٣٨
٤٣٢	... لا إنما خياركم أبناء المشركين - ثم قال - لا		٤٣٩
٤٣٣	... من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي	صح	٤٣٩
٤٣٤	عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له .	صح	٤٤٠
٤٣٥	ما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها	صح	٤٤١
٤٣٦	... لا تياساً من الرزق ما تهزرت رؤوسكما		٤٤١
٤٣٧	لحدّ يقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يعطروا	صح	٤٤٢
٤٣٨	ان الفاجر اذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر	صح فق	٤٤٢
٤٣٩	يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا	صح	٤٤٥

٣١ - سورة لقمان

٤٤٠	إنه ليس بذلك ألا تسمع إلى قول لقمان (يا بني لا تشرك	صح فق	٤٥٣
٤٤١	ليس ذلك الكبر ، إنما الكبر أن تسفه الحق وتغبط	صح	٤٥٤
٤٤٢	ليس منا مثل سوء ... العائد في هبته كالكلب	صح	٤٥٥
٤٤٣	إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله	صح الجماعة	٤٥٥
٤٤٤	ان لقمان الحكيم كان يقول : ان الله اذا استودع شيئاً	صح	٤٥٥
٤٤٥	قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه يا بني إياك والتقنع .	صح	٤٥٥
٤٤٦	رب أشعث ذي طمرين يصفع عن أبواب الناس . .	صح	٤٥٥
٤٤٧	طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا . .		٤٥٦
٤٤٨	إن اليسير من الرياء شرك ، وان الله يحب الأتقياء		٤٥٦

٤٤٩	حسب امرىء من الشر إلاّ من عصم الله ان يشير الناس	ض	٤٥٦
٤٥٠	كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس أخلاقاً	صح	٤٥٦
٤٥١	قيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضل ؟ قال : أحسنهم	صح	٤٥٦
٤٥٢	إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل ، صائم النهار	صح	٤٥٦
٤٥٣	سئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال : الأجوفان :		٤٥٧
٤٥٤	ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة	صح	٤٥٧
٤٥٥	ان الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما . .		٤٥٧
٤٥٦	إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط	صح	٤٥٧
٤٥٧	لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر . .	صح	٤٥٧
٤٥٨	من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر أكبه الله		٤٥٧
٤٥٩	من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه	صح	٤٥٧
٤٦٠	لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره و	صح	٤٥٧
٤٦١	... لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . .	صح	٤٥٩
٤٦٢	أسباب نزول آية : ولو أن ما في الأرض من شجرة		٤٥٩
٤٦٣	يا أبا ذ أتدري أين تذهب هذه الشمس	صح	٤٦٠
٤٦٤	مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلاّ الله	صح بخ	٤٦٢
٤٦٥	من حدثك أنه ^(١) يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت	صح	٤٦٣
٤٦٦	إذا أراد الله قبض عبدٍ بأرض جعل له إليها حاجة . .	صح	٤٦٣

٣٢ - سورة السجدة

٤٦٧	كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة (آلم تنزيل)	صح فق	٤٦٤
٤٦٨	كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ : (آلم تنزيل) السجدة		٤٦٤
٤٦٩	عجب ربنا من رجلين رجل ثار من وطائه ولحافه . .	صح	٤٦٨
٤٧٠	... يا نبيّ الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من		٤٦٨
٤٧١	قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت	صح فق	٤٦٩

٣٣ - سورة الأحزاب

٤٧٢	... لقد رأيتها وانها لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا	صح	٤٧٤
-----	--	----	-----

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٧٦	صح فق	أسباب نزول الآية : (ادعوهم لآبائهم ...)	٤٧٣
٤٧٦	صح م	قال الله عز وجل قد فعلت	٤٧٤
٤٧٦	.	ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر	٤٧٥
٤٧٦	صح	... فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فرجم رسول الله	٤٧٦
٤٧٧	صح	والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون أحب	٤٧٧
٤٧٧	صح بخ	ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة	٤٧٨
٤٨٠	صح	نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور	٤٧٩
٤٨٠	صح	ألا رجل يأتينا بخبر القوم يكون معي يوم القيامة	٤٨٠
٤٨٠	صح	... أخبر صاحبك ان الله تعالى قد كفاه القوم	٤٨١
٤٨٠	صح	كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلى	٤٨٢
٤٨١	صح	... نعم قولوا اللهم استر عوراتنا وآمن روعتنا قال	٤٨٣
٤٨٤	صح بخ	لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب	٤٨٤
٤٨٥	صح بخ	... أسباب نزول الآية : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا﴾	٤٨٥
٤٨٥ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن	٤٨٦
٤٨٦	صح	... لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ونصر عبده وأعز	٤٨٧
٤٨٦	صح فق	دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل	٤٨٨
٤٨٦	صح	لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم	٤٨٩
٤٨٦	صح بخ	... قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب « الآن نغزوهم	٤٩٠
٤٨٧	صح	... وقال ﷺ لا يصلي أحد منكم العصر إلا في بني	٤٩١
٤٨٨	صح بخ	... فأني أريد الله ورسوله والدار الآخرة	٤٩٢
٤٨٩	صح	ثم استقرأ الحَجَر ... فقلن ونحن نقول مثلما قالت عائشة	٣٩٣
٤٩٠	صح	لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجنَّ وهن تَفِلَات	٤٩٤
٤٩٠	صح	صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها	٤٩٥
٤٩١	صح	أيها الناس : فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي	٤٩٦
٤٩٢	حسن	... إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : الصلاة يا أهل	٤٩٧
٤٩٢	صح	اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم	٤٩٨
٤٩٣	صح	... كما جاء في الحديث : (وأهل بيتي أحق)	٤٩٩

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٩٣	صح	... ان الله تعالى يقول (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين	٥٠٠
٤٩٣	صح	أسباب نزول الآية . (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين	٥٠١
٤٩٣	صح فق	لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن	٥٠٢
٤٩٤	صح	عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر	٥٠٣
٤٩٤	صح فق	اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . .	٥٠٤
٤٩٤	صح فق	سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله	٥٠٥
٤٩٤	صح	كما جاء في الحديث (ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له	٥٠٦
٤٩٤	صح	... إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصلًا ركعتين ،	٥٠٧
٤٩٤		... ما عمل آدمي عملاً قط أنجي له من عذاب الله	٥٠٨
٤٩٥	صح	ان رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة	٥٠٩
٤٩٧	صح	لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد اذهب	٥١٠
٤٩٩	صح	لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم . . .	٥١١
٥٠٠	صح غريب	... إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي	٥١٢
٥٠٠	صح فق	مثلي ومثل الأنبياء كمثلي رجل بني داراً فأكملها وأحسنها	٥١٣
٥٠٠	صح م	فضلتُ على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلام ،	٥١٤
٥٠٠	صح فق	إن لي أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي	٥١٥
٥٠١		... اللهم اجعلني أعظم شكرك ، وأتبع نصيحتك ،	٥١٦
٥٠٢	صح	يقول الله تعالى : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي .	٥١٧
٥٠٢	صح بخ	أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيًا	٥١٨
٥٠٣	صح	... انطلقا فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، . . .	٥١٩
٥٠٤	حسن	... لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك	٥٢٠
٥٠٥	-	... لا طلاق قبل النكاح	٥٢١
٥٠٥	صح	ان رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن	٥٢٢
٥٠٧		ان رسول الله ﷺ كان يستأذن في اليوم المرأة منا . . .	٥٢٣
٥٠٧	صح	كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول .	٥٢٤
٥٠٨	صح	ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له النساء . . .	٥٢٥
٥٠٨	صح	لم يموت رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له أن يتزوج من	٥٢٦

٥٠٩	صح فق	وافقت ربي عز وجل في ثلاث ؛ قلت : يا رسول الله	٥٢٧
٥٠٩	صح بخ	قال عمر بن الخطاب يا رسول الله ، يدخل عليك البر	٥٢٨
٥٠٩	صح بخ	لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم	٥٢٩
٥١٠	صح	لهذا قال رسول الله ﷺ « اياكم والدخول على النساء »	٥٣٠
٥١٠	صح	لو دعيت إلى ذراع ، ولو أهدى إليّ كراع لقبلت . .	٥٣١
٥١٢	صح	إن الله يصلي على ميامن الصفوف	٥٣٢
٥١٢	صح	اللهم صلّ على آل أبي أوفى	٥٣٣
٥١٢	صح	... صلّى الله عليك وعلى زوجك	٥٣٤
٥١٢	صح بخ	... قال : قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد .	٥٣٥
٥١٢		لما نزلت الآية : (إن الله وملائكته يصلون على النبي . .	٥٣٦
٥١٢	صح م	... أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله ، فكيف نصلي	٥٣٧
٥١٢	صح	... قالوا : يا رسول الله أما السلام فقد عرفناه ، فكيف	٥٣٨
٥١٣	صح	سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجّد الله	٥٣٩
٥١٣		... قال : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت	٥٤٠
٥١٣		اللهم ارحمني ومحمدا ، ولا ترحم معنا أحدا	٥٤١
٥١٣	حسن صح	أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة	٥٤٢
٥١٣	صح	كان رسول الله ﷺ يخرج في جوف الليل فيقول :	٥٤٣
٥١٤	صح	قال رجل يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها	٥٤٤
٥١٤	صح م	من صلّتي عليّ واحدة صلّى الله عليه بها عشرا	٥٤٥
٥١٤	جيد	... قال : أجل أتاني آت من ربي عز وجل فقال : من	٥٤٦
٥١٤	حسن صح	البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصلّ عليّ	٥٤٧
٥١٤	صح	... رَغِمَ أنف رجل ذكرّت عنده فلم يصلّ عليّ . . .	٥٤٨
٥١٤	صح	ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا عليّ	٥٤٩
٥١٥	صح	... إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا عليّ	٥٥٠
٥١٥	صح	كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد	٥٥١
٥١٥	صح	إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام	٥٥٢

٥١٥	صح	اللهم صلّ على محمد وآله وأزواجه وذريته	٥٥٣
٥١٥	صح فق	اللهم صلّ على آل أبي أوفى	٥٥٤
٥١٦	صح فق	... يقول الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر	٥٥٥
٥١٧	صح	قال رسول الله ﷺ الله الله في أصحابي لا تتخذوهم	٥٥٦
٥١٧	صح حسن	انه قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال ذكرك أخاه بما يكره»	٥٥٧
٥١٧		... أي الربا أربى عند الله ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ...	٥٥٨
٥١٩	صح بخ	إن موسى عليه السلام كان حبيباً ستيراً لا يرى من جلده	٥٥٩
٥٢٠	صح فق	... ثم قال : رحمة الله على موسى لقد أودى بأكثر من	٥٦٠
٥٢٠		... إن الله تعالى أمرني أن آمركم أن تتقوا الله وتقولوا ..	٥٦١
٥٢١		القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها ... إلا الأمانة .	٥٦٢
٥٢٢	صح فق	... حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم	٥٦٣
٥٢٢	صح	من حلف بالأمانة فليس منا	٥٦٤

٣٤ - سورة سبأ

٥٢٦	صح	... ثم قال : لقد أوتي هذا زمزماً من مزامير آل داوود	٥٦٥
٥٢٨	صح فق	إن أحب الصلاة إلى الله تعالى : صلاة داوود	٥٦٦
٥٣٢	صح فق	عجباً للمؤمن لا يقضي الله تعالى له قضاءً إلا كان خيراً	٥٦٧
٥٣٤	صح بخ	إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة	٥٦٨
٥٣٥	صح فق	أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي	٥٦٩
٥٣٥	صح	بعثت إلي الأسود والأحمر	٥٧٠
٥٣٧		ان جهنم لما سبق إليها أهلها تلقاهم لها ، ثم	٥٧١
٥٣٧		... أشهد انك رسول الله قال ﷺ : وما علمك بذلك ؟	٥٧٢
٥٣٨	صح م	إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما	٥٧٣
٥٣٨	صح م	قد أفلح من أسلم ورزق كافاً وبقعه الله بما آتاه	٥٧٤
٥٣٩	صح	إن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما : اللهم أعط	٥٧٥
٥٤١	صح بخ	صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال « يا صباحاه »	٥٧٦
٥٤٢	صح فق	... وجد تلك الاصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل	٥٧٧

٣٥ - سورة فاطر

٥٧٨	ان رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الاسراء	صح	٥٤٤
٥٧٩	... يقول إذا انصرف عن الصلاة : لا إله إلا الله وحده	صح	٥٤٤
٥٨٠	كل ابن آدم يبلى إلاّ عجب الذنب ، منه خلق ومنه يركب	صح	٥٤٧
٥٨١	... يا رسول الله كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك في	صح	٥٤٧
٥٨٢	من سرّه أن يبسط له في رزقه وينسأله في أثره	صح فق	٥٤٨
٥٨٣	... ان الله تعالى لا يؤخر نفسا اذا جاء أجلها ، وإنما	صح	٥٤٨
٥٨٤	... قال رسول الله ﷺ : « كلهم من هذه الأمة » . .		٥٥٥
٥٨٥	قال الله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا		٥٥٥
٥٨٦	... وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر		٥٥٥
٥٨٧	تبليغ الخلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء	صح	٥٥٥
٥٨٨	من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة	صح	٥٥٦
٥٨٩	ليس على أهل لا إله إلاّ الله وحشة في الموت		٥٥٦
٥٩٠	« لن يدخل أحداً عمله الجنة » قالوا : ولا أنت	صح	٥٥٦
٥٩١	أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون	صح م	٥٥٦
٥٩٢	اعذر الله عز وجل إلى امرئ أخّر عمره حتى بلغ ستين	صح بخ	٥٥٧
٥٩٣	أعمار أمي ما بين الستين إلى السبعين		٥٥٧

٣٦ - سورة يس

٥٩٤	من سنّ في الاسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من	صح م	٥٦٣
٥٩٥	يا بني سلمه دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب	صح م	٥٦٣
٥٩٦	... « هذا مثله كمثل صاحب يس » (قال يا ليت قومي	صح	٥٦٦
٥٩٧	إذا أقبل الليل من ههنا ، وأدبر النهار من ههنا		٥٦٩
٥٩٨	... فقال ﷺ « يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس » ..	صح بخ	٥٦٩
٥٩٩	ألا هل مشمر إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا خطر لها		٥٧٣
٦٠٠	... أتندرون مما أضحك ؟ ... قال : من محاولة العبد ربه	صح م	٥٧٤
٦٠١	... أنت القائل : أتجعل نهي ونهب العبيد بين الأقرع	صح	٥٧٥

الصفحة درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٥٧٥ صح	... جعل يمشي بين القتلى يوم بدر وهو يقول : « نفلق	٦٠٢
٥٧٦ صح	قالت عائشة.. كان - أي الشعر - أبغض الحديث إليه ﷺ	٦٠٣
٥٧٦ صح	أنا النبي لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب	٦٠٤
٥٧٦ صح فق	هل أنت إلاّ أصبع دميّ وفي سبيل الله ما لقيت	٦٠٥
٥٧٦ صح	لأن يمتليء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتليء شعراً	٦٠٦
٥٧٦ صح	آمن شعره وكفر قلبه	٦٠٧
٥٧٦ صح	إنّ من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة	٦٠٨
٥٧٨ صح	جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم	٦٠٩
٥٧٩ صح	إن رجلاً حضره الموت فلما آيس من الحياة أوصى أهله	٦١٠
٥٧٩ صح	... يا عبادي كلّكم مذنب إلاّ من عافيت فاستغفروني	٦١١
٥٨٠ صح	... فقرأ سورة البقرة لا يمرّ بآية رحمة إلاّ وقف وسأل	٦١٢

انتهى المجلد الثالث ويليه المجلد الرابع